

الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية

" البنيوية والتوليدية "

الدكتور
محمد محمد العمري

الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية

...وليدية



العمري

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن - عمان

- هاتف : 5658252 - 5658253
- فاكس : 5658254
- العنوان: العبدلي- مقابل البنك العربي

ص. ب : 141781

Email: darosama@orange.jo

www.darosama.net

الطبعة الأولى

2012م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2346/ 6/ 2011)

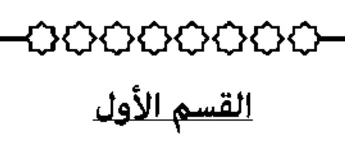
412

العمري، محمد محمد
الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية/ محمد محمد العمري- عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2011.
( ) ص .
ر.أ :(2011/6/2346).
الواصفات: اللسانيات// فقه اللغة// اللغة العربية/
ISBN:978-9957-22-453-0



الفهرس

المحتويات	الصفحة



القسم الأول

القسم الثاني

الفصل الرابع



الفصل الخامس



المقدمة:

انسجاما مع الإطار الذي حدده أندري لالاند André Lalande للعمل الإبستمولوجي[1] والذي لاحظنا أنه لازال يحترم عند غالبية الباحثين، اخترنا أن يكون عملنا[2] إسهاما في الإجابة عن أسئلة محددة، هي:

- ما هي المبادئ والفروض[3] التي قامت عليها النظرية اللسانية المعاصرة، سواء في صورتها البنيوية أو في صورتها التوليدية؟
- ما هي النتائج التي حققتها هذه النظرية؟ أو ما الأسئلة الموضوعية التي ساهمت في الإجابة عنها؟
- ما طبيعة الأصول المنطقية التي تحكمت في بناء هذه النظرية؟
- ما القيمة المعرفية لهذه النظرية؟ أهي مجرد تراكم انضاف إلى تراكمات أخرى في نفس المجال أم أنها قفزة نوعية (ثورة) دفعت بالمعرفة العلمية إلى الأمام؟

تقتضي الإجابة عن السؤال الأول البحث في الأسس المعرفية والإبستيمات الكبرى التي قامت عليها النظرية اللسانية، مع الأخذ في الحسبان التمييز بين مفهومين منهجيين هما:

- مفهوم المرجع، أو الإطار المرجعي؛ وهو مفهوم عادة ما يصرح به، مثلما نجد عند تشومسكي N.Chomsky الذي يصرح بمرجعياته فيحصرها في أفلاطون Platon وديكارت R.Descartesوبور- رويال Port-royal وهمبولدت W.V.Humboldt وبوبرK.Popper . .. أي في النحو الفلسفي والعقلانية بجميع صورها.

1- العمل الإبستمولوجي عند لالاند هو:" الدراسة النقدية لمبادئ العلوم ولفروضها ونتائجها بهدف تحديد أصلها المنطقي، لا النفسي، وبيان قيمتها الموضوعية ". Lalande (1968) ص. 185.

2 - أصل هذا الكتاب أطروحة تقدمت بها لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة القاضي عياض / كلية الآداب بمراكش، سنة 2007.

3- ما نعنيه بالفرض هو ذلك الاقتراح النظري الذي يروم تفسيرا يحل لغزا ما.

- مفهوم الخلفية أو الأساس[1]؛ وهو مفهوم لا يصرح به على العموم[2]. وعلى الباحث الإبستمولوجي الكشف عنه وتعريته. ويحتاج هذا الكشف إلى الاستعانة بأدوات التنقيب الحفري التي لا تهتم بما هو أفقي أو تاريخي بقدر ما تهتم بما هو عمودي أو آثاري (archéologique). ما هو مهم، في هذه الحالة، هو اكتشاف أساس جديد ينضاف إلى أسس أخرى سبق اكتشافها من أجل إعادة بناء صورة لأصل مفترض أو أب روحي له من القدرة على التخفي ما يزيد من تعقيد المهمة ويجعلها صعبة المنال، وإن كانت غير مستحيلة[3].

ومن المشاكل التي واجهتنا، في هذا الصدد، مشكل طبيعة أداوت التنقيب والاستكشاف هذه؛ فكيف يجب أن تكون؛ أنظرية أم إجراء مباشرا؟ لقد تعلمنا أن العمل المباشر ليس عملا علميا حتى وإن أتى بنتائج. كما تعلمنا أن العمل العلمي لا يمكن أن يكون إلا نظريا أو هو نتيجة لذلك. لكن، ورغم ما قد يبدو من أن المسألة ليست محل إجماع، فإنه لا يسعنا إلا أن نمتثل للعرف السائد، وأن نحتاط من التصورات التي تدعي عداءها للأسلوب النظري. فقد يكون اللانظري هو الوجه المتخفى للنظري[4].

1- نميز أيضا بين مفهوم الأساس، وهو مفهوم إبستمولوجي، وعليه نشتغل، وبين مفهوم الأصل، وهو مفهوم أركيولوجي، كالذي نجده عند فوكو، وبه نستأنس.

2- عدم التصريح بالأسس المعرفية التي تقف وراء علم من العلوم هو الذي يمنح الشرعية ويقدم التبرير لقيام العمل الإبستمولوجي.

3- أدواتنا، إذا، هي ادوات تنقيب وكشف لا أدوات تفكيك، كتلك التي استعملها جاك دريدا Jacque Derrida بهدف تفجير الأنساق الميتافيزيقية وتدميرها. وهكذا، فإذا كانت منهجية دريدا تقوم على استراتيجيا تأزيم النظرية الخصم، بطرح أسئلة تفضح عجزها وتناقضها الداخلي، وذلك بعد أن يتم الانسلال إلى داخلها، فإن المنهجية التي نعتمدها نحن تلزم نفسها بأن لا تتجاوز حدود الكشف وأن تتخلى عن كل ما يمكن أن يطعن في حسن النية (الموضوعية). وبعبارة أخرى، فإن محاولتنا لا تحمل تلك الصفة التدميرية التي تتصف بها تفكيكية دريدا، لأننا لا نكن أي عداء للنظرية اللسانية التي هي موضوعنا. بخصوص تفكيكية دريدا، انظر: Derrida (1967a) و Derrida (1967b).

4- يطالب الخطاب اللانظري، عادة، بإيجاد مجموعة من المفاتيح المعرفية التي يشترط فيها أن تتواجد خارج النظريات. وهو، في ذلك، يعارض المواقف التي على أساسها أن النظرية لا تقوم إلا بالنظرية. وأن العمل العلمي نشاط نظري بالأساس. (وقفنا، في الفصل الخامس من هذا العمل، عند هذا النوع من المواقف، وقدمنا موقف أحمد العلوي نموذجا له).



هكذا وجدنا نفسنا مجبورين على إقامة علاقة مع نظريات إبستمولوجية معروفة، نستفيد منها كأدوات لا كعقيدة[1]. فإبستمولوجيا بياجي J.Piaget أفادتنا في تفسير التطورات الداخلية التي عرفتها النظرية اللسانية، كما أفادتنا إبستمولوجيا باشلار G.Bachelard في تحديد العلاقة بين البنيوية والتوليدية من حيث هي علاقة نفي وقطيعة أو علاقة استمرار. واستثمرنا إبستمولوجيا كون T.Kohn في إبراز المنطق الذي يحكم التطورات الداخلية للنظرية اللسانية والميكانيزمات التحويلية والباراديكمات العامة التي أفرزت الوجه البنيوي والوجه التوليدي لهذه النظرية. وباعتماد إبستمولوجيا لاكاطوس I.Lakatos أدركنا القانون المتحكم في نشوء الفرضيات وارتقائها وموتها. وأفادتنا إبستمولوجيا بوبر K.Popper في اختبار فرضية ندعي من خلالها أن تشومسكي هو الصورة اللسانية (أو التنفيد اللساني) لبوبر. واستفدنا من أركيولوجيا فوكو M.Foucault في تحديد هوية الخطاب اللساني، وذلك من خلال تحديد الواقع الذي يقوله وكيف يقوله. حاولنا استعادة كل هذه الإبستمولوجيات على اختلافها، بهدف بناء تصور متكامل لعله يسعفنا في الاقتراب أكثر مما يخفيه الخطاب اللساني من أسس وبديهيات عميقة نعتبرها الميكانيزم المحرك لكل ما يموج في السطح.

وتقتضي الإجابة عن السؤال الثاني اختبار درجة الإسهام الذي ساهمت به النظرية اللسانية (بنيوية وتوليدية) في تقدم المعرفة العلمية، سواء أكان ذلك عبر طرح أسئلة جديدة أم بإعادة صياغة أسئلة قديمة. وتبين لنا أن السؤال الذي يمكن أن نفاتح به النظرية اللسانية سؤال وجودي في العمق، صغناه انطلاقا من تصور كنطي محض، وهو: إذا أمكن للنظرية اللسانية أن تدعي أنها معرفة، فهل يمكن اعتبار هذه المعرفة ممكنة؟ ما هي الشروط الموضوعية، وربما الذاتية أيضا، المتوفرة لقيام هذا النوع من المعرفة؟ قيام السؤال الكنطي هذا نابع من الرغبة في معرفة سر

1- الفرق بين تبني فلسفة ما كأداة، كما نفعل نحن، وبين تبنيها كعقيدة، كما يفعل البعض، هو أننا في الحالة الأولى نكون مستعدين على الدوام لطرحها والتخلي عنها، بينما نظل في الحالة الثانية رهينة لها.

الإفراط في الثقة بالنفس التي يتظاهر بها الخطاب اللساني والتي تعبر عنها شهرته الواسعة واختراقه لبعض المعارف الإنسانية (الأنتروبولوجيا، التحليل النفسي، النقد الأدبي...) التي ساهمت في تضخيمه نتيجة فقر أو أزمة ألمت بها. كما تعبر عنها جرأته في صياغة المفاهيم وبناء التصورات، حتى إن المرء ليندهش متسائلا: كيف أمكن لهذا "العلم" أن يتجرأ على إعادة إحياء تصورات ومفاهيم قديمة بمجرد اعتماد أسماء جديدة؛ فيعبر عن الوحدة والانسجام بالبنية، وعن السليقة بالقدرة، وعن التقدير بالعمق، وعن ظاهر اللفظ بالسطح، وعن الفطري بالبيولوجي الذي ليس بيولوجيا، وعن الواضع بالمتكلم المثالي..، وغير ذلك مما عرفته جل الثقافات؟

وبخصوص السؤال الثالث، فإن ما يبدو هو أن النظرية اللسانية لم تستطع بعد التخلص من سيطرة العقلية المنطقية حتى يمكنها تأسيس موضوع خارج المنطق. كل شيء في الخطاب اللساني هو من إنتاج المنطق، رغم أن مؤسساته، كاللغة واللسان والمتكلم والمخاطب والبنية الصوتية والبنية التركيبية والبنية الدلالية...، توحي بعكس ذلك. فالاختبارات الأولى تبين أن هذه الأمور كلها مجرد تصورات افتراضية أو هي من إملاء المنطق. ثم إن هذا الخطاب يميل إلى أن يؤسس قوته على خطابات أخرى، أهمها الخطاب الإبستمولوجي. و هو يعادي الواقع وينفيه حتى وإن تظاهر بعدم التعارض مع الخطاب العلمي الحق الذي لا يغيب الواقع فيما نعتقد. فحضور أسماء كالفيزياء والكيمياء والطبيعيات والبيولوجيا.. هو حضور من أجل التأثيث ليس إلا. فكأننا، والحالة هذه، أمام حالة يمكن أن نسميها بسوء النية.

توضيح الأمور بهذا الشكل يعفينا من التفكير في السؤال الرابع، ويصبح من باب تحصيل حاصل القول: إن النظرية اللسانية، في صورتيها البنيوية والتوليدية، لم تستطع أن تقنع كل المفندين والداحضين بجدواها أو بضرورتها، خاصة وأنها لم تستطع أن تحسم في مسألة موضوعها فبالأحرى القضايا الأخرى التي تترتب عن هذا التحديد. أما الحديث عن النحو والقواعد وما يتصل بهما من "تمارين" فليس في نظر المفندين سوى مجرد هروب إلى الأمام من أجل إخفاء المشاكل الكبرى.



إننا لم نختر هذا الإطار الذي قررنا أن نتحرك فيه بدافع سوء النية، كما بينا، وإنما اخترناه بقصد الاختبار فقط. اختبار الأسس بعد استنباطها والنتائج بعد مقارنتها مع ما يحصل في العلوم الأخرى. هكذا خصصنا مدخلا تحدثنا فيه عن الخطاب اللساني، محددين أسئلته وأسسه وبلاغته ومبررات وجوده، ومبرزين طبيعته المفاهيمية، مكتفين بالوقوف طويلا عند واحدة من أهم خصائصه، وهي اعتماد النمذجة[1].

ثم قسمنا العمل إلى قسمين؛ خصصنا الأول للحديث عن اللسانيات البنيوية، باعتبارها فصلا من فصول التجريبانية، والثاني للحديث عن اللسانيات التوليدية، باعتبارها فصلا من فصول العقلانية. اشتمل القسم الأول على فصلين؛ خصص الأول منهما لاستنباط أسس البنيوية كما عرفت في أوربا؛ عند صوسور F.de Saussure أولا، ثم عند الحلقات التي ظهرت من بعده ثانيا؛ براك Prague بثقافتها الشكلانية الروسية، وكوبنهاكن Copenhagen التي يحركها هاجس المدلول، والباريسية المناصرة للسانيات القول.

وخصصنا الفصل الثاني لرسم الصورة الأمريكية للبنيوية، وهي صورة بدت لنا مغايرة، تماما، لنظيرتها الأوربية. وهكذا، فإذا اقترح تشومسكي تقسيم اللسانيات المعاصرة إلى لسانيات تبحث في القدرة (Compétence)(لسانيات قدروية) ولسانيات لا تبحث فيها (لسانيات لا قدروية)، وذلك لغرض يهمه، فإننا اقترحنا أن نقسمها إلى لسانيات تأملية، كاللسانيات التوليدية وبعض الاتجاهات البنيوية كالكلوسيماتية (Glosématique)، وإلى لسانيات ذرائعية (Pragmatique)، كالوصفية الأمريكية. وربطنا بين هذه الأخيرة وبين النزعة الغائية أو النفعية كما سادت في أمريكا طيلة المنتصف الأول من القرن العشرين فشكلت ما يمكن أن نسميه باراديكما (Paradigme) أمريكيا اختلف عن ذلك الذي ساد في جهات

1- استطردنا في تفاصيل هذه التقنية حتى نجلوها، لأنها ستصبح واحدا من المفاتيح الضرورية لفهم ما سنقوم به في الفصول اللاحقة، فأفرطنا في الاستطراد حتى كدنا نسقط في المدرسية كما قد يلاحظ علينا غيرنا.

أخرى في تلك الفترة. هذا الاقتراح هو الذي مكننا من فهم العلاقة القوية التي ربطت بين اللسانيين الوصفيين وبين علم النفس البيهافيوري (Behaviorisme) الذي اعتبر واحدا من أسسهم.

واشتمل القسم الثاني على ثلاثة فصول؛ الثالث والرابع والخامس. خصصنا الفصل الثالث لتحليل البنية الحجاجية لتشومسكي، وهي بنية تبين لنا أنها تقوم على حدس مركزي مزدوج: التفنيد والاستثمار. فالتفنيد واحد من الأسس المعتمدة عند تشومسكي وبه يمهد لمشروعه؛ فلا حديث عن الفرضية الفطرية إلا بعد تفنيد الأساس البيهافيوري للسانيات الوصفية، ولا عن الأسلوب الكاليلي إلا بعد دحض أساسها الباكوني التجريباني. كما أنه لا حديث عن لسانيات للغة الطبيعية إلا بعد تفنيد ما يدعيه بار-هيلل (Bar-Hillel) الوضعاني من ضرورة معاملة اللغة الطبيعية بنفس الطريقة التي تعامل بها اللغات الصورية. ولا حديث عن قبلية المعرفة اللغوية إلا بعد دحض الأساس التكويني لنظرية بياجي. أما الاستثمار فقصدنا به العملية التي يستعيد بها تشومسكي آراء ومواقف العقلانيين من فلاسفة (أفلاطون وديكارت خاصة) ولغويين (بور- رويال وهمبولدت) وباحثين في الأنساق العارفة (لينبرج E.H.Lenneberg) وإبستمولوجيين (بوبر) وغيرهم ممن كان لهم حضور في النسق التصوري لتشومسكي.

أما الفصل الرابع فقد خصصناه لاستكشاف الأسس والمبادئ النظرية والمنهجية التي شكلت خلفيات لتشومسكي خاصة والنحو التوليدي عامة. وهكذا حصرنا البنية التصورية لتشومسكي في ثلاث قضايا، هي: اللغة كإبداع (Créativité)، و اللغة كنظام من المعرفة، والنحو الكلي (Grammaire Universelle) كفرضية لتفسير القدرة. وربطنا بين القضية الأولى وبين ما سماه تشومسكي بمشكلة ديكارت، ثم بين القضية الثانية وبين ما سماه بمشكلة أفلاطون، ثم بين القضية الثالثة وبين ما يمكن أن نسميه نحن بالأنساق التفسيرية. أما بخصوص المنهج الذي اعتمده تشومسكي، فإننا ملنا إلى القراءات التي تدعي أنه يستمد أسسه من العلوم الافتراضية الاستنباطية، أو ما أطلق عليه اسم العلوم ذات الأسلوب



الكاليلي. ولم نتوقف في هذا عند حدود الافتراض، فقررنا تعقب تشومسكي في دروبه ومنعرجاته حتى نتأكد من هذه الكاليلية في أسلوب التفكير والمنهج.

وفي الفصل الخامس، حاولنا أن نقف عند بعض نماذج التفنيد الذي تعرضت له النظرية التوليدية، وبينا أنه رغم الشهرة الواسعة التي حققتها هذه النظرية، فإنها لم تحظ بإجماع المهتمين سواء في موضوعها أو في أسلوب مقارباتها أو في الأسس المعرفية التي اعتمدتها. وهكذا وقفنا عند الاعتراضات التي تقدم بها علم النفس البيهافيوري ممثلا في أتباع سكينر(B.F.Skinner)، وعلم النفس التكويني ممثلا في المدرسة التي تزعمها بياجي، وعلم الدلالة ممثلا في جماعة المعترضين على خلو النحو التوليدي من الدلالة أمثال ماك كاولي (Mc Cawley) وكاتز (J.J.Katz) وبوسطل (M.Postal) ، والتداوليات ممثلة في سيمون ديك(S.Dick) ، والسوسيولسانيات ممثلة في كالفي(L.J.Calvet)، دون أن نغفل الإشارة إلى الإسهام النقدي الذي ساهم به فلاسفة ولغويون عرب. فسقنا، كنموذج لذلك، مساهمة علي حرب الفيلسوف ومساهمة أحمد العلوي اللغوي. واقتصرنا على هتين المساهمتين، دون غيرهما، لما بدا لنا من روح الأصالة الذي تحلت به كل منهما. هذا، ولابد من الإشارة إلى أننا، في هذا الفصل، كنا أكثر إيجازا لما لاحظناه من أن الفصول السابقة قد اشتملت على إشارات إلى بعض الوقفات الاحتجاجية ضد النحو التوليدي(La Grammaire Générative)، فارتأينا أن لا داعي لإثارتها من جديد.

هذا، ولم نسمح لنفسنا في أية لحظة من لحظات هذا العمل أن نكون متحيزين ضد النظرية اللسانية المعاصرة، بل حاولنا أن نبدي عن كثير من المرونة جسدناها في محاولتنا الدفع بهذه النظرية إلى أقصى بل إلى أفضل حدودها، لأن من أهدافنا إخضاع النظرية للتحليل ولا شيء سوى التحليل، معتمدين، في ذلك، على ما توفر لدينا من أطر إبستمولوجية كالتي ذكرنا، وعلى ما جمعناه من خبرة اكتسبناها من معاشرتها لمدة طويلة. ولم يكن هدفنا، بالتالي، هو التنفير أو تبخيس المحاولات التي تروم القيام بتجديد الفكر البنيوي أو الفكر التوليدي. لكن

الذي يجب أن يعلمه المجددون المحتملون هو أننا قد انتقلنا إلى عصر جديد ومختلف، عصر يحتاج إلى نظريات لغوية تستطيع أن تبرز كل إمكانات التواصل التي توفرها الأداة اللغوية. فإبستيمة العصر الجديد لم تعد هي معرفة الأنساق المغلقة، كما فعلت البنيوية القديمة، ولا هي معرفة ما هو فطري وما هو مكتسب، كما فعلت التوليدية الكلاسيكية، وإنما هي التواصل وتحقيق التواصل.

إن اهتمامنا بأسس النظرية اللسانية المعاصرة لا يعني الانكباب على دراسة تاريخها الطويل (قرن من الزمن تقريبا) أو تاريخها الخطي بقدر ما يعني الانكباب على دراسة عمقها أو طبقاتها الرسوبية، حيث ينحصر الاهتمام في استنباط أسسها وثوابتها وكذا توازناتها القارة التي لم تعصف بها التقلبات الزمنية والتي كساها الدهر بغبار الثقافات (المدارس) المختلفة. مما يفرض البحث عن الخيط الرابط بين تلك المدارس لتبقى النظرية اللسانية واحدة رغم وجود بنيوية ووجود توليدية، ورغم تعدد التصورات. لقد تطلب الأمر منا القيام بتجريد هذه النظرية من كل أرديتها وتلويناتها التي تفنن المنظرون اللسانيون في صنعها، ثم الغوص في أعماقها والحفر في سراديبها قصد استكناه حقيقتها. وهو ما دفعنا إلى أن نسأل، وبشكل عام: ما هي الطبقات الرسوبية المكونة لجيولوجيا النظرية اللسانية؟ وما هي عناصرها الجينية ؟ ثم ما هي العلاقة التي تربط بين هذا الكائن النظري وبين فعل النظر عموما وخاصة منه ذلك الذي تمارسه العلوم الإنسانية؟ وهذا سؤال يحيل على سؤال أعم نطرحه بهذه الصيغة: ما الشيء الثابت الذي يقف وراء هذا التعدد الذي يحاصرنا من كل جهة ؟

ومن الأسئلة التي ارتبطت بإطار العمل الذي اخترناه السؤال: أصحيح أن تاريخ اللسانيات المعاصرة هو تاريخ قطائع وأن اللاحق منها لا يكرر السابق؟ وهو ما فرض علينا، مرة أخرى، الارتباط بالأسس والمبادئ العامة، لأنها المستوى الوحيد الذي يمكن أن تتحدد فيه القطيعة أو الاستمرار. أما أشكال المعرفة فلا تفيد في ذلك، بل هي خادعة وضالة. إننا ندرك أن المعرفة، كتجل، تتطور بسرعة تفوق السرعة التي تتطور بها الأسس والمبادئ العامة التي تنتجها، حتى ليبدو أن التطور

على مستوى الأسس تطور بطيء، وقد لا يراعى عند الدراسة السانكرونية للنظرية اللغوية، أي لعقود من الزمن. ومن هنا جاء سؤالنا: ما هي الأسس والمبادئ العامة والثابتة التي على أساسها تم التمييز بين اللغة واللسان والكلام عند صوسور، وبين المتكلم المثالي والمتكلم الفعلي أو بين النحو الكلي والنحو الخاص عند تشومسكي مثلا ؟ اعتبار التغير في الأسس والمبادئ الكبرى هو الذي قسم تاريخ العلم، على أساسه، إلى مراحل كبرى ومتباعدة. فتكلم أوجست كونت(A.Comte)، مثلا، عما أسماه بالمرحلة الأسطورية والمرحلة اللاهوتية ثم المرحلة الوضعية للعلم، وقبله تحدث فرنسيس بيكون (F.Bacon) عن مرحلة اللاعلم، وهي المرحلة التي تميزت بالاستخفاف بالمعرفة القائمة على التجربة، ثم مرحلة العلم، وهي المرحلة التي تميزت بالاعتراف بالتجربة كوسيلة لبناء المعرفة. وقسم جان بياجي تاريخ العلم وفق نفس التقسيم الذي اقترحه لدراسة نمو المعرفة عند الإنسان؛ فهناك المرحلة الحسية ثم المرحلة التصورية أو مرحلة الاستيعاب والتمثل فمرحلة التعقل فالمرحلة الصورية. وتقدم طوماس كون بقراءة أخرى لتاريخ العلم ومنطقه، فتوصل إلى أن العلم عرف عصورا متمايزة، يعرف كل منها بالنموذج المعرفي السائد (البراديكم). وهو ذلك النسق التصوري الذي تنتظم فيه نظريات العلم في كل المعارف والذي يسير العلماء على طريقه إلى أن يظهر ما يفنده. هكذا تم التمييز بين مرحلة العلم الكوبرنيكي وبين المرحلة التي سبقتها، وكذا بين الزمن الأوقليدي وما بعده. والذي يستفاد من كل هذا هو أن العصور المعرفية، وهي عصور ترتبط بالأسس، متباعدة حتى وإن سلمنا بنسبية هذا التباعد. إلا أنه يلاحظ أنه كلما تقدمنا في الزمن كلما أصبحت أعمار العصور العلمية تتقلص، نظرا لتقدم وسائل البحث وتوفرها. وهو أمر انعكس، لا محالة، على التحقيب الزمني للعلم.

سيلاحظ القارئ، أيضا، أننا لم نرم، في هذا العمل، بناء جهاز صوري من طبيعة تمثيلية لمقاربة فكر استدلالي هو الفكر اللساني المعاصر في صورتيه البنيوية والتوليدية، ولكننا رمنا نهج ما يسمح به العمل الإبستمولوجي من إبراز مقدمات



هذا الفكر وأكسيوماته، والبحث في أسس تلك المقدمات والأكسيومات باعتبارها عناصر مؤسسة تنتمي إلى البنية المعرفية الداخلية للنسق اللساني، وذلك بربطها بمقدمات وأكسيومات نظيرة تطورت في علوم ومعارف أخرى. بعبارة أخرى، إننا رمنا الإجابة عن سؤال هو: ما النسق المعرفي المهيمن (البراديكم بلغة كون) الذي لعب دورا حاسما في ظهور الأنساق اللسانية؛ البنيوية والتوليدية خاصة ؟ أي إن سؤالنا مرتبط بسؤال التكون: كيف نشأ الخطاب اللساني المعاصر؟ ما هي أسسه؟ وما هو سياقه المعرفي؟ هدفنا من وراء ذلك فهم حقيقة هذا الخطاب والحد من الاستمرار في بقائنا نهبا للضلالة التي تحدثها قفزاته، وضحية لتغير أقنعته[1]. ولقد صدقت ميتسو رونا (Mitsou Ronat)، وهي محاورة جيدة لتشومسكي، حينما قالت:" إن سوء الفهم الذي عانى منه النحو التوليدي، في البداية، يعود بالأساس إلى أنه ظهر دون تقديم إطاره الإبستمولوجي الذي استوحاه من بوبر، ففهم خطأ على أنه مبحث من مباحث الأدب"[2] .

وفي كل هذا وذاك، حاولنا أن نقترب من النصوص وأن نستنطقها حتى لا نسمح لنفسنا بالتحليق بعيدا عن الحقيقة. واعتمدنا في ذلك على المظان الاستراتيجية مباشرة إلا فيما ندر، بحيث ربطنا اتصالا مباشرا بالأعلام الرواد للنظرية وبنظرائهم من الإبستمولوجيين والفلاسفة الذين استثمرنا أطرهم في قراءة هذه النظرية[3].

وحتى لا تفوتنا الفرصة، لابد من الإشارة إلى مشكل قلما يشار إليه في الأعمال الكبرى تصغيرا له، وهو مشكل الترجمة. فأغلب مراجعنا ومصادرنا هي باللغة الأجنبية (فرنسية وإنجليزية خاصة) الأمر الذي تطلب منا القيام بعملية

1- يتنقل اللساني بين اللغة بمستوياتها والفلسفة بمذاهبها والعلم بتصوراته ومناهجه، وهو ما يحدث تشويشا لدى من يجهلون حدسه الإبستمولوجي.

2- Chomsky (1977b)، ص. 21.

3- قمنا بإثبات أسماء الأعلام (الأسماء الشخصية ثم الألقاب) مرفوقة بتواريخ الميلاد والوفاة عند ذكرها لأول مرة. أما إذا تكررت فإننا اكتفينا بذكر الاسم دون ذكر التاريخ. هذا إذا توفر لدينا تاريخ، مع الإشارة إلى أن أغلب المذكورين ما زالوا أحياء.



مزدوجة: الترجمة ثم القراءة. وهي عملية تنطوي على صعوبة كبيرة خاصة وأننا شعب مزود بترسانة من المفاهيم والتصورات التي ورثناها عن الأسلاف من لغويين وفلاسفة ومناطقة وأصوليين وبلاغيين. مفاهيم يطرح استدعاؤها واستثمارها عدة مشاكل لسنا بصدد إثارتها. وهي، في المجمل، تشكل عائقا عن فهم الفكر اللساني الغربي الذي لا يمت بصلة إلى ثقافتنا القديمة رغم ما قد يفهم من وجود تقاطعات وتماثلات نعتقد أنها مجرد تقاطعات وتماثلات عارضة وشكلية لا إشكالية.

ولذلك، فإن أول ما يواجهه الباحث العربي في هذه الأمور هو كيفية التخلص المؤقت من هذه الترسانة. إذ بدون ذلك سيقع ضحية الإسقاطات التي تفسد عليه بحثه وتوقعه في مزالق تصورية ومنهجية لا أول لها ولا آخر. ولشد ما أخافنا اعتراف أحد المترجمين الجيدين العرب، وهو يقدم ترجمته لأحد الأعمال الفلسفية الغربية الكبرى، حينما قال:"إن من أهم شروط ترجمة النصوص الفلسفية استيعاب إشكاليات الفكر الذي نريد صياغته بالعربية، وفهم الرهانات التي نعمل على كسبها، قبل الإبحار في نقل فلسفة من لغة إلى أخرى، والمغامرة باستنباط مواقف قد لا تكون دائما أمينة لروح تلك الفلسفة، وملائمة لاعتباراتها الفكرية والعقدية. فأمر ترجمة النصوص الفلسفية يتجاوز مجرد الإتقان اللغوي والمعجمي، ليتصل بثنايا الفكر الذي نريد التعبير عنه في غير لغته، وفي غير أفقه الفكري والمعرفي[1]." والهدف من هذا الاعتراف/التحذير هو " تبيان أهمية ما وراء النصوص من مواقف يؤدي الجهل بها إلى تشويه رأي الفيلسوف الذي نريد تكريمه والإشادة بفكره من خلال ترجمة نصوصه[2]." كما أخافنا ما عبر عنه آخر ببلاغة من " أن الذي بيننا وبينه (الفسلسوف المترجم له) اللغة التي نتكلمها نحن، قبل اللغة التي يتكلمها هو، بل إن الذي بيننا وبينه ليس اختلاف اللغتين والمسافة التي تفصل بينهما كما تفصل بين كل لغتين مسافة. إنما الذي بيننا أن تلك المسافة لا تطويها الترجمة، مهما

1- ابن قيزة (2006)، ص. 12.

2- نفس المرجع، ص. 13.



أغلظنا "شرائط الترجمان"، لأن الأمر، لدى منتهاه، لا يتعلق بهذا اللسان أو ذاك، بل يتعلق بالقول عينه، عن أي موقف يصدر."[1] ولا داعي للتذكير بأن تخوفنا، والحالة هذه، نابع من أننا، نحن أيضا، بصدد قراءة فكر لا يمكن إنكار بعده الفلسفي.

ورغم كل ما ذكرنا، فإننا لا ندعي لهذا العمل المتواضع الكمال والتوفيق، فهو مجرد لبنة صغيرة نرجو أن تجد لها مكانا في هذا الصرح الذي يشارك في بنائه كل زملائنا الباحثين في ربوع هذا الوطن.

وفي الختام، لابد من توجيه الشكر الجزيل إلى كل من ساعد على إنجاز هذا العمل. ونخص بالذكر زملاءنا في شعبة اللغة العربية بكلية آداب مراكش الذين لم يبخلوا علينا بتشجيعاتهم التي زادت من حماسنا وضاعفت من إحساسنا بالمسؤولية. فلهؤلاء جميعا نجدد الشكر الخالص، والله يتولى التوفيق.

1- محجوب (1996)، ص. 23، الهامش (1).

مدخل: الخطاب اللساني: بحث في الأسس المعرفية

1- أسئلة أركيولوجية

كان الخطاب اللساني، حين ظهوره في بداية القرن العشرين[1]، آخر ما انضاف إلى الخطابات التي تتخذ اللغة موضوعا لها. كخطاب المنطق وخطاب البلاغة بتسمياتها المختلفة وكفلسفة اللغة... ومعلوم أن وجود أكثر من خطاب واحد حول اللغة يرجع في أساسه إلى أن اللغة نفسها متعددة الوجوه؛ فهي أداة تواصل ووسيلة للتعبير وأداة للتفكير وخاصية بشرية وخاصية اجتماعية ونفسية وبيولوجية... فليست اللغة شيئا واحدا كما قد يعتقد، ومن ثم لابد من تأسيس أكثر من خطاب واحد حولها. في هذه الحالة، تكون هذه الخطابات كلها متعادلة من حيث الحق في الوجود، ولا تتفاضل إلا من جهات أخرى لا علاقة لها بهذا الحق المبدئي. فيقع التفاضل بين خطابين جهويين ولا يقع بين خطابات تنتمي إلى جهويات مختلفة. أما الأسئلة العامة التي تطرح أمام أي خطاب يسعى إلى الإنتماء إلى هذه الزمرة من الكيانات المعرفية، فنقترح أن تكون هي تلك التي سبق أن طرحها ميشيل فوكو M. Foucault (1926-1984) والتي نصوغها كالآتي[2]:

1) ما عنوان هذا الخطاب؟ أو ما موضوعه ؟
2) من أين يأتي ؟ أو كيف يتشكل ؟ وما هي أسسه ؟
3) من أين يستمد حقه في الحديث ؟ أو ما موقعه على خريطة بقية الخطابات التي تشاركه موضوعه ؟
4) ما هي مبرراته ؟ أهو خطاب ضروري أم خطاب زائد ؟ ما هي إضافاته ؟

1- لنا عودة إلى تاريخ البداية هذا.

2- صغنا هذه الأسئلة انطلاقا من قراءتنا لمقال "هيدن وات" عن "م. فوكو" المنشور ضمن "البنيوية وما بعدها: من ليفي ستراوس إلى "دريدا" بتحرير "ج. ستروك". أنظر ج. ستروك (1979). ص ص. 113-157.



5) ما طبيعة الواقع الذي يتحدث عنه وكيف يعبر عنه ؟ هل يعبر عنه حرفيا أم مجازيا ؟ ما طبيعة المجاز الذي يستعمله ؟

2- في موضوع الخطاب اللساني أو السؤال الأنطولوجي

انقسم اللسانيون، بخصوص هذه المسألة، إلى فرق شكل كل منها تيارا متميزا في أسسه وأهدافه، حتى إنه بدا، في بعض الأحيان، وكأن اللسانيات خطاب بلا موضوع، أو أن موضوعها لا يعرف إلا بعد معرفة الموضوعات التي لا تدخل في مجالها؛ كالقول: إن موضوع اللسانيات ليس هو موضوع التاريخ ولا موضوع علم المقارنة أو موضوع علم الاجتماع أو علم التواصل... فماذا هو إذا ؟ إنه ليس لا هذا ولا ذاك! وبالفعل، فلو افترضنا أن موضوع اللسانيات هو اللغة، لتلقينا على التو، ومن داخل الأوساط اللسانية، ما يفيد أن اللغة، بالفعل، هي موضوع الدرس اللساني، لكن بعد تجريدها مما هو تاريخي ثقافي اجتماعي... وما تبقى، بعد ذلك، هو الموضوع. ألا يذكرنا هذا الموقف بما عاشته الفلسفة حين انشقت عنها العلوم التي كانت هي تحضنها ؟ فحتى لا يحكم على الفلسفة بأنها بلا موضوع بعد أن استقلت عنها الرياضيات وعلوم الطبيعة وعلوم المجتمع وعلم النفس... قيل إن الفلسفة هي ما يتبقى بعد انفراط كل هذه العلوم. فهل تعتبر اللسانيات هي كل المعارف التي تهتم باللغة (لحظة إبستمولوجية قديمة) ؟ أم أن لها موضوعا لغويا خاصا؟ موضوعا لم يوجد إلا بعد لحظة الانشقاق (لحظة إبستمولوجية حديثة) ؟ هل اللسانيات فلسفة بهذا المعنى على الأقل؟ من غريب الأمور، أن اللسانيين، باستثناء نعام تشومسكي (Noam Chomsky) (1928-.. .)[1]، يصرحون، وبأعلى الأصوات، أنهم لا يمارسون فلسفة، وأن عداءهم الأول والأخير هو للفلسفة. بل إن

1- اعتمدنا، في هذا الاستثناء، على أقوال تشومسكي، كقوله:" إنني لا أقيم فارقا صارما بين العلم والفلسفة، فالفارق بينهما لم يبتدع إلا في الماضي القريب، وذلك بغض النظر عما إذا كان لذلك ما يسوغه أو لا". (تشومسكي 1987، ص 14).



هناك من اللسانيات ما ارتبط وجودها بالعداء للفعل التأملي وكل ما يرتبط به أو يؤدي إليه، كاللسانيات التوزيعية على سبيل المثال[1].

والسؤال الذي يمكن أن يثار، في حالة ما إذا لم يكن للسانيات موضوع، هو: هل كان من الضروري أن ينشأ علم اللسانيات[2]؟ ويتفرع عن هذا السؤال سؤال آخر هو: هل يمكن أن ينعت الخطاب اللساني بأنه خطاب خال من أي محتوى معرفي، أو أنه خطاب لا يضيف شيئا إلى الحصيلة المعرفية؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فإن هذا الخطاب سيعتبر، حينئذ، خطابا زائفا.

ثم ما هي أسئلة اللسانيين؟ هل يعتبر السؤال اللساني، سواء أتعلق بالبنية أو النسق أم تعلق بالمعرفة اللغوية المستنبطة، سؤالا تراجيديا؟ حيث يكون الجواب عنه مستحيلا، ويتطلب الخوض في أمور لا تدخل في دائرة الممكن العلمي. أو هو سؤال يدفع بالعقل إلى التفكير في اللاممكن الكنطي.

يتفق الدارسون على أن اللسانيات لم تحقق استقلالها عن علوم أخرى، كالفلسفة وعلم التاريخ، بفرعيه التطوري والمقارن، والفيلولوجيا... إلا على يد فيرديناند دو صوسور Ferdinand de Saussure (1857-1913)[3] الذي تصور أن اللسانيات هي ذلك العلم الذي يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، واضعا في حسبانه ضرورة بناء نظرية لغوية مستقلة تجيب عن أسئلة لسانية صرفة من مثل: ما طبيعة اللغة؟ وكيف تتصرف إلى ألسن؟ إلا أنه، ورغم هذه الاستقلالية، فإن اللسانيات ظلت وفية لعلاقتها بعلوم أخرى، كعلوم المجتمع (مع البنيويين)، وعلم النفس المعرفي (مع التوليديين). بل إن التوليديين كانوا ولا يزالون يحركهم الحنين

1- لهذا السلوك العلموي جذور تمتد إلى الوضعانية. لكن، أليست الوضعانية، قديمة وجديدة، سوى فلسفة ضد الفلسفة؟

2- حول هذا السؤال ومشروعيته، نشأت أدبيات تشكك في ضرورة وجود خطاب لساني وفي مبررات قيامه، وتنتقد الحاجة إليه. من هذه الأدبيات ما كتبه ج.ل.كالفي J.L. Calvet. انظر: J.L. Calvet (1974) وما كتبه أحمد العلوي. أنظر: أ. العلوي (1987 ب).

3- من هنا جاءت فكرة التأريخ لبداية اللسانيات المعاصرة بصوسور.



والطاعة لسلطة الفلسفة[1]، رغم أنهم راحوا يؤسسون، في نفس الوقت، لعلاقة جديدة هي العلاقة مع البيولوجيا. تلك العلاقة التي توجت بالترويج لمفهوم جديد هو مفهوم "اللسانيات البيولوجية" مضافا إلى مفهومي "اللسانيات المعرفية" و "اللسانيات السيكولوجية". ويمكن الزعم بأن اللسانيات الحديثة، في نسختيها البنيوية والتوليدية، ليست وليدة تطور حصل في الدراسات اللغوية التي سادت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، ولكنها علم انبثق من علوم أخرى بعيدة عن اهتمامات لغويي ما قبل هذه الفترة. عملية الانبثاق هذه تمت بكيفية سلبية؛ فلكي تحدد اللسانيات موضوعها، كان عليها أن تفعل ذلك برسم مسافة فاصلة بينها وبين علوم المجتمع والتاريخ... الأمر الذي يوضح بجلاء البون الشاسع أو القطيعة النهائية مع ما كان يمارس داخل الدرس اللغوي سابقا. كما يفسر حداثة الدرس اللساني وجدة مشروعه. وما قد يبدو تماثلا أو تطويرا إنما هو مجرد تماثل شكلي لا إشكالي.

1- من الملاحظات التي قدمها كل من F. Gadet و M. Pêcheux (P / G فيما بعد)، في هذا السياق، ما عبرا عنه بالقول:" عندما قام ألبرت إينشتاين Albert Einstein (1879-1955) وفيرنر هيزنبرغ Werner Heisenberg (1901-1976) بعرض فلسفتهما أو تصورهما للعلم، فإن ذلك قد تم، غالبا، بعد الإعلان عن اكتشافهما النظري، ودون أن يؤثر ذلك على هذا الاكتشاف. وعندما سعى تشومسكي إلى بناء نظريته مستعينا بالمصادر الفلسفية للديكارتية وبمفاهيم علم النفس، كمفهوم القدرة أو مفهوم البنيات الذهنية الفطرية، فإن هذا الفصل [بين النظرية وفلسفتها] لم يتم، لأنه غير ممكن. وذلك لأن فلسفة تشومسكي حول اللغة ونظريته حول المتكلم أمران مرتبطان يغذي كل منهما الآخر... ويكشف تاريخ اللسانيات عن رغبة اللسانيين في أن تكون فلسفاتهم وتصوراتهم للعالم هي نظريتهم نفسها، حيث تصبح هذه النظرية إسهاما في علوم الإنسان والمجتمع". G / P (1981) ص ص 10-11.

يفهم من هذا أنه في العلوم المحضة، يأتي تصور العالم بعد اكتشاف النظرية. أما في اللسانيات، فإنه يصعب أن نميز بين اللحظتين: لحظة النظرية ولحظة تصور العالم. وربما كان هذا هو السبب في اختلاف المفاهيم بين اللساني وبين العالم من وجهة نظر كادي وبيشو:" ما الذي جعل المفاهيم اللسانية تختلف عن المفاهيم التي نصادفها في علوم أخرى؟ ما الرغبة التي تحدو الفيزيائي وهو يكتب اليوم عن العالم؟ وماذا يحدو اللسانيين، في الخمسين سنة الأخيرة، بعد أن وضعوا نظرية شاملة للغة؟" نفسه. ص. 10.



لقد ترعرعت اللسانيات البنيوية ضمن إطار السيميولوجيا بمعناها الحديث وليس ضمن إطار اللغويات التاريخية والمقارنة التي لم تستوعب طبيعة النقلة الصوسورية فراحت تناور بأسلحة يرفضها منطق المعركة الجديدة. صحيح أن للبنيوية علاقة مع هذه اللغويات إلا أنها تظل علاقة مبنية على الرفض والتجاوز. ونفس ما قيل عن البنيوية يمكن أن يقال عن التوليدية التي حملت مشروعا سعت من خلاله إلى تعميق البحث اللساني عبر طرح مجموعة من القضايا، من بينها قضية موضوع الدرس اللساني.

ويمكن أن نتقدم بزعم آخر، وهو أن اللسانيات كانت وليدة التطور الذي حصل في بعض العلوم المجاورة؛ فلولا سيميولوجيا تشارلز بيرس Charles Peirce (1839-1914) الفيلسوف لما ظهرت لسانيات صوسور، ولولا توسيع علم النفس السلوكي لمجال موضوعاته لتشمل الظاهرة اللغوية لما ظهرت لسانيات تشومسكي. وكأن اللسانيات لا تكتفي بالتطور من الداخل وإنما تربط نفسها بما يجري حولها من تطورات. وإلا كيف نفسر أن يكون مناقشو تشومسكي الاستراتيجيون، مثلا، ينتمون إلى علوم أخرى كعلم النفس السلوكي (بوروس سكاينر Burrhus Skinner (1904-1990)) وعلم النفس المعرفي البيئي (جان بياجي Jean Piaget (1896-1980)) والبيولوجيا... ما نقصده من هذا الكلام هو أن إشكالية الظهور (ظهور لسانيات صوسور ولسانيات تشوسكي) تجد تفسيرها في أن العصر كان يسمح بذلك.

لكن، ما هي الهوامش التي تركتها علوم العصر للسانيات؟ ألم يخصص العصر علما لدراسة النسق[1]، وعلما لدراسة طبيعة الذهن البشري أسماه "علوم الإدراك"[2] Sciences Cognitives فما الذي ترك للسانيات؟

1- لمعرفة موضوع هذا العلم، انظر على سبيل المثال D. Durand (1979).

2- اقترحنا هذه الترجمة بدل "علوم المعرفة" التي يقترحها الكثيرون حتى لا يلتبس الأمر "بعلم المعرفة" المطور عن "نظرية المعرفة" التي هي موضوع من موضوعات الفلسفة. تدرس "علوم الإدراك" آليات الفهم والإدراك، كاللغة والحساب والاستدلال مثلا. وتهتم ببناء نماذج للمعرفة والذكاء، وبفهم طبيعة بنية الأنشطة الذهنية. انظر Universalis. مادة cognitive (science).

كان العصر في حاجة إلى إغناء هذه العلوم التي اعتبرت، حينها، علوما فتية أو جديدة[1]؛ جديدة بإشكالاتها لا بتسميتها. فلقد سبق أن تم الكلام عن "الكل" وعلاقته "بالجزء"، منذ اليونان القدماء. إلا أن ذلك ظل كلاما عاما ولم ينجز بكيفية بسيطة وأنيقة كما يعكس مفهوم "النسق"[2]. كما سبق لآخرين أن تكلموا عن القدرات العقلية للبشر، إلا أنه لم تتم البرهنة على وجود هذه القدرات والحديث عن طبيعتها وتفسيرها كما تم في "علوم الإدراك". فكانت البنيوية والتوليدية هما الصورتان اللسانيتان لكل من علم النسق وعلوم الإدراك. إشكالية البنويين هي أن يبرهنوا على نسقية اللسان، وإشكالية التوليديين هي ان يبرهنوا

1- سؤال العصر في زمن البنيوية الصوسورية هو: ما الشرط الضروري لقيام الظاهرة العلمية؟ وكان الجواب هو: أن تكون الظاهرة مؤنسقة. وينطبق ذلك على اللسان. وسؤال العصر في زمن توليدية تشومسكي هو: ما الشرط الضروري لقيام المعرفة؛ أهو العقل أم المحيط الخارجي؟ وكان الجواب، عند فريق، هو: إنه العقل أولا.

2- أول مرة طرحت فيها مسألة ما إذا كانت اللغة نسقا منظما أو أنها مجرد ركام غير مطرد، كانت في العصر الهيليني حينما طرحت في النقاش الذي دار بين مدرسة بيركام Pergame ومدرسة الإسكندرية، والذي كان موضوعه الرئيسي هو: هل تعكس اللغة الوجود أم تعكس الفكر؟ وإذا كانت تعكس هذا أو ذاك، فهل تعكسه في تناسقه وتنظيمه أم لا؟ وتم التركيز في البداية، على المورفولوجيا (نتذكر هنا أعمال د. تراس D. de Trace) وبعد ذلك على التركيب (نتذكر أعمال أ. ديسكول A. Dyscole). وفسرت الثنائيات المفاهيمية للقدماء على أنها إسقاطات للعلاقات الخارجية على اللغة، فتم الربط مثلا بين ثنائية "اسم-فعل" وثنائية "الشيء-الحدث" أو "الوجودي-الإبستيمي". ثم بين ثنائية "صائت-صامت" وثنائية "مفتوح-مغلق"... مسألة الربط هذه، بين اللغة والعالم أحيانا، وبين اللغة والفكر أحيانا أخرى، استمرت إلى حدود القرن التاسع عشر مع كل من ويلهيلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt (1769-1859) و ج.س. أدلونج J.C. Adlung (1699-1762) (انظر الفصل الأول من O.Ducrot (1968). ص.ص 16-42). وربما تلخصت ثورة صوسور في أنه استطاع أن يفند الزعم الذي يربط بين الصورة اللغوية وبين العالم، رافضا أن يبرر التنظيم الداخلي للكلمة (لا للجملة التي يعتبرها واقعا كلاميا لا لسانيا) انطلاقا من العالم الخارجي، ومقترحا أن يبرر =ذلك انطلاقا من قلب الكلمة، وأن يعامل على أنه تنظيم اعتباطي أو مستقل. وهي فكرة كان فوكو قد وجد أصولها عند لسانيي القرن الثامن عشر. انظر: M. Foucault (1966).



على الأساس الذهني للمعرفة اللغوية[1]. هذان هما الموضوعان اللذان تراوحت بينهما أعمال اللسانيين المعاصرين بصفة عامة. أما الموضوعات الأخرى، كالاعتباط والقيمة والدليل...، بالنسبة للبنيويين، وكالإبداع اللغوي والمعرفة الفطرية والنحو الكلي...، بالنسبة للتوليديين، فإنها مجرد تفاصيل وجزئيات[2]. إذ لا يمكن معرفة العناصر اللغوية من فونيمات ومورفيمات ومركبات... إلا بعد معرفة النسق اللساني. كما لا يمكن معرفة خاصية الإبداع اللغوي إلا بعد معرفة الخاصية اللغوية باعتبارها خاصية من خصائص الذهن البشري، والعكس ليس صحيحا. فالقاسم المشترك بين بنيوية صوسور وتوليدية تشومسكي هو القول بأن معرفة العام سابقة على معرفة الخاص، وإن كان هناك اختلاف بين الإثنين في تصور العام والخاص. فإذا أمكن تصور العام على أنه درجات، فإن صوسور يتوقف عند حدود اللسان الذي يعتبره أعلى درجات العام، ويقصي اللغة التي يرى فيها أنها كيان غير متجانس أو غير مؤنسق. بينما يصعد تشومسكي إلى اللغة التي تجسد، في نظره، الخاصية التي لا يمكن معرفة القدرة اللسانية إلا بعد معرفتها، بحيث يصبح اللسان مجرد ظاهرة عرضية. وبعبارة مختصرة، فإن التوليدية ابتدأت من حيث انتهت البنيوية.

موضوع الدراسة عند البنيويين هو اللسان باعتباره نظاما من القواعد، أما موضوع الدراسة عند التوليديين، فهو الإجابة عن أسئلة هي: ما طبيعة هذه القواعد؟ وما أصلها؟ وكيف يحصل عليها؟ وكيف تشغل؟ وقد يلتقي هذا الفهم مع الخلفية

1- الأكسيومة المركزية عند البنيويين هي نسقية اللسان. وهدف النظرية البنيوية هو تبيان مظاهر هذه النسقية. ومن مظاهر نسقية اللسان البشري، أنه يختلف عما يسمى أحيانا "لغة الحيوان" التي ليست سوى مجموعة من الإشارات تختص كل منها بموقف معين لا تحيد عنه، بينما اللسان عبارة عن عدد محدود من العناصر تشكل نسقا يمكن التعبير به عن عدد غير محدود من المواقف. هذا المظهر هو الذي يسميه البنيويون "اقتصادا" ويسميه التوليديون "إبداعا". والأكسيومة المركزية عند التوليديين هي معرفة المتكلم اللغوية. وهدف النظرية التوليدية هو تفسير هذه المعرفة.

2- أتباع صوسور وأتباع تشومسكي هم الذين تاهوا في التفاصيل، كالاهتمام بالظواهر الجزئية من فونولوجيا وتركيب ودلالة وما يرتبط بها. وسبب هذا التيه إما ضلال الطريق الذي رسمه الشيخ، وإما الرغبة في استثمار تلك التفاصيل لأغراض أخرى. (أنظر الفصل الخامس من هذا العمل).



التي تقف وراء قول تشومسكي: "في إطار الفونولوجيا البنيوية، مثلا، تقدم إليك طريقة للتعرف على النسق الفونولوجي للسان ما. وحينما يتم لك ذلك، تكون المهمة قد انتهت. بينما في الفونولوجيا التوليدية، يبدأ العمل من حيث انتهت الفونولوجيا البنيوية. تبدأ المهمة حينما تنتهي من التعرف على النسق الفونولوجي للسان ما[1]". أي أن الأمر، عند التوليديين، لا يتوقف عند حدود التعرف على الشيء وإنما يتعداه إلى تفسير طبيعة ذلك الشيء. مع صوسور، كنا نهتم بالمواضعات، أي ما تواضع عليه أفراد المجتمع الواحد من نظام لغوي يشكل لسانهم الذي يتواصلون به، ثم أتى أصحابه من بعده ليفصلوا القول في أشكال هذه المواضعات وطبيعتها من فونيمات ومورفيمات ودلائل...، أما مع تشومسكي، فإننا صرنا نهتم بنظام معين من أنظمة المعرفة، وهو نظام المعرفة اللغوية التي يزود بها الفرد قبل أن يتكلم اللسان. فبدل الاهتمام باللسان، انتقلنا إلى الاهتمام بالنظام المعرفي الذي ينتج اللسان[2]. ويجب أن لا تفوتنا الإشارة إلى ما صاحب هذا الانتقال من نقد عنيف كان قد وجهه تشومسكي إلى صوسور حيث يتهمه بالنظرة الساذجة إلى اللغة وبالتصور الفقير الناتجين عن تأثره بأفكار ف.د. ويتني[3] W.D.Whitney الذي يصنفه في مكان آخر بأنه أنتربولوجي لا عقلاني ومن دعاة الاهتمام بالخصائص التي تميز فيما بين الألسن لا بتلك التي تجمع فيما بينها[4]. وهو ما لم يستسغه أحد أتباع صوسور الذي عقب على كلام تشومسكي بالقول:"...وفي الحقيقة، فإن ما هو

1- Chomsky (1977)، ص. 181.

2- "موضوع الدراسة اللسانية هو دراسة البرنامج الذي تشتغل ضمنه آليات اكتساب اللسان، بدءا من المرحلة الذهنية الأولى، ومرورا بالمرحلة الوسطى، وانتهاء بالمرحلة القارة". Chomsky (1980). ص.ص. 177-178. وهدف الباحث اللساني هو "تحديد طبيعة نسق القدرة اللغوية كما هي عند المتكلم، ووضع نماذج عملية تبين كيفية استعمال هذه القدرة". نفسه. ص 192.

3- انظر على سبيل المثال Chomsky (1965).

4- انظر الاستدلال الذي قدمه تشومسكي على أن وحدة العقل تفرض وحدة اللغة في Chomsky (1968). ص.ص. 113-114.



ساذج إنما هو القراءة التي قرأ بها تشومسكي صوسور[1]". وحتى يفند تشومسكي تصور صوسور لموضوع الدرس اللساني على أنه هو اللسان، يذهب بعيدا فيدعي أن اللسان تصور سياسي[2]. أما التصور اللساني الحق، في نظره، فهو "النحو".

لكن، ومع ذلك، فإنه لا يمكن تجاهل ما بذله صوسور من مجهود جبار في تحديد موضوع الدرس اللساني رغم ما كانت تمارسه اللسانيات التاريخية والمقارنة و كذا النحاة الجدد من تأثير كبير في الحقل اللساني. وهو مجهود لا يعادله إلا المجهود الذي بذله تشومسكي نفسه من أجل تخليص الدرس اللساني من أفكار البلومفيلديين وتصوراتهم.

لو افترضنا أن الموضوع المشترك بين كل التيارات اللسانية المعاصرة هو اللسان، لوجب تبيان أن الصوسورانية تتكلم عنه باعتباره نسقا، وأن البلومفيلدانية تتكلم عنه باعتباره مهارة تكتسب بالتلقي والتعلم، وأن التشومسكانية تتكلم عنه باعتباره تجليا من تجليات ملكة فطرية في الإنسان هي اللغة. فهل تنتمي البنيوية بتياراتها والتوليدية بنماذجها إلى عصرين إبستيمولوجيين مختلفين أم إلى عصر واحد؟ ما هو ثابت في تصورنا هو أن البنيوية الصوسورية ثورة على التقاليد اللسانية القديمة وأن التوليدية تصحيح لهذه الثورة، وأن الهاجس المشترك بين الإثنتين هو الرغبة في تحطيم المعتقدات وإرساء أسس خطاب لساني يضمن لنفسه موقعا محترما داخل خريطة الخطابات المعرفية المعاصرة، وأن تاريخ اللسانيات المعاصرة تاريخ يجمع بين القطيعة والاستمرار.

1- أنظر الهامش 225 في ص 401 من الملحق الذي وضعه ت. مورو T. de. Mauro لكتاب صوسور (Cours de Linguistique Générale). كما يمكن الرجوع إلى المقارنة التي عقدها في هذا الملحق بين صوسور وتشومسكي في الصفحات 400-404.

2- "اللسان مفهوم سياسي وليس مفهوما لسانيا ولا علميا؛ فالذي جعل للسوري لسانا وللفلسطيني لسانا آخر ليس هو وجود لسانين أحدهما سوري والآخر فلسطيني، وإنما هو التقسيم الذي وضعه الاستعمار الغربي للشعوب" Chomsky (1977). ص. 196.



ويجب أن لا يفهم من كلامنا أعلاه أننا نقول بوحدة الأصل لكل من البنيوية والتوليدية؛ فنحن نعي جيدا أن القراءة الجينيالوجية للسانيات المعاصرة تكشف عن أن نقط الاختلاف والتميز كثيرة إلى درجة أنها، في جل الأحيان، هي التي تشكل القاعدة، وأن المبدأ الذي يجب أن يتحكم في التحليل هو مبدأ اللاتناظر. حيث إن وجود ما يفيد أن التوليدية تناظر البنيوية، ولو في بعض الوجوه، لا يعني تناظرا أو تماثلا حقيقيين؛ لأن المنشأ ليس واحدا، أو، بالتعبير الفلسفي، لأن الإشكال والأطر المرجعية ليست واحدة. وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الاختلاف بين التوليدية والبنيويات هو اختلاف في الجينات التكوينية لكل منهما. ولذلك فلا سبيل إلى الاعتقاد بأن التوليدية تطوير حصل داخل تيار من تيارات البنيوية هو تيار التوزيعية كما ادعى كثيرون.

3- في أسس الخطاب اللساني:

تحكم الخطاب اللساني نزعتان:

أ- نزعة باكونية تتصور الممارسة العلمية نشاطا تجريبيا استقرائيا استكشافيا. وتنتمي إليها التيارات البنيوية بصفة عامة؛ حيث يتم العمل في إطار استبعاد التأملات الفلسفية ذات الرؤى "الميتافيزيقية"، وحيث إن المعيار الأول والأخير للحقيقة العلمية هو معيار التحقق كما ستعرضه مدرسة فيينا. دور العلم، وفق هذا التصور، هو ترتيب وتصنيف الملاحظات المستخلصة من التجارب، ثم الكشف تدريجيا عما يحويه العالم من أشياء، فيحدد خواصها وعلاقاتها المتبادلة. يجد هذا التصور أصوله في فلسفات قديمة كتلك التي شيدها فرانسيس بيكون **Francis Bacon** (1561-1626) (التصور التجريبي للمعرفة) وقبله أرسطو **Aristot** (384-324 ق.م) (حصول المعرفة بالقياس) وصولا إلى أوجيست كونت **August Comte** (1798-1857) (العلم وضعي). مع هذه الفلسفات " تحددت المعالم الأساسية لإبستمولوجيا واقعية ساذجة... كما تبلورت الملامح الأساسية لنظرية المعرفة الاختبارية التي تنظر إلى



المعرفة على أنها تابعة للموضوع الواقعي. كما تقيم نزاعا بين الذات العارفة والموضوع الواقعي" [1].

تتميز الابستمولوجيا الباكونية، أيضا، بربط المعرفة بالمنفعة والنجاعة العملية، الأمر الذي سيتطور فيما بعد إلى ظهور ما سيسمى "بالفلسفة الذرائعية" خاصة في أمريكا. وهي فلسفة لن ينجو من تأثيرها اللسانيون التوزيعيون[2] كما سنقف عنده لاحقا. كما تتميز بالقول إن العقل ليس سوى مرآة تعكس الخبرات التي يوفرها المحيط وليس جهازا مفطورا على المعرفة، وهو قول يشكل واحدا من أهم أسس البيهافورانية.

ب- نزعة كبليرية، تتصور أن العلم تأمل وافتراض واستنباط. وإليها ينتمي الموقف التوليدي ذي الأسس الأفلاطونية المناهضة للنزعة الحسية. توطدت هذه النزعة مع كاليلي وديكارت، وترسخت مع الابستمولوجيا العقلانية كما بلورها كارل. بوبر Karl Popper (1902-1994) خاصة.

ومن بين الأسس التي تقوم عليها هذه النزعة أن المعرفة إنتاج عقلي، وأن العقل، وحده، هو القادر على إدراك العلاقات الرابطة فيما بين الأشياء، وسيلته في ذلك قدرته على تجريد وترييض الواقع الفيزيقي[3] ونزع الصبغة الشيئية عن الظواهر والنظر إليها على أنها بنيات هندسية تتحدد بالأشكال والمقادير المجردة.

1- سالم يفوت (د.ت). ص. 58.

2- " لقد شكلت ذرائعية الوضعانية المنطقية والبيهافيورانية السلوكية اللتين ارتبطت محاولاتهما بتطبيق المنطق والرياضيات في دراسة "اللغة الطبيعية" قياسا على ما هو معمول به في دراسة "اللغات الصورية" الإطار الذي ستتبلور ضمنه اللسانيات الأمريكية". G / P (1981). ص. 131.

3- هذا الأساس المزدوج هو الذي شكل نموذج العلم في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث سيطر النموذج الوضعاني على كثير من العلوم الإنسانية مشكلا بذلك نموذج العصر وبراديكمه فظهرت الفلسفة الوضعانية والمنطق الوضعاني مع جماعة فيينا، والأدب الواقعي مع التيارات الاشتراكية، وعلم النفس التجريبي مع السلوكيين، وعلم الاجتماع الوضعاني مع تلاميذ كونت، والأنتروبولوجيا الأمريكية مع فرانز بواس Franz Boas (1858-1942)، و إدوارد سابير Edward Sapir (1884-1939)، واللسانيات الأمريكية مع ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfild (1887-1949) وزليج هاريس Zellig Harris (1909-1992). وكلها معارف تغذت بالتصورات الوضعانية.



وإذا تم الاتفاق على أن اللسانيات البنيوية تعتمد أساسا مزدوجا؛ أساسا فلسفيا قوامه وضعانية كونت، وأساسا إبستمولوجيا قوامه العلوم التجريبية، فإن الأساس المزدوج الذي تعتمده اللسانيات التوليدية يقوم في شقه الفلسفي على العقلانية الديكارتية وفي شقه الإبستمولوجي على النموذج البوبري للعلم، وهو نموذج مستقى من التقاليد التي رسخها علم النصف الثاني من القرن العشرين.

في التصور الباكوني، سادت النزعة التحليلية، وتركز العمل على الأجزاء المكونة للكل، قصد الوصول إلى الخصائص الخاصة. واعتبر التحليل شرطا أساسيا في العمل العلمي. يقول برتراند راسل Bertrand Russell (1872-1970) معبرا عن هذا التقليد:" هناك سمة من سمات الطريقة العلمية يجب أن نلم بها وهي التحليل. فمن المسلم به بين رجال العلم، كفرض عملي على الأقل، أن أي حدث مادي هو معلول لعدد من العلل. ولو عمل كل من العلل منفردا لأحدث معلولا يختلف عن ذلك الذي حدث فعلا"[1].

وفي اللسانيات البنيوية ذات الأساس الباكوني، سيطرت النزعة التحليلية بشكل كبير، حتى إن التوزيعيين الأمريكان لم يفهموا من اللسانيات إلا أنها العلم الذي يتناول الوحدات اللغوية بالتحليل. وهو نفس الفهم الذي تكشف عنه أعمال الأوروبيين الرواد؛ إذ ما معنى "السمات المميزة" التي اكتشفها رومان جاكوبسون Roman Jakobson (1896-1982) واشتغل عليها زميله نيكولاس تروبيتسكوي Nicolas Troubetzkoy (1890-1938)؟ وما معنى "التمفصل المزدوج "الذي اشتغل به أندري مارتيني Martinet André (1908-1999)؟ وقبل هذا وذاك، ما معنى "تحليل الدليل إلى دال ومدلول "عند صوسور؟ بل ما معنى الثنائيات الصوسورية كلها؟

وعلى عكس البنيوية، اهتمت التوليدية ذات الأساس الكبليري، بالتركيب أو البناء، حيث تم تصور العمل العلمي على أنه عملية بنائية يتم التعبير

1- ب. راسل (1956).ص. 59.



عنها بواسطة الاهتمام بالكليات، وحيث إن معرفة الكل هي غاية العمل العلمي ولا يعتبر الجزء جزءا إلا إذا كان عنصرا من كل، يتحدد في إطاره ويؤول إليه.

هكذا تم التركيز في اللسانيات البنيوية على الخصائص الخاصة بكل لسان على حدة، بينما تم التركيز في اللسانيات التوليدية على الخصائص المشتركة بين أكبر عدد من الألسن. فاللسان المتفرد غير وارد، لأنه لا يخدم هذه الإستراتيجيا. وبين البحث عن الأنحاء الخاصة والبحث عن النحو الكلي ترتسم المسافة الحقيقية الفاصلة بين التصورات البنيوية والتصور التوليدي. ومن هنا جاء تمسك البنيويين بمناهج الاستقراء وتمسك التوليديين بمناهج الافتراض والاستنباط.

قديما شكك بيكون في المعرفة المبنية على أقوال من سبق، فكتب يقول: "إن فهم الطبيعة يقتضي الرجوع إلى الطبيعة ذاتها لا إلى كتابات أرسطو" [1]. وحديثا شكك صوسور في معرفة حقيقة اللسان بناء على أقوال المؤرخين والمقارنين ومن تبعهم من النحاة الجدد، ودعا إلى التعامل المباشر مع الموضوع، بحيث تتم دراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته وبعيدا عن أية نظرة مسبقة أو رأي شخصي أو تأمل خيالي. وهذا ما تقتضيه الموضوعية التي اعتبرت شرطا أساسيا في العلم. لا يخرج صوسور عن الإطار الذي يندرج ضمنه كل الباكونيين الذين يجمعهم تصور واحد للممارسة العلمية هو الذي لخصه أ. ف. شالمرز A. F. Chalmers بقوله:" إن المعرفة العلمية معرفة أثبتت جدارتها. فالنظريات العلمية يتم استخلاصها بكيفية صارمة من الوقائع التي تمدنا بها الملاحظة والتجربة. ولا مكان في العلم للآراء الشخصية والأذواق وتأملات المخيلة. فالعلم موضوعي، ويمكن الثقة في المعرفة العلمية؛ إذ هي معرفة مبرهن عليها بصورة موضوعية" [2].

وبالمقابل، شكك بوبر في العلم الوضعي الذي ينطلق من الملاحظة والتجربة كأساس لبناء القوانين الكلية أو النظريات، مبينا أن النظرية المتوصل إليها عن طريق استقراء الوقائع نظرية عقيمة ولا يمكنها أن تتنبأ بالوقائع المحتملة، وأن

1- أ. شالمرز (1976)، ص 16.

2- نفس الصدر والصفحة.

الحل يكمن في بناء النظريات الافتراضية الاستنباطية، وأن الملاحظة ما هي إلا وسيلة لاختبار النظرية أو تفنيدها. وباستثمار بوبر، أمكن لتشومسكي أن يشكك في نظريات البنيويين، لأنها تقوم على الاستقراء لا على الافتراض والاستنباط كما سنوضح فيما بعد.

مرة أخرى نجد نفسنا أمام خطاب ذي وجهين؛ وجه أنتجته البنيوية تحت ذريعة الرغبة في تحقيق قدر أعلى من العلمية، ووجه آخر لازالت تنتجه التوليدية تحت نفس الذريعة. ويوجد الاختلاف في طبيعة التصور الذي يحمله كل طرف للعلم. وكأننا أمام خطاب عام واحد؛ خطاب مؤسس على رغبة جموحة في إنتاج معرفة علمية، لكن خطاباته التفصيلية تختلف.

كل من صوسور وتشومسكي قرأ علم عصره قراءة استثمارية، وكل منهما وظف العلم توظيفا يسمح بإيجاد مكان مريح للخطاب اللساني داخل منظومة الخطابات العلمية. والنتيجة هي أن المعرفة التي أنتجاها لا ترقى، في نظر البعض على الأقل، إلى المستوى العلمي الذي ظلا يطمحان إلى تحقيقه. ويرجع ذلك إلى تمسكهما المطلق بمصادراتهما وإلى إبداء عدم الاستعداد لمناقشة المقدمات والمسلمات والدعوة إلى الانتقال مباشرة إلى النتائج. كل من صوسور وتشومسكي يدعي أنه كوبرنيك عصره. لكن أيا منهما ليس سوى مجرد فيلسوف يخترق العلم من أجل العودة إلى الفلسفة. وهكذا فالعقل الذي أنتج الفلسفات، وليس العلم، هو نفسه الذي أنتج اللسانيات. وإذا سلمنا بأن العقل الفلسفي هو تاريخ مآس، فإن مأساة العقل اللساني تتمثل في كونه يطرح أسئلة ليس في مقدوره أن يجيب عنها، رغم أنه يوهم مخاطبيه بأن له مهارة في اصطياد الأجوبة. وإذا كانت مأساة صوسور الباحث عن البنية أو النظام الكامن وراء الفوضى أخف، فإن مأساة تشومسكي أعظم لأنه راهن على معرفة البنية الذهنية للمتكلم. فهل تعتبر معرفة ما يجري في ذهن المتكلم ممكنة؟ سؤال نطرحه بهذه الصيغة المقصودة لنذكر بأننا استوحيناه من السؤال الكنطي المعروف والمتعلق بإمكان المعرفة. وفي ذلك إشارة دقيقة إلى إشكالية السؤال[1].

1- لنا عودة إلى هذا السؤال في الفصل الخامس.



4- من أين يستمد الخطاب اللساني حقه في الحديث

يحاول الخطاب اللساني، كما بينا، أن يجد لنفسه موقعا بين الخطابات العلمية المعاصرة. وكان أول تحرك له هو ذلك الذي اتجه نحو دحض وتفنيد الخطاب اللغوي التقليدي الذي تمثل في اللسانيات التاريخية واللسانيات المقارنة وأعمال النحاة الجدد وكذا الخطاب الفلسفي المنسوب إلى فلاسفة اهتموا باللغة من أمثال إدموند هوسرل Edmund Husserl (1938-1959) وماري Marty وفينك Finck وفوسلر Vossler الذين وظفوا في دراساتهم للغة مفاهيم مأخوذة من نظرية المعرفة وعلم الجمال والإثنولوجيا وعلوم المجتمع... بالنسبة للبنيويين. وفي اللسانيات الوصفية الأمريكية بالنسبة للتوليديين. وكان ثاني تحرك هو ذلك الذي تم بالانفتاح على العلوم واستثمارها في إعادة صياغة القضايا وبناء الأنساق المعرفية.

بخصوص عملية التفنيد، لم يجد اللسانيون المعاصرون عناء كبيرا في الكشف عن تهافت كل المقاربات التي لم تشتغل على مفهوم النسق، وكذا التي تفترض أن اللسان معرفة تنشأ بفعل الدربة والممارسة والاحتكاك بالمحيط الخارجي كما سنبين فيما بعد. إلا أن الذي طبع مسيرة اللسانيات المعاصرة هو الاختلاف في تصور العلم. فإذا كان التاريخانيون، قبل صوسور، قد اعتقدوا أن توجيه البحث اللغوي نحو التأريخ قد أكسب الدراسات اللغوية طابع العلمية كما أشار إلى ذلك أوطو يسبرسن Otto Jesperson (1860-1943)[1]، وإذا كان المقارنون قد فهموا أن أسلوب المقارنة هو الذي يضمن السمة العلمية لعلم اللغة، فإن المعاصرين، وبفعل المنجزات الكبرى التي حققها العلم بصفة عامة وانفتاحهم عليه، قد انقسموا حول مفهوم العلم الذي سيحددون بموجبه توجهاتهم التي ستضمن لهم مكانا بين العلماء إلى مدارس تقوم على أسس مختلفة. ومن عوامل هذا الاختلاف ما عرفه العلم نفسه من تيارات كبرى أهمها "التجريبانية" Empirisme "والوضعانية" Positivisme

---

1- "إن الصفة المميزة لعلم اللغة كما يفهم الآن هي السمة التاريخية" أ. سبيرس (1922) نقلا عن محمد يونس علي (2003).

والعقلانية Rationalisme. فالتجريبانية القائلة إن المعرفة العلمية هي نتيجة للخبرة هي التي وفرت السند الإبستمولوجي للوضعانية الأمريكية التي رادها ل. بلومفيلد L. Bloomfield ورسخها تلميذه ز. هاريس Z. Harris وزملاؤه. بلومفيلد الذي تأثر إلى حد كبير بعالم النفس التجريبي جون برودوس واطسون John Broadus Watson (1878-1958) مؤسس المدرسة السلوكية في علم النفس. لقد عرف عن البلومفيلديين الصرامة و التشدد في الدعوة إلى تحقيق الموضوعية، وذلك بالابتعاد عن الأقوال المبنية على الحدس والاستبطان وبرفض التفسير الذي لا يرون فيه سوى أنه مجرد تخمين حول السلوك اللغوي الذي اعتبروه ظاهرة عيانية تتطلب الوصف لا التفسير. وهو ما سيثير تشومسكي العقلاني الذي وصف الموقف البيهافيوري الذي ينتسب إليه البلومفيلديون بأنه "موقف غير قابل للمناقشة؛ لأنه، وبكل بساطة، لا يفيد في بناء النظرية وفي التفسير"[1] مشيرا إلى أن ما يجب أن يهتم به اللساني هو الأنساق العميقة التي تحرك السلوك اللغوي وليس معطيات الإنجاز التي لا تعكس بالضرورة كل ما يعرفه المتكلم عن لسانه والتي تتصف باللامحدودية. وهكذا، فإذا كان الخطاب البيهافيوري البلومفيلدي يسعى إلى أن يكون محاولة في العلم التجريبي، وقبله سعى الخطاب الصوسوري إلى أن يكون محاولة في العلم الوضعاني، فإن الخطاب التشومسكاوي ظل يسعى في اتجاه أن يكون إسهاما في علوم الذهن. نحن إذا أمام ثلاث محاولات في العلم، كل منها أنتجت واحدا من التيارات اللسانية التي هيمنت طيلة القرن العشرين؛ اللسانيات الوضعانية مع صوسور، واللسانيات التجريبانية مع بلومفيلد، واللسانيات العقلانية مع تشومسكي.

ومما هو جدير بالملاحظة، أن كل واحد من هذه التيارات أبى إلا أن يجعل من نفسه فرعا من فروع علم النفس. فبنيوية صوسور هي فرع من فروع علم النفس الجشطالتي، وتوزيعية بلومفيلد فرع من فروع علم النفس السلوكي، وتوليدية تشومسكي فرع من فروع علم النفس المعرفي، ومما هو جدير بالملاحظة أيضا أن

1- Chomsky (1965).ص.ص.13-14.



العلاقة بين البنيوية والتوزيعية، من جهة، وبين التوليدية، من جهة اخرى، علاقة اتسمت دائما بالعنف والرفض والإقصاء. وتعتبر المعارك التي دارت فيما بينها من أشد المعارك التي عرفها تاريخ هذا العلم. والسبب في ذلك هو الرغبة الملحة التي أبدى عنها الجميع في مواكبة ما يجري في العلم الذي يعتبر فضاءا ممتازا للتبدل والتغير وللانقلابات المفاجئة والمدمرة. وهو ما تعكسه اللسانيات المعاصرة. ولذلك، فإنه من المناسب ربط التحولات التي عرفتها هذه اللسانيات باعتبارها سلسلة من اللحظات العلمية باللحظات الثورية التي عاشها العلم المعاصر. وما يميز اللسانيات المعاصرة، بصفة عامة، عما سبقها من محاولات هو أنها استطاعت أن تنقلنا من مرحلة قديمة بسؤال قديم، هو:" هل يمكن للنظرية اللسانية أن تكون نظرية علمية ؟ إلى مرحلة جديدة بسؤال جديد، هو" ما مقدار علمية النظرية اللسانية " ؟ أي من سؤال التأسيس إلى سؤال التقويم. ولذلك، فإن أهم إنجاز يمكن أن يحسب للسانيات المعاصرة ليس هو الموضوعات التي تشتغل عليها، وإنما هو طرق الاشتغال. وهذا ما سمح لها بأن تتبوأ مكانة هامة داخل العلوم الإنسانية أولا، وقدرا لا بأس به من الاحترام لدى العلوم المحضة. وخاصة علوم البيولوجيا والفيزيولوجيا والإعلاميات والاتصال.

5- في مبررات الخطاب اللساني

كثيرون هم أولئك الذين لم يقتنعوا بضرورة وجود الخطاب اللساني، خاصة في بعض وجوهه. واعتبروه خطابا زائدا وزائفا؛ بمعنى أنه لا يحمل أية معرفة حقيقية. فهو، في نظرهم، خطاب سجالي ليس إلا. يراهن على الإرباك وإثارة الزوابع ليعطي لنفسه فرصة الظهور والاستمرار. وهو، بهذا المعنى، لا يختلف عن الخطاب الإيديولوجي، بل هو إيديولوجي في المنشأ وفي الهدف كما يدعي كادي وبيشو[1].

1- " بدل الانعزال والابتعاد عن الطبقات المحكومة، قررت الطبقة البورجوازية الحاكمة الاقتراب من تلك الطبقات. وهنا كانت بداية التفكير اللساني...لقد افترض الإيديولوجيون الفيوداليون أن هناك حاجزا لغويا صارما يفصل بين أولئك الذين هم مؤهلون بحكم موقعهم الاجتماعي الراقي لفهم وإدراك ما يقال وأولئك الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا والذين هم غير مؤهلين لأن يتواصل معهم بنفس اللغة. الأمر الذي أدى بالبورجوازيين إلى الاستعانة بلغة الدين ولغة السلطة قصد التواصل مع من هم دونهم". G / P (1981) ص 34.

إلا أن للسانيين رأيا آخر. فهم يتصورون أن لسانياتهم قدمت إضافات لا غنى عنها، وساهمت في تطوير بعض العلوم كالسيميولوجيا وعلم النفس وعلوم المجتمع والأنتروبولوجيا وعلوم الإدراك... وأنه آن الآون للتخلي عن المواقف التي تفند الحاجة إلى اللسانيات. وهي دعوة مفتوحة بغرض الإقبال على اللسانيات ووضع الثقة فيها وحشد الدعم والمشروعية لها. وهكذا فالخلفية التي دفعت بصوسور، مثلا، إلى قول ما قاله فيما سيأتي يمكن أن تفهم بأنها هي هذه الدعوة بالذات. " يمكن أن نتصور علما يدرس حياة الإشارات داخل الحياة الاجتماعية. سيكون هذا العلم جزءا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام. وسنسميه سيميولوجيا. سيهتم هذا العلم بتحديد مقومات الإشارات والقوانين التي تحكمها. وبما أنه لم يوجد بعد، فإنه لا يمكننا أن نتنبأ بما سيكون عليه في المستقبل، لكن له الحق في الوجود. فمكانه محدد سلفا، وليست اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام. فالقوانين التي ستكتشفها السيميولوجيا يمكن تطبيقها على اللسانيات... وسيكون هدف اللساني هو تحديد ما يجعل اللسان نظاما خاصا من بين مجموع الظواهر السيميولوجية... وإذا كنا قد توفقنا، ولأول مرة، في تحديد موقع اللسانيات على خريطة العلوم، فإن الفضل في ذلك يعود إلى ربطنا إياها بالسيميولوجيا."[1]

يفهم من الشهادة التي أدلى بها صوسور هنا أن اللسانيات ولدت قبل السيميولوجيا. والغريب هو الادعاء بأن المولود يكتسب هويته مما لم يولد بعد. كما يفهم منها أن لعلم اللسانيات مكانا بين العلوم الأخرى، وأنه لا يقل عنها أهمية؛ فهو ضروري بالنسبة للسيميولوجي ولعالم النفس وعالم المجتمع...

وفي سؤال كانت قد وجهته ميتسو رونا Mitsou Ronat (1946-1984) إلى تشومسكي حول ما إذا كان صحيحا القول إن اللسانيات، باعتبارها نشاطا علميا، ترتبط مباشرة بالبيولوجيا، أجاب تشومسكي بالإيجاب[2]. وسوف لن نطيل الوقوف عند تشومسكي في هذه النقطة لأننا سنعود إليه في فصل لاحق.

1- Saussure. (1916). ص ص 33-34.

2- أنظر تفاصيل ذلك في Chomsky (1977) ص ص 83-84.



6-في أنطولوجيا الخطاب اللساني وبلاغته

1.6. أنطولوجيا الخطاب اللساني

يمكن وصف التصور التصنيفي بأنه نتيجة لسؤال ماهوي؛ حيث يتم رصد الوحدات اللغوية ثم تحديدها بناء على ماهيتها، وحينئذ تكون الكفاية المحققة هي الكفاية الملاحظية (adéquation d'observation).

ويمكن وصف التصور الوضعاني بأنه نتيجة لسؤال كيفي؛ حيث يتم رصد سلوك العنصر اللغوي داخل ما ينجزه المتكلمون قصد تحقيق الكفاية الوصفية (adéquation descriptive).

أما التصور التفسيري، فإنه ينطلق من سؤال اللماذا؛ حيث يتم تفسير الظاهرة اللغوية بالبحث عن عللـها العليا وأسبابها الأولى والخفية، وذلك لتحقيق الكفاية التفسيرية (adéquation explicative).

يمكن اعتماد هذا التوصيف في تصنيف اللسانيات المعاصرة إلى لسانيات تصنيفية، وتمثلها لسانيات بلومفيلد وما يسمى، مع هاريس، باللسانيات التوزيعية، وإلى لسانيات وصفية، وتمثلها بشكل أدق أعمال البراكيين كجاكوبسن وتروبتسكوي وأعمال الفرنسيين أمثال مارتيني وموريس كروس Maurice Gross (1934-2001) ومن تتلمذ عليهما، وإلى لسانيات تفسيرية، ويمثلها تشومسكي ومدرسته.

يعتقد التصنيفي أنه، باعتماد التصنيف، يمكن اكتشاف القوانين التي تخضع لها الوحدات اللغوية. ويعتقد الوصفي أنه، باعتماد الوصف، يمكن اكتشاف القوانين التي تتحكم في سلوك هذه الوحدات. وكل من التصنيفي والوصفي لا يشتغل إلا على ما هو موجود أو معطى سلفا، بينما يشكك التفسيري في الطبيعة الاستغراقية للموجود. فما هو موجود لا يتمتع بالكمال والشمولية في نظره. فهو ناقص دائما مهما ادعينا من كماله. ولذلك، فإن الموجود أو المعطيات يجب أن لا يلجأ إليها إلا بعد الانتهاء من بناء الفرضية. فيكون دورها، حينئذ، هو



الاختبار والتقويم. ينظر إلى المعطيات، في التصورات التصنيفية والوصفية، على أنها بديهيات، بينما ينظر إليها، في التصور التفسيري، على أنها مجرد وسائل لاختبار الفرضية. دورها في التصورات الأولى قبلي، وفي التصورات الثانية بعدي.

تدفع بنا هذه الملاحظات إلى إعادة النظر في التصنيف الذي قدمنا به هذه الفقرة، وهو التصنيف الشائع، لنجد أنفسنا أمام نوعين من اللسانيات؛ لسانيات تفسيرية ولسانيات غير تفسيرية. ويجب أن لا يفهم أن الأولى تنفرد وحدها بتقنية الاشتغال بالنظريات وبناء النماذج. فهذه التقنية شائعة حتى عند غير التفسيريين. وهو ما يفهم من كلام نيكولا روفي Nicols Ruvet (1932-2001) : "... فالنظرية الفونولوجية المنسوبة إلى جاكوبسن تمثل بحق فرضية قوية جدا اخترقت النظرية التوليدية بنجاح. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن إميل بنفينيست Emil Benveniste (1902-1976) الذي أكد بوضوح على ضرورة بناء نماذج افتراضية للسان... وعن بنويين سابقين أمثال إ. سابير وأ. يسبرسن" [1]. إلا أن هذه المحاولات قليلة ولا تعكس الأساس المعرفي الحقيقي الذي تقوم عليه اللسانيات اللاتفسيرية. فإذا كانت أحكام التفسيريين قد تمت صياغتها في شكل فرضيات تم استنباطها من قضايا عامة اعتمادا على مبادئ عقلية، فإن أحكام اللاتفسيريين قد تم التوصل إليها عن طريق الاستقراء المبني على معطيات تجريبية يعتقد أن لا دخل للعقل فيها.

لم يحتج اللاتفسيريون إلى أي استدلال منطقي للبرهنة على وجود النسق، لأنهم تعاملوا مباشرة مع موضوعاتهم كما يفرض تصورهم للنشاط العلمي، ولم يطرحوا أسئلة من مثل: ما السر في ان العالم، واللسان جزء منه، مؤنسق؟ لأنها أسئلة "ميتافيزيقية". ولذلك، فإنهم تحرروا من الحاجة إلى التفسير، ماداموا أنهم لا يخوضون إلا فيما هو موجود. بينما يدعو التفسيريون إلى تجاوز هذا المشروع، وذلك بحجتين:

1- Ruwet (1988). ص. 15. والاختراق الذي يعنيه روفي هنا هو المتجلي في إنتاج أعمال مشتركة. كالعمل الذي أنتجه تشومسكي بالاشتراك مع م. هالي M. Halle بعنوان Principes de Phonologie Générative.



- أن مرحلة التصنيف والوصف يجب أن تنتهي، لأن أصحابها قد قدموا ما يكفي.
- أن الوقوف عند حدود التصنيف والوصف لا يحل مشاكل ترتبط بالمشكل اللغوي الضارب في العمق، من مثل تفسير معرفة المتكلم بلسانه وكل الحدوس المرتبطة بهذه المعرفة. وكلها مشاكل تتطلب مقاربتها درجة عالية من التجريد والصورنة، حيث لا سلطة للواقع العيني والمعطى التجريبي. وحتى يتحقق ذلك، لابد من اللجوء إلى بناء النظريات المفسرة التي لا تتوقف عند حدود ما هو موجود ولكنها تتعداه إلى ما يمكن أن يوجد.

يمكن وصف اللاتفسيريين بأنهم ديكارتيون في مناهجهم؛ حيث تسود الصرامة والدقة في التناول (تجزيء الظاهرة – لا يتم الانتقال إلى خطوة لاحقة إلا بعد قتل الخطوة السابقة- بناء اللاحق على السابق...)، ووصف التفسريين بأنهم ديكارتيون في عقيدتهم؛ حيث التسليم بقدرة العقل على بناء المعارف والإيمان بأن مبادئ المعرفة فطرية. ولذلك، فإن السحر الذي مارسه اللاتفسيريون (البنيويون) كان مبعثه الدقة والصرامة اللتين تمتع بهما منهجهم. الأمر الذي أخفى عن الكثيرين ممن راموا تفنيد أطروحاتهم الحدس المركزي المتحكم في هذه الأطروحات، وهو فرضية النسق. إذ ماذا يتبقى من البنيوية بعد تفنيد نظرية النسق[1] ؟ أما السحر الذي مارسته اللسانيات التفسيرية (التوليدية) فيأتي من ادعاء القدرة على تفسير قدرة المتكلم على إنتاج الجمل، ومن القدرة الفائقة على استثمار أكثر الإبستمولوجيات حجاجية وإفحاما إبان النصف الثاني من القرن العشرين. وهو ما ساعدها على الصمود، لكنه صمود إلى حين. إذ إن الحدس المركزي لهذا النوع من اللسانيات والمتمثل في القول بإمكانية تفسير قدرة المتكلم المستبطنة يظل هو الجزء المهدد أكثر من غيره داخل هذا النسق. فماذا يتبقى من التوليدية بعد دحض فرضية فطرية المعرفة اللغوية التي تفسر بها معرفة المتكلم وقدرته على الإبداع اللامحدود[2]؟

1- تتلخص أنطولوجيا صوسور كلها في المبدإ العام الذي حكم تصوره، وهو أنك أينما حللت فثمة نسق.

2- تقوم أنطولوجيا تشومسكي على افتراض أن إبداع المتكلم اللامحدود تقف وراءه قدرة ذات أساس فطري.



إن ما يميز تشومسكي، باعتباره ممثل اللسانيات التفسيرية، عن صوسور، باعتباره ممثل اللسانيات اللاتفسيرية، أن الأول يتمتع بعمق إبستمولوجي لم يتوفر للثاني. فما قاد صوسور إلى ما توصل إليه من نتائج ليس هو العيش في رحاب الفلسفات ونظريات العلم الكبرى، وإنما هو تراكم الأبحاث التي كانت تحدوها الرغبة في الثورة على ما هو سائد من مناهج أساسا حتى إن البعض يصنف البنيوية في خانة المناهج لا في خانة الفلسفة. أما تشومسكي فإنه قد تشبع بأفكار الفلاسفة والإبستمولوجيين والعلماء. وكان الهدف عنده ان يقيم قطيعة بين مرحلة العلم حيث العمدة على التفسير ومرحلة اللاعلم حيث غياب التفسير[1].

فبخصوص الأنطولوجيا التي أطرت فكر صوسور اللاتفسيري، يمكن أن نسأل: هل كان صوسور يرى أن النسق فكرة من إنشاء العالم كما تفترض الجشطالتية العقلانية، أم أنه موجود بكيفية قبلية في الموضوع كما تفترض الجشطالتية اللاعقلانية؟ السؤال الأنطولوجي هذا فرض علينا نتيجة تعدد واختلاف القراءات التي قريء بها صوسور. فهناك قراءة تفترض أن صوسور يتبنى فكرة النسق أولا ثم ينسبه إلى الموضوعات، وأخرى تفترض أنه يصادف النسق في الموضوعات التي يشتغل عليها. ويبدو أن القراءة الثانية هي الأوسع انتشارا[2].

وبخصوص الأنطولوجيا التي أطرت فكر تشومسكي التفسيري، يمكن أن نسأل أيضا: هل كان تشومسكي يرى أن القدرة فرضية من إنشاء الباحث أم أن لها واقعا نفسيا لا يختلف عن وقائع نفسية أخرى مثل الذكاء؟

وبكيفية عامة، إن الأساس الفلسفي الأول للسانيات المعاصرة، صوسورية وتشومسكاوية، هو الإيمان بضرورة بناء الأنساق. وهي عملية لا يمكن أن تكون

1- هناك سؤال نعتبره واردا في هذا السياق. ونطرحه بالصيغة التي سبق أن طرحه بها سالم يفوت:" هل صحيح، فعلا، القول بأن "العلم يفسر" أم أنه فقط يصف؟ لقد طعن الوضعانيون المناطقة ومن قبلهم إرنيست ماخ Ernst Mach (1838-1916) في الافتراض القائل بأن العلم يفسر واعتبروا هذا الافتراض نتيجة لمقدمات ميتافيزيقية". س. يفوت (1997). ص. 10.

2- للوقوف على هذه القراءات، انظر: G / P (1981). ص ص. 53-54. ولنا قراءة أخرى سنعرضها في الفقرة المخصصة للحديث عن بناء النماذج وفي غيرها من الفقرات مما سيأتي.



إلا عملية عقلية. يتصور اللساني أنه كلما حلق في سماوات الافتراض وابتعد عن "خشونة" الواقع، كلما اقترب من الهدف المرسوم. لقد أمكن للسانيات المعاصرة أن تخوض في أمور لا يمكن أن توجد إلا في العقل من مثل البنية والقدرة اللغوية والمتكلم المثالي... إذ لو تصورنا عالما خاليا من العقل لما أمكن لهذه الأمور أن توجد[1].

صحيح أن اللسانيات المعاصرة ظلت تحدوها الرغبة في تحقيق درجة محترمة من العلمية، وصحيح أيضا أن اللسانيين المعاصرين تشبعوا بأفكار العلماء وكانوا على وعي بأسسهم الإبستمولوجية. إلا أن الممارسة دفعت بعض المهتمين إلى التشكيك في حقيقة علميتهم[2]. فثورة صوسور وتشومكسي لا يمكن أن تكون من نفس طبيعة ثورة نيكولاس كوبرنيك Nicolas Copernicus(1473-1543) أويوهان كبلر Johan kepler (1571-1630) كما أريد. فإذا كان كوبرنيك قد نبه العالم إلى أن مركز الكون الثابت الذي يجب أن تتم منه الملاحظة ليس هو الأرض وإنما هو الشمس، فإن استنتاجه هذا قد قام ما يدل عليه في الواقع. بينما يظل تنبيه اللساني العالم إلى وجود البنية ووجود اللغة كترسيمة محفورة في جينات المتكلم مجرد افتراض وليس له واقع يحيل عليه. ويبقى كل ما قاله اللسانيون عن اللغة ليس سوى ما يعرفونه عنها وليس هو اللغة. فهذه حقيقتها غير معروفة حتى الآن.

ولذلك، فإن ثورة اللسانيين، في نظرنا، لا يمكن تصنيفها مع ثورات الفلكيين والفيزيائيين... وإنما هي ثورة بالقياس إلى ما سبقها من محاولات لغوية ليس إلا. إنها مجرد محاولة لإعادة تشكيل الفكر اللساني من جديد.

1- عالم اللسانيات، بهذا المعنى، عالم استدلالي. والمفروض، في هذه الحالة، أن يقتصر نقاش الإبستمولوجيين على القيود التي يجب أن تفرض على هذا الفضاء.

2- ممن شككوا في علمية اللسانيات احمد العلوي. أنظر الفصل الخامس من هذا العمل.



2.6. بلاغة الخطاب اللساني

1.2.6. من عفوية الأشياء إلى سحر المفاهيم

إن سؤال الواقع الذي يحكي عنه الخطاب اللساني المعاصر والذي يفترض أن يكون هو اللغة وما يرتبط بها من قضايا تتعلق بالتعريف والاكتساب والاستعمال وعلاقة التملك من حيث هو قدرة أو إقدار يثير سؤالا آخر هو:" هل يعبر هذا الخطاب عن ذلك الواقع تعبيرا حرفيا أم يعبر عنه تعبيرا مجازيا؟" وإذا سبق لفوكو أن نفى عن كل خطاب خاصية التعبير الحرفي، فما هي طبيعة المجاز الموظف في الخطاب اللساني؟ وبلغة أخرى، ما الأجهزة التصورية والتحليلية المستعملة في هذا الخطاب والتي لا يصرح بها عادة حيث يترك القارئ أو المتتبع نهبا للتأويلات التي لا تنتهي؟ وما طبيعة المفاهيم المعتمدة في بناء النظرية اللسانية؟ أهي أسماء لمسميات مادية كتلك التي يستعملها علماء الطبيعة، أم أنها مواضعات عقلية تشكل نسقا ليس لأي من عناصره أية دلالة إلا داخله؟

قد يبدو وجيها القول: إن التعريف بواسطة الأسماء مسألة تفرض أن يوجد المسمى قبل الإسم، وأن التعريف بواسطة المفاهيم مسألة تفرض أن لا يوجد المسمى إلا بعد اختراع الاسم. ويترتب عن هذه الملاحظة أن المعارف قسمان: معارف قائمة على التسمية، وهي علوم الطبيعة المرتبطة بالعالم المادي، ومعارف قائمة على المفاهيم، وهي العلوم الإنسانية خاصة. وتتميز العوالم التي تخوض فيها هذه الأخيرة بأنها عوالم لا وجود لها إلا كأنساق مفهومية؛ فالذي يميز الفلسفة عن الفيزياء، مثلا، هو أن عالم الأولى لا علاقة له بالواقع المادي، أو، بتعبير إبستمولوجي، لا يبرهن عليه من الواقع وإنما من نسقيته الداخلية فقط. والذي يميز لسانيات تشومكسي عن البيولوجيا هو أن عالم الأولى لا يمكن إخضاعه للتشريح وللإجراءات المعمول بها في البيولوجيا، لأنه هو أيضا عالم مفاهيم.

وقد يفهم من أعمال البنيويين الذين جاؤوا بعد صوسور أنهم تنبهوا إلى هذه الخصوصية. ولذلك، وحتى ينتسبوا إلى العلم الدقيق، قرروا الاهتمام بالجانب المادي



في العملية اللغوية كلها. فكانت البداية باللسان لا باللغة، ثم بالجانب المادي فيه وهو الأصوات بدل الجانب غير المادي وهو المعنى. وفهم "المادي" بأنه ما يمكن إخضاعه للعد والقياس والوزن، أو ما تتدخل الحواس في إدراكه. فكانت السمات الفونولوجية خير تعبير عن ذلك. حتى إن هناك مدارس بنيوية اشتهرت بالتخصص في الفونولوجيا فقط، أو، على الأقل، غلب ذلك على اهتماماتها، كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة براك. وقد لا يصدق هذا الفهم على رائد البنيوية صوسور الذي شغل نفسه كثيرا بالتنظير لمفهوم النسق. ولذلك، فإنه يعتبر، في نظرنا، واحدا من مؤسسي اللسانيات المفهومية رغم أنه ظل يوهم نفسه بأنه يؤسس للسانيات تحترم أعراف العلم الدقيق. ذلك أن النسق المنسوب إليه ليس، في نهاية المطاف، سوى مجرد مفهوم كباقي المفاهيم. وما قلناه عن صوسور ينسحب على لويس هيلمسليف Louis Hjelmsliev (1899-1965) وعلى تشومسكي، وإن اختلف هذا الأخير فإنما اختلف في أمور لا علاقة لها بما نحن بصدده هنا[1].

لكن، هل كان بمقدور اللساني أن يؤسس خطابا ينفلت من قبضة المجاز وسحره الذي يمارسه بإمعان وسوء نية؟ ليس المجاز المقصود هنا هو ما يقصد بالبيان عادة، وإنما هو المجاز الذي يمارس اللبس والتدليس. فمن من صناع الخطاب

1- يظل الإختلاف بين هؤلاء الثلاثة، أو بين البنيوية والتوليدية، عامة، اختلافا في الأطر المرجعية لا في الطبيعة، حيث عمل كل من البنيويين والتوليديين على ترسيخ القول النظري المفاهيمي. يقول أحمد العلوي في هذا الصدد:" من صفات الخطاب اللساني المعاصر أنه قول نظري صرف رغم ما يتكلفه أصحابه من اعتماد مناهج العلوم المحضة وبعض تصوراتها حتى يقع الالتباس بتلك العلوم. ومن صفات القول النظري، أنه قول مخالف للقول الطبيعي المتميز بقيامه على الجوامع أي على كلمات معينة سارية في كل رتب الواقع، وابتعاده المطلق عن المفاهيم التي يمليها قيام القول النظري أو الرمزي الذي هو ابنه... وإذا كان القول الطبيعي كذلك، فإن القول النظري مستقل؛ إذ لا يدخل فيه شيء من غيره، وغيره الواقع. والواقع كلمة من كلمات المعجم الطبيعي. ثم إنك إن فككت قولا نظريا، ومثاله كثير عند العرب واليونان، فلن تجد فيه مقدمة أولى غير محددة من قلب القول النظري نفسه. فإن معتمداته المفاهيم. وكل قول نظري أوله مفهام يختاره الناظر. والقول النظري يلاحق الإنسان وصاحبه منذ الزمن الأول. وهو ذو أشكال مترادفة متتابعة، بينها علاقات وعلاقات. ومنه القول النحوي". ا. العلوي (1987 أ) .



اللساني القائم على صناعة المفاهيم كانت له الجرأة في الكشف عن نواياه الحقيقية؟ إن إخفاء النوايا ليس له إلا تفسير واحد هو سوء النية.

2.2.6. استعارة التمثيل أو تقنية بناء النماذج

1.2.2.6. خصائص النمذجة في اللسانيات

أول الأسس التي أقامت عليها اللسانيات المعاصرة صروحها، سواء أكانت بنيوية أم توليدية، هو الميل إلى بناء النماذج. حتى إنه ليمكن القول: إننا نعيش عصرا يتميز بالتسابق في اتجاه واحد هو بناء وإعادة بناء النماذج. وقد يرى البعض أن هذا اللون من النشاط قد سبق أن مارسه لغويون قبل هذا العصر. إلا أن الإحاطة بمفهوم النموذج كما يتداوله المعاصرون تبين أن نشاط القدماء يظل بعيدا كل البعد عما يمارس اليوم. وبالتالي، فإن تقيدهم برصد الأشياء كما هي أفسد عليهم الاهتداء إلى هذه التقنية التي تظل تقنية معاصرة لأسباب ذاتية ترتبط باللسانيات نفسها، وأسباب موضوعية ترتبط بالجو المعرفي العام الذي أفرز مجموعة من الإبستيمات كان على رأسها مفهوم النموذج[1]. فمن منا لا يتذكر نموذج كبلر أو نموذج كوبرنيك أو نموذج نيوتن أو نماذج أخرى تشكل أسسا ومرجعيات تراعى كلما رمنا معالجة علمية لقضايا تشغل اهتمامنا ونسعى إلى إيجاد تفسير لها؟

1- ينظر المعاصرون إلى النموذج على أنه تقنية يلجأ إليها لتخصيص القوانين العامة. إنه الصورة المبينة والمجسدة للنظرية. أو هو تقنية يسعى من خلالها إلى تقديم صورة من الصور الممكنة للنظرية. ويمكن القول إن بناء النماذج هو الحل المقترح لتجاوز المشكل العام الذي يعاني منه بناء النظريات، وهو مشكل العلاقة بين النظرية والواقع. وهكذا، فإذا كانت النظريات عبارة عن بناءات مجازية (لا تعبر عن الواقع المباشر)، فإن النماذج يمكن أن تعتبر فضاءات تمثيلية. فهي منطقة وسط بين النظري المجرد والواقع المحسوس.
وتعني النمذجة في اللسانيات "بناء أجهزة تصوراتها محكومة بالنظرية اللسانية التي يراد إيضاحها. أجهزة يتلاءم مضمونها مع المعطيات. النمذجة إذا طريقة لتفعيل النظرية، طريقة تمكن من تقويم كفاية النظرية ومدى قدرتها على تفسير الظواهر اللسانية". Universalis . مادة Modèle. الجزء 11. ص. 129.



وبخصوص الأساس المعرفي لمبدإ اللجوء إلى بناء النماذج اللسانية، يرى ج. س. ليبشي G.C. Lepschy "أن أساس ذلك هو القول بوجود تناظر بين النموذج وبين مظاهر الظاهرة المدروسة. وهو قول يقتضي تجريد هذه المظاهر التي تعتبر واردة، في مقابل مظاهر أخرى ليست واردة. ثم يتم اختيار الأولى على أساس اشتراكها في خصائص معينة. وللإشارة، فإن المظهر الوارد هو الذي لا يختص بفرد واحد وإنما بأفراد متعددين[1]".

والذي قد يلاحظ هو أن تاريخ اتصال اللسانيات بتقنية النمذجة تاريخ قصير إذا قيس بتاريخ اتصال علوم أخرى بها. لكن هذا ليس مهما، وإن كان له تأثير في مدى استقرار المفهوم أو عدم استقراره. فالمهم أن ما يمكن أن يشكل المدخل الرئيسي لدراسة الأنساق اللسانية ليس هو البحث عن مدى الأخذ بتقنية النمذجة أو عدم الأخذ بها، فهذه من الأمور المسلم بها ولكنه البحث عما يمكن أن يوجد من تفاضل بين هذا النموذج وذاك. إن الاشتغال بالنوع الأول من البحوث أمر لا قيمة له من الناحية المعرفية. لكن معرفة التفاضل بين النماذج اللسانية أمر له دلالة معرفية ويقتضي القيام به الاستعانة بما توفره الابستمولوجيا من أدوات استراتيجية؛ كمفهوم "الميطانموذج" (métamodèle) ومفهوم "الميطانظرية" (métathéorie) على سبيل المثال.

من الإشكالات التي لابد من إثارتها، ونحن نختزل الحديث، هنا، عن اللسانيات المعاصرة إلى حديث عن لسانيات النماذج، الإشكال : إلى أي حد انضبطت هذه اللسانيات للمبدإ الإبستمولوجي العام الذي يرى أن كل عصر علمي يتميز بسيطرة نموذج عام يشكل هو والنماذج الخاصة ما يشبه المنظومة الشمسية ؟ حيث النموذج العام هو المركز الذي يؤثر في بقية النماذج إلى درجة أن العصر العلمي الواحد، وبكل تفاصيله التي تمثلها العلوم الأطراف، يمكن أن يحمل اسم النموذج

1- Lepschy (1966)، ص ص. 22-23.



المسيطر أو النموذج الرأس[1]. فالنموذج الذي كان مسيطرا في القرن التاسع عشر، مثلا، هو النموذج الدارويني الذي يتصور الأشياء على أنها نتائج لتطورات متلاحقة. سيطرة هذا النموذج هي التي أفرزت في ذلك القرن ما نعرفه من لسانيات تاريخية ولسانيات مقارنة تسعى إلى معرفة الأصول وكيف تطورت إلى فروع. ومع بداية القرن العشرين ساد نموذج آخر هو النموذج الفيزيائي الذي بلغ من الدقة والوضوح ومن البساطة والتجريد والشمول ما لم يبلغه نموذج آخر. فكان لذلك أثره الواضح على لسانيات القرن العشرين سواء على مستوى التنظير أو على مستوى المنهج.

ومع ذلك، فإن السؤال الذي طرحناه في الفقرة أعلاه يظل سؤالا واردا مادام أن التقيد بمبادئ النموذج العام يختلف من مدرسة لسانية إلى أخرى، بل ومن لساني إلى آخر داخل نفس المدرسة. مما يعني، مرة أخرى، أن عملنا في النهاية لن يخرج عن دائرة العمل الميطانموذجي والميطانظري. لكن ما هي خصائص النموذج اللساني؟

سوف يتم التركيز، في جوابنا، على أهم هذه الخصائص، وهي الخصائص التي تجعل النموذج اللساني يحظى بالقبول من قبل الإبستمولوجيين المهتمين بظاهرة النمذجة في العلوم. هذه الخصائص هي: الانسجام أو عدم التناقض، والتعميم والتجريد والبساطة والصورنة.

أ- الانسجام

لوحظ على أعمال اللغويين القدماء أنها تصنف، وهي لا تفعل شيئا سوى التصنيف والتبويب، العنصر الواحد وفق معايير مختلفة، مما يؤدي إلى تصنيف ذلك العنصر في أكثر من خانة وأكثر من باب؛ كأن يعتبر اسما وفعلا أو معرفة ونكرة... في نفس الآن. كما لوحظ على استدلالاتهم بأنها استدلالات لا تتقيد بما

1- ما سميناه "النموذج الرأس" هو ما يسميه فوكو "الإبستيمة" ويعني به الأفكار العامة التي تهيمن في مرحلة علمية ما (أنظر Foucault (1969)). وهو ما أسماه طوماس كون Thomas Kuhn (1922-1996) "النموذج الإرشادي" (أو البارادايكم) وما أسماه. إمري لاكاطوس Imre Lakatos (1922-1974) "برنامج البحث"= =(انظر السيد نفادي (1996)). وما يسميه غيرهم "النسق المعرفي المهيمن" و"المناخ الثقافي" و " روح العصر" (أنظر زكي نجيب محمود (1990)).



يفرضه الموضوع أو يسمح به المجال اللغوي. فيخرجون عن هذا المجال بحثا عن اصطياد قرينة أو ذريعة أو مبرر يبررون به وجها من الوجوه. حتى إن بعض كتبهم، على سمنتها، لا تضم إلا النزر اليسير مما يمكن أن ينعت بأنه عمل لغوي. هذه الملاحظة هي التي ستملي على المعاصرين مبدأ التقيد بأحادية المعايير الذي أملاه مبدأ آخر هو محاولة رصد الظاهرة لا العنصر. هذا المبدأ كان غائبا وغير معروف.

ورغبة في تحقيق قدر أعلى من الانسجام في استعمال المعايير، كان لابد من إعادة النظر في المفاهيم وفي طرق صياغتها. كما كان لابد من وضع خريطة جديدة يعاد فيها رسم الحدود فيما بين المناطق على مستوى السطح وفيما بين الطبقات على مستوى العمق، وذلك حتى يتم رصد الظواهر سطحا وعمقا رصدا دقيقا.

حينما ميز صوسور بين اللغة واللسان والكلام فإنه فعل ذلك بدافع الرغبة في تحقيق أشياء كثيرة منها الانسجام وحماية أحكامه من الوقوع في التناقض. ونفس الشيء يقال عن الغايات التي توخاها من وراء كل ثنائياته المشهورة. وحينما ميز جاكوبسن بين عناصر الخطاب التواصلي، وميز تروبتسكوي بين الفونيم والصوت، وميز هيلمسليف بين العبارة والمحتوى، وميز التوزيعيون بين التوزيع التكاملي والتوزيع غير التكاملي، وميز تشومسكي بين القدرة والإنجاز وبين النحوية والمقبولية.. . حينما ميز كل المعاصرين بين مستويات التحليل التي هي الصوت والتركيب والدلالة[1]... إنما فعلوا ذلك كله من أجل أن لا يقعوا في الخلط (مبدأ الوضوح) أو فريسة للتناقض الذي يهدم كل البنيان. من السهولة بمكان أن يهضم المرء معنى "عدم التناقض"، لكن من الصعوبة بمكان التقيد به طيلة عملية البحث وبناء النسق أو النموذج.

شدة تقيد صوسور بمبدإ الانسجام الذي يعتبر أساسا أوليا هي التي دفعته إلى بذل جهد كبير لاستخلاص الظواهر التي تشكل موضوعا محضا للسانيات من

1- يؤكد تشومسكي على أن المفهوم المركزي في النظرية اللسانية هو مفهوم "المستوى اللساني". ويقيس كفاية نظرية لسانية ما بقدرتها على بناء أنحاء كل منها عبارة عن مستويات تحددها هذه النظرية. انظر التفاصيل في Chomsky (1957) ص ص. 13-14.

بين ركام الظواهر ذات الطبائع المختلفة التي تجمعها كلمة "لسان". فإلى جانب ما هو لساني صرف، هناك ظواهر أخرى ترتبط باللسان أو تلتبس به لكنها ليست منه، كالثقافة والفكر والتاريخ والجغرافيا والحضارة والدين... شدة تقيد صوسور بهذا المبدإ هي التي كانت سببا أيضا في تحريك منتقديه، ومنهم بنفنيست الذي اعترض على صوسور في تمييزه بين ما هو سانكروني وما هو دياكروني[1]. لقد بنى صوسور نسقه على الثنائيات وهو يعي أن الخطاب العلمي لا يمكن أن يكون إلا خطابا واضحا، وأن الوضوح يقتضي تحديد المفاهيم ووضع الإستراتيجيات أو بناء المناهج. فالتمييز بين السانكروني والدياكروني أو بين اللسان والكلام ليس تمييزا قائما على أسس أنطولوجية ولكنه قائم على أسس منهجية فقط. هو تمييز اصطلاحي ليس إلا. وحينئذ تكون العبرة بالنتائج لا بالمنهج. وهذه نقطة نسجلها على بنفنيست رغم أننا نشهد له، كغيرنا، بالذكاء والعمق. ومن النتائج التي أفضى إليها التمييز بين هذه الثنائيات، زيادة على التوفيق في تحديد موضوع البحث اللساني، ظهور علوم جديدة تجاور اللسانيات البحتة وتتداخل معها كالإثنولسانيات والسوسيولسانيات والسيكولسانيات... ولم تكن اللسانيات البنيوية في الأساس سوى تخصيص يسعى إلى تحقيق شيء من التميز مقارنة مع هذه العلوم المتاخمة.

كما أن شدة تقيد تشومسكي بمبدإ الانسجام كانت واحدا من بين أسس أخرى دفعت به إلى التمييز بين ما ينتمي إلى النحوية وما ينتمي إلى المقبولية، بين ما ينتمي إلى القدرة وما ينتمي إلى الإنجاز... إذ من غير المقبول تعددية المعايير؛ كأن تعير الجملة بمعيار النحوية تارة ومعيار المقبولية تارة أخرى. هذا في الوقت الذي يكون فيه المقصود هو معرفة نحويتها أو لا نحويتها، فيتوصل، جراء ذلك، إلى حكمين متناقضين: نحوية ولا نحوية في نفس الآن.

يفرض شرط الانسجام أن ينسجم النموذج مع نفسه أولا (الإنسجام الداخلي) وأن ينسجم مع الوقائع التي يفسرها أو يتنبأ بها (الانسجام الخارجي) ثم مع ما هو معمول به في العلوم (الانسجام الإبستمولوجي).

1- أنظر: Benveniste (1966)، ص. 9.

ومن الأمثلة التي يمكن سوقها عن غياب الانسجام ما حصل للنموذج البيهافيوري الذي تناقضت تصوراته مع الواقع. الأمر الذي أدى إلى التشكيك في قيمة علم النفس التجريبي برمته. وهي أول مرة في تاريخ اللسانيات المعاصرة يتم فيها التشكيك في تصور يدعي العلمية نتيجة عدم تلاؤمه مع المعطيات التي جمعها هو بنفسه. وهي أول مرة، أيضا، يكون فيها علم من العلوم التي خاضت في اللغة قد أطاح بنفسه.

ومن الأمور المتعارف عليها في ميدان التنظير وبناء النماذج والتي لابد من الإشارة إليها هي أن تناقض النموذج مع المعطيات قد يكون سببه هو الإخفاق في تحديد المعطيات التي يفترض أن تكون هي بدورها منسجمة، أو في عدم قدرتنا على تأويلها تأويلا لا يتناقض مع النموذج. وفي جميع الأحوال، فإنه يجب أن لا يفهم أن للنموذج سلطة مطلقة على المعطيات. فالسلطة متبادلة. ويفرض استقواء جانب على جانب آخر مراجعة الجانب الضعيف حتى تحصل أعلى درجة من الانسجام.

ب- التعميم

يقتضي هذا المبدأ أن يبني اللساني نموذجا للشيء في بعده المجرد لا المحقق، أي للظاهرة وليس للأشياء التي تتحقق بها. الظاهرة باعتبارها نسقا لا باعتبارها مادة فيزيقية. لأن الظاهرة، في بعدها النسقي، أعم وأشمل؛ فالسمات الأساسية للظاهرة موجودة في النسق لا في الفعل. وكل ما يطلب من النموذج، في هذه الحالة، أن يكون سلوكه مستوعبا لسلوك الشيء الذي يمثل له. ليس معنى الاستيعاب الانعكاس المرآتي ولكنه التضمن والتنبؤ. وإذا كان النموذج اللساني قد صيغ للظاهرة اللسانية، فإن معنى ذلك أن المادة التي صيغ منها ليست هي نفس مادة الأشياء أو الوقائع الفعلية. معنى ذلك، أن نموذج تصريف الأفعال في العربية، مثلا، ليس هو ما ينتجه المتكلم العربي بالضرورة، ولكنه ما يتلاءم مع النسق.

إن مبدأ التعميم هو الذي دفع باللسانيين، عامة، إلى الاهتمام بإبراز خصائص بنية الشيء الأساسية، مما سمح ببناء نظريات تستوعب عددا كبيرا من الوقائع الموجودة وتتنبأ بأخرى. والرغبة في بناء أحكام تتمتع بقدر أعلى من التعميم



هي التي ستجبر اللساني على مراجعة نظريته باستمرار وعند كل لحظة يتم فيها الاصطدام بواقع جديد لا تستوعبه النظرية. ذلك ما حصل عند تشومسكي، مثلا، حتى إنه ليمكن القول: إن تاريخ النظرية التوليدية، التي يعتبر رائدها، تاريخ نماذج ينسخ بعضها بعضا؛ فالنموذج المعيار، مثلا، هو نموذج تم بناؤه قصد استيعاب الدلالة كمعطى فاعل في إبراز قدرة المتكلم على إنتاج وفهم الجمل، وقصد تحقيق قدر أعلى من التعميم[1]. وما قيل عن ذلك يقال عن الأسس أو الأهداف التعميمية التي تقف وراء فرضيات توليدية أساسية؛ كالفرضية التحويلية و الفرضية القاعدية والفرضية التركيبية والفرضية المعجمية وغيرها. بل إن لسانيات الكليات نفسها، والتوليدية نموذج منها، ما هي إلا نتيجة لتصور النموذج اللساني على أنه لن يكون عملا علميا إلا إذا توخى التعميم. فما يقبل التعميم هو ما يقال عن المتكلم المثالي لا المتكلم الفعلي، ما يقال عن اللغة قبل اللسان، وما يقال عن اللسان قبل الكلام. فكلما صعدنا في سلمية التعميم (من الكلام إلى اللسان فإلى اللغة) كلما اقتربنا من جوهر النظرية اللسانية ومجالها.

إن مقياس التعميم هذا لا يتعارض مع مقياس البساطة الذي يعني، فيما يعنيه، تجزيء الكل لضرورة يقتضيها المنهج فقط؛ فالاهتمام بالمستويات المكونة للسان الهدف منه دائما هو تحديد اللسان، والاهتمام بالألسن كان الهدف منه هو تحديد اللغة التي ترتبط بالذكاء البشري عموما.

وتختلف درجة التعميم ما بين نظرية لسانية وأخرى. ونقصد بذلك أن هناك من النظريات ما توقفت عند حدود اللسان كما هو معروف عن النظريات البنيوية بصفة عامة، ومنها ما ارتقت في سلم التعميم إلى درجة قصوى؛ كالاهتمام باللغة،

1- بشر تشومسكي بنظريته في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي. وتبعا لضغوط الواقع وما تفرضه النمذجة من مواكبته، عرفت هذه النظرية مجموعة من النماذج هي بالترتيب الكرونولوجي: النموذج ما قبل المعيار (1957) والنموذج المعيار (1965) والنموذج المعيارالموسع (1968) والنموذج المعيارالموسع والمراجع (1972) ونموذج العاملية والربط (1978) إلى أن نصل إلى النموذج الأخير وهو "البرنامج الأدنوي" الذي تم تطويره في التسعينات من القرن الماضي.



وهو ما عرف عن التوليدية. مما يعني أن من الأسس التي يقوم عليها تحديد موضوع الدرس اللساني: أهو اللسان أم اللغة، هناك الرغبة في تشخيص العام، في الحالة الأولى، والأعم في الحالة الثانية. مما يعني، أيضا، أن النماذج البنيوية نماذج تمثل لما هو عام وهو اللسان في مقابل الكلام، وأن النماذج التوليدية تمثل لما هو أعم وهو اللغة في مقابل اللسان.

ج-البساطة

بينا في الفقرة أعلاه أن النموذج يكون للظاهرة المؤمثلة. لأن ما هو عيني أو متحقق يكون مركبا ومعقدا إلى أقصى الحدود. وحتى تفهم الظاهرة لابد من أن نبدأ في دراستها بما هو بسيط.؛ نبدأ بالبسيط فالمعقد فالأشد تعقيدا، كما يقتضي المنهج الديكارتي. فما يطرح على الباحث اللساني ليس هو ما يطرحه اللسان مباشرة، ولكنه مجموع المشاكل المفترضة والمبسطة والتي لا نصادفها عمليا بالشكل الذي بنيناها به.

ومن مظاهر البساطة في المقاربة اللسانية المعاصرة، تجزيء الظاهرة إلى أجزاء أو إلى مستويات؛ بمقاربة كل منها تتم مقاربة الظاهرة. ومما يرتبط بمقياس البساطة مقياس الشمول الذي يعني قدرة النموذج على تغطية أكبر عدد ممكن من الظواهر (الكفاية الملاحظية)، ومقياس الأناقة كالذي اعتمده تشومسكي في المقاربة القالبية (approche modulaire) ، مثلا، وهي المقاربة المدافع عنها في إطار النظرية التوليدية في نموذجها العاملي[1].

1- "المقاربة القالبية مقاربة تفسح المجال لبعض الأوصاف الأنيقة التي يمكن أن تتم بها معالجة بعض الظواهر اللسانية، وتقدم افتراضا أكثر احتمالا لعملية اكتساب اللسان. فهي برنامج يأخذ بعين الاعتبار اكبر عدد ممكن من مكونات اللغة أثناء التفسير والوصف". (انظر التقديم الذي قدم به ألان روفري Alain Rouvret كتاب تشومسكي la nouvelle syntaxe في ترجمته الفرنسية. ص 52). والقولبة فرضية بموجبها يقال:" إن تعقد الوقائع اللغوية يمكن اللجوء في تفسيره إلى تداخل النظريات أو النظريات الفرعية المستقلة نسبيا. حيث إن لكل منها تنظيمه التجريدي ومبادئه الخاصة. وتسمى كل نظرية فرعية في هذه الحالة "قالبا" module. .. ولذلك، فإن الأنحاء التي تستعمل نوعا واحدا فقط من القواعد (كالقواعد المركبية أو القواعد الدلالية...) لا يمكن أن تحل المشاكل اللغوية". Ronat (1986). ص. 10.



من مبادئ البساطة، في اللسانيات، أنه كلما كان عدد القواعد أقل والوقائع المغطاة أكثر، كلما ارتفعت درجة بساطة النموذج. ومن مبادئها أيضا، أنه كلما كان النموذج بسيطا، كلما كانت قدرته التفسيرية كبيرة. لكن مطلب البساطة هذا يظل مهددا بالتحدي الذي تشكله صعوبة التوفيق بين الرغبة في تفسير أكبر عدد ممكن من الظواهر والرغبة في تحقيق ذلك التفسير بأكبر دقة ممكنة. الأمر الذي قد يؤدي إلى تعقد النموذج (ضرب مبدإ البساطة)، ومن ثم غموضه (ضرب مبدإ الوضوح). فمن الضروري، إذا، البحث عن أكبر قدر ممكن من التوافق بين القدرة التفسيرية وبين التجاوب مع المعطيات؛ بين الكفاية التفسيرية والكفاية الملاحظية. علما بأن النموذج، في طبيعته، لا يستهدف سوى نسبة محدودة من المعطيات التجريبية مهما حاول.

لقد قدم صوسور، في نموذجه، تصورا للسان قائما على فكرة النسق، دون أن يكون الهدف، فيما نفترض، هو التبشير بالفكرة. فقد سبقه آخرون إلى هذا الاكتشاف، وإنما ليبسط مفهوم اللسان وذلك بعزله عن أنساق أخرى تتداخل معه فتعقده. وهذا ما أضفى على صوسور صفة الرائد. نفس الملاحظة يمكن التنبيه عليها بخصوص تشومسكي الذي سجل لصوسور هذا السبق في كل أدبياته واستثمره في أعماله المخصصة لعرض التصور القالبي للنحو. وحتى التفسير البيولوجي للغة الذي يتبناه يمكن أن يفسر على انه وسيلة من جملة وسائل أخرى توسل بها لتبسيط موضوع الدراسة الذي هو معرفة المتكلم باللسان، حيث لا تختلف اللغة كعضو بيولوجي عن بقية الأعضاء البيولوجية الأخرى. إذ هناك فرق بين قولنا:" إن اللغة عضو بيولوجي"، وقولنا:" إن اللغة تعبير عن العالم". فرغم أنه يمكن أن تكون هناك قراءات متعددة للقول الأخير، إلا أنه يظل قولا ميتافيزيقيا مادام أن العالم الذي يدعي التعبير عنه عالم لا نعرفه حق المعرفة إلى درجة أن التعبير عنه يختلف من جماعة إلى جماعة بل ومن شخص إلى آخر [1].

1- يفترض همبولدت أن اللسان هو مستودع ثقافة الأمة وتصورها للعالم، وأن اختلاف الألسن يعكس اختلاف تصوراتنا لهذا العالم، حتى إنه قال باستحالة الترجمة. انظر أ. شاف A. Schaff (1964). الفصل الأول. ص ص. 15-45. وأيضا: أ. ديكرو O. Ducrot (1968). الفصل الأول. ص ص. 16-42.



الهروب من الميتافيزيقا الذي يمكن أن يلاحظ عند البنيويين، خاصة، يمكن أن يفهم على انه هروب من التعقيد نحو التبسيط. هنا يرتبط مقياس البساطة بمقياس الوضوح. فالبسيط هو الواضح والمعقد هو الغامض. والذي يبدو هو أن مبدأ البساطة ظل عند اللسانيين مرتبطا بالمنهج ولا علاقة له بما هو أنطولوجي أو بما هو موجود.

د- التجريـد

من مبادئ المعرفة العلمية تجريد الظاهرة المبحوث فيها من كل الملابسات والظروف المحيطة بها. وذلك بعزلها حتى ينتفي ما عداها. وهو أمر يصعب تقبله بمقياس الواقع طبعا. ومن المفارقات التي ينبه إلى وجودها في هذا الموضوع أن العلم لا يفسر الواقع أو يصوره إلا بعد التخلص منه[1].

ومن أبرز الأمثلة على التجريد في المقاربة اللسانية الفرضية التي مفادها أن عدد جمل اللسان لا حد له، وأن طول الجملة الواحدة غير محدود مبدئيا، رغم أننا لا نتكلم إلا جملا محدودة في الطول وفي العدد. لكن، وحتى يمكن تفسير قدرة المتكلم، كان لابد من بناء نموذج يستوعب ما هو قائم ويتنبأ بما يمكن أن يقوم. ولا يمكن للنموذج أن يحقق هذه الغاية إلا إذا استهدف التمثيل لمعرفة المتكلم اللغوية وقدرته اللامحدودة على إنتاج وفهم الجمل بعيدا عما يقدمه الواقع الذي يشكل ضغطا وقيدا على اللامحدود ليجعله محدودا. ومن نتائج ذلك أن النحو الذي يقترحه لا يشتمل على أية قاعدة تحد من طول الجملة أو من عدد الجمل التي تتنبأ بها رغم أن الجمل التي ينتجها المتكلمون هي جمل محدودة نظرا لتدخل عوامل لا تنتمي إلى النسق كالوقت والعياء والنسيان...

1- يقول تشومسكي، في هذا الخصوص:" ونحن نعيد بناء العالم، نتخلى عن كثير من خصائصه التي لا تخدم هدفنا، فننتج عالما يرضينا وليس هو الحقيقة بالضرورة؛ عالما أساسه التجريد". Chomsky (1980) ص. 306. ويقول، أيضا:" لكي تستمر اللسانيات في مسيرتها، لابد من أن تعتمد على بناء التجريدات والتصورات المؤمثلة". نفسه. ص. 305. ولهذه الأقوال وأمثالها أصول تمتد إلى الفلسفة، قبل العلم، فمن منا لا يتذكر المبدأ الكنطي المعروف: القول المتعلق بالشيء في ذاته قول مستحيل؟



وما قلناه عن أمثلة (بفتح الثاء) لا محدودية الجمل نقوله عن أمثلات أخرى، كأمثلة المتكلم[1]، وأمثلة النحوية[2]، وغيرها من الأمثلات التي تمتليء بها أدبيات اللسانيين المعاصرين وتحتل مكانا مهما داخل جهازهم المفاهيمي.

إن المفاهيم المعتمدة في النموذج المجرد لا ترتبط، عادة، بالأشياء الموجودة، ولكنها تخص الأشياء المؤمثلة. ولذلك فهي لا تستخلص مباشرة من التجربة على اعتبار أنها سلوك مضلل أو قاصر على الأقل، ولكنها تبنى بعيدا عن التجربة وانطلاقا من فرضيات عامة تعلو على الواقع. وإلا فأين الواقع في فرضية لسانية كالفرضية التحويلية التي تزعم أن المتكلم يولد جملا ذات بنى عميقة ثم يتخلى عنها أو يخفيها بإظهارها في بنى أخرى مخالفة؟ ألا يعتبر ذلك عبثا من وجهة نظر واقعية[3]؟ وأين الواقع في الفرضية الفطرية؟ وفي فرضية الفونيم كما نجدها عند صوسور وعند لسانيي براك الذين صاغوها دونما إحالة مباشرة على المادة الفوناتيكية؟ وأين الواقع في فرضيات أخرى كثيرة، بنيوية وتوليدية، لسنا بصدد عرضها هنا؟

والذي تجب الإشارة إليه، مرة أخرى، هو أن الأمثلة أو التجريد في النموذج اللساني لم تمله الضرورة الفلسفية، وإن كنا لا نعدم وجود بعض ملامح أسسه الفلسفية التي قد تمتد إلى أفلاطون Platon[4] (427-347 ق.م) مرورا بفلاسفة النهضة وصولا إلى الفلاسفة المحدثين والمعاصرين، وإنما أملته، بالأساس، ضرورة أخرى هي الضرورة الإبستمولوجية. فلقد تشبع صوسور، نسبيا، بأفكار وضعيي

1- انظر تعريف هذه الأمثلة في Chomsky (1965) ص. 12.

2- نفسه. ص ص. 12-22-23-36.

3- وبالفعل، فلقد شكك جماعة من علماء النفس في واقعية التحويلات كمكون من مكونات النحو المستبطن. انظر على سبيل المثال ج. ميهلر J. Mehler و ج. نوازي G. Noizet (1973)، وأيضا ج. هاجيج G. Hagège (1976).

4- صحيح أن تصور اللغويين يقترب من تصور أفلاطون للمثال؛ فهو يتصور أن العلاقة بين المحسوسات والمثال علاقة بين الكثرة والواحد. إذ لا يترتب عن كثرة المحسوسات الكثرة في المثل. ويبدو أن الأمر كذلك بالنسبة للقاعدة النحوية. فهي تقنين للمثال الذي يتولد عنه المحسوس المتعدد وهو الكلام.



القرن التاسع عشر وعلماء ذلك القرن، واستجاب لما كان يطلب في الممارسة العلمية بعد ان بدا له أن أعمال التاريخانيين والمقارنين لا تفي بالغرض ولا تحقق الهدف الذي هو تأسيس علم مستقل. كما تشبع تشومسكي بأفكار فلاسفة العلم أمثال ك. بوبر وعلماء من مختلف التخصصات كعلماء علم النفس الإدراكي وعلماء بيولوجيا الدماغ (بيولوجيا الأعصاب). إن حضور الإبستمولوجي في الخطاب اللساني المعاصر لا يمكن أن تخطئه الملاحظة، بل إنه صار تخصصا من التخصصات المواكبة التي ساهم فيها اللسانيون بدورهم. ومؤلفات صوسور وهيلمسليف وتشومكسي مثلا شاهدة على ذلك، إذ لا يخلو أي منها من تناول المقدمات النظرية والإطار الإبستمولوجي الذي ستعالج فيه القضايا[1].

هـ - الصورنة

تبنى النظرية ومفاهيمها، كما قلنا، بعيدا عن الواقع[2]، وانطلاقا من فرضيات عامة معمول بها في جميع العلوم (الكفاية الإبستمولوجية). وكل نموذج هو عبارة عن بناء مستنبط منطقيا من فرضيات بواسطة جهاز رياضي محدد[3]. ولا يفهم من الرياضيات، هنا، مجرد استخدام عملياتها أو شكلها الخارجي وإنما المقصود هو استخدام منطقها الداخلي، وأهم ما فيه أن عباراتها لا تحيل إلا على نفسها ولا تخبر عن العالم الخارجي، حتى إن ب. راسل كان قد وصف قضاياها

1-انظر على سبيل المثال : Saussure (1916) و Hjelmsliev (1943) و Chomsky (1966) وChomsky (1968) و Chomsky (1980)...

2- يقول روفي :" إن الدرس الذي يمكن استخلاصه من لسانيات اليوم هو ذلك الذي يقول: إن معرفة الواقع يجب أن تمر عبر الصورنة المتقدمة؛ فالواقعية التي تتعارض مع التوجهات اللسانية الحديثة ترتبط بصياغة توقفت في الطريق. ويفهمنا أصحاب التحليل التحويلي وكذا أصحاب التحليل الدلالي، وبأصوات مختلفة، واعتمادا على كلود ليفي ستراوس، أنه إذا كان قليل من التجريد يبعدنا عن الواقع فإن أكثره يقربنا منه". Ruwet (1964). ص. 310).

3- "يلجأ، في اللسانيات، إلى النموذج الرياضي لاستثمار إمكانياته التمثيلية قصد إبراز الطريقة التي يشتغل بها الجهاز التركيبي للسان. ويلجأ إلى النموذج الفيزيائي لاستثماره في بناء نموذج للمتكلم المستمع... قادر على إنتاج الجمل تماما كما يفعل الإنسان" (Lepschy (1966)، ص ص. 21-22).



بأنها لا تقول شيئا أو أنها من باب تحصيل حاصل[1]. كما أن عباراتها لا تقبل التأويل أو تعدد القراءات. وهي صادقة في ذاتها ولا ترتبط بالإدراك الحسي... هذه الخصائص، إلى جانب أخرى[2]، جعلت من النموذج الرياضي أرقى النماذج الصورية وأعز ما يطلب منها. بل إن النموذج، أي نموذج، لا يحقق مبدأ الصورنة، وهو مطلب علمي حاسم، إلا إذا استوعب النموذج الرياضي، ليس باعتباره إجراء تقنيا فقط، وإنما باعتباره، أيضا، عقيدة تمس الهيكل من الداخل وتقوي نسقيته. من ذلك، مثلا، أن يتوفر النموذج اللساني على عناصر اللسان الأولية وعلى قواعد استعمالها، فيتوصل بذلك إلى بناء ما لا حصر له من الجمل أو من العمليات. ومن ذلك، أيضا، أن اللغة التي تصاغ بها مفاهيم النموذج لغة دقيقة ومحددة، وأن قواعد البناء التي يقترحها قواعد صارمة ولا تقبل الاحتمال. مما يسمح ببناء أمثلة واضحة يمكن أن تستخدم حينما نروم دحض النموذج. ولا علاقة، طبعا، بين دقة وصرامة النموذج وبين صدقه.

وبخصوص الصرامة والدقة الصورية، يجب أن تقدم النماذج في أشكال شبيهة بالأشكال الهندسية من حيث الجوهر. أشكال تعتمد رسم الظواهر، وهي عملية تجريدية، وتنظيم الأحداث الحاسمة لتجربة ما تنظيما منطقيا، حيث B تتولد عن A و C تتولد عن B... هكذا يمكن الوصول إلى بناء نماذج تكون خطوة وسطا بين المحسوس والمجرد، حيث يتم السعي إلى الربط بين الرياضي والتجريبي، وبين القوانين والوقائع. إن الإحساس بضرورة بناء النماذج على هذه الصورة هو الذي كان وراء النزوع إلى القيام ببناءات مجازية أكثر منها حقيقية، واللجوء إلى الفضاءات التمثيلية حيث الفضاء الحسي ليس، في نهاية المطاف، سوى فضاء فقير. وإذا كان دور الرياضيات في الفيزياء قد تجاوز الوصف الهندسي البسيط، فإن

1- يسمى هذا النوع من القضايا عند المناطقة بالقضايا التحليلية، أو الطوطولوجية. أنظر زكي نجيب محمود (1990). ص. 119. وأيضا Lecourt (1981). الفصل الأول. ص ص. 27-86. وكذلك Malherbe (1979)، ص.ص. 47-48.

2 - بخصوص خصائص الرياضيات، انظر الجزء الأول من راسل (1903).



النزعة الرياضية في اللسانيات لم تعد تقنع بالوصف وإنما صارت نزعة إنشائية تكوينية، نزعة تنتج المعرفة ولا تكتفي بعرضها. وهو ما سمح للسانيات في النهاية، وخاصة مع التوليديين، بتجاوز السؤال الوصفي ذي الأساس الفينومينولوجي والانتقال إلى السؤال التفسيري ذي الأساس العلمي.

لقد شاع الوعي، وسط اللسانيين المعاصرين، بأهمية الصورنة والترييض منذ صوسور الذي تصور أن اللسانيات ما هي، في النهاية، إلا نظرية صورية تدرس أشياء مؤمثلة لا تستخلص مباشرة من وقائع ملاحظة، رابطا بين اللسانيات والرياضيات التي لا تهتم بالطبيعة الفيزيقية للموضوعات التي تدرسها، إلى درجة أنه في سنة 1894، وكما قال روبير كودل Robert Godel (1906-1970):"توصل إلى فكرة أنه يمكن التعبير عن العلاقات العميقة، القائمة بين وحدات اللسان بواسطة الصيغ الرياضية. الأمر الذي أدى به إلى التقريب بين اللسانيات وبين الجبر والهندسة، وإلى الاقتناع بإمكانية بناء نظريات لسانية قابلة لأن تصورن بشكل رياضي [1]". وبعد صوسور هناك بلومفيلد الذي رأى " أن للرياضيات موقعا يميزها عن باقي العلوم؛ فهي تقنية تمكن من صياغة فرضيات تكون قادرة على تقديم إجابات منسجمة. ويمكن اعتبار الحساب المنطقي والصياغة الفونيمية اللذين يقدمهما اللسانيون عملا رياضيا[2]". وبعد بلومفيلد هناك هاريس الذي علق تشومسكي على نموذجه قائلا:" إنه نموذج يمكن اعتباره مجرد موضوع رياضي خاص" [3].

إلا أن ما يطرحه مطلب الصورنة على اللساني هو كيفية التوفيق بين الرغبة في تفسير الظاهرة اللغوية والرغبة في أن يتم ذلك بواسطة نموذج مصورن يحكمه منطق الرياضيات التي لا تخبر بطبيعتها عن أي واقع كما بينا سابقا.

1- Godel (1957). ص. 44.

2-Corneille (1976).ص. 199.

3- نفسه. ص. 48.

2.2.2.6. وسائل تقييم النموذج

من الأمور التي ترتبط بخصائص النمذجة، هناك وسائل تقويم النموذج، ومن أهمها:

أ- **القدرة التفسيرية؛ يكون النموذج ذا قدرة تفسيرية:**

- إذا استطاع أن يفسر وقائع تجريبية لم تستطع النماذج الأخرى تفسيرها؛
- إذا استطاع أن يتنبأ بسلوك الظاهرة المدروسة وفق ما ستؤكده الملاحظة والتجربة الجديدة. أي إذا كانت تنبؤاته قريبة جدا من الواقع.

في اللسانيات المعاصرة أمثلة كثيرة على الحالتين أعلاه، ومنها ما سبق لصوسور أن قدمه في ثمانينيات القرن التاسع عشر من فرضيات حول نسق الصوائت في الألسن الهندأوربية لم تتأكد إلا بعد وفاته[1]. ومنها أيضا ما يبدو أنه يتأكد يوما بعد يوم من سلامة فرضيات تشومسكي حول الأسس البيولوجية لاكتساب اللسان. ترتب عن فرضيات صوسور تلك خلق إمكانات تجريبية واسعة كان ل.ف. شيربا L.V. Scerba أول من نبه إلى أهيمتها[2]. كما ترتب عن فرضية تشومسكي فتح مجال واسع للنقاش الجدي حول تكامل المعرفة فيما بين اللسانيات وعلوم أخرى تتقاطع معها في نفس الاهتمام، كعلم النفس الإدراكي وبيولوجيا الدماغ. إن مفهوم "النحو الكلي"، مثلا، لا يعني تشومسكي من جهة وجوده الواقعي، لأن البحث في ذلك من اختصاص الميتافيزيقا. ما يعنيه هو أن يمر كل شيء كما لو كان للنحو الكلي وجود واقعي. لأن افتراض ذلك يساعد على تفسير ظاهرة السرعة التي يتعلم بها الطفل اللسان، وظاهرة الاستعداد التام والقبلي الذي يتوفر عليه كل طفل لاكتساب أي لسان. تصور تشومسكي للقدرة التفسيرية للنموذج بهذا المعنى تقف وراءه

1- الإشارة هنا إلى عمل صوسور الموسوم: Mémoire sur le système Primitif des Voyelles dans les Langues Indo-européennes المشار إليه في الكتابات التي ارخت لصوسور، ومن أهمها: de Mauro (د.ت) و Calvet (1975).

2- أنظر Apresjan (1966).ص. 101.



خلفية ذات أساس مواضعاتي أو ذرائعي بحسب ما يبدو. وبحسب إبستمولوجيا أخرى، كتلك التي يعمل على تأسيسها أحمد العلوي، فإن ممارسة المعرفة بهذا الشكل هي ممارسة أفلوطينية تقوم على مبدإ جواز تصوير غيب الأشياء بالمفاهيم العقلية النظرية[1].

ب- القدرة على التقريب بين النظرية والواقع المدروس؛ فمن الشروط التي تشترط في أية نظرية علمية أن يكون لها محتوى تجريبي. فالنظرية لا تكون نظرية إذا لم تساعد على الإكتشاف. كما يشترط فيها أن تكون قابلة للتطبيق وإلا فهي زيف. قابليتها للتطبيق معناها أن يكون بالإمكان بناء أكثر من نموذج واحد لها. ولذلك، فإن النظرية قد تصمد أمام محاولات التفنيد فتستمر إلى حين، لكن النموذج معرض باستمرار للتغير بسبب أنه في موقع وسط بين النظرية والواقع الذي يفسره، وبالتالي فإن الواقع، رغم ما قد يتحقق فيه من انسجام، هو واقع عنيد، يصر على عدم الثبات والاستقرار. الأمر الذي يفرض على النموذج مواكبته، لكن دون الخروج عن النص النظري، إلا إذا دعا الأمر إلى ذلك؛ كأن تكون النظرية في حالة تفسخ أو انقلاب. وحتى يواكب النموذج حركة الواقع لابد من أن يتعرض للتغيير باستمرار. ولذلك تتعدد نماذج النظرية الواحدة. فلو اعتبرنا تصور صوسور وأحفاده البنيويين للبنية على أنه نظرية، فإن ما تبقى من أعمالهم ليس سوى مجرد نماذج لهذه النظرية. والنحو التوليدي هو أيضا نظرية واحدة ابتدأت مع تشومسكي واستمرت معه إلى الآن. فهي قد عمرت ما يناهز الخمسين سنة إلا أن لها أكثر من نموذج واحد.

دور النموذج، إذا، هو التوفيق بين النظرية ككيان مجرد وبين الواقع ككيانات تجريبية. وبقدر ما يكون النموذج قادرا على استيعاب أكبر عدد ممكن من الوقائع، بقدر ما تكون النظرية ذات محتوى تجريبي أكبر. فالنموذج بهذا المعنى تفعيل للنظرية أو هو نزول بها إلى أرض الواقع. ومن جهة أخرى، هو

1- أنظر الفصل الخامس من عملنا هذا.



محاولة لتطهير الواقع باللجوء إلى أمثلته (بالفتح) وتجريده لكي يلتقي المجرد بالواقعي. وتلك قمة نجاح النمذجة. إنه البراكسيس اللساني.

وتجب الإشارة إلى أن تعديل النموذج مسألة لا تشكل خطرا كبيرا على النظرية، لكن الخطر الأكبر يكمن في أن يكون النموذج غير قادر على تفسير اكبر عدد ممكن من المعطيات، القائم منها وما هو في حكمه، أو أن يتنبأ بأشياء لا ترتبط بالحقيقة.

يولد نموذج تشومسكي الأول، مثلا، جملا يزكيها الواقع، لكنه يتنبأ بجمل أخرى لا يمكن أن ينتجها حتى المتكلم المثالي أو المفترض والذي هو موضوع النظرية؛ وذلك من مثل:

الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام غضبانة[1].

والسبب في ذلك أن هذا النموذج بني، حينما بني، على أساس رهان معين هو أنه بالإمكان تفسير قدرة المتكلم اللغوية اعتمادا على التركيب (Syntaxe) وحده. فكان الهدف هو تفسير القدرة ولم يكن هو التمييز بين الجمل الممكنة والجمل غير الممكنة. لأن تحديد الممكن وغير الممكن مسألة تتدخل فيها اعتبارات لسانية وأخرى غير لسانية؛ كالدلالة والمحيط... إلا أنه بدا فيما بعد أن هذا النموذج أصبح يشكل خطرا على النظرية إذا لم يراجع، وهذا ما حصل.

وحتى يؤمن النموذج للنظرية نصيبا من عدم الإحراج، لوحظ أن البعض أصبح يميل إلى تخفيف العلاقة بين النموذج والواقع وتقويتها بينه وبين النظرية، بعد أن انتقل الاهتمام إلى تقويم النماذج، وذلك بالبحث عن ميطانموذج يمكن من هذه العملية. فاستبدل منطق الاكتشاف ذو الأساس الباكوني، كما عند البنيويين، بمنطق التقويم ذي الأساس الكبليري والبوبري كما عند التوليديين. وأصبح الهدف هو تقويم النماذج وليس اكتشاف الظواهر وتعقبها.

1- بحسب هذا النموذج، اعتبرت هذه الجملة وأمثالها جملا نحوية. انظر Chomsky (1957)، ص. 17.



اتخذ هذا الانتقال مجموعة من الأشكال، منها، على سبيل المثال، ربط وظيفة النموذج بالتفسير لا بالوصف والتصنيف، لأن المفروض في التفسير أن لا يتعامل، مباشرة، مع الواقع الفيزيقي وهو واقع مستحيل بتبني التصور الكنطي كما قلنا سالفا. بينما أساس الوصف والتصنيف هو الاعتقاد بالوجود المستقل للعالم وبإمكانية الإمساك به.

ونظرا إلى أن الظاهرة الواحدة قابلة لأن تعالج بطرق شتى، فإنه يتحتم إيجاد أنساق للتقويم يمكن بواسطتها عقد مقارنة بين هذه الطرق ومن ثم بين النماذج التي تنتمي إليها قصد اختيار النموذج الأكثر ملاءمة أو الأكثر قدرة على حل المشاكل. هذا بالضبط هو هدف الميطانموذج[1].

وبخصوص موقع النموذج من النظرية ومن الظواهر المدروسة، لابد من التأكيد على أن دوره يتلخص في إيضاح النظرية. ولذلك، فليس من الغريب أن يختار النموذج مجالا بعينه يتخذه موضوعا للتمثيل، كأن يختار لسانا معينا أو ظواهر معينة فيه، كما فعل تشومسكي مثلا حينما اختار الإنجليزية مجالا لنماذجه. إذ لا يعني ذلك أبدا أن النظرية التي ينطلق منها النموذج نظرية للإنجليزية فقط، وهو ما لم يفهمه كثيرون. فالنظرية مبادئ عامة لا تقتصر على لسان دون آخر.

3.2.2.6. أنواع النماذج اللسانية

أمام تعدد النظريات واختلاف موضوعاتها، يقترح تشومسكي تقسيم اللسانيات المعاصرة إلى لسانيات تبحث في القدرة اللغوية للمتكلم ولسانيات لا تبحث فيها[2]. تسعى الأولى إلى بناء نماذج للقدرة بينما تسعى الثانية إلى بناء نماذج أخرى

1- أنظر تفاصيل هذه الفكرة في Apresjan (1966). ص ص. 292-293.

2- انظر الفصل الأول من Chomsky (1968). ونعتبر أن اقتراح تشومسكي تقسيم اللسانيات المعاصرة بهذا الشكل كان أفيد من اقتراحات أخرى تقسمها إلى نسقية (داخلية) وغير نسقية (خارجية).



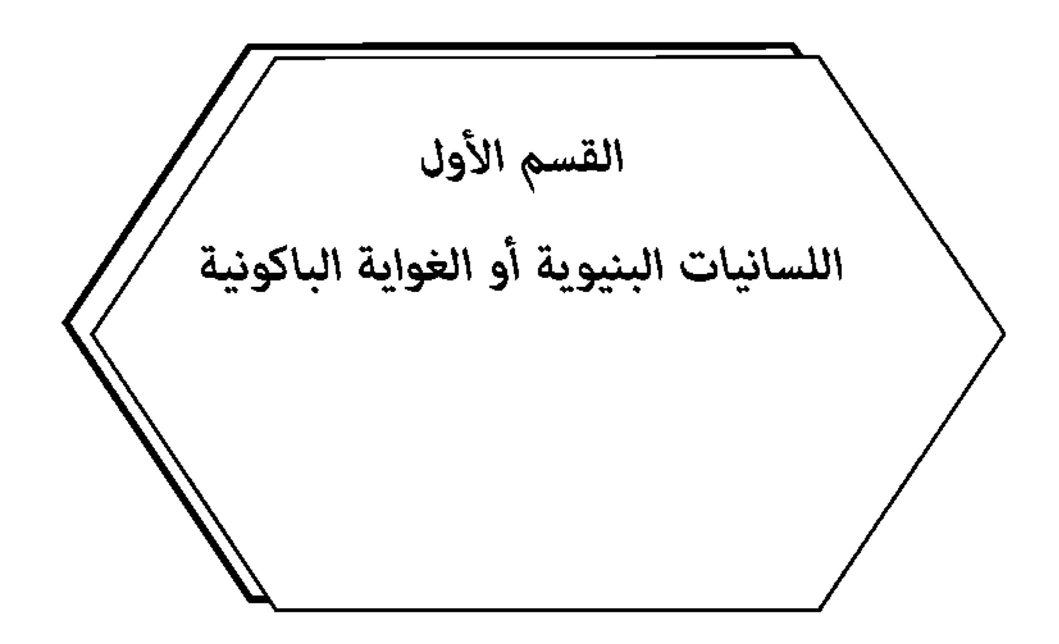
منها ما يرتبط بالإنجاز ومنها ما يرتبط بالمستمع دون المتكلم[1]، ومنها ما يرتبط بشروط الممارسة اللسانية... ويفهم من اقتراح تشومسكي هذا وكأن اللسانيات كانت بدون موضوع مادام يصر على أن البرنامج الأدنى الذي لا يتحقق العمل اللساني بما هو دونه هو الذي يستهدف الوصول إلى بناء نموذج يفسر قدرة المتكلم على إنتاج وفهم الجمل، وهو ما لم تستطع اللسانيات اللاقدروية تحقيقه. في هذه الحالة سيجد اللساني القدروي نفسه يتقاطع مع علوم أخرى، على رأسها "علوم الإدراك" و"علوم ملكات المعرفة"، وفي مواجهة صريحة مع علم النفس المعرفي ذي الأساس التكويني (مع بياجي) والسلوكي (مع سكينر). وسيجادل بقية اللسانيين من جهتين:

- من جهة الموضوع، في إقصائهم لموضوع القدرة.
- ثم من جهة تصوراتهم لمفهوم العلم، حيث سادت، في نماذجهم، مفاهيم الاستقراء بدل الاستنباط، والاستكشاف بدل التقويم، والوصف بدل التفسير، واللسان، وربما الكلام، بدل اللغة، وباختصار، سيادة الموجود بالفعل على الموجود بالقوة.

من هذه الجهة، يصبح التمييز بين نموذج القدرة، ومن ورائه النظرية التوليدية، وبين نماذج اللاقدرة، ومن ورائها النظريات البنيوية على اختلافها، تمييزا له دلالة؛ لأن كلا من القسمين يحدده إطار إبستمولوجي متميز[2].

1- "ركزت البنيوية على بناء نماذج للمستمع/المتلقي أكثر مما ركزت على بناء نماذج للمتكلم/المنتج. وتمت عملية النمذجة عندها عن طريق الاستقراء المرتبط بتحليل الإنجاز، دون أن تتعامل معه على انه نقطة انطلاق لمعرفة المبدإ الذي يتحكم في إنجاز الجمل". Dubois (1969). ص ص. 10-11.

2- للمزيد من المعرفة حول الأطر المرجعية للتصورات البنيوية والتصورات التوليدية، يراجع: E. Bach (1965)، وكذا N. Ruwet (1968).



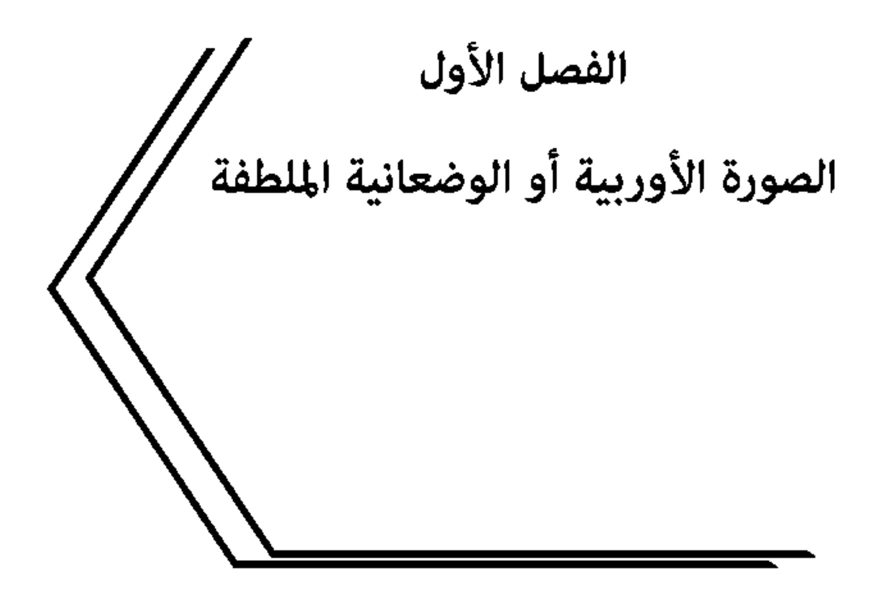
القسم الأول

اللسانيات البنيوية أو الغواية الباكونية



الفصل الأول

الصورة الأوربية أو الوضعانية الملطفة



1- بنيوية صوسور أو الصيغة الفلسفية للبنيوية

1 .1 . نظـريـة النسـق

سخر صوسور كل جهوده للبرهنة على نسقية اللسان واستعراض مظاهر هذه النسقية حتى إن ذلك قد شكل الأكسيومة المركزية في لسانياته. وتبعه في ذلك بعض التابعين؛ فلقد تكلفت مدرسة براك، بزعامة جاكوبسن وتروبتسكوي، بالبرهنة على سلامة التصور، تصور اللسان بنية، انطلاقا مما توفره الأنساق الفونولوجية والمورفولوجية، بل وحتى التعبيرات الشعرية. وتوفقت مدرسة كوبنهاكن، بزعامة هيلمسليف، في تعميق أفكار صوسور البنيوية وإخراجها في صيغة نظرية متكاملة.

كان هدف البنيوية، بمختلف تلويناتها، اللسانية وغير اللسانية، أن تضفي على الأشياء طابع الرسوخ والثبات مقابل التغير والتحول[1]. ورغم أن أصحابها يأنفون من أن ينعتوا بأنهم فلاسفة، ويدعون بأن ما يحركهم هو الطموح الدائم إلى تأسيس علم إنساني يتمرد على جبروت الفلسفة، خاصة في صورتها الميتافيزيقية، فإن البنيوية قد أخلصت أيما إخلاص لتعاليم فلسفية كانت مسطرة منذ العصر الهيليني؛ فأقامت تماثيلها على أنقاض تماثيل أفلاطون الميتافيزيقية، حيث تهيمن مفاهيم لا يمكن فهمها إلا في إطار عالم المثل، وحيث يقصى التاريخ وما يستتبعه من تطور ونسبية وتغير وتحول وصيرورة. كل ذلك تم تحت وطأة الخوف من الاشتغال بعالم الكون والفساد.

1- " البنية هي الشيء الوحيد الثابت وسط عالم لا يتوقف عن التغير". Piaget (1970). ص 15. "والموجود الثابت الذي لا يتغير هو الموجود الأقوى في درجة الوجود. أما الموجود الذي يتغير ويستنفد الزمان قوة وجوده فهو في أدنى الدرجات من سلم الوجود. وعلى هذا، ففي استطاعتنا القول بأن درجة قوة الوجود، بمعنى الثبات والتجرد من العدم، وليست درجة القوة بالمعنى الأسطوري، هي التي أصبحت تحدد وضع أو مكانة الموجود في السلم الأنطولوجي للموجودات، وتميز، بالتالي، ما هو جدير منها بالتفكير الفلسفي مما هو غير جدير بذلك". E. Fink نقلا عن محمود رجب (1981). ص. 11.



كان القدماء يعرفون الشيء بناء على معرفة عناصره الجوهرية، أما مع البنيوية، فإن الشيء أصبح عبارة عن كيفية بنائه، فالذي يجمع بين الأسماء أو الأفعال ليس هو مقوماتها الجوهرية التي يقتصر في الاشتغال بها على التصنيف، ولكنه الكيفيات التي تبنى بها. وليست كيفية الشيء سوى بنائه أو "بنيته". الذي أصبح موضوع الاهتمام، عند البنيويين، ليس هو الذوات الجواهر وإنما هو بنية وهيأة تلك الذوات. مشكلة البنيوية، من جهة أخرى، هي "اكتشاف ما إذا كان هناك نوع من النظام وراء هذا الإضطراب البادي للعيان... فإذا نظرنا إلى مجمل مشاريع البشرية الفكرية، بقدر ما هي مسجلة في طول العالم وعرضه، لكان القاسم المشترك دائما إدخال نوع من النظام"[1]. تكمن مشكلة البنيوي "في العثور على المشترك القائم المتعدد"[2]. وبذلك، فالمقاربة البنيوية هي تلك "المقاربة التي تقوم على البحث عن الثابت أو العناصر الثابتة ضمن سلسلة فوارق يفترض أنها مصطنعة"[3].

بالنسبة للبنيوي، لاشيء موجود بشكل حقيقي سوى البنية، أما ما عدا ذلك، فلا وجود حقيقي له. فالوجود، إذا، عبارة عن بنيات ليس إلا. هذا التصور ليس مجرد منهج يتم النظر بواسطته إلى العالم، ولكنه فلسفة يتم ترجمتها إلى نظريات.

يقوم الأساس الأنطولوجي للبنيوية، إذا، على الاعتقاد بأن ما هو موجود إنما هو البنية، أما العناصر من كلمات وأصوات.. فإن وجودها أمر عارض. ويجب أن يفهم أن الأنطولوجيا اللسانية أريد لها أن تكون أنطولوجيا علمية تختلف عن الأنطولوجيا الفلسفية. فهي مجموعة من الذوات المفسرة وعلى رأسها مفهوم "البنية". البنية، كما يرى ستراوس وهو أحد كبار البنيويين الذين برهنوا على قدرة المقاربة البنيوية على أن تكون مقاربة كونية لا تختص باللسانيات وحدها ولكنها تنفع في

1- Straus (1977)، ص. 14.
2- نفسه، ص. 10.
3- نفس المصدر والصفحة.



مقاربة كل القضايا العلمية ومنها القضايا الأنثروبولوجية، "حاضرة في الموضوع لكنها متخفية. واكتشافها يقتضي تدخل العالم وتركيب نماذج تفصح عن بنية الموضوع. فغاية النماذج، بتعبير آخر، هي الإفصاح عن البنية وإبرازها... البنية، عند ستراوس، لا تتصل بالواقع المحسوس، بل بالنماذج التي ننشئها"[1].

ومن خصائص البنية أنها لا تتحدد استقرائيا، لأنها بناء رياضي. ومعنى ذلك:"أنها ذات طبيعة ذهنية عقلية رياضية. لذلك يجب النظر إليها بالمعنى الرياضي، أي باعتبارها مجموعة من العناصر المجردة تقوم بينها علاقات متبادلة"[2]. استمر هذا التصور مع من جاؤوا بعد صوسور من البنيويين الوصفيين الذين تصوروا "أن الوصف العلمي يجب أن يهتم ببنيات الأشياء لا بجواهرها، فما يوحد الناس داخل لسانهم هو معرفتهم بالصيغ والبنيات، فهي التي تشكل محتوى معارفهم المشتركة. أما ما يتعرضون له، كل على حدة، فليس سوى تجارب ولا ينتمي إلى هذه المعرفة"[3].

إذا تم الاتفاق على أن مفهوم البنية (بغض النظر عن التسمية: النسق، النظام، المؤسسة...) مفهوم صوسوري أولا، فإنه لم يأت فجأة، ولكنه كان نتيجة لتأثر صوسور ببعض من التقى بهم في حياته، من أمثال بيكتي Pictet وبعض علماء ليبزك وبرلين. هذا دون أن ننسى، طبعا، ويتني Whitney وفرانز بوب Franz Bopp (1791-1867) وكذا أولئك الذين التقى بهم في باريس. وربما أمكن القول إن مفاهيم صوسور كلها قد تم تطويرها انطلاقا من أفكار من سبقوه، حتى إن ناقدا مثل ر.ل. فاكنر R.L.Wagner كان قد علق بقوله:" إن عمل صوسور ليس سوى مجرد تكرار رديء لأفكار جيدة قدمها آخرون"[4].

1- الزواوي (2002).

2- نفسه.

3- Malherbe (1979). ص. 58. هذا التصور تبناه، أيضا، رودولف كارناب Rudolf Canap (1891-1970) في كتابه la construction logique du monde، كما تبنته جماعة فيينا ونصت عليه في بيانها الأول عام 1929. انظر Malherbe (1979)، ص. 58.

4- de Mauro (د.ت)، الهامش (14)، ص. 389.



بفضل هذا المفهوم اهتدى صوسور إلى اكتشاف الطبيعة الخلافية التي تقوم عليها العلاقات القائمة بين عناصر البنية. وبفضله، أيضا، استطاع أن يتعرف على الخصائص المميزة للعنصر. وأصبحت عملية وصف اللسان عملية رصد للحظة لسانية محددة. وبفضله، كذلك، استطاع صوسور تطوير لسانيات سانكرونية تتميز عن اللسانيات الدياكرونية التي كان يشتغل بها التاريخانيون والمقارنون[1]. الأمر الذي نتج عنه التمييز بين النسق الذي هو اللسان وتحقيق النسق الذي هو الكلام[2]. تصور صوسور للسان والكلام بهذه الصورة أساسه هو التمييز الذي أقامه من قبل بين الدراسة الفيزيولوجية والدراسة التاريخية للنسق الفونيمي، وأصله أفكار كل من بودوان Baudouin وكروشيفسكي Kruszewski وكذا ويتني Whitney المتشبع بالإبستمولوجيا الاصطلاحية ذات الأسس الذرائعية، ومن دعاة الاهتمام بالخصائص الخاصة بكل لسان على حدة، وإن خالفه صوسور بدعوته إلى الجمع بين الاهتمام بما هو خاص والاهتمام بما هو عام، أو بين التحليل الخاص والنظرية العامة. حتى إن صوسور، وبسبب هذا الخلاف، أصبح يحمل كرها شديدا لكل لسانيات توجهها نزعة وضعانية متطرفة[3].

1- بفضل هذا المفهوم، أيضا، سيدعي ليفي ستراوس من بعد " أنه استطاع أن يكتشف خلف خليط الوقائع التجريبية بنية ذهنية كلية... وسيدعي جاك لاكان Jaque Lacan (1901-1981) أنه اكتشف القوانين التي تعمل بها النفس الإنسانية بشكل عام". ج. ستروك J. Sturrok (1979)، ص. 12.

2- يذكرنا تمييز صوسور بين النسق وتحقيق النسق بالتمييز الذي أقامه إ.هوسرل Husserl بين الجوهر والحدث، وإشارته إلى أن الحدث قد لا يتناسب بدقة مع جوهره بسبب الأوضاع العارضة... فالجوهر هو العمق الذي ينبغي الاحتكام إليه من أجل تحديد هوية موضوع الواقع التجريبي. وبهذا المعنى يكون علم الجوهر مستقلا عن العلوم التجريبية وليس العكس. أنظر على سبيل المثال: Husserl (1900).

3- أنظر التفاصيل في de Mauro (د.ت). ص. 359.



وتتجلى أصالة الفكر الصوسوري في الأفكار المركزية الآتية:

أ- فكرة أن اللسان ما هو إلا صورة أو هيأة[1].

ب-فكرة النسبية؛ حيث لا يكتسب العنصر قيمه إلا من داخل النسق الذي هو فيه[2].

ج- اعتباطية الدليل اللغوي.

مرة أخرى، لا جواهر في اللسان ولا وجود لكيانات مستقلة فيه. وكل ما في اللسان إنما هو ثمرة من ثمرات الجمع بين ما هو فيزيولوجي وما هو نفسي وما هو ذهني. أي أن اللسان ليس نقطة تقاطع نقيمها، اتفاقا، بين الجواهر الأكوستيكية والجواهر الذهنية. فخصائص اللسان لا مبرر لها إلا في ذاتها هي وليس في طبيعته المادية الأكوستيكية أو التصورية التي تتجلى عبرها. وهذا هو أساس مطلب الدقة الصورية للنظرية اللسانية كما تصورها صوسور[3].

ليس من حقنا إقامة أية مفاضلة بين فكرة وأخرى نجعلها مسلمة أولى نبني عليها أبحاثنا على أساس أنها مسلمة تتمتع باستقلال عنا نحن الذوات المفكرة، وأنها ذات مصداقية ووثوقية في ذاتها. والذي نقصده هو أن كل الأفكار متعادلة بهذا الاعتبار، وباعتبار أنها جميعا توفرت لها كل شروط المنافسة. هذا الفهم هيجلي بالأساس، لكن ذلك لا ينتقص من قيمته المعرفية والحجاجية.

1- في هذا الخصوص، لابد من التمييز بين الصورة كما تصورها صوسور والشكل كما تصورته نظرية الجشطالط التي تشكل واحدا من اتجاهات علم النفس الإدراكي، حيث لا يدرك العنصر إلا باعتباره هيأة مشكلة من علاقة ذلك العنصر بعناصر أخرى تنتمي إلى نفس الحقل، ويكفي أن نؤكد أن موضوع الاهتمام في نظرية الجشطالط هو الوعي الفردي، بينما موضوع الاهتمام في النظرية اللسانية المقترحة من طرف صوسور هو الوعي الجمعي. هذا هو جوهر الاختلاف. أما ما قد يبدو من تشابه بين النظريتين فإنه مجرد تشابه شكلي لا إشكالي.

2- القول بأن العنصر لا تتحدد هويته إلا داخل الكل الذي ينتمي إليه قول نجد أصوله عند فلاسفة لاديكارتيين أمثال بليز باسكال Blaise Pascal (1623-1662) الذي يرى " انه من المستحيل معرفة الأجزاء قبل معرفة الكل". Durand (1979)، ص.11.

3- انظر de Mauro (د.ت)، ص. 360 وما بعد.



وفي اللسانيات، هناك غياب كلي لما يمكن أن يسمى نقطة البداية؛ حيث لا وجود لأي معطى لساني يمكن الحكم عليه بأنه معرف بذاته. فموضوع العلم مسألة تظل من اختيارنا، وليس هناك أي موضوع يفرض سلفا، وكل شيء مفروض إنما هو باتفاقنا نحن. هذا هو جوهر وأساس الفلسفة الاصطلاحية. وهي فلسفة تبدو بادية الملامح عند صوسور، خاصة عندما يسلم بأنه ليس هناك أي شيء في اللسانيات معطى سلفا. ونحن الذين نقترح الموضوعات "فبدل أن يسبق الموضوع وجهة النظر، كما هو الشأن في علوم أخرى، فإن وجهة النظر هي التي تخلق موضوع الدرس اللساني"[1].

في البداية، رسم صوسور ثلاث مناطق لثلاثة مقترحات يمكن أن يتخذ واحد منها فقط فضاءا استدلاليا للبرهنة على ورود التصور القائم على البنية. هذه المناطق هي اللغة واللسان والكلام. ثم بدا له أن اللغة تفتقد عنصر التجانس الذي هو مقوم أساسي من مقومات البنية؛ فهي متعددة ومتنوعة، تتشكل من خليط من الظواهر التي يمكن أن تشكل موضوعات لمعارف مختلفة. كما بدا له أن الكلام هو مجرد إنجاز فردي، وهو، بدوره، عملية تتدخل فيها مجموعة من العوامل غير المتجانسة. ويرى أن المجال الذي يتجلى فيه التجانس المطلوب إنما هو اللسان وليس اللغة ولا الكلام[2]. وهذا هو فهمنا لقولته المشهورة "اللسانيات هي دراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته"، أي دراسة اللسان باعتباره المظهر الذي يتجلى فيه التجانس وتتحقق البنية. دراسة الشيء في ذاته تصبح عملية ممكنة مع صوسور رغم أنها مستحيلة في الشريعة الكنطية. نقول ذلك رغم أن صوسور يتماس مع كنط في التسليم بأن موضوع المعرفة هو الظاهرة.

1- Saussure (1916)، ص. 63.

2- كان هدف صوسور من وراء التركيز على عنصر الانسجام هو أنسقة التصورات اللسانية ذاتها، وهو إسهام في إبستمولوجيا ستصبح شريعة للبنيويين اللاحقين؛ إبستمولوجيا مارست غوايتها حتى في داخل المجالات التي تتعارض مع التصور البنيوي. ولنا في لويس التوسير Louis Althusser (1918-1990) الشيوعي خير مثال.

اللغة، عند صوسور، ظاهرة بشرية، والكلام ظاهرة فردية، أما اللسان فإنه ظاهرة اجتماعية. تمييز صوسور بين هذه الأمور الثلاثة ليس مقصودا لذاته وليس جديدا ولا دالا. والأمر الدال هو الوقوف على ما يؤدي إليه هذا التمييز، وهو القطع بأن اللسان هو المجال الوحيد الذي يحقق البنية. يقول صوسور:" ما اللسان؟ إنه، بالنسبة إلينا، يتميز عن اللغة؛ اللغة عامة، واللسان محدد. اللغة ثانوية واللسان أساسي. اللغة احتمال واللسان واقع. إنه مجموع القوانين التي تواضع عليها أفراد المجتمع لاستخدام ملكاتهم اللغوية والتي تشكل سلطة عليهم أن يحترموها أثناء تواصلهم الكلامي"[1]. "وما هو موزع بشكل متساو بين أدمغة أفراد المجتمع الواحد إنما هو اللسان... أما الكلام فهو مجموع ما ينجزه الأفراد... وليس فيه ما يمكن اعتباره جمعيا. وأما اللغة فإنها غير قابلة للمعرفة، لأنها غير متجانسة"[2].

وتبدو مسألة الربط بين الاهتمام باللسان والاهتمام بالمجتمع، كما يفهم البعض من كلام صوسور أعلاه، مسألة حشوية في نظرنا. لأن ما يهم إنما هو الجمع بين مفهوم اللسان ومفهوم البنية. ورغم ذلك، فلابد من الإسهام في توضيح المسألة ولو بكيفية مختصرة، لأن المقام لا يسمح بالوقفات الطويلة في مثل هذه الموضوعات التي نرى أن الخوض فيها يتطلب بحثا خاصا.

نعم، تشترك بعض امتدادات البنيوية التي جاءت، في الزمن، بعد صوسور، في خاصية، من بين خصائص أخرى، هي أنها جميعا تتخذ من الجماعة مرجعها الثابت ومناط أبحاثها. وهكذا، فإذا كان اللسان هو المكون اللغوي للجماعة (اللسانيات الوظيفية أو التواصلية)، فإن الثقافة هي مكونها الأنتروبولوجي (أنتروبولوجيا Claude lévi Straus (1908-..))... كل مكون من هذه المكونات هو عبارة عن نسق من العناصر المتعالقة والتي يحدد بعضها بعضا. والذي يهمنا هو أن القاعدة التي تسري على واحد من هذه المكونات (المكون اللساني تحديدا) تسري على بقية المكونات، وأن البنيويين، على اختلاف مجالاتهم، قد

1- Saussure (1916)، ص. 25.

2- نفسه، ص. 38.



أسقطوا من حسابهم كل ما هو مفرد لأن البنية لا تتجسد فيه، واهتموا بالمجموع لأنه يسمح بقيام العلاقات. وهذا واحد من أسسهم الكبرى. وهو ما يهمنا من هذه الوقفة القصيرة[1].

تصور صوسور اللسان على أنه مجموعة من القوانين المتواطإ عليها والتي لا يسع الفرد إلا أن يمتثل لها إذا هو أراد أن ينتمي إلى الجماعة، أمر قد يدفع، أيضا، بالباحث إلى أن يستنتج أن إميل دوركايم Emil Durkheim (1858-1917) قد يكون واحدا من الأصول المعتمدة في فكر صوسور. فأطروحة دوركايم لا تخرج عن التسليم بأن اللسان مؤسسة اجتماعية أو ظاهرة تدخل ضمن هذه المؤسسة من جهة أنها تمثل سلطة فوق الأفراد[2]. وفي هذا الإطار، لا يعدم الباحث وجود عدة تقاطعات بين صوسور وآخرين ممن اشتغلوا بعلم الاجتماع[3]، إلا أننا نميل إلى التأكيد على أن كل هذه التقاطعات إنما هي مجرد تقاطعات سطحية. فمن السهل أن نرسم تقاطعات بين صوسور وبين فلاسفة وعلماء من تخصصات مختلفة، إلا أنها تظل رسوما سطحية شبيهة بتلك التي نقوم بها قصد التلهي.

إذا حاولنا رفع الطابع الحشوي عن هذه المناقشة وتلمس المدخل الحقيقي للكلام عن البعد الاجتماعي للسانيات صوسور، فإننا لن نجده سوى في نظرية

1- هناك مسألة أخرى أثارتها هذه الوقفة في ذهننا. يتعلق الأمر بتعدد امتدادات البنيوية وتنوعها؛ فمن الأنتروبولوجيا (ك. ل. ستراوس) إلى التحليل النفسي (ج. لاكان) إلى أركيولوجيا المعرفة (م. فوكو) إلى السيميولوجيا (ر.بارت) بل وإلى الفلسفة الماركسية (ل. ألتوسير) التي يفترض أن لا تلتقي معها على الإطلاق لأنها تناقضها وتنفيها كما قلنا في فقرة سابقة. كما يتعلق الأمر بمدى قدرة الفكر البنيوي على التألق والإشعاع. والسؤال الذي تعمدنا هذا الاستطراد من أجله هو: هل استطاعت البنيوية أن تؤسس، فعلا، نموذجا علميا جديدا في وقتها؟ وهو سؤال نكتفي بطرحه دون أن نحرج البنيويين في الجواب عنه، لأن أحد أكابرهم سبق له أن طرح سؤالا يفيد التشكيك أو التحفظ، على الأقل، من مسألة ضرورة قيام بعض الخطابات المعرفية وقد يكون الخطاب اللساني واحدا منها. وسؤاله هو: هل يعتبر الخطاب ضروريا أم زائدا؟ وصاحب السؤال كما سبق أن قدمنا هو م. فوكو.

2- انظر المقارنة التي عقدها Sanders بين صوسور ودوركايم. Sanders (1979)، ص. 13.

3- صحيح أن صوسور كان واعيا بالبعد الاجتماعي للظاهرة اللسانية، إلا انه لم يشغل نفسه كثيرا بهذه المسألة. فاتجه إلى المحددات الداخلية للسان أو ما هو جوهري فيه وهو بنيته.

الدليل؛ الدليل في بعده الاعتباطي الذي يشير إلى تدخل العلاقات الاجتماعية التي تحوله إلى اصطلاح. إن صوسور هو الذي تحمس، إلى درجة التعصب، لفرضية اعتباطية الدليل اللغوي، فتساوى الدليل مع الرمز في كون كل منهما ثنائي التكوين، لكن الأول يتميز عن الثاني بغياب كل علاقة طبيعية بين طرفي هذه الثنائية.

وبخصوص مبدإ اعتباطية الدليل اللغوي[1]، لابد من التنبيه إلى أن هذا المبدأ مبني على افتراض يقوم على إمكانية النظر إلى الدليل بعيدا عما يحيل عليه في الخارج. فلم تكن إشكالية صوسور هي أن يناقش العلاقة بين الدال والمدلول أو الاسم والمسمى كما ناقشها الفلاسفة الكلاسيكيون. ولم يكن موضوعه هو البث في طبيعة هذه العلاقة التي تبقى مسألة أنطولوجية، وإنما هو، بالضبط، عقد تزواج بين الاثنين بتجريد كل منهما بعيدا عما هو موجود في الخارج؛ فالدال ليس مجرد صوت مادي والمدلول ليس شيئا ماديا يحال عليه. وحتى تصور صوسور للمدلول على أنه مجرد تصور ذهني لا يحيل على ما يمكن أن يتقاطع معه من تصورات فلسفية قديمة كتلك التي عرفت عن الرواقيين ومن تبنى مذهبهم من المتأخرين الذين تصوروا المسميات على أنها عقلية، وأن الاسم لا يحيل مباشرة على الشيء

1– يعترض إ. بنفنيست بقوة على مبدإ الاعتباط، ويرى "أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست علاقة اعتباطية وإنما هي علاقة ضرورية". Benveniste (1966). ص. 51. ويمكن أن نتفهم اعتراض بنفنيست هذا خاصة إذا فهمنا أنه كان بصدد التأسيس لنظرية لسانية تشمل ظروف الخطاب. نظرية تطور ما كان قد انتهى إليه كوستاف كيوم Gustave Guillaume (1883-1960) من ضرورة الاهتمام بالمدلول بنفس الدرجة التي يتم بها الاهتمام بالدال. إلا أن الذي يثير الانتباه هنا هو ما يبدو من أن بنفنيست، ورغم كونه قارئا جيدا لصوسور، لم يستوعب كلام الأستاذ بخصوص اعتباطية الدليل، إن صوسور يستنبط مفهوم الاعتباط من الفضاء الصوري الذي شيده هو وليس من الأنساق الفلسفية المعروفة. يتكلم صوسور عما سماه T. de Mauro من بعده "الدليل الصفر"، وإن ربط Mauro بين هذا المفهوم وبين ما تحدث عنه Panini الضارب في القدم و Sweet المعاصر لصوسور، او ما تحدث عنه فلاسفة قدماء مثل أفلاطون، أو محدثون مثل كوتفريد ليبنيز Leibnitz Gottfried (1646-1716). انظر T. de Mauro (د.ت)، ص. 380.



ولكنه يحيل على التصور فقط. فالمخاطب عند الفيلسوف فيلسوف آخر، بينما مخاطب صوسور باحث يرسم حدود موضوعاته لا غير.

وبدل الحديث عن المعنى والإحالة، يتحدث صوسور عن القيمة؛ فقيمة الوحدة اللغوية لا تعني التصور أو المحتوى. ولا تعني الصورة الأكوستيكية. ولكنها تعني اتحاد الدال والمدلول باعتبارهما من طبيعة واحدة؛ طبيعة سيكولوجية. وهذا ما يسمح بالتمييز بين وحدة ووحدات أخرى تنتمي إلى نفس النسق. وبهذا المعنى يمكن القول، مع صوسور، إن قيم الوحدات اللغوية قيم "سلبية" خاصيتها الأولى أنها جميعا " تختلف " عن بعضها البعض[1]. وما بين المنطلق الذي هو الدليل، باعتباطيته وباعتباره مجموعة قيم، وبين الهدف الذي هو البرهنة على نسقية اللسان ومن ثم التمثيل لمفهوم البنية، مسافة هي التي نشأت فيها لسانيات صوسور. وهي لسانيات التبست طبيعتها على الكثيرين؛ فهناك من أولها على أنها فكر وفلسفة، وهناك من أولها على أنها نظرية علمية، ومن أولها على أنها إيديولوجيا، ومن اولها على انها مجرد منهج... تعدد القراءات والتأويلات هذا ليس دليلا على سوء فهم القراء، ولكن لأن "البنيوية " صالحة لأن تكون وصفا للفلسفة (بنيوية فوكو) والعلم (أنتروبولوجيا ستراوس، والتحليل النفسي المنسوب إلى لاكان وعلم النفس التكويني كما عند بياجي...) وللمنهج (سيميولوجيا رولان بارت Barth Roland (1915-1980))...

1- يقدم G / P قراءة مفادها: أن مفهوم القيمة اللسانية يعتبر حالة خاصة من قيمة النقود، أو هو من نتائج النسق النقدي؛ حيث تتحدد قيمة النقد بالتداول، وقيمة الدليل باستعماله في التواصل والتبادل؛ التبادل بين الكلمات والأشياء ثم بين الكلمات والكلمات. كما يشيران إلى أن هناك من رأى في تصور صوسور الدليل كقيمة أنه تصور يجد أساسه المعرفي في مجال الاقتصاد السياسي، وأن اللسانيات ما هي إلا نقد شبيه بذلك الذي كان قد وجهه ماركس إلى الاقتصاد السياسي البورجوازي، معتبرين اللسان "عملا وسوقا". وبالمقابل، هناك من صدر عنه رد فعل رافض لمثل هذا التأويل، ورأى ضرورة تطوير تصور لساني للشعر يقوم على مبدإ إبادة كل تصور اقتصادي للدليل. انظر التفاصيل في G/P (1981)، ص.ص. 54-55. وللإشارة فإن قيمة الدليل تتحقق بشرطين، هما:

- قابلية التبادل؛ حيث يمكن للعنصر (الدال) أن يبادل شيئا آخر ليس من طبيعته (المدلول).
- تعالق العنصر (الدليل هنا) مع عناصر أخرى تنتمي إلى نفس النظام.



في آن واحد، بل إنها تصلح وصفا حتى عندما نتكلم عن أشياء عادية مادام أن البنية تستوعب كل شيء في هذا العالم أو هكذا تفترض البنيوية[1]. ولذلك، فإنه لابد من التأكيد على الطابع الصوري لهذا التصور للأشياء.

في تصورنا، يحتل التصور البنيوي، داخل العلوم الإنسانية، مكانا يشبه ذلك الذي تحتله الرياضيات داخل العلوم الدقيقة؛ فإذا كانت الرياضيات قمة في الصورنة والتجريد بالقياس إلى بقية هذه العلوم، فإن البنيوية، هي أيضا، قمة في الصورنة والتجريد بالمقارنة مع باقي العلوم الإنسانية. ولذلك، فإن أسسها يجب أن تلتمس في التوجهات التي تنحو بالفكر العلمي نحو الصورنة والتجريد، لا في أمور محسوسة أو ذات قيمة تمثيلية لا غير، من مثل طبيعة الدليل، والتمييز بين الدال والمدلول، والدياكروني والسانكروني وغير ذلك من الأمور التي تعتبر، في حقيقة الأمر، أمورا عرضية أو ذرائعية كان من الأجدر أن لا يتوقف عندها المؤرخون طويلا وأن لا يطلبوها لذاتها. سؤال صوسور الحقيقي هو: هل يمكن قيام علم صوري داخل العلوم الإنسانية؟ الصورنة هي التحدي الأكبر الذي يقف في وجه كل من يرغب في التجريد والموضوعية، وهما صفتان غابتا في العلوم الإنسانية ومنها اللغويات التاريخية والمقارنة التي عاصرها صوسور.

كان يمكن لصوسور أن يختار مجالا تمثيليا آخر غير اللسان، إلا أن هذا الأخير وفر له المجال الأنسب. فاللسان قابل للتجريد بامتياز، ويوفر عددا كبيرا من إمكانات التقسيم والربط التي يمكن صورنتها والتعبير عنها بلغة محايدة قد لا يسمح بها مجال آخر. وباختصار، فإن اللسان، وحسب تصور صوسور، يوفر المجال الأنسب لبناء النظريات الصورية.

بهذا المعنى يمكن القول: إن صوسور يتصور الاشتغال بالبنية على أنه "العلم الكلي" و "المنهج الكلي" و "الفلسفة الكلية". وكأن للبنية وجودا خارج الذهن،

1- يجعل هذا من مفهوم "البنية" مفهوما ضخما ينضاف إلى المفاهيم الكبرى التي هيمنت في مراحل سابقة من تاريخ الفكر البشري، كمفهوم المثال الأفلاطوني، ومفهوم الجوهر الأرسطي، ومفهوم الأنا الديكارتي، ومفهوم المطلق الهيجلي، ومفهوم الصراع الطبقي الماركسي، ومفهوم النومين الكنطي... فهذه كلها، بالإضافة إلى مفهوم البنية ومن بعده مفهوم النحو الكلي، تعابير عن الحقيقة.



فهي تلزمه وتمارس عليه إكراهاتها. إنها شبيهة بالقوالب القبلية التي فرضها كنط على العقل. وهي لا تعبر سوى عن ذاتها، أو أنها لا تقول شيئا عن الواقع الخارجي تماما كما هو حال القضايا الرياضية. إنها الصمت المثقل بالدلالات. ألم نفهم بعد سر الزواج المقدس الذي تم، مثلا، بين الشكلانية الروسية الضاربة في الاحتفاء بالصور والأشكال وبين البنيوية ذات النزعة الحيادية؟ أليست البنيوية، كما قدمناها هنا، هي المثال الناصع للثورة على الاحتفاء بالقيم والمعاني التي تدنس طهارة التجريد؟ هل توجد هناك منظومة لا تحيل إلا على نفسها غير الرياضيات المحسوبة على العلوم الدقيقة والبنيوية المحسوبة على العلوم الإنسانية؟ والأخطر من هذا وذاك، إذا كان بعض فلاسفة الرياضيات، ومنهم **B. Russell**، قد أقروا بلا علمية الرياضيات[1]، ألم يحن الوقت، بعد، أن نقر بدورنا بلا علمية البنيوية، مادام أن كلا من الرياضيات والبنيوية لا تخبر إلا عن نفسها وليس لها واقع خارجي تخبر عنه؟ وكل ما نخشاه أن يتم التمادي في إدراج بنيوية صوسور ضمن بنيويات انحرفت عن الخط الذي رسمه الرائد، أو نزلت بها إلى مستوى أدنى على الأقل حينما انشغلت بالأمثلة (الفونونولوجية والتركيبية والدلالية...) عن الأسس النظرية الكبرى. لم يكن هدف صوسور هو أن يحل مشكلات الفونولوجيا والتركيب والدلالة التي ترتبط باللسان حتى يمكن محاججته فيها، وإنما كان الهدف، مرة أخرى، هو البرهنة على نسقية اللسان، وأن هذا الأخير يقدم للباحثين مثالا جيدا لعرض التصور البنيوي. لم يكن صوسور لسانيا بالمعنى الضيق للكلمة، عكس من تبعوه، ولكنه كان يشتغل بعلم آخر يمكن أن نسميه "علم البنية" وهو العلم الذي يرتبط بالبحث في الأنظمة والأنساق أينما وجدت.

هكـذا ينضـم صوسـور، وبكيفيـة تلقائيـة، إلى زمـرة علـماء النسـق الـذين يجمعهـم التسـليم بـأن كـل الكيانـات يمكـن النظـر إليهـا عـلى أنهـا أنسـاق تسـتجيب

1- هذه الفكرة تعرضنا لها بالتفصيل في المدخل الذي خصصناه لهذا العمل.



لمجموعة من القوانين العامة. ورغم اختلاف هذه الأنساق، فإنها جميعا تتقاطع في الخصائص الآتية:

- الاكتفاء بالعلاقات الداخلية، حيث لا دخل للمحيط الخارجي،
- البنينة،
- الاحتفاظ بالهوية؛ حيث يظل النسق يحتفظ بهويته حتى وإن كان مجرد فرع لنسق أعم. فهوية النسق الفرعي لها علاقة بهوية النسق المهيمن، كما هو الشأن، مثلا، في النسق اللساني الذي يتشكل من أنساق فرعية أخرى هي الفونولوجيا والمورفولوجيا والتركيب والدلالة...

ويرى النسقيون أن البنيوية علم يندرج، آليا، ضمن علم الأنساق، وأنها العلم الذي يهتم بواحد من الأنساق الدالة ذات العلاقة بالخبر الذي يعتبره D. Durand "البعد الثالث للكون بالإضافة إلى البعدين: المادة والطاقة"[1] حيث الكون مادة وطاقة وخبر. وبهذا المعنى يصبح اللسان جزءا من العالم، يدرس كما تدرس بقية أجزائه.

ويمكننا تطوير هذا الاستدلال كالآتي: إذا كان اللسان نسقا يتفرع عن نسق عام هو ذلك الذي تدرسه السيميولوجيا، كما يتصور صوسور، وكان موضوع السيميولوجيا نسقا متفرعا، بدوره، عن نسق أعم هو الكون، فإن اللسان، حينئذ، جزء من هذا الكون. والسؤال الذي يؤدي إليه مثل هذا الاستدلال هو: ما الإسهام الذي يمكن أن تقدمه معرفتنا بالمادة والطاقة لمباحثنا اللغوية والعكس؟ ويلاحظ D. Durand أن القرن التاسع عشر تميز بالاشتغال بالبحث عن بدائل للطاقة البشرية والحيوانية ليتم التوصل إلى الطاقة الميكانيكية. وكانت المعلومة أو الخبر مجرد قيمة مضافة إلى كل من المادة والطاقة. إلا أن القرن العشرين شهد ظهور وتطور الاهتمام بمسألة الدلائل أو الأنساق الدالة، أي بمعالجة الخبر[2].

1- Durand (1979)، ص.43.

2- انظر Durand (1979)، الفصل الثاني من ص. 33 إلى ص. 49.



لم يتأخر البنيوي الصوسوري في أن يضع نفسه خارج الإقليم الذي يهتم بالمادة، ليلتحق بإقليم آخر هو إقليم السيميولوجيا الذي سبق أن نبه إلى أهميته الفيلسوف تشارلز بيرس Charles Peirce قبل صوسور. وهكذا، فإذا كان اللسان نسقا صوريا (لا يحيل إلا على نفسه)، فإن ما يميز الواقع اللساني، حينئذ، هو أكثر عمقا من المظهر الصوتي أو المظهر الدلالي (المظهر المادي). تصور الواقع، كما يقدمه النموذج اللساني، هنا، يختلف جذريا عن تصور الواقع كما هو في النموذج الطبيعي.

يفترض مفهوم النسق تصور أن هناك عناصر تقوم فيما بينها علاقات خلافية حيث تحتل مقولة النفي الأولوية. ففي مقابل ما هو متماثل العناصر، هناك ما هو مختلف العناصر. هذا التعميم الذي يميز اللسانيات البنيوية تم اقتراحه من قبل اللساني نفسه، كما قلنا، داخل إقليم من أقاليم علم عام للدلائل هو السيميولوجيا، لأن ما يوجد في ذهن البنيوي هو النموذج السيميولوجي للواقع. أي تصور الواقع على أنه سيميولوجيا. وهكذا، فإذا أمكن اعتبار مختلف العوالم على أنها أنساق تحكمها قوانين البنية، فإنها جميعا ستكون ذات أساس سيميولوجي. هنا يصبح القول:" إن البنية الفوقية هي انعكاس للبنية التحتية" قولا بعيدا عن الصواب؛ لأن ما يهم البنيوي، وعلى عكس الجدليين، هيجليين وماركسيين، ليس هو إثبات العلاقة الجدلية، التي يختصرها قانون السببية، بين نسقين مختلفين، كالبنية التحتية والبنية الفوقية هنا، وإنما هو إبراز التناغم والتماثل البنيوي القائم بين البنيتين. فالتماثل البنيوي بين النظام الاجتماعي (بنية تحتية) والأنساق الإيديولوجية (بنية فوقية) سيتضح إذا استطعنا أن نبين، كما في حالة الأسطورة، أن هذه الأنساق هي نفسها محكومة بقوانين مماثلة، على مستوى الخطاب، لتلك التي تحكم وحدات اللسان في عمق الجمل. وهذا ما حاولت أن تتخصص فيه البنيوية غير اللسانية كأنتروبولوجيا ستراوس على سبيل المثال.

ويظل هدف صوسور اللساني هو:" تحديد ما يجعل اللسان نظاما خاصا من بين مجموع الظواهر السيميولوجية. وإذا كنا قد توفقنا، ولأول مرة، في تحديد



موقع اللسانيات على خريطة العلوم، فإن الفضل في ذلك يعود إلى ربطنا إياها بالسيميولوجيا"[1]. فهو يرى "ان اللسانيات ليست سوى جزء من هذا العلم العام؛ والقوانين التي ستكتشفها السيميولوجيا يمكن تطبيقها على اللسانيات" [2]. كما يرى "أن المسألة اللسانية هي أولا وقبل كل شيء مسألة سيميولوجية. وكل ما سنتوصل إليه عبر بحوثنا اللسانية يكتسب دلالته بفضل ارتباطنا بالسيميولوجيا."[3]

يمكن النظر إلى البنيوية الصوسورية، إذا، على أنها تيار يندرج ضمن التيارات المعرفية التي تبحث في النظام؛ النظام الذي يتوارى خلف ما يبدو من اضطراب وفوضى. وتقدم البنيوية اللسانية نموذجا استدلاليا على ورود هذا النظام، نظرا لما يتمتع به اللسان الذي تشتغل عليه من إمكانات التمثيل والنمذجة تفوق بكثير ما تتمتع به أنشطة أو ظواهر أخرى تخضع لنفس القانون وهو قانون النظام[4]. هذا الأمر لم يتوقف عنده كثيرا البنيويون الجدد الذين اشتغلوا على نظرية صوسور واستثمروها في مجالات تفصيلية حظيت عندهم بالأولوية أكثر مما حظي به البحث في الأسس والأهداف. ولذلك سنعتبر صوسور ومضة لم تستمر في الزمن رغم ما يقال عن امتدادها في المكان (براك وكوبنهاكن وباريس...). والذي يلاحظ هو أن فهمنا لصوسور سيتعمق أكثر كلما قرأناه بعين غير بنيوية، كأن نقرأه بعين تشومسكي التوليدي مثلا.

هكذا يختلف صوسور عمن سبقوه وعمن جاؤوا من بعده. لقد جسد قطيعة إبستمولوجية حقيقية مع السابقين، وتحديا معرفيا في وجه اللاحقين الذين قزموا العلم الصوسوري إلى مجرد تصنيفات لعناصر اللسان الصوتية والتركيبية والدلالية...

1- Saussure (1916)، ص. 33.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- نفسه، ص. 34.

4- لم يكن صوسور هو أول من تنبه إلى وجود النظام الكامن وراء الفوضى والاضطراب؛ فقد كان الموضوع واحدا من الموضوعات التي بدأ التفكير فيها منذ اليونان القدماء (بخصوص اهتمام اليونان بموضوع النظام، انظر ب. راسل (1945)، ص. 30). لكن الفضل الذي يجب أن يعترف به لصوسور هو الاستدلال بواسطة اللسان على وجود النظام.



الأمر الذي يدفعنا إلى الحكم على أعمالهبأنهمجرد مشروع قديم يتخطى صوسور الذي أصبح، في نظرنا، غير معني بنقاشاتهم[1].

لقد واجه صوسور مناقشيه من مؤرخي لغة وفقهائها ومقارنين ليس باعتبار أنهم وحدهم المستهدفون بعلمه، وإنما، فقط، لوجود عشرة علمية، هي الاشتغال باللغة، تجمعه بهم، وإلا فالخطاب موجه إلى كل من يشتغل بالعلوم الإنسانية. وهي الرسالة التي سيفهمها، بشكل جيد، بعض الأتباع من لسانيين وغير لسانيين؛ ونقصد بهم أولئك الذين استفادوا من علم صوسور واستثمروه في بناء معارف أو تصورات جديدة داخل علوم قديمة؛ نقصد من اللسانيين لسانيين روس ممن تشبعوا بالفكر الشكلاني، أمثال Jakobson و Troubetzkoi، ومن غير اللسانيين C.L. Straus[2] الأنتروبولوجي وJ. Lacan المحلل النفساني... ونعتقد أن أكبر من تجنى على صوسور وأجحف في حق علمه هم التوزيعيون الأمريكان كما سيأتي في فقرة لاحقة من هذا الفصل.

يجرنا الحديث عن توق صوسور إلى بناء علم البنية وتنبيه الناس إلى أهمية هذا العلم في النفاذ إلى عمق الأشياء إلى مسألة أخرى يمكن أن نصوغها في شكل سؤال هو: هل كان صوسور يهتم ببناء النظريات؟ وهذا سؤال الآخر، أما سؤالنا نحن فهو: ما الإضافة النظرية التي قدمها صوسور ببناء علم البنية؟ يبدو أن السؤال الأول أصبح سؤالا مبتذلا. أولا، نظرا لكثرة تردده في كتابات النقاد دون الإجابة الشافية عنه أو تعميقه على الأقل، وثانيا، لأن سؤالا آخر كسؤالنا يبدو أكثر

1- نفس ما حصل مع صوسور حصل مع تشومسكي؛ فتشومسكي، هو الآخر، اختزلت أعماله من قبل بعض الأتباع إلى مجرد منظومة من القواعد يبحث لها عن نظير أو عن تطبيقات في هذا اللسان أو ذاك.

2 - يبدو أن C.L. Straus واحد من الذين استطاعوا النفاذ إلى عمق المشروع الصوسوري حينما حاول استثمار الفونولوجيا باعتبارها نسقا لا باعتبارها مجرد مستوى من مستويات التحليل اللساني. يقول:" تلعب الفونولوجيا بالنسبة لعلوم المجتمع دورا مجددا شبيها بذلك الذي سبق أن لعبته الفيزياء النووية مثلا بالنسبة للعلوم الدقيقة".(J. Cristéva (1981)، ص. 296). وبالفعل، فإن Straus قد طبق مبادئ النسق الفونولوجي في دراسة الأنساق المجتمعية.



تقدما؛ فهو، من جهة، يتجاوز السؤال الأول ويتضمنه، وهو من جهة ثانية، سؤال إبستمولوجي حقيقي واستراتيجي إذا صح التعبير.

في مسألة التجاوز: لا يصح أن نؤكد أن عمل صوسور كله يتلخص في بناء علم البنية؛ البنية كما قدمناها هنا بخصائصها التجريدية والصورية ثم نعود لنشكك في موقفه من العمل النظري، وهو على ما هو عليه من هذه القدرة التجريدية الفريدة.

وفي مسألة التضمن: يبدو أن السؤال الثاني، في صيغته، سؤال ينطلق من مسلمة أن صوسور، بالعمل الذي قدمه، لا يمكن أن يكون إلا من أصحاب الموقف النظري.

وفي مسألة إبستمولوجية السؤال: لاشك أن القارئ سيدرك، منذ الوهلة الأولى، أن الذي يدفع إليه السؤال هو التحفيز على إبراز الإضافات، العلمية خاصة، التي أضافها صوسور والتي تشهد له بفضل التأسيس والبناء.

لقد أبدى صوسور، منذ بدايته، إعجابا كبيرا باللسانيين النظريين أمثال البولوني بودوان دو كورتني Baudouin de Cortenay (1845-1929) وتلميذه Kruszwski اللذين قال عنهما:" إنهما كانا أقرب الناس إلى تبني الموقف النظري في دراسة اللسان، وإن لم يخرجا عن الاعتبارات اللسانية الصرفة"[1]. كان صوسور قبل معرفته بهما يتصور الفونيم صوتا، وبعد التعرف عليهما أصبح يستعمله بمعناه الجديد، حيث الفونيم عبارة عن تمثيل مجرد.

صحيح أن هناك لسانيين آخرين ممن درسوا الفونيم، أمثال Sweet وJesperson . إلا أن صوسور لم يحتفظ سوى باسم واحد منهم، هو Sievers الذي ركز عليه في محاضراته في جنيف والذي كان يرى أن أصوات اللسان عبارة عن كيانات مجردة يجب دراستها دراسة نسقية. لقد كان صوسور يلح دائما على ضرورة القيام بعمل نظري. وبفضل ذلك استطاع أن يحل مشكلا ظل قائما في وجه

1- Sanders (1979)، ص. 12.



الفيلولوجيين هو مشكل إعادة بناء الهندأوربية القديمة التي تقدم في شأنها بفرضية أكدها اكتشاف الحثية بعد موته.

تأثر صوسور كثيرا باللساني الأمريكي W.D. Whitney وأكثر من الإحالة عليه والإعجاب به خاصة فيما يتعلق بتأكيد هذا الأخير على ضرورة بناء نظرية عامة للغة، رغم أن صوسور لاحظ غياب المنهجية عن نظرية Whitney ولم يتقبلها إلا بتحفظ.

لقد تنبه صوسور إلى أهمية إثارة القضايا الدالة أو ما يسمى في الأدبيات الفلسفية بالإشكالات الحقيقية، أي تلك التي تنتمي فعلا إلى العلم. تجلى ذلك في رفضه الدخول في النقاش العقيم الذي لازال يدور، منذ الزمن الإغريقي، حول مسألة العلاقة بين الاسم و المسمى؛ أهي علاقة طبيعية أم علاقة اصطلاحية[1]. وبدلا من الدخول في نقاش غير دال، كهذا، دشن نقاشا آخر ذا مصداقية إبستمولوجية أكبر، لأنه يدفع بالبحث إلى الأمام، ولأن القضية فيه ليست قضية زائفة. والقضية التي يتمحور حولها النقاش الصوسوري، هنا، هي قضية الدليل اللغوي. وهي قضية نظرية بالأساس. والذي دفع صوسور إلى هذا هو ذلك العمل الذهني الذي يقوم به المتكلم من أجل الربط بين الصورة الصوتية والصورة الذهنية. أي أن الدافع الأساسي لبناء نظرية للدليل اللغوي كان هو تفسير الميكانيزمات النفسية التي يتم بها هذا الربط. وبدون نظرية لا يمكن الحديث عن ميكانيزمات من هذا النوع.

فالدليل اللغوي كيان نفسي[2] بوجهين هما: الدال والمدلول. يتجلى البعد النفسي للدال في كونه صورة أكوستيكية وليس مجرد متوالية من الأصوات الفيزيقية. إذ يمكن أن نتكلم حتى ولو لم ننبس بأية كلمة كما يحدث عندما

1- كان الفلاسفة اليونان هم أول من دشن هذا النقاش، ثم أحياه المدرسيون ونحاة Port-Royal بور- رويال و ليبنتز Leibnitz و دافيد هيوم David Hume (1711-1776) و جورج بيركلي George Berkeley (1685-1753).

2- "بل إن كل ما في اللسان نفسي بالأساس" Saussure (1916)، ص. 21.



نكلم أنفسنا[1]. ويتجلى البعد النفسي للمدلول في قدرتنا على خلق ما لا حصر له من العوالم. هذه العوالم تختلف من مجتمع إلى آخر ومن لسان إلى لسان، دون أن ندخل في الاعتبار قدرة الأفراد على إبداع عوالمهم. هذا دون تكرار ما سبق أن قلناه بخصوص اعتباطية الدليل.

اللسان بكل مكوناته هو، في نظر صوصور، كيان مجرد لا يمكن الحديث عنه إلا بواسطة النظرية. فلابد للسان من نظرية تشمل نظريات فرعية، منها ما يختص بخاصية الاعتباط، ومنها ما يختص بتمفصل الدليل إلى دال ومدلول، ومنها ما يختص بتفسير العمليات الذهنية التي يقوم بها المتكلم للربط بين الصوت والمعنى. وفي النهاية، لابد من أن يوجه كل هذا لخدمة الهدف العام الذي هو بناء نظرية للبنية.

هذا، ولا ننس عبارات صوسور المشهورة في هذا الباب والتي تشهد بإدراكه القوي لحتمية القيام بالعمل النظري[2]. كما لا ننس الإشارة إلى اقتناعه بإمكانية إعادة بناء الهندأوربية القديمة الذي لا يمكن أن يفهم إلا في إطار اقتناعه بأهمية العمل النظري وضرورة ممارسته. وهي خطوة جريئة تحسب له في زمن ارتفعت فيه درجة الحساسية ضد المواقف النظرية. إلا أن الذي تجب الإشارة إليه، أيضا، هو أن هذا الحكم لا يخص صوسور وحده، ولكنه يمكن أن يشمل جماعة من اللسانيين الألمان الذين سموا، فيما بعد، بالرومانسيين أو العقلانيين[3]. وهم أولئك الذين كرسوا كل جهودهم للبحث عن الأصول الأولى للألسن، من أمثال يعقوب كريم Jacob Grimm (1785-1863) و بوب Bopp وشليشر Schleicher (1821-1868) وهمبولدت Humboldt.

1- انظر نفس المصدر، ص. 98.

2- كقوله:" هناك علوم تشتغل على موضوعات معطاة سلفا، بمقدورها أن تخوض في تلك الموضوعات من زوايا مختلفة، على خلاف ما هو عليه الأمر بالنسبة للسانيات... فبدل أن يسبق الموضوع وجهة النظر، كما هو الشأن في علوم أخرى، فإن وجهة النظر هي التي تخلق موضوع الدرس اللساني" Saussure (1916)، ص. 63.

3- وهي تسمية تفضح، كما يبدو، النظرة التحقيرية إلى هؤلاء.



من جهة أخرى، لابد من أن نذكر بأن تمييز صوسور بين اللسان والكلام يمثل وجها آخر من وجوه تبنيه للموقف النظري. ورفض هذا التمييز بدعوى قيامه على أساس مستحيل، أساس يؤمن بإمكانية تصور اللسان بعيدا عن الكلام، هو رفض نابع من موقف مناهض للموقف النظري.

لقد كان صوسور واعيا باستحالة الفصل الأنطولوجي بين اللسان والكلام، بين السانكروني والدياكروني، بين الدال والمدلول[1]... لكنه كان يدرك أن الأمر يتعلق بإجراء نظري صرف، إجراء يمليه العلم الجديد ضدا على العلم الوضعي المبتذل الذي أخذت بوادر إفلاسه تلوح في الأفق.

وفي العمق، فإن الذي اختاره صوسور لمشروعه إنما هو بناء نظري للأنساق الدالة أو ما يصطلح عليه بالسيميولوجيا. ولم يرغب في أن يكون مشروعه هذا مجرد إعادة لكلام سابق أو ضربا من الترف الفكري، ولكنه كان يرغب في حل مجموعة من المشاكل التي ترتبط بوضع إطار نظري يسعف الباحثين في مجال العلوم الإنسانية.

تميز القرن التاسع عشر بالفوضى في المناهج اللسانية تمثلت في الارتباك الحاصل لدى الفيلولوجيين والتطوريين على السواء والمتمثل أساسا في الحيرة الشديدة بين إرضاء الرغبة في معرفة أصول الألسن، والرغبة في الوقوف على معرفة التطورات التي عرفتها. وكان كل ذلك صدى لما عرفته اوربا القرن التاسع عشر من هاجس الهوية المندرج ضمنيا تحت شعار القومية.

جاء صوسور، إذا، في نهاية مرحلة اتسمت بالتخمة في الفكر القومي وبداية مرحلة جديدة تميزت بالرغبة في تشييد الصروح العلمية، وذلك ضمن مشروع أوربي

1- لهذه التمييزات أصول نجدها عند B. Cortenay الذي سبق أن ميز بين اللسان كنسق واللسان كإنجاز، ثم بين الفونيم كوحدة نفسية والصوت كوحدة مادية، ثم بين اللسان كتاريخ واللسان كحالة راهنة، ثم بين المنطوق والمكتوب. كما دعا إلى أن تصبح اللسانيات علما من العلوم الدقيقة تستعمل الرياضيات في صياغة قضاياها، وتتبنى الأسلوب النظري الاستنباطي. انظر Apresjan (1966)، ص.ص. 22-25.

ضخم ساهم فيه العلماء من كل التخصصات، واتسم بالتطلع إلى القيام بثورات كبرى تأتي على الموروث إلا ما كان يخدم هذا الهدف. فشاهدنا ثورات عميقة في علوم ظلت تلوك أفكار النهضة. حدث ذلك في الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات، وفي المنطق وعلوم اللغة وعلوم المجتمع وعلم النفس وغيرها. كان الانتقال عسيرا، طبعا، مما نتج عنه أزمة سيسميها مؤرخو العلم، فيما بعد، بأزمة العلوم. لكن سرعان ما ستأخذ القاطرة طريقها لنسمع بين الحين والحين بانهيار صروح وإقامة أخرى.

كان صوسور محظوظا حقا، لأنه عاش في هذا الجو الأوربي الصاخب بالتغيرات الجوهرية والنوعية. وكان من السهل عليه إدراك أخطاء معاصريه من مقارنين وتطوريين. أخطاء في التصورات وأخرى في المنهج ضيعت على الأوربيين، في تلك المرحلة، فرصة الإمساك بالحقيقة اللغوية التي لن تدرك إلا بتأسيس خطاب بريء ومحايد (تأسيس النظريات) وبالابتعاد عن كل الخطابات التي أنتجها الوعي الشقي لأوربا العظيمة.

كان الهدف من المشروع الصوسوري هو وضع نظرية للأنساق الدالة كما قلنا، وكانت فكرة النسق، كما طرحها، جديدة على الأوربيين[1]، خاصة منهم أولئك الذين لا يملكون حسا استنباطيا يمكنهم من قراءة خلفيات تراثهم النهضوي. كانت الفكرة تتمتع بقوة تفسيرية لا تضاهى. والجانب الأكثر ثورية في نظرية صوسور هو أنها تنظر إلى النسق دون أن تتموقع داخله، عكس ما يجري في الفلسفة

1- يختلف رأينا هذا مع رأي Straus الذي يقول:" لقد اعتبرت البنيوية -أو ما يندرج تحت اسمها- أمرا جديدا كل الجدة وثوريا في الوقت ذاته. وهذا ما أراه زائفا؛ إنها أولا ليست جديدة البتة حتى في مجال العلوم الإنسانية. وبوسعنا اقتفاء أثر هذا التيار الفكري بدءا من عصر النهضة وحتى عصرنا الحاضر، مرورا بالقرن التاسع عشر. إنه أيضا افتراض خاطئ بسبب آخر: ما نسميه بنيوية في حقل اللسانيات والأنتروبولوجيا أو سواهما ليس أكثر من محاكاة هزيلة واهية لما كانت "العلوم الصعبة". كما يسميها انجلز، تفعله على الدوام". Straus (1977)، ص. 12. ما ينتقده Straus هنا هو البنيوية كفلسفة لا البنيوية كمنهج، لأن هذه الأخيرة (الفونولوجيا البنيوية) ستشكل واحدا من أسسه كما أسلفنا.



مثلا. والسبب في ذلك هو أن مشروع صوسور مشروع علمي بالأساس، هدفه بناء نظريات هي عبارة عن استراتيجيات عامة تؤطر طرق الاشتغال وتساهم في اقتراح الحلول[1].

قد يقال: إن نظرية صوسور مجرد نظرية واصفة ولا ترقى إلى مستوى النظريات المفسرة، لأنها لا تفسر شيئا، وكل ما تفعله إنما هو وصف الوحدات اللسانية في تتابعها (الوصف السانتاكمي) أو في توزيعها (الوصف البراديكي). وللرد على هذا القول نكتفي بالإحالة على ما ذكرنا أعلاه.

1. 2 . نقد اللسانيات التاريخانية والمقارنة:

هناك استراتيجيا معروفة في علم المناهج تقوم على مسلمة مفادها أنه يمكن فهم منجزات اللاحق انطلاقا من فهم إخفاقات السابق. ويتعلق الأمر، هنا، بفهم طبيعة الانقلاب الذي أحدثته بنيوية صوسور في مسيرة الدراسات اللغوية التي دشنها النحو المقارن وعمقها النحاة الجدد الذين جمعوا بين المقارنة والتاريخ محاولين إغناء اللسانيات التاريخانية بالأفكار الوضعانية التي شاعت في العلم والفلسفة، وخاصة منها تلك المنسوبة إلى داروين[2]. وقبل محاولة فهم طبيعة هذا الانقلاب والأسس المعرفية التي قام عليها، لابد من التذكير بالأسس التي أقام عليها النحاة الجدد نسقهم المعرفي، والتي يمكن تلخيصها فيما يأتي:

أ- على اللسانيات أن تهتم بتفسير أسباب التغيرات التي تطرأ خلال التطور اللغوي لا أن تكتفي بملاحظتها ووصفها. وقد لوحظ أن هذا الاهتمام لم يكن واردا عند F. Bopp المقارن[3].

1- من المفيد ملاحظة أن صوسور كان يهدف إلى العثور على ما يؤكد فرضية وجود "ملكة أكثر عمومية" هي تلك التي تحكم مطلق الدلائل. (أنظر صوسور (1916)، ص. 27).

2- عموما، ترتبط اللسانيات التاريخانية والمقارنة التي هيمنت على البحوث اللغوية في القرن التاسع عشر بالنموذج الداروني الذي اهتم بالبحث في الأصل المشترك للأنواع، معيدا، في نفس الوقت، الاعتبار إلى المنهج التصنيفي؛ حيث تم نقل الاهتمام من دائرة الصفات المورفولوجية إلى دائرة تتبع أصل المنشإ كأساس لتحديد موقع مختلف المجموعات التصنيفية في شجرة الانتماء.

3- يتلخص مشروع F. Bopp في كونه مشروعا يروم البحث عن لسان أصلي وأكثر كمالا من الألسن المعاصرة. وهو مشروع يندرج ضمن المشروع العقلاني الرومانسي الذي ظهر مباشرة بعد اكتشاف السانسكريتية في القرن الثامن عشر وعمر طيلة القرن التاسع عشر.



ب-يجب أن يكون التفسير قائما على أسس وضعانية، تماما كما يجري في علوم الطبيعة[1]. وبناء على هذا الأساس تم انتقاد أعمال A. Schleicher ذات الأساس الهيجلي[2].

ج- لكي يتحقق البحث في الأسباب، يستحسن حصر دراسة التغيرات في فترة زمنية محددة.

د- أول الأسباب والعوامل التي تقف وراء التغير هو التلفظ؛ فالقوانين الفوناتيكية هي قوانين قابلة فعلا لأن تعلل وتفسر تفسيرا فيزيولوجيا. كما أن إنتاجها يعد عملية ميكانيكية محضة (عملية عمياء)[3].

هـ - وثاني الأسباب هو العامل النفسي المتمثل في الميل إلى القياس؛ فالمتكلمون يبدعون كلمات وجملا جديدة قياسا على ما تجمع لديهم من معرفة بما هو موجود. الأمر الذي ينتج عنه تغير في الحصيلة اللغوية.

1- هنا تبدو النزعة العلموية المرتبطة بالوضعانية واضحة، وهي نزعة هيمنت كثيرا على أفكار النحاة الجدد.

2- جمع A. Schleicher بين الدراسة التجريبية والدراسة العقلانية (الرومانسية). ويرى أن الألسن حصل فيها تطور من الداخل، مثلها في ذلك مثل الأحياء. ثم حاول رصد هذا التطور مستخدما تقنية الشجرة الجينيالوجية، ومقسما ألسن العالم إلى ثلاثة أصناف، هي:

- الألسن العازلة isolantes؛ حيث الكلمات هي عبارة عن جذور معزولة عن اللواصق و عن الصرفات، وحيث اللاصقة والصرفة خاصيتان خارجيتان، كما في الصينية.
- الألسن اللاصقة agglutinantes؛ حيث يأتي الجذع (لا الجذر) مصحوبا باللاصقة، كما في الأوربيات.
- الألسن الصرفية flexionnelles؛ حيث الكلمة اندماج بين الجذر و اللاصقة و الصرفة، كما في العربية.

ويرى A. Schleicher أن كل أسرة لغوية قد مرت بمراحل متتابعة إلى أن وصلت إلى مرحلة الاكتمال (كما حصل مع الهندأوربية)، وبعد ذلك، أصابها ما أصابها من ضعف، ثم أعيدت العملية من جديد. ومن الأمور التي يعترض فيها صوسور على Schleicher القول بأن اللسان كائن حي، مقترحا تصورا آخر، هو اعتباره مؤسسة اجتماعية، بالإضافة إلى كونه نسقا دالا...

3- ضرورة اعتماد همزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن في بداية الكلام العربي، مثلا، تعتبر قانونا صارما لا تستثنى منه أية حالة.



و- التفسير التاريخي والمقارن هو التفسير الوحيد الوارد بالنسبة للتغيرات اللغوية.

وإذا كان صوسور قد بدأ مشواره مع النحاة الجدد، إذ يندرج عمله الأول le Système Primitif des Voyelles Indo-européennes حقا ضمن أعمالهم، فإنه ما لبث أن قرر التخلي نهائيا عن كل ما له صلة بالبحث التاريخي والمقارن الذي يعتمد، في نظره، أسسا غير يقينية، والدعوة إلى بناء لسانيات جديدة تقوم على أسس علمية، مخصصا لذلك كله كتابه المشهور Cours de Linguistique Générale (= CLG) والذي يعتبر بمثابة بيان لكل البنيويين.

وأهم الأسس التي طالب صوسور باحترامها:

- ضرورة اعتبار اللسان نسقا وليس مجموعة من الوحدات المعزولة.
- ضرورة القيام بعمل نظري.

وفي الحقيقة، فإن البحث التاريخي والمقارن يتمتع بقدرة كبيرة على الإغراء. فمن يستطيع أن ينكر أن هذا البحث لازال مفيدا إلى اليوم؟ من منا لا يتوق إلى أن يتعرف على أصول لسانه وعلى الألسن التي تجمعها معه قرابة؟ هذا الإغراء هو الذي استحوذ على صوسور في مرحلته الأولى فأنتج أعمالا يشهد لها بالتفرد، كما استحوذ على بنيويين آخرين، من بعده، نذكر منهم على سبيل المثال E. Benveniste الذي حاول في سنة 1935 أن يقدم صورة عامة عن الأصل الأقدم للهندأوربية اعتمادا على تاريخها من جهة وعلى تحليل مكوناتها الجينية من جهة أخرى.

والذي حصل هو أن صوسور، بعد هذه المرحلة، قد تطور فتطورت معه أسئلته. إذ سيتبين له أن أسئلة التاريخانيين والمقارنين والنحاة الجدد الذين يختصرونهم تبتعد كثيرا عما يجب أن يطرح. فهي أسئلة تمحورت حول أصل الألسن وسيناريوهات تطورها. الأمر الذي تطلب النبش في الماضي وبناء فرضيات يصعب اختبارها. وبدا لصوسور أن هناك ظواهر عديدة ذات علاقة ببنية اللسان لم يتم

الانتباه إليها، وأن الأمر أصبح يتطلب تغيير مسار الدراسة اللسانية برمتها. فتم الانتقال من البحث عن أصول الألسن وتاريخها إلى البحث عن طبيعة اللسان أولا وعن مستوياته الواردة وكيفية النظر إليه. حتى إنه ليمكن تشبيه العمل الذي قام به صوسور في اللسانيات بذلك الذي كان قد قام به كاليلي أو نيوتن أو الفيزيائيون الجدد الذين رفضوا الاستمرار في العمل بمفاهيم وتصورات علم الفلك والفيزياء القديمين حيث يختلط العلمي بالميتافيزيقي.

ويمكن ربط موقف صوسور بحقيقتين أساسيتين، هما:

- إعجابه بالعلم ومحاولته تخليص الدراسة اللسانية مما كانت تعاني منه من آراء فلسفية ميتافيزيقية.
- نشاطه الدائم ورغبته في التعامل مع علماء من حقول معرفية مختلفة.

والغريب أن هتين الحقيقتين هما اللتان ستشكلان بعد موت صوسور بنحو سبع عشرة سنة الصفتين الأساسيتين اللتين ستميزان جماعة فيينا. ومعنى ذلك أن صوسور ينتمي روحيا إلى هذه الجماعة التي عملت تحت شعار "العلم أولا وأخيرا". والغريب، أيضا، أن أيا من أتباعه لم ينخرط في هذه الجماعة ولم يتحمس لها رغم أن أغلبهم قد عاصرها، وذلك باستثناء Hjelmsliev الذي زارها بمناسبة انعقاد أحد مؤتمراتها.

تتمثل القطيعة الصوسورية في التنبيه إلى أن للألسن بنية داخلية هي الأجدر بالدراسة في مقابل الاهتمام بتطورها التاريخي الذي سيطر طيلة القرن التاسع عشر، أي في تحويل الاهتمام من الدياكروني إلى السانكروني بكل ما يقتضيه من بحث في بنية اللسان ومستوياته. فلقد بدا لصوسور أن الطرح القائم على التصور التاريخاني طرح مغلوط؛ لأنه لم يستسغ أن يكون تطور الألسن أو فسادها التاريخي آتيا من جهة مظهرها الفوناتيكي، وأن يتم الربط بين مرحلة لاحقة وأخرى سابقة للسان، رغم أن القوانين التي تضبطه في المرحلة الأولى تختلف عن تلك التي تضبطه في المرحلة الثانية. فتفنيد الأسس التي تقف وراء هذا الطرح شكل واحدا من



الأهداف المركزية في أطروحة صوسور التي يمكن اعتبارها، في جهة من جهاتها، نظرية نقدية للتصور التاريخاني بامتياز.

من جهة أخرى، يرى صوسور أن فكرة "اللسان يعكس الفكر" التي يبني عليها النحاة الجدد تصورهم للسان[1] فكرة لا يمكن الأخذ بها، لأن العلاقة بين العبارة (الدال) والفكر (المدلول) هي علاقة اعتباطية، وأن بنية اللسان مستقلة عن بنية الفكر، وبالتالي فإن الأولى لا تعكس الثانية. وبناء عليه، فإن القول بأن استعمال اللسان هو العامل الأساسي في تغيره قول مستبعد وليس هناك ما يدل عليه. وإذا كان النحاة الجدد يعتقدون بأن الكلام أو الاستعمال يشكل خطرا على اللسان وقوانينه ويتهدده بالفوضى، فإن صوسور يرى أن الاستعمال لا يمس جوهر اللسان الذي هو النظام. فاللسان يظل منظما في جميع الظروف. وما اللسان، في النهاية، إلا النظام. وربما اعتبر مفهوم النظام كما يتصوره صوسور أعم وأشمل من مفهوم البنية الذي سيطوره الأتباع.

وإذا كانت نظرية النظام، كما يطرحها صوسور هي النواة الصلبة لبرنامجه العام، فإن فرضية القيمة، كما عرضناها في الفقرة (1.1) من هذا الفصل، تعتبر واحدة من أحزمتها الواقية حسب إبستمولوجيا I. Lakatos. فهي التي سمحت لصوسور بأن يرسم إطارا جديدا للبحث اللساني يختلف جذريا عن ذلك الذي انتهى إليه البحث التاريخاني والمقارن مع النحاة الجدد.

لقد أعجب التاريخانيون والمقارنون وجل لغويي القرن التاسع عشر أيما إعجاب بالمنهج كما تبلور على يد تشالز داروين Charlez Darwin (1809-1882)، وشكل ما يشبه إبستيمة العصر، حتى إنهم "اعتبروا اللغات، من غير أن يصرحوا بذلك علنا، بمثابة أنواع من الأعمال العضوية التي ذهبوا إلى تحديد "أعضاء" خاصة بها. أضف إلى ذلك أن مناخ المنطق الموروث، في قسم كبير منه، عن

1- حيث يتحدد اللسان بوظيفته التي هي التواصل.



المذهب الأرسطي أتاح لهم أن يميزوا فيها الأجزاء التي تستجيب لوظائف معينة. ولنتذكر فقط تعبيرا مثل "حياة الألفاظ""[1].

أهم أسس النزعة الطبيعانية:

- أن كل شيء في العالم يتطور.

- وأن حقيقة الشيء لا تعرف إلا عن طريق النظر إليه في تطوره. فحاضر الشيء هو نتيجة لماضيه.

هذان الأساسان تسربا إلى اللسانيات وإلى غيرها من العلوم الإنسانية. فاقترح لسانيو القرن التاسع عشر أن يكون موضوع الدرس اللساني هو البحث في قوانين تطور الألسن بعد أن سلموا بأن الألسن تتطور كما تتطور كل المؤسسات. وكانت القوانين أو شروط التطور التي يبحثون فيها شروطا تقع خارج اللسان، وأهمها الشرط الاجتماعي الذي يجسده مجتمع المتكلمين[2]. وتم ربط تطور اللسان بتطور المجتمع، كما تم التعامل مع كل لسان على حدة، حيث نظر إلى تاريخ كل لسان على أنه يشكل مونوغرافيا خاصة. هكذا يمكن الحديث عن تاريخ العربية في القرن الثاني الهجري مثلا. وتتدخل المقارنة لتخبرنا بأن لسانين أو مجموعة السن قد تفرعت عن لسان أعلى في مرحلة من مراحل تطوره. المقارنة التي يلجأ إليها عندما تكون المعطيات التاريخية غير كافية أو منعدمة. إلا أنه سرعان ما تم استغلال نتائج الأبحاث التاريخية والمقارنة لأغراض قومية أو عرقية ضيقة أفقدتها طابع العلمية التي كانت تتوخاها وقللت من مصداقيتها.

وتفيد المعطيات التي يقدمها تاريخ اللسانيات في أوربا القرن التاسع عشر أن البحث في تطور الألسن وفي أصولها الأولى مسألة سبقت ظهور نظرية دارون. إذ تفيد هذه المعطيات أن بوادر هذا النوع من البحث ظهرت عند اللسانيين منذ القرن الثامن عشر.

دحض الأسس المعرفية التي قامت عليها لسانيات القرن التاسع عشر كان واحدا من الأهداف المسطرة في برنامج صوسور. حتى إنه، في بعض الأحيان، لا

1- مارسيل كوهن (د.ت).

2- يستثنى من هذا التعميم النحاة الجدد الذين هم في الأصل تاريخانيون ومقارنون، كما أشرنا سابقا، والذين توصلوا إلى اكتشاف مبدإ التغيرات الفوناتيكية، وهو مبدأ داخلي كما يبدو.



يمكن الوصول إلى استنباط أسسه إلا بالعودة إلى أفكار التاريخانيين المقارنين؛ فالسانكروني لا يفهم إلا من خلال الدياكروني. واللسانيات القائمة على مفهوم البنية أو اللسانيات الداخلية لا يمكن إدراكها إلا في ضوء اللسانيات الخارجية. وباختصار، فإنه لا يسعنا إلا أن نقول مع Hjelmsliev: إن صوسور نتاج لوضعية.

2. البنيوية بعد صوسور، أو صوسور المتعدد:

كل تأويل لنظرية صوسور هو عبارة عن موقف إزاء الشروط التاريخية والمعرفية التي تشكلت اللسانيات المعاصرة في إطارها. والتأويل، الأكثر رواجا هو ذلك الذي يختزل الصوسورية في مسألة اعتباطية الدليل. ومن المواقف التي ينسب إليها مثل هذا التأويل تلك التي يمثلها كل من A. Martinet و G. Mounin وكذا J.B. Marcellessi وB. Garding[1] و R. Landi والمشرفين على مجلة L'Homme et la Société [2]. كما يمثلها بشكل أعمق Baudrillard. ومن المفاهيم التي ركز عليها هذا التأويل مفهوم القيمة، حيث يتم التركيز على العلاقة بين الدليل ودلائل أخرى لا على العلاقة بين الدال والمدلول التي تم حسمها بالقول باعتباطيتها؛ فحسب هذا التأويل، يشكل تصور القيمة اللسانية كما ورد في كتاب صوسور CLG حالة خاصة من قيمة النقود حيث تتحدد قيمة النقد بالتداول وقيمة الدليل باستعماله في التواصل[3].

1- أنظر عملهما المشترك: Introduction à la Sociolinguistique. Larousse, 1974

2- انظر، بصفة خاصة، العدد 28. 1973.

3- ينتبه G/P إلى مسألة تعدد التأويلات التي أول بها صوسور، مما نتج عنه تعدد في التوجهات والتيارات داخل البنيوية. فهما يريان "أن صوسور يشكل أساس كل المدارس اللسانية الحديثة بكيفية مباشرة أو غير مباشرة... وباسم صوسور انقسم اللسانيون، لأنه هو نفسه يحمل هذا الانقسام...وإذا كان الأمر كذلك، فأين يمكن تلمس هذا الأساس: أفي اعتباطية الدليل أم في القيمة؟ هل الصوسورية صورة مأخوذة عن التعارض القائم بين النزعة السوسيولوجية والنزعة الصورانية؟ أهي صيغة جديدة للتعارض " طبيعة/ اصطلاح "؟ أم أنها نسخة عصرية لثنائية الفرد والمجتمع؟ هل تعتبر الصوسورية تدشينا لسيميولوجيا حديثة كعلم عام للدلائل؟ وهل يعتبر التواصل تصورا صوسوريا؟ هل يعتبر اللسان هو ما يتبقى من اللغة عندما نقصي الكلام؟ وماذا يقصد بالنسق وبالدليل في قولنا: " إن اللسان نسق من الدلائل"؟ وهل يعتبر مفهوم القيمة خلاصة تكتسي أهمية نظرية تمتد جذورها إلى علم الاقتصاد السياسي"؟ G/P (1981)، ص.ص. 52-53.



إلا أن هناك تأويلا آخر لم ينطلق من CLG، عكس التأويلات الأولى، ولكنه انطلق، في تأويله لصوسور، من كتابه الأسبق les anagrammes الذي يؤسس لفرضية مؤداها أن النص الشعري يتميز بكونه يشتمل على كلمة محورية تتعالق معها، اشتقاقيا أو جناسيا، كلمات أخرى تتواجد معها في نفس النص[1]. فرضية تؤسس لسانيات للشعر كما فهم. التأويل الثاني هذا يقوم على أساس تفنيد كل تأويل اقتصادي للدليل، مغلبا صوسور الثاني (صاحب les anagrammes) على صوسور الأول (صاحب CLG). ويعتبر Baudrillard من أكبر المتحمسين لهذا التأويل[2].

ويمكن إلحاق موقف E. Benveniste بالتأويل الثاني من جهة أنه يرى "أن القول باعتباطية الدليل اللغوي قول لا يستمد أسسه من الحقيقة اللسانية وإنما من الفلسفة؛ لأنه قول يستبطن فكرة الجوهر أو الواقع. وحتى يخلص اللسانيات من أساسها الفلسفي، يقترح استبدال محتوى الاعتباط، كما تصوره صوسور، بمحتوى آخر يتم فيه الربط بين الدليل والواقع"[3].

تعمدنا التقديم لهذه الفقرة بالتمييز بين تأويلين لصوسور:

أ- صوسور الذي يرغب في بناء نظرية لسانية تتماس مع نظريات أخرى في علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والاقتصاد... وهو صوسور المجسد في CLG.

ب-وصوسور الذي يرغب في بناء نظرية لسانية للشعر؛ نظرية تنتمي حقا إلى العمل السيميولوجي المجرد، وهو صوسور الذي يمثله عمله الأسبق les anagrammes.

1- ليس المهم، في هذه الحالة، هو البحث عن معنى الكلمة (المدلول) وإنما البحث عن كلمات أخرى، أو عن الكلمة "المحور". فالدال لا يحيل مباشرة على مدلول ولكنه يحيل على دال آخر. هذا النوع من العلاقات هو الذي يسميه Starobinski "خطابا تحت الخطاب" حيث لا تبقى سوى خطوة واحدة بينه وبين التناص على حد قول J. Cristéva (انظر C. Sanders(1979)، ص. 81). الاهتمام بموضوع كهذا كان نتيجة لشدة هيام صوسور بفكرة الدال وفكرة النسق. وربما كانت دراسته للدليل الشعري هي أنصع مثال قدمه عن أن فكرة النسق فكرة عنيدة ولا تقاوم.

2 – أنظر التفاصيل في G/P (1981)، ص. 55.

3- نفسه، ص. 56.

ولابد من الإشارة إلى أن جل المدارس التي جاءت بعد صوسور والتي عملت في إطار نظريته اللسانية[1] قد انساقت مع التأويل الأول ودافعت عنه بطريقة أو بأخرى. تلك حال مدرسة براك ومدرسة كوبنهاكن في أوربا، والمدرسة التوزيعية في أمريكا، مع بعض الاستثناءات القليلة التي تشكل محاولة جاكوبسن واحدة منها.

2 . 1 . حلقة براغ أو الصيغة الشكلانية للبنيوية

بعد الثورة الروسية، كثرت أبحاث علوم المجتمع التي تركت اثرا كبيرا على الدراسات اللغوية. حيث اتجه اللغويون الروس إلى الاشتغال بما سمي "اللسانيات الماركسية"، وحيث استثمرت الأطروحات الاجتماعية لـ Marr الذي كان يبحث في الأصول الاجتماعية والنفسية للغة، وحيث أصبحت القناعة هي تلك التي عبر عنها جورج بليخانوف George Plekhanov (1857-1918) بقوله:" إن علاقات الإنتاج والبنية السوسيوسياسية التي ترتبط بها هي التي تحدد كل أشكال التواصل الكلامي الممكنة بين الأفراد."[2] الهدف من هذا الكلام، وكما هو واضح، تطوير علم نفس اجتماعاني للتواصل الكلامي.

وبدءا من أواسط العشرينات من القرن الماضي، انتقل الاهتمام بالشأن اللساني من موسكو إلى براغ (حالة جاكوبسن ورفاقه). وربما حدث ذلك نتيجة الضغوط التي فرضها نظام ستالين على العلوم اللغوية حتى تدعم طروحاته

1- يمكن الحديث عن ثلاث مدارس لسانية تأثرت كلها بأفكار صوسور، وهي:
- مدرسة براغ ذات التوجه الوظيفي بزعامة جاكوبسن وتروبتسكوي.
- مدرسة كوبنهاكن ذات التوجه الكلوسيماتي بزعامة هيلمسليف.
- المدرسة التوزيعية ذات التوجه الوصفي التصنيفي بزعامة هاريس.
-ويوسع Apresjan دائرة هذا التأثير، فيضيف مدارس أخرى يصفها بالبنيوية أيضا، مثل:

- مدرسة جنيف تحت إدارة Ch. Bally و A. Sechehaye و A. Frei
- مدرسة موسكو تحت إدارة Avanesov و Kusnecov وآخرين.
- مدرسة لندن تحت إدارة J. Firth و M. Halliday.

انظر Apresjan (1966)، ص.ص. 35-36.

2- G/P (1981)، ص. 102.

الإيديولوجية، خاصة وأنه ظهرت هناك بوادر، وربما زعامات، لتيار مناهض للتفسيرات الإيديولوجية هو التيار الشكلاني[1].

تقع براغ وسط أوربا، وكانت حينها ملتقى لثقافات أهمها السلافية والألمانية، " كما كانت متحررة إلى حد ما رغم انتمائها إلى المعسكر الشيوعي. يدل على ذلك الأسماء التي زارتها ما بين 1925 و بداية الحرب العالمية الثانية، أمثال: هيلمسليف وبلومفيلد وجونز وكارناب وهوسرل وبروندال وبنفنيست..." [2] ويقول عنها جاكوبسن:" يجب أن لا ننسى أن تشيكوسلوفاكيا، بعد الحرب العالمية الأولى، كانت عبارة عن جمهورية فتية، حيث الثورة الروحية بلغت ذروتها، وحيث لا وجود للحواجز بين مختلف مجالات الأنشطة الإنسانية من علوم وما إليها" [3].

تأسست حلقة براغ اللسانية تحت إشراف التشيكي Mathesius. لكن فضل التأسيس الفعلي يعود إلى المهاجرين الروس الثلاثة:

Jakobson وTroubetzkoi و Karcevski الذين وقعوا البيان المقدم إلى المؤتمر الدولي الأول الذي انعقد بلاهاي عام 1928، وكان هدف الحلقة منذ بدايتها:

- المباحث الفونولوجية.
- المباحث الشعرية.

ويتبين من الهدف الذي سطرته الحلقة لنفسها أن روادها كانت لديهم رغبة كبيرة في الجمع بين النظرية والتطبيق. حتى إن الأعمال التي أنجزوها في إطار الحلقة تبين أن هناك شبه اتفاق على تقسيم العمل؛ فيتولى البعض الاشتغال بالنظرية الفونولوجية كما فعل Troubetzkoi ويتولى البعض الآخر تطبيق نتائج البحث

1- توج الإحباط الذي عانى منه اللغويون الروس، لسانيون وشكلانيون، " بالإخفاق الذي تميز به أول لقاء مباشر بين الثورة الاجتماعية وبين علم اللسانيات. وتم تفويت هذه الفرصة التاريخية التي كانت ستجمع بين اللسانيات والعباقرة السوفييت ". السابق، ص. 105.

2 - نفس المرجع والصفحة.

3- نفس المرجع والصفحة.

الفونولوجي على الظاهرة الشعرية كما فعل جاكوبسن[1]. أسلوب العمل هذا، وبما يتسم به من الضبط، هو الذي دفع G. Mounin إلى القول:" كان أسلوب العمل الذي تم اقتراحه في مؤتمر لاهاي عام 1928 وكذا الطريقة الجماعية التي يتم بها اشتغال الأعضاء أسلوبا بلشفيا محضا"[2]. وفي نظرنا، فإن الأسلوب البلشفي هذا، وربما حتى النظرة البلشفية، هما اللذان ستكون لهما الكلمة الأخيرة في معالجة القضايا الهامة التي جعلها البراكيون محور اهتمامهم رغم انتقالهم إلى بيئة توفر لهم الحد الأدنى، على الأقل، من شروط الاشتغال الحر. عدم القدرة على التحرر من النظرة البلشفية هو الذي أدى بهم أخيرا إلى الوقوع في التناقض الذي لاحظه أكثر من واحد. فلقد لاحظ G/P، على سبيل المثال، " أن توجه براغ قد عرف بعض التناقض؛ فمن جهة، كان محاولة لتطبيق ما ظل نظريا عند صوسور. ومن ذلك: كيفية ارتباط الدال بالمدلول؛ حيث عالجوا المسألة من خلال كيفية تولد المعنى في الشعر. ومن هنا جاء ربطهم بين اللسان باعتباره موضوعا لسانيا، واللسان باعتباره موضوعا أدبيا. ومن جهة أخرى، كانت الحلقة خطوة أولى نحو لسننة مبحث إيديولوجيا التواصل قصد إضفاء الشرعية العلمية عليه"[3]. ظهر هذا التناقض عند الرائد جاكوبسن أكثر من غيره، لأنه هو الذي تكفل بحل المعادلة الصعبة، وهي البرهنة على قدرة الباحث ذي الأصول اللينينية على التكيف مع أفكار المجتمع الحر. أي أنه على يده مرت تصورات البراغيين بالمحك الحقيقي، خاصة حينما نعلم أنه هو الذي سيشرف على عملية الانتقال من ثقافة متشبعة بالفكر الاجتماعي ذي الأسس الاشتراكية إلى ثقافة متحررة قد تذهب بصاحبها بعيدا إلى حد نفي المعنى أو التجرد منه على الأقل، كما فعلت البنيوية التي ستغويه وسيصبح من روادها في أوربا ثم في أمريكا. وقد نجد تفسيرا لهذا الانتقال، الذي قد يفهم منه أنه انتقال من

1- يمكن القول : إن Troubetzkoi يمثل التأويل الأول لصوسور (صوسور صاحب CLG) وان Jakobson يمثل التأويل الثاني (صوسور صاحب les anagrammes).

2- G. Mounin (1967)، ص.108.

3- G/P (1981)، ص. 107.



الضد إلى الضد، في ماضي جاكوبسن نفسه. فقبل رحيله إلى براغ ليؤسس بها، هو ورفاقه، ما سمي فيما بعد "حلقة براغ" اللسانية ذات التوجه البنيوي، " كان مؤسسا مشاركا لحلقة موسكو اللسانية (1915-1920). وهي الحلقة التي كانت على اتصال بحلقة أخرى تشكلت في بيترسبورغ (جمعية دراسة اللغة الشعرية). وقد لعب دورا هاما في نشأة مدرسة الشكلانيين الروس[1]". يشهد له هذا بأنه كان مهيأ لهذا الانتقال. ثم إن المسافة بين الشكلانية الروسية والبنيوية الصوسورية ليست بالمسافة البعيدة كتلك التي تفصل بين المادية التاريخية والبنيوية الصماء. ثم إن رحيل جاكوبسن من موسكو إلى براغ المطلة على أوربا الغربية يحمل الكثير من الدلالات، أهمها أن جاكوبسن قد رحل معرفيا قبل أن يرحل جسديا. مما يعني أن هذا الرحيل قد حقق استئنافا لقول ابتدأ في موسكو ثم توقف[2]. وربما كان التقريب بين الشكلانية الروسية والبنيوية الأوربية إحدى المهمات التي تكفل بها جاكوبسن داخل حلقة براغ[3]. والذي يفسر هذا الحدو هو انتهاء الحلقة إلى تأسيس لسانيات تواصلية؛ لسانيات تجمع بين ما هو نسقي وبين ما هو وظيفي، بين ما تقوله البنيوية وبين ما تقوله الشكلانية؛ حيث تم التخلي نهائيا عن المبدإ الصوسوري " اللسانيات هي دراسة اللسان كنسق مغلق " ليحل محله المبدأ البراكي " يجب أن تدرس اللغة عبر مختلف وظائفها"[4]. مع جاكوبسن ورفاقه أصبح أساس كل عمل بنيوي يروم دراسة أي معطى لغوي ينحصر في تحديد وظائف هذا المعطى. بل إن اللغة نفسها، وكما لاحظنا عند جاكوبسن، لا تتحدد إلا بوظائفها. واللسان ما هو إلا فعل تواصلي، عناصره هي: المرسل والمرسل إليه، وبينهما السياق، والرسالة

1- م. الولي و م. حنون (1988)، ص. 6.

2- يقول C.L. Straus في هذا الخصوص:" إنني أؤكد أن البنيوية الحديثة، ومن ضمنها اللسانيات البنيوية، ما هي إلا امتداد للشكلانيين الروس". (Straus (1973)، ص. 124).

3- سينتهي المطاف بجاكوبسن إلى تبني التصور التالي:" تهتم الشعرية بقضايا البنية اللسانية... وبما أن اللسانيات تعتبر العلم الذي يهتم بالبنيات اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءا لا يتجزأ من اللسانيات". R. Jakobson (1960)، ص. 210.

4- نفسه، ص.213.



والاتصال والشفرة[1]. ويرتبط كل عنصر من هذه العناصر بوظيفة من الوظائف: الانفعالية والإفهامية، وبينهما المرجعية والشعرية والانتباهية والميتالسانية[2].

ولم يخرج تروبتسكوي عن القاعدة التي رسمها الرفاق، وهو يتخصص في الدراسة الصوتية ليتوج أعماله بتطوير نظرية في الفونولوجيا كان لها إشعاع كبير في اللسانيات وفي خارجها[3].

تمحورت جهود تروبتسوكي حول العمل على طرح تصور جديد لمفهوم الفونيم، تصور يختلف عن ذلك الذي كان قد طرحه المكتشف الأول **Baudouin de Courtenay** الذي أخذ عنه صوسور. فبدل أن ينظر إلى الفونيم على أنه " كيان نفسي معادل للصوت" كما كان الأمر في السابق، أصبح ينظر إليه على انه " جزء من نظام وظيفي" حيث لا يكون الفونيم فونيما إلا إذا لعب دورا في عملية التواصل. و "اللسان ما هو إلا نظام من وسائل التعبير المخصصة لتحقيق هدف معين هو التواصل." [4] ذلك هو شعار براغ. وفي النهاية، فإن المرجعية، مرة أخرى، تظل هي إيديولوجيا التواصل". ولقد ركز البراغيون على مفهوم "التمايز" (distinctivité) الصوسوري باعتباره أهم خاصية من خصائص النسق اللساني. ومن فرط التركيز

1- انظر نفس المصدر، ص. 214.

2- نفسه، ص. 220.

3- كما حصل في الأنتروبولوجيا البنيوية على الخصوص. انظر الفقرة (1.1.) من هذا الفصل.

4- يشكك تشومسكي في جدوى قيام لسانيات تتأسس على فرضية التواصل كفرضية مفسرة لطبيعة اللغة البشرية. ويدعي أنه " يمكن أن تكون اللغة وسيلة للتواصل، إلا أنها ليست وسيلة جيدة جدا، مثلما يمكن لأي كان أن يلاحظ ذلك انطلاقا من تجربته الشخصية؛ ذلك أن التواصل يمكن أن يتم بعدة طرق. وكما قلت: فإني لست ممن يعتقد أن اللغة تمثل في جوهرها، وسيلة للتواصل، بمعنى أن استعمال اللغة بهدف التواصل لا يمثل سوى واحد من استعمالاتها الممكنة. يضاف إلى ذلك أننا قد نهتم باللغة دون انشغال بما توصله. وقد ننظر إليها باعتبارها وسيلة للتعبير عن أفكارنا دون اكتراث بما إذا كان هناك سامع أولا يتواصل معه. والذي أخشاه هو أن يكون هذا الأمر لا يحتاج إلى نقاش؛ إذ يبدو لي أن التفكير بأن اللغة أداة ووسيلة فحسب هو أمر سطحي". R. Laffon (1975)، ص. 30.



عليه، كانت النتيجة التي انتهى إليها بعضهم هي أن اللسان مبنين بشكل علمي دقيق. ومن ثم يمكن اعتباره موضوعا علميا محضا. وهذه نزعة وضعانية واضحة[1]".

ومن التناقضات التي عرفها التوجه البراغي الجمع بين تصور هوسرل وتصور صوسور لمفهوم النسق. وتم التعبير عن ذلك بالقول:" إن المظهر النسقي للسان ليس سوى تكميل للمظهر الوظيفي[2]".

وقد لعب Bühler (أحد نشطاء حلقة براغ) دورا هاما في نقل الفينومينولوجيا والجشطالطية إلى الحلقة، كما لعب دورا في الحملة التي شنت ضد حلقة فيينا (الوضعانية المنطقية)؛ فلقد انتقد موقف الفيينيين، المتمثل في اعتبار اللغة نشاطا منطقيا متجاهلين خاصيتها الطبيعية[3]. ويعتبر Bühler البراغي الوحيد الذي طور نظرية قائمة على أساس دلالي، منطلقا من الأساس العام للبراكيين "اللسان مجموعة من الوظائف"، ومميزا بين الوظيفة التمثيلية والوظيفية التعبيرية والوظيفية الندائية. ولقد أعاد البراغيون صياغة هذه الوظائف على أسس تصنيفية أخرى، مضيفين إليها الوظيفة الشعرية كما ذكرنا في السابق.

1- G/P (1981)، ص. 107. من ملامح النزعة الوضعانية عند البراغيين ما يفهم من كلام تروبتسكوي: "يتميز العصرالذي نعيشه برغبة كل العلوم في أن تعوض المذهب المادي الذري بالمذهب البنيوي والمذهب الكلي. ونفس الرغبة تحدو الفونولجيا" (Sanders (1979)، ص.50). ويبدو أن مثل هذا الفهم هو الذي دفع ب J. Cantineau إلى القول :" إنني ارى أن اللسانيات كانت هي العلم الوحيد، من بين العلوم الإنسانية، الذي استطاع أن يمتلك منهج العلم الوضعاني. ولم تستطع العلوم الأخرى، كالأنتروبولوجيا وتاريخ الأديان وتاريخ الحضارات،... أن تحقق ذلك إلا بعد تبنيها لمنهج شبيه بالمنهج اللساني". (Troubetzkoi 1939 المقدمة التي وضعها Cantineau للكتاب). من ملامح النزعة الوضعانية عند البراكيين أيضا ما أبداه Troubetzkoi من رغبة جموحة في بناء علم دقيق. وذلك عن طريق التحليل الموضوعي للسان الذي لا يمكن أن يتحقق في نظره إلا باعتماد المعايير النسقية. ومن هنا جاء توظيف مفهوم البنية توظيفا صارما، وتم اعتبار اللسان على أنه: "مجموعة من الأنساق الجزئية" أو هو "نسق الأنساق".

2- G/P (1981)، ص. 108.

3- نفس النقد سيعود تشومسكي التوليدي إلى ممارسته في النصف الثاني من نفس القرن. انظر الفقرة (2.1) من الفصل الثالث من هذا العمل.

ويلاحظ G/P أن البراغيين لم يستوعبوا مفهوم القيمة كما قدمه صوسور، وتم التعامل معه بشكل سطحي واعتبروا أن ما بناه صوسور نظريا هو من صميم اللسان. كما أن التمييز بين اللسان والكلام لم يتم التعرف عليه في حقيقته. ولم يرجع إلى مبدإ اعتباطية الدليل سوى جاكوبسن، لكن لا ليستثمره وإنما ليفنده. وتم التشكيك في نجاعة التمييز بين السانكروني والدياكروني، فاستبدله جاكوبسن بتمييز آخر هو السانكروني/ المتحرك. كما تم استبعاد خطية الدال، وفهم CLG على أنه مجرد نقد للنحاة الجدد.

والمفهوم الوحيد الذي تم استغلاله، بشكل واضح، هو المتعلق بالتمييز بين السانتاكمي والباراديكمي. وهو الجانب الوحيد الذي ربط بين البراغيين والاهتمام بالتركيب؛ إذ لوحظ أن هؤلاء لا يولون هذا الجانب أي اهتمام؛ حتى إنه نسب إلى تروبتسكوي قوله:" إن التركيب يرعبني[1]."

2. 2. حلقة كوبنهاكن، أو لسانيات المدلول

كان الهدف الذي ظل هيلمسليف، رائد الكلوسيماتية، يطمح إلى تحقيقه هو:

أ- الرغبة في تقديم صياغة صورية لتصورات صوسور، خاصة ما ارتبط منها بالمسلمتين:

- اللسان تعبير ومحتوى في نفس الآن.
- اللسان صورة وليس مادة، شكل وليس جوهرا.

ب- الذهاب بأفكار صوسور إلى أبعد مدى.

ومن جهة أخرى، فإن هيلمسليف قد توخى أن تكشف أعماله عن العمق الإبستمولوجي للنظرية البنيوية كما دشنها صوسور. ولذلك، فإنه لم يقنع بأن يتعامل مع الإرث الصوسوري كما وجده، وإنما قام بإعادة قراءته ثم بصياغته وفق ما تقتضيه المبادئ الإبستمولوجية المعمول بها في وقته، ومن بينها المبادئ التي

1- انظر التفاصيل في G/P (1981)، ص.ص. 108-109.



اقترحها مناطقة فيينا الوضعانيون. تجلى ذلك في إقصائه للأسس النفسانية والاجتماعانية التي لا تستجيب للاختبار، وفي إقامته، بدلا منها، نسقا رياضيا أعفاه من العودة إلى الحدس والتخمين[1].

لقد بدا لهيلمسليف أن أفكار صوسور قابلة للصورنة الرياضية لكن شريطة أن يعاد فهمها بعيدا عن القراءة الاختزالية والسطحية. وليس المقصود بالصورنة الرياضية، عنده، سوى ذلك الروح الذي يعطي للرياضيات قيمتها التعبيرية والاستدلالية. الصورنة التي ينشدها هيلمسليف صورنة تحقق هدفين هما التجريد وقابلية الاختبار.

ويعتبر كتاب هيلمسليف Prolégomènes à une Théorie du Langage[2] الكتاب الذي يعرض أهم تصوراته النظرية والإبستمولوجية التي تمثل موقفه الحاسم تجاه مجموعة من القضايا التي تنتمي إلى الدرس اللساني، كما يعتبر ثورة في إبستمولوجيا اللسانيات نظرا لما أضفى عليها صاحبه من طابع العلمية ولتقيده بكل ما يستوجبه العمل الإبستمولوجي المحض. ويكفي القيام بإعادة قراءة هذه الإبستمولوجيا بالبحث عن المبادئ التي تشكل أسسها والتي كان لها الدور الحاسم في وصول هيلمسليف إلى ما وصل إليه من نتائج حتى ندرك مدى صحة هذا القول.

فبخصوص القضية الصوسورية الأولى "الدليل عبارة عن دال ومدلول"، يرى هيلمسليف أن " اللسان تعبير ومحتوى"، وذلك حتى لا يقتصر الأمر على الدال دون المدلول من جهة، وحتى لا توصم الدراسة اللسانية بأنها خوض فيما لا معنى له وهو

1- " على عكس حلقة براك، قامت حلقة كوبنهاكن بإقصاء كل ما هو أدبي، وتم الاكتفاء بالمنطق الرياضي قصد بناء نظرية لسانية كلية. ولم تهتم بتطبيق نظرية صوسور وإنما بتجريد أفكاره، حتى قال عنها تروبتسكوي: " كان هدف حلقة كوبنهاكن هو صياغة المفاهيم لذاتها ومن أجل ذاتها". وفي هذا السياق، ظهر العمل الرائد لهيلمسليف حينما ميز بين المعنى والدلالة، مستفيدا من التمييز: سيكولوجي ذهني/إنجازي، الذي توصل بفضله إلى التفريق بين المستوى المنطقي للتواصل وبين مستواه الإنجازي". السابق، ص. 110.

2- ظهر هذا الكتاب، أول ما ظهر، بالدانماركية عام 1943. وترجم إلى الإنجليزية عام 1953. ولم يترجم إلى الفرنسية ليتعرف عليه الفرنسيون إلا عام 1968.



المطلق من جهة أخرى. إذ يلاحظ أن الأساس الذي اعتمده هيلمسليف، بخصوص هذه القضية، هو ذلك الذي يدعو الباحث إلى التقريب بين المطلق وهو الدال وبين النسبي وهو المدلول[1]. وبخصوص القضية الصوسورية الثانية " اللسان صورة وليس مادة "، يحتكم هيلمسليف، مرة أخرى، إلى الإبستمولوجيا التي تبناها والتي تملي عليه ضرورة العمل في اتجاه التقريب بين النزعة الصورية والاهتمام بالمعنى.

وباختصار، فإن إبستمولوجيا هيلمسليف اللساني البنيوي تقوم على مبدأ عام هو أن ما هو موجود بالقوة لا يعرف إلا بواسطة ما هو موجود بالفعل والعكس. ومعنى ذلك، عمليا، أنه لا يمكن معرفة الدال إلا عن طريق المدلول والعكس أيضا.

من هنا يمكن فهم جميع الاعتراضات التي تقدم بها هيلمسليف، والكلوسيماتيون عموما، تجاه بعض تصورات صوسور. والتي يمكن إجمالها كالآتي:

- بخصوص التمييز بين السانكروني والدياكروني، مال الكلوسيماتيون إلى الربط بين الأول و الثاني مع الإلحاح على أن الضرورة المنهجية تقتضي الأخذ بهما معا.
- وبخصوص التمييز بين اللسان والكلام، يشكك الكلوسيماتيون في فرضية استقلال اللسان عن الكلام. ويقترحون اعتماد مفهوم "خطاطة" (Schéma) للسان ومفهوم " نص" للكلام، تماما كما سيفعل التوزيعيون الأمريكان الذين سيقترحون مفهوم " بنية " للسان ومفهوم " نص" للكلام.
- وبخصوص التمييز بين الوحدات اللسانية على أساس نسقي، تقترح الكلوسيماتية التمييز فيما بين تلك الوحدات على أساس وظيفي أولا، ثم على أساس أنها أشكال وجواهر في نفس الوقت (الربط بين الفونولوجي والنوناتيكي، والربط بين المحتوى كصورة والمحتوى كجوهر).

1- الدال مطلق من جهة أنه يتحدد بعيدا عن العالم الخارجي الذي هو عالم المعنى، والمدلول نسبي من جهة أنه يرتبط بهذا العالم.



- وبخصوص التمييز بين السانتاكمي والباراديكمي حيث غلب صوسور الاهتمام بالأول على الاهتمام بالثاني (=خطية الدليل)، تهتم الكلوسيماتية بالعلاقات المركبية والعلاقات الدلالية في آن واحد.

ما هو أساسي في إبستمولوجيا هيلمسليف هو أن الضد لا يعرف إلا بالضد. إلا أن الأهم الذي تجب الإشارة إليه هو أن هذه الإبستمولوجيا هي التي قادته إلى الاهتمام ببناء نظرية للأنحاء بدل الاهتمام بالألسن. الأنحاء باعتبارها أوصافا للألسن الفعلية. وأصبحت المسألة الأساسية عنده هي أن مبدأ الاختبار المستفاد من الوضعانية الجديدة للفيينيين ينظر إليه على أنه جهاز يمكن من تقويم مختلف النماذج المقترحة لنفس اللسان. هذا الجهاز ليس سوى نظرية عامة تقوم، بدورها، بناء على مقاييس تحددها الإبستمولوجيا العامة، كالانسجام والبساطة والشمول. يقول هيلمسليف، في هذا الخصوص: " يجب أن يكون الوصف خاليا من التناقض... وشاملا وأكثر بساطة."[1] وهي نفس المقاييس التي سيستعملها لسانيون آخرون فيما بعد، مع إضافة مقياس القدرة التفسيرية (تشومسكي) و مقياس الأناقة beauté (Karush) و مقياس التناسق Symétrie (A. Hill)

من أساسيات العمل اللساني، في نظر هيلمسليف، اعتماد بناء النظريات قصد صورنة معارفنا الحدسية حول الموضوع. فالنظرية الصورية وحدها هي التي تسمح بالتمحيص التجريبي. يعتمد هذا ضدا على ما لوحظ من "عدم دقة التصورات الأساسية التي اشتغل عليها النحو الوصفي التقليدي، ومن ضمنها التصورات التي عولجت في إطارها مفاهيم مثل "الكلمة" التي حددت بناء على المعنى حينا وعلى الصوت حينا آخر، وحيث كان الحدس هو الحاسم في كل المواقف[2]."

إذا نظرنا إلى الكلوسيماتية من جهة أنها محاولة لإصلاح أخطاء النحو الوصفي التقليدي، فإنها لا تعدو أن تكون نظرية ترسخ البعد الوصفي للعمل اللساني كما تصورته. وقد يلتقي هذا الحكم مع ما قاله هيلمسليف نفسه:

1- Hjelmsliev (1943)، ص. 272.

2- Apresjan (1966)، ص.5.



"يقصد باللسانيات البنيوية مجموع الأبحاث التي تفترض أن العمل العلمي ينحصر في وصف اللغة باعتبارها كيانا مستقلا من العلاقات الداخلية أو بنية[1]." أما إذا نظر إليها على أنها نظرية في إبستمولوجيا اللسانيات، فإنها تكون قد أوجدت لنفسها مكانا يجعلها تسمو إلى مستوى الأعمال الرائدة التي تدوم طويلا لأنها تكون، حينئذ، قد ربطت نفسها بما هو أعم.

2. 3. حلقة باريس، أو لسانيات القول

كل ما يمكن أن يقال عن مصير أفكارصوسور بفرنسا بدءا من تلامذته المباشرين Grammon و Passy وأنطوان ميي Antoine Meillet (1866-1936) وانتهاءا بمن تتلمذوا عليهم مثل Benveniste و Martinet ويوسف فندريس Joseph Vendryes (1875-1960) و Guillaume[2] هو ما عبر عنه Benveniste بقوله:" إن صوسور أصبح في عداد تاريخ الفكر الأوربي[3]." وإذا حاولنا تجاوز أفكار Benveniste التي تعتبر رائدة بحق وتشكل استثناء، فإن ما نجده لا يعدو أن يكون مجرد تكرار لأفكار سبق أن قيلت هنا و هناك، ولم تضف أي شيء يمكن أن يذكر.

وإذا كان اللسانيون الفرنسيون الذين ذكرنا بعضهم قد تعاملوا مع صوسور هذا التعامل، فإن مفكرين فرنسيين من خارج اللسانيين قد وجدوا في أفكاره ما فتح لهم الآفاق وساعدهم على تقديم تصورات جديدة في المجالات التي يشتغلون فيها. نذكر من هؤلاء C.L. Straus (في الأنتروبولوجيا) وموريس ميرلو-بونتي Maurice Merleau-Ponty (1908-1961) (في الفلسفة الفينومينولوجية) وJ. Lacang (في التحليل النفسي) وR. Barth (في السيميولوجيا) و L. Alhtusser (في الفكر الماركسي)

1- M-C. Bartholy و P. Acot (1975)، ص. 141.

2- للتعرف على تلامذة صوسور، يرجع إلى مجلةLangages ، العدد 7، 1967.

3- Sanders (1979)، ص.57.



و M. Foucault (في أركيولوجيا الفكر). ويرجع ألجيرداس كريماس Algirdas Greimas (1917-1992) هذه المفارقة إلى وجود عاملين معرفيين تحكما في اللسانيين الفرنسيين، هما: التمسك بالفيلولوجيا التقليدية من جهة وتقديس العمل الفلسفي من جهة أخرى. الأمر الذي نتج عنه النظر إلى اللغة على أنها ليست سوى مجرد وسيلة لنقل الفكر، والاهتمام بالأفكار لا بالوسيلة التي تنقلها[1]. وباختصار، فإن اللسانيين الفرنسيين صعب عليهم التضحية بمسلمة الفكر لصالح مسلمة اللغة. ولذلك، فإنهم اشترطوا أن ينظر إلى اللسان، حينما ينظر إليه، على أنه خطاب، ليتم الانتقال بذلك من مجال ما هو موجود بالقوة وهو اللسان كبنية إلى مجال ما هو موجود بالفعل وهو الخطاب كإنجاز تشترك فيه مجموعة من العناصر لا يشكل اللسان سوى واحد منها فقط. وبما أن هذا الانتقال يتطلب من المتكلم، حينما يكون عنصرا في العملية، وقتا، فإن الحديث عن السانكرونية بمعناها الضيق يصبح لا معنى له. وفي إطار الاهتمام ببنية الخطاب، تم تفنيد رأي صوسور الداعي إلى الاكتفاء بالفونيم وبالمورفيم وإلى اعتبار الجملة مستوى لا لسانيا[2].

ومما عابه اللسانيون الفرنسيون على صوسور اهتمامه باللسان دون الكلام. فطالبوا بإعادة الاعتبار إلى الكلام وإقامة لسانيات تشتغل على الجملة بل وعلى القول الطويل الذي لا يختلف في تصورهم عن مفهوم الإنجاز. وقد قامت الدراسات التي قدموها في هذا الشأن على الاهتمام باللغة باعتبارها مؤسسة تتشكل من عناصر هي: المتكلم والمخاطب والنص والمقام. وفي هذا الإطار تأتي دراسات Benveniste للفعل والضمائر[3].

1- نفسه، ص. 52.

2- بينا في السابق أن صوسور لم يكن هدفه هو دراسة اللسان في مستوياته الفونولوجية والمورفولوجية والتركيبية والدلالية... وإنما هو البرهنة على نسقية اللسان فقط. وأنه تصور أن الحديث عن الجملة يجر إلى الحديث عن المتكلم وهو ما فهم أنه يبعده عن الهدف.

3- العمل الذي قدمه Benveniste حول القول هو الذي نشر مختصرا في مجلة Langages الفرنسية الصادرة عن Larousse في عددها 17 عام 1970 والذي وضع له T. Todorov مقدمة هامة.



وبالمناسبة، فإن الفرنسيين لم يكونوا وحدهم من اهتم بدراسة القول؛ إذ هناك جماعة من فلاسفة أكسفورد أقاموا، هم أيضا، أبحاثهم اللغوية على أساس القول أو الإنجاز. ومن هؤلاء جون لانكشو أوستين John Langshaw Austin (1911-1960) الذي اشتهر بأبحاثه حول ما أسماه "القوة الإنجازية" للأفعال اللغوية. ومع مرور الزمن، أصبح الحديث في هذه الأوساط عن الأقوال المعزولة عن السياقات الخارجية أمرا غير ممكن. وترسخ الاعتقاد بأن لسانيات صوسور لا يمكن تطويرها، إذا تقرر الأخذ بها، إلا في اتجاه بناء لسانيات للخطاب. فتم الشروع في " وضع القواعد التي تنتظم بها الجمل في متواليات"[1]. وهي قواعد لا تكتفي برصد القول في سياقه الخارجي فقط وإنما برصده في سياق الأقوال السابقة

واللاحقة أيضا. الأمر الذي نتج عنه نوع من الدراسة هو دراسة "المقاصد" (les pré-suppositions) [2].

ذهب هذا التوجه الفرنسي بعيدا إلى حد أن ظهر من نادى بأن لا تحصر اللسانيات نفسها في التصورات الضيقة للغة، منبها إلى أننا قد همشنا كثيرا من الأقوال التي تبدو أنها لا تخضع لقواعد اللسان بمعناه الضيق، كالأمثال والشعر والأغاني والشعارات...، وإلى أن مجرد فهمنا لمثل هذه الظواهر سيقودنا حتما إلى الفهم الجيد للغة عموما وعلاقتها باللاوعي. وترى J. Kristéva أن مكوناتنا التي تتسلل إلى لغتنا الشعرية تشكل الأساس الأول لكل لغة[3].

الخروج عن افكار صوسور وعدم مراعاة أسسه من طرف اللسانيين الفرنسيين رافقه خروج آخر لكن في أمريكا هذه المرة وبخصوص أساس آخر هو المتعلق بمبدإ "انسجامية اللسان"، حيث تم وضع هذا المبدإ موضع تساؤل. وأول من شكك في صحة هذا المبدإ هم السوسيولسانيون، أمثال Labov الذي رأى أن القول

1- انظر كمثال على هذا الإنجاز الأعمال التي نشرتها مجلة Langages في عددها 13 لسنة 1969، بتنسيق J. Dubois.

2- انظر التفاصيل في Sanders (1979)، ص. 66.

3- انظر J. Kristéva (1974).



بتعدد وجوه اللسان مبدأ أساسي في الدراسة اللسانية ويجب أن لا يغفل، وأنه من الضروري بناء نموذج قادر على وصف الكلام بكل وجوهه. كما هاجم صوسور فاتهمه باعتماد الأقوال التي ينتجها الفرد أو ينتجها اللساني نفسه بدلا من اعتماد ما تنتجه الجماعة[1].

والذي يبدو هو أن اللسانيات التي تقوم على أساس الرغبة في فهم العمليات المعقدة للنشاط اللغوي. كلسانيات صوسور، بعيدة كل البعد عن تلك التي تقوم على أساس الاكتفاء بدراسة القول باعتباره مجرد عملية نظم خطي للعناصر[2].

أما الفرنسيون، من غير اللسانيين، فإنهم سرعان ما وقعوا تحت تأثير افكار صوسور، وخاصة منها تلك التي ترتبط بضرورة البحث عن البنية وعناصرها، وعن العلاقات وطبيعتها، وعن الدليل وثنائيته[3]. مرة أخرى، نحن هنا أمام وضعية غريبة؛ فالذين قدموا صوسور إلى الجمهور الفرنسي تقديما أفضل هم أولئك الذين يشتغلون خارج اللسانيات، أمثال ستراوس وميرلو-بونتي وبارت ولاكان وفوكو وألتوسير... وهي وضعية نأمل أن تتاح الفرصة للبحث عن تفسيرها، لأن عملا من هذا النوع يعتبر مؤسسا.

1- يرد Sanders على هذا الكلام بقوله:" من الصعب الحكم على مؤلف، كمؤلف صوسور، لم يكتمل ولم ينشر إلا بعد وفاة صاحبه". وردا على ما يدعيه Labov من أن صوسور اعتمد المتكلم الفرد، في إشارة إلى غياب الاهتمام بالمعطى الاجتماعي عنده، يورد Sanders عبارات صوسور نفسه:" ليس هناك متكلم يتمتع بالكمال. ولا يكتمل اللسان إلا باعتباره نتاجا جماعيا... ثم إن نسق الدلائل نسق يخدم الجماعة كما يخدم الجدول البحر...والطبيعة الاجتماعية للدليل هي عنصر من جملة عناصر اللسان الداخلية لا الخارجية، إنه لا يمكن التعرف على الظواهر السيميولوجية إلا إذا تجسدت فيها الخاصية الاجتماعية" (1979) Sander)، ص. 67.

2- يشير Sanders إلى مقال Culioli المنشور في Communications العدد 20، السنة 1973، والذي يمكن أن يساعدنا، على حد قوله، في الحكم على بعض تيارات هذه اللسانيات ومقارنتها مع لسانيات صوسور. انظر Sanders (1979)، ص.68.

3- بخصوص تداول المصطلح الصوسوري، انظر G. Mounin (1970).

وهناك باحثان اثنان لعبا دورا هاما في تعريف المثقف الفرنسي، وليس اللساني الفرنسي، بأفكار صوسور، هما ستراوس وميرلو-بونتي. فلقد قدم هذا الأخير قراءة مختلفة عن قراءة الأول وعن قراءة بقية البنيويين الفرنسيين. فهو أول من لفت الانتباه إلى بعض خلفيات صوسور؛ ومن ذلك أن أساس فكرة البنية هو الرغبة في إضفاء معنى على العالم الذي يحيط بنا[1]. وبالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى ستراوس، " ليست الظواهر الاجتماعية أشياء ولا أفكار ولكنها بنيات[2]."

يتكلم Greimas عن ميرلو-بونتي فيعتبره امتدادا طبيعيا لصوسور، لأنه يلح على أهمية الفعل المشترك بين الدال والمدلول، ولأنه يرى أن الفكرة والعبارة كل منهما تشكل الأخرى[3]. بالنسبة لميرلو-بونتي، إن الأمر لا يتعلق بالبحث عن قالب لغوي لفكرة تم إنجازها، وإنما بخلق هذه الفكرة أثناء الكلام. إلا أننا نلاحظ، مرة أخرى، وكما لاحظنا عند اللسانيين الفرنسيين، أن ميرلو-بونتي ينتهي به الأمر إلى الانضواء تحت لواء المدافعين عن الاحتفاء بعملية الكلام. فلقد اهتم بالكلام أكثر مما اهتم باللسان؛ الكلام كإنجاز ثم الكلام كاحتمال. ورغم أن هذا يتعارض مع موقف صوسور ويخرج عنه، فإن ميرلو-بونتي الفينومينولوجي ظل يعترف بأنه قد عثر على نقطة انطلاقه في CLG. يقول:" لقد سبقنا صوسور، رغم تعريفاته المتقشفة، إلى القول: إن الكلام بعيد عن أن يكون مجرد فعل بسيط. وأنه يلعب دورا مهما في التغيرات

1- أبدينا في فقرة سابقة من فقرات هذا البحث أننا ضد مثل هذا التأويل الذي لا تدعمه لا الوقائع ولا الاستنتاج، وبينا أن العالم، بالنسبة لصوسور البنيوي، عالم خال من أي معنى، أو هكذا يجب أن ينظر إليه، وأن التصور البنيوي عموما قائم على أساس اللامعنى، وأن هذا واحد من الأسس التي أبعدت البنيويين الرواد، كصوسور وجماعة براك، على الأقل، عن الاهتمام بمسألة الدلالة. يصح هذا حتى ولو فهمت كلمة معنى على أنها مجرد تعبير أدبي.

2- Sanders (1979)، ص. 69.

3- انظر التفاصيل في Greimas (1945).



التي تلحق اللسان رغم أن اللسان أعم منه[1]."

أما مع ليفي ستراوس، فإن المسألة تكاد تأخذ منحى آخر. فبواسطته نتعرف على مدى التأثير الذي مارسته اللسانيات على البنيوية غير اللسانية. لقد تعرف ستراوس الشاب على جاكوبسن في نيويورك أثناء الحرب العالمية الثانية بمناسبة نشر مقال له في العدد الثاني من مجلة Word، حيث استطاع أن يطبق مبادئ فونولوجيا تروبتسكوي في دراسة أنساق القرابة[2]. فبالنسبة لستراوس، " تلعب الفونولوجيا، بالنسبة لعلوم المجتمع، نفس الدور التحديدي الذي تلعبه الفيزياء النووية، مثلا، بالنسبة للعلوم الدقيقة[3]."

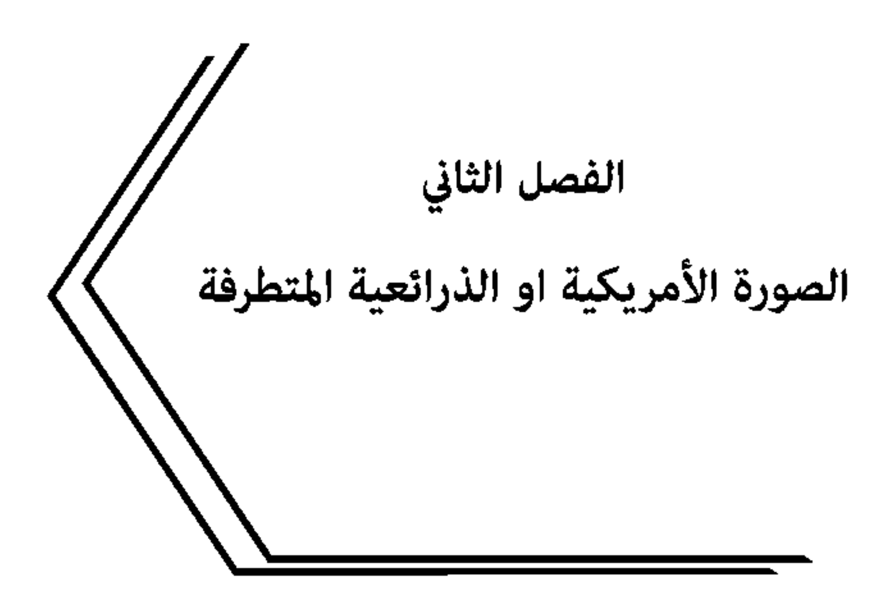
وللتذكير، فإن الاسترسال في الكلام عن صوسور كما قرأه غير اللسانيين أمر لا يدخل ضمن اهتمامنا. وتوقفنا عند إثارته كان بدافع لفت الانتباه إلى ما يطرحه من إشكالات ربما أتيحت الفرصة مستقبلا لنا أو لغيرنا للإجابة عنها أو لإعادة صياغتها على الأقل. من هذه الإشكالات مثلا:

- ما الخلفيات المعرفية التي أدت إلى هذا التناظر المقام بين اللغة وأنساق أخرى؟ ما السر في أن يتصور السيميولوجي (بارت مثلا) والأنتربولوجي (ستراوس) والمحلل النفساني (لاكان) والفينومينولوجي (ميرلو-بونتي) وصاحب علم النفس الإدراكي (بياجي) والمحلل الماركسي (ألتوسير) والمفكر الأركيولوجي (فوكو)، واللساني طبعا، قضايا مختلفة بتصورات متقاربة، وأن يستعملوا نفس المفهوم؟ وبعبارة أخرى، كيف انتقل صوسور اللساني إلى غير اللسانيين؟.
- ما الدلالة الإبستمولوجية لأن تتخذ لسانيات صوسور عند غير اللسانيين على أنها " العلم القدوة " Science Pilote؟

1- Sanders (1979)، ص.70. ويبدو أن ما فهمه ميرلو-بونتي من صوسور في هذه النقطة بعيد عن الحقيقة. فلقد عرضنا في فقرة سابقة من فقرات هذا البحث التفنيد الذي تقدم به صوسور ضد الأطروحة التي تدعي أن للكلام دورا في تطور اللسان والتي نسبت إلى التاريخانيين. وإذا صح أن ميرلو-بونتي قد استفاد من كتاب صوسور CLG كما يرى Sanders، فإن استفادته يمكن حصرها في اقتباس تصورات ومفاهيم الكتاب قصد استثمارها في بناء تصورات مخالفة. ومرة أخرى، لا ندري ما سر هذا الإصرار الفرنسي على أن يقرأ صوسور على أنه منظر للكلام لا للسان سوى أن يفسر ذلك بان الفرنسيين هم حفدة أبرار لجدهم الوضعاني أوجيست كونت.

2- سيقوم ستراوس، فيما بعد، بتعميق هذه الدراسة وسيخصص لها واحدا من كتبه هو Les Structures Elémentaires de la Parenté الذي ظهر عام 1949.

3- Kristéva (1981)، ص. 296.



الفصل الثاني

الصورة الأمريكية او الذرائعية المتطرفة

اللسانيات الوصفية أو البنيوية ذات الأساس البيهافيوري

في أمريكا، لم يكن لكتاب صوسور CLG، الذي يجسد فكره اللساني، ذلك الإشعاع الذي كان له في أوروبا رغم انتقال كل من جاكوبسن ومارتيني، بما يمثلان من رمزية، إليها. ويفهم عدم اهتمام الأمريكيين والوسط الأنكلوساكسوني، عموما، من أن الكتاب لم يترجم إلى الإنجليزية إلا عام 1959. ويرجع البعض سبب هذا التأخر إلى أمور منها ما سبق أن أشار إليه اللساني الأمريكي R.Wells في مقال نشره عام 1947 من أن الكتاب يتسم بصعوبة كبيرة تتطلب فك ألغازه، وأنه يجب إعادة صياغته وإخراجه إخراجا ينسجم مع ما تعود عليه القارئ الأمريكي. ويرجع Wells صعوبة الكتاب إلى:

- الناشرين[1] الذين أساؤوا، في نظره، فهم صوسور، ولم يتوفقوا في الطريقة التي جمعوا بها كتابه.
- ان صوسور نفسه لم يتوفق في صياغة مصطلحات قارة.

ولربما كان بلومفيلد هو اللساني الأمريكي الوحيد الذي يمكن تلمس بعض ملامح صوسور عنده، إلا أنها ملامح باهتة ولا ترقى إلى مستوى الأسس الموجهة؛ كالقول بلامركزية الفوناتيكا وبضرورة تطوير الفونولوجيا والمورفولوجيا وإقصاء الكلام عن مجال الاهتمام اللساني، والعمل على إقامة لسانيات تقوم على أساس ساذكروني. أما ما عدا ذلك فليس فيه ما يفيد بأن بلومفيلد قد تأثر كثيرا بصوسور. ويرى T.de Mauro " أن العلاقة بين بلومفيلد وصوسور معقدة جدا؛ فهي غير واضحة بالشكل الذي يسمح بالحكم بأن بلومفيلد قد تأثر بصوسور. بل إن اسم صوسور لم يرد إلا مرة واحدة في كتاب بلومفيلد (اللغة) وذلك في سياق الحديث عن تاريخ اللسانيات[2]."

1- يقصد بالناشرين، هنا، تلاميذ صوسور السويسريين الثلاث، وهم : C.Bally و A Sechehaye و A. Riedlinger
2- de Mauro (د.ت). ص.2.



ومعلوم أن بلومفيلد هو مؤسس التيار اللساني المسمى بالتوزيعية والذي لا يتأخر بعض المؤرخين في ربطه بأصول بنيوية، إلا أن الذي لم يتم التركيز عليه، عند هؤلاء المؤرخين، وخاصة منهم الأوروبيين[1]، هو أن بلومفيلد وأصحابه كانوا أصحاب مشروع يختلف جذريا عن مشروع صوسور[2]. فإذا كان هذا الأخير، وكما بينا سابقا، صاحب مشروع نظري تمحور حول مفهوم البنية، فإن مشروع التوزيعيين يقوم على أساس معارضة كل التصورات والمواقف النظرية. مشروع استند على أسس بيهافيورية تجريبية صرفة. معنى ذلك، أن الحديث عن صوسور والتوزيعيين الأمريكان هو في العمق، ومن وجهة نظرنا، حديث عن إبستمولوجيتين مختلفتين بل ومتعارضتين؛ إبستمولوجيا تقوم على أساس أن المعرفة العلمية لا تتأتى إلا بممارسة العمل النظري أو إيلائه الدور الحاسم في بناء المعارف، وهي إبستمولوجيا صوسور، وإبستمولوجيا أخرى تقوم على أساس أن المعرفة العلمية لا تحصل إلا بالتجربة، وهي إبستمولوجيا التوزيعيين. هنا لا مجال للحديث عن أي استمرارية لصوسور، وإنما هناك قطيعة تنتقل بك من الضد إلى الضد. فلقد كان التوزيعيون " يرون في صوسور واحدا من أكبر منظري هذا العصر على حد قول. Waterman"[3] ولذلك لم تسلم بعض أسسه من الانتقاد. فلقد انتقد wells، مثلا، مجموعة من الأسس التي يبني عليها صوسور نسقه، من مثل:

1- نذكر من هؤلاء C.Sanders الذي يربط في حماس كبير بين بلومفيلد وصوسور. انظر: Sanders (1979)، ص. 46 على سبيل المثال.

2- سبق لـ E. Benveniste أن اهتدى إلى مسألة أن هناك فرقا بين البنيوية الأوروبية والبنيوية الأمريكية، لكنه حصره في أمور بسيطة لا تكشف عن الفروق الجوهرية التي تتعلق بالأسس. يقول : "يقصد الأوروبيون بالبنية العلاقات القائمة بين الأجزاء والتي تجعل منها كلا، أما الأمريكيون فإنهم يقصدون بالبنية قابيلية العناصر للتفكيك والربط والتعويض. العمل البنيوي عند البلومفيلديين ينحصر في ربط الوقائع بعضها ببعض وتقطيعها إلى عناصرها المكونة، حيث ينتهي الأمر بتحديد الموقع الذي يحتله كل عنصر من هذه العناصر في الكل الذي ينتمي إليه، مع حصر البدائل التي تتبادل معه هذا الموقع. Benveniste(1966)، ص.43.

3- de Mauro (د.ت). ص.372.



- أن الخصائص الصورية لعنصرما مستقلة عن مادته،
- وأن كل التغيرات التي تلحق اللسان عبر تاريخه هي مجرد تغيرات فوناتيكية عارضة.

إلا أن wells هذا، ورغم ما قيل، قد انتصب يشيد بمجهود صوسور الذي حصره في إعادة صياغة أهداف الدراسة اللسانية صياغة نظرية. هذا في الوقت الذي كانت فيه اللسانيات الأمريكية في قمة مرحلتها التجريبية.

وهناك حقيقة لا تخلو من مفارقة، وهي أن اعتراف الأمريكيين بصوسور سيأتي من خارج الدوائر البنيوية، أو المحسوبة عليها على الأقل، وبالضبط من رائد اللسانيات التوليدية تشومسكي الذي يعترف بأنه يتقاطع مع صوسور في بعض الأسس النظرية والمنهجية. هذا في الوقت الذي يعترف فيه بأنه لا يجد أية علاقة تربطه باللسانيين البيهافيوريين الذين ينضوون تحت لواء التوزيعية.[1]

كان لا بد من انتظار مجيء تشومسكي لكي تهتم اللسانيات، من جديد، بالقضايا النظرية الكبرى، لأن تشومسكي وصوسور يتقاطعان معا في كثير من الأسس المعرفية العامة، ومنها تبني المنهج الاستنباطي والرغبة في إضفاء طابع الصورنة الرياضية على العمل اللساني. وبدءا من 1963، سيشير تشومسكي، في أكثر من مناسبة، إلى كتاب صوسور. ففي Current Issus in linguistic Theory[2] ، يتكلم عن المهارة الكبيرة التي استعملها صوسور في الدفاع عن الأولوية المنطقية للسان على الكلام، كما يجري تقاربا بين "التمييز بين اللسان والكلام" الذي قام به صوسور وبين التمييز الذي قام به هو" بين القدرة و الإنجاز"، وإن استدرك فيما بعد على هذا الإجراء.

1- أنظر الفقرة (1.1) من الفصل الثالث من هذا العمل.

2- عنوان لمقال هو عبارة عن نسخة معدلة ومطورة لتقرير يحمل عنوان " الأسس البيولوجية للسانيات" كان تشومسكي قد شارك به في المؤتمر التاسع للسانيين الذي انعقد بتشيكاكو عام 1964 والذي تمحورت مداخلاته حول نفس الموضوع.



ويبدو ل Sanders أن بعض تعليقات تشومسكي على صوسور، وخاصة منها تلك التي يتهمه فيها بأنه مجرد مؤسس للسانيات التصنيفية، "ليست مبنية على قراءة عميقة للكتاب، و إنما هي مرتبطة بما قيل عنه." [1] ثم يعقب:" ومن الأمور الدالة أنه ظهر مؤخرا مؤلف جمعت فيه انطباعات أحد عشر لسانيا معاصرا (من أمريكا) تبين أن تسعة منهم يتخذون صوسور مرجعا لهم، كالأمريكي Lamb الذي يتكلم عن تأثره في نحوه المسمى "النحو التنضيضى" بكتاب صوسور عبر هيلمسليف" [2] إلا أن الذي يظهر هو أن تشومسكي قد قرر أن يتخذ لنفسه اتجاها مختلفا. يتبين ذلك كلما عاد إلى الحديث عن صوسور. ففي سياق التمييز بين القدرة والإنجاز، يتقدم بالتحفظ التالي ضد صوسور: "إن التمييز الذي أقصده هنا يشبه التمييز الذي قام به صوسور بين اللسان والكلام، إلا أنه من الضروري التخلي عن تصور صوسور للسان حيث يتصوره مجرد إحصاء ممنهج للعناصر، والعودة إلى تصور همبولدت الذي يتصور القدرة المضمرة نسقا من العمليات التوليدية "[3] ويظهر التباعد جليا بين لسانيات صوسور والبنيوية عموما وبين لسانيات تشومسكي حينما يقترح هذا الأخير تقسيم لسانيات القرن التاسع عشر إلى تيارين مختلفين: تيار همبولدت الذي يقول بوجود قدرة لغوية مستبطنة تمكن المتكلم من إنتاج الكلام والذي يرغب هو في أن يكون احد ورثته، وتيار ويتني وصوسور اللذين لم ير فيهما إلا مجرد مؤسسين للسانيات التصنيفية التي يرى فيها، إلى جانب اللسانيات التوزيعية القائمة علي أساس بيهافيوري، خروجا عن

1- Sanders (1979)، ص.63.

2- تعمدنا عدم الوقوف عند من أدرجت أسماؤهم ضمن لائحة البنيويين الأمريكيين؛ فأغلب هؤلاء ليسوا لسانيين، وإن تناولوا اللغة فإنما تناولوها لأهداف أخرى. أهداف إثنولوجية أو انتروبولوجية أو علم نفسانية...كما حصل مع F.Boas وتلامذته، من أمثال E.Sapir وبنيامين وورف Benjamin whorf (1897-1941)، الذين تخصصوا في العلوم الإثنولوجية و الأنتروبولوجية، و كما حصل حتى مع بلومفيلد وتمليذه هاريس اللذين خدما أطروحة سكاينر البيهافيورية أكثر مما خدما القضايا اللسانية الصرفة، و هو ما سيتبين في فصل لاحق (الفصل الثالث، الفقرة (1.1)).

3- تشومسكي (1964).

النص اللساني الحقيقي كما يؤسسه هو. وهو الخروج الذي سيسعى إلى تفنيده على الدوام. وفي كتابه Le langage et la Pensée يجهز على البنيوية بقطبيها الأوربي والأمريكي، وينتهي إلى الحكم عليها بأنها تصور فقير ولا يحقق أي مستوى من مستويات الكفاية، لأنها لا تهتم إلا بالمستوى السطحي للسان، ولا ترصد القواعد المستبطنة التي تتحكم في عملية الإبداع اللغوي[1].

ولقد تكلف Sanders كثيرا ليبين أن بعض مفاهيم تشومسكي التركيبية لها أصول في صوسور، ولو أنه انتبه إلى أن التأويلات التي أول بها صوسور هي التي جعلت منه لسانيا وتفرض عليه أن يخوض في الفونولوجيا والتركيب والدلالة والتداول.. لأعفى نفسه من كل ذلك ولاقترب من حقيقة صوسور. إن صوسور، وكما بينا سابقا، ليس لسانيا بالمعنى الضيق للكلمة، ولكنه صاحب نظرية عامة تتقاطع فيها كل العلوم. وليست وقفاته عند قضايا اللسان أو السيميولوجيا سوى وقفات للتمثيل، نظرا لما يوفره اللسان والسيميولوجيا، عموما، من فضاء استدلالي رحب.

وإذا كان موقف تشومسكي من صوسور يتسم بالوضوح، فإن موقف البلومفيليديين منه وعلاقتهم به يبدوان معقدين جدا وغير واضحين كما أسلفنا القول.

يستفاد من أعمال بلومفيلد سواء منها تلك التي جمعها في كتابه (اللغة) أو تلك التي بقيت متفرقة في بعض المجلات وعلى رأسها مجلة « Language » التي يعتبر واحدا من أهم المنتسبين إلى جماعتها، أن لسانياته أو بنيويته، إذا ما اعتبر بنيويا، تتميز عن بنيوية صوسور بكونها:

- لا تأخذ بأي مبدإ من مبادئها، ما عدا التمييز بين الدراسة الدياكرونية و الدراسة السانكرونية كما أسلفنا.
- نظرية تشتغل ضمن نظرية عامة هي النظرية السلوكية.

1- انظر الفصل الأول من تشومسكي (1968).



فلقد اعتمد بلومفيلد التصور البيهافيوري كأساس لنظريته اللغوية، وأبان أنه يعادي كل المواقف العقلانية، حتى إن البيهافيورية عنده لا تقتصر على كونها مجرد سيكولوجيا للسلوك و إنما يتعدى الأمر ذلك لتطرح نفسها كمنهج علمي أو كتصور عام، تماما كما كان صوسور يتوخى من نظريته حول النسق التي يفترض أنها تصور عام يمكن أن يطبق في جميع العلوم. ولذلك اعتبرت اللسانيات عند بلومفيلد علما من علوم السلوك البشري[1].

كان صوسور أصيلا، حقا؛ لأنه لم يكتف بما سبق أن قيل حول العلم الكلي و المنهج الكلي، ولكنه استطاع أن يخرج الفكرة من حيز الفلسفة إلى حيز العلم، منطلقا في استدلاله مما يوفره اللسان من نسقية لا تتوفر في غيره. بينما يظل بلومفيلد حبيس أفكار علم النفس السلوكي (البيهافيورية) وصدى لآراء سكينر الذي ذهب بعيدا إلى حد الادعاء بإمكانية صنع إنسان آلي على غرار الإنسان الطبيعي الذي يفسر سلوكه بأنه مجرد استجابات لمثيرات خارجية. ويمكن اعتبار التوزيعية البلومفيلدية الوجه اللساني لمشروع كبير ابتدأ مع Watson واكتمل مع Skinner .

وكما في اللسانيات الأوربية عموما، عدا لسانيات صوسور، فإن موضوع الدراسة اللسانية عند التوزيعيين الأمريكان هو أقوال المتكلمين التي يتشكل منها المتن المقترح للتحليل. وما يتم التركيز عليه في هذا المتن هو خصائصه الداخلية. هذه الخصائص مورفوفونولوجية وتركيبية بالأساس. أما المعنى فإنه أحيل على التحليل الفينومينولوجي. أي أن الدليل يتحدد انطلاقا من البنية الداخلية التي يعبر عنها السياق الداخلي لا انطلاقا من المعنى.

1- تعد المدرسة السلوكية المنتسبة إلى علم النفس الإدراكي والتي يتخذها بلومفيلد أساسا لأبحاثه اللسانية ""أحد أشكال المادية العلمية التي شاعت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتذهب إلى أنه لا يوجد شيء سوى المادة، و أن ما نعتبره، عادة، ظواهر عقلية يمكن تفسيرها في نهاية الأمر من خلال الخصائص الفيزيائية للأجسام المادية " التوني (1989) ،ص.15.

ضمن هذا التصور انتفى التمييز بين اللسان والكلام الذي اعتبر أساسا من أسس اللسانيات الأوربية. فما هو موجود هو الكلام، وهو المجال الوحيد الذي يجب على اللساني أن يصفه، وذلك انطلاقا من مباديء منهجية دقيقة، أهمها:

- أن السلسة الكلامية لا تعرف إلا بمعرفة عناصرها. فوصف السلسلة يقتضي تحليلها إلى عناصرها الدنيا فالأدنى،
- أن العنصر يعرف من خلال خصائصه التركيبية، التي يحددها قانون الجوار، وعلاقاته الاستبدالية مع ما يتمايز معه من حيث الورود وعدمه.

هذا المنهج، أو هذه الطريقة بالأصح، هي التي عرضها بلومفيلد منذ 1933 في كتابه " اللغة "، وهي التي أتمها هاريس في كتابه **Methods in structural linguistic** الذي نشر عام 1951. تطبيق هذه الطريقة[1] بشكلها الصارم هو الذي

1- تقوم هذه الطريقة على التصنيف الذي أملته الرغبة في تحقيق أعلى درجة من الصورنة. ولذلك، فإن أساسه الخفي هو الرياضيات، وبالضبط "نظرية المجموعات"، ثم المنطق، وبالضبط "نظرية الانتماء"؛ حيث يحدد انتماء عنصر ما إلى طبقة معينة من العناصر على أساس قواعد مضبوطة. (بخصوص "نظرية الانتماء"، انظر: **W.V.O Quine** (1964). ص.ص.188-189). وهكذا، فإن عملية إلحاق عنصر لساني ما، كالفونيم مثلا، بطيقة الفونيمات لا بطبقة المورفيمات عملية تتم وفق قواعد مضبوطة لا تختلف عن القواعد التي يتم بها إلحاق عدد ما بمجموعة ما في الرياضيات، أو انتماء عنصر منطقي ما إلى مجموعة عناصر منطقية معينة. ومن القواعد الرياضية التي استثمرها التوزيعيون في أنحائهم التصنيفية نذكر " قاعدة إعادة الكتابة " **Règle de Réécriture** ؛ حيث أ ← ب ج؛ وحيث ب ← س ص؛ وحيث ج ← ل ع؛ إذا : أ ← س ص، ل ع. ومن القواعد المنطقية التي استثمرت أيضا نذكر " قاعدة التعريف التحليلي " **Règle de Définition Analitique** ، كتلك التي نقول بموجبها : " الماء = H2O ". ومعنى ذلك، أن العنصر تعاد كتابته (أو يتم تعريفه) بصورة تحليلية أي دون أن تتغير قيمته. فالمسألة شبيهة إلى حد ما بالتحليل الطوطولوجي للقضية المنطقية. بخصوص مفهوم "التعريف التحليلي"، كما هو مستعمل في العلوم التجريبية، انظر: **Apresjan** (1966) ص.116.



سمح للتوزيعيين باكتشاف المكونات المباشرة وبناء ما يسمى "بالأنحاء المركبية"[1] ووضع الإرهاصات الأولى لقيام "نحو تحويلي" سيساهم فيه هاريس وتلميذه تشومسكي الذي سيشق لنفسه، فيما بعد، طريقا آخر بدايته هي دحض تصورات التوزيعيين أنفسهم، ونهايته تقديم تصور جديد لعلم اللسانيات يرفض أي ربط بين اللغة والمحيط كما سيرد لاحقا[2]. وبذلك يكون تشومسكي أول من أعلن عن إفلاس التيار البلومفيلدي الذي هيمن لأزيد من عشرين سنة والذي عرف مجموعة من الرواد. فإلى جانب بلومفيلد المؤسس، هناك M.S Wadesh و Z. Harris و تشارلز هوكيط Charles Hockett (1914- 2000) وA. Hall و G.L Tragen و B.Bloch.

وإذا كان الأوروبيون قد ركزوا في دراساتهم على العلاقات البارادیكمية، مهملين التركيب الذي كان يرعبهم كما عبر عن ذلك تروبتسكوي وكما بينا في مكان سابق، وانتهى الأمر ببعضهم إلى عدم الإحساس بأي حرج للقيام ببناء نظريات تواصلية أو وظيفية يراعى فيها الجانب الدلالي للعبارة، فإن التوزيعيين أولوا عناية كبيرة للتركيب على حساب الدلالة التي اعتبروها مجالا فينومينولوجيا كما سبق أن قلنا.

1- تعمل التوزيعية وكأن وحدات اللسان الذي تشتغل عليه معروفة مسبقا قبل دخولها في النسق. وهو أمر يختلف عن طريقة العمل عند الصوسوريين. فصوسور يرى أن الوحدات ليست معطاة سلفا وإنما يتعرف عليها من داخل النسق الذي ترد فيه. ويرى D.. Ducrot ، وهو واحد من حفدة صوسور:

- أن التحليل إلى المكونات المباشرة لا يساعد على التعرف على الوحدات الأصغر من الكلمة.
- أن التوزيعية لا تستطيع التمييز بين وحدات مثل:

« L'avion vole & Pierre vole la pomme

(Ducrot & Todorov (1972). مادة Distributionnalisme). بخصوص التعريف بالتقطيع التوزيعي، انظر هاريس (1951)، وانظر انتقادا صوسوريا لهذه الطريقة عند H.Frei (1954) وآخر توليديا عند تشومسكي (1957).

2- انظر الفصل الثالث من هذا العمل. الفقرة (1.1).



من أسس البنيوية التوزيعية أيضا الرفض التام للدور التفسيري الذي يجب أن يضطلع به العلم. فالعلم، بالنسبة إليها، ليس سوى وصف للظواهر كما ندركها. وهو أساس قديم ربما نجد أصوله عند فرنسيس بيكون ومن تبنى تصوره ممن انتهوا إلى رفض نظريات كوبرنيك وكبلر وكاليلى ونيوتن، مثل هيوم وبركلي وماخ ولوروا.. فالتفسير عند هؤلاء جميعا مسألة ميتافيزيقية ورجم بالغيب.

لم يكن هدف التوزيعيين وضع نظرية للسان بالمعنى المعروف لكلمة نظرية، ولكنه كان "مجرد اختيار طرق معينة للتصنيف" حسب شهادة R.Wells [1]. وبذلك يمكن اعتبار التوزيعية "عملا يقوم على عمليات تقود إلى اكتشاف نحو اللسان. أو هي تقنية تجريبية تقوم على جمع ومعالجة المعطيات الخام بكيفية مباشرة." [2] ويمكن تلخيص عمل بلومفيلد في أنه كان في مجمله اللبنة الأولى لعمل منهجي كبير رام تحقيق قدر أعلى من الكفاية التقنية للتحليل اللساني وبناء الأساس الذي سيقوم عليه صرح "اللسانيات التوزيعية."

كان التوزيعيون مهووسين بتحقيق درجة أعلى من العلمية، وهي نزعة علموية أخرى تذكرنا بمثيلاتها في أوروبا؛ فلقد بنى بلومفيلد لسانياته على أسس علم نفس فيلهلم وندت Wilhelm Wundt (1832-1920) وتحت تأثير أفكار البيهافوري A. P. Weiss ، وذلك نشدانا لتحقيق العلمي المفقودة[3]. ولم يكن اللسان في تصور التوزيعي سوى نسق مركب من العادات، وقد دافع عن تصور قريب ch. Hockett

1 - Apresjan (1966). ص.43.

2- نفس المرجع و الصفحة.

3- ما قد يجمع بين حركة بلومفيلد وحركة صوسور هو أن كلا منهما توخت تحقيق درجة أعلى من العلمية؛ فلقد بينا في فقرة سابقة أن هدف صوسور العام هو البرهنة على وجود البنية من جهة وأن هذا الوجود وجود كلي لا يفلت منه أي عالم، وأن التصور البنيوي للعالم تصور كلي من جهة أخرى. كما تبين لبلومفيلد أن كل العلوم يمكن أن تصاغ صياغة واحدة حتى إنه دافع عن فكرة "وحدة العلوم" في موسوعة "العلم الموحد" التي ساهم فيها إلى جانب R. Carnap وتشارلز موريس Charles Morris (1901-1979) عام 1939.



من نظرية هيلمسليف المسكون بالرغبة في بناء نظرية علمية للسان، أما هاريس فيقترح بناء لسانيات وصفية تتوخى الدقة العلمية[1].

تيار وصفي بهذه القوة لا يمكن فهمه إلا بوضعه في السياق المعرفي لعصره، حيث يمكن اعتباره تيارا مناهضا للتفسير التاريخاني للغة من جهة[2] وللتفسير الفلسفي من جهة أخرى[3]. ثم إن الدعوة إلى حصر العمل اللساني في الوصف قد تمت بدافع الرغبة في التجاوب مع علوم العصر في بلد يضج بالمنجزات العلمية وعلى رأسها علوم الاتصال التي نالت إعجاب الجميع.

في الفصل الثاني من كتابه "اللغة"[4]، يعرض بلومفيلد تصوره المادي (الميكانيكي لا الجدلي) والسلوكي للحدث الكلامي الذي يختصره في تقنية "المثير والاستجابة"، رافضا التفسير الذهني الذي لا يعتمد، في نظره، سوى على التخمين والافتراض، وهما سمتان تتعارضان، في نظره، مع العلم الحق. ويرى أن

1- بخصوص التعريف بالمنهج الوصفي بصفة عامة، انظر: محمد فرحات عمر (1966). الفصل الثالث. ابتداء من ص.134. وبخصوص المنهج الوصفي كما تصوره التوزيعيون، انظر: هاريس (1951) وهاريس (1954).

2- تم رفض كل التفسيرات التاريخانية ومنها التفسير الدياكروني بنوعيه التاريخاني والمقارن.

3- حيث تم رفض كل التفسيرات التي تربط العمليات اللغوية بالذهن البشري.

4- يتألف الكتاب من ثمانية وعشرين فصلا، أهمها، بالنسبة إلينا، الفصول الأربعة الأولى التي تعتبر بمثابة المقدمة النظرية والمنهجية التي تكشف عن الفكر البلومفيلدي برمته، حيث تتبدى هيمنة الأفكار السلوكية ذات السمة المادية والتجريبية الصارمة، وحيث تتردد المصطلحات البيهافيورية الشائعة، مثل "مثير واستجابة"...وحيث يعلن عن الموقف التشكيكي من المواقف الذهنية ذات المنحى العقلاني وعن تبني الموقف الوضعاني ذي النزعة الحتمية والفيزيقية، وحيث الدعوة إلى أن تصاغ كل العلوم على غرار العلوم الدقيقة...

كتب بلومفيلد ثلاثة كتب رئيسية، هي:

-Introduction to the Study of language (1914)

وقد بدا فيه متأثرا بعلم النفس الكلاسيكي

-Language (1933)

ويعرض فيه أطروحاته الأكثر أصالة

- Linguistic Aspect of Science (1939)

وهو عبارة عن إسهام بلومفيلد في الوضعانية الجديدة.



السلوكية ليست نظرية عادية في علم النفس، ولكنها نظرية تستجيب لكل شروط المنهج العلمي، ولذلك فإنه لا مانع من استثمارها في الدرس اللساني الذي يجب أن يكون درسا علميا . وفي إطار هذا الاستثمار، يميل بلومفييد إلى اعتماد A.P.Weiss أكثر من اعتماد Watson. لأن الأول يتميز بالوضوح، خاصة على مستوى المنهج، الأمر الذي مكن بلومفيلد من وضع إطار منهجي صارم دعا تابعيه إلى التمسك به والتقيد بمبادئه التي تشدد على أن تتم معالجة الظاهرة:

- في زمان ومكان محددين،
- في جزئياتها لا في كلياتها؛ أي دراسة القضايا الأولية،
- في مظهرها الفيزيقي لا في بناءاتها العقلية[1].

وعلى مستوى التصور، فإن بلومفيلد يعتمد في تصوره المادي الميكانيكي للحدث الكلامي على السلوكية التي " تقلل من دور الموهبة أو القدرات الأخرى إلى الحد الأدنى، وتؤكد على الجانب الذي يقوم به التعلم في تفسير اكتساب الإنسان والحيوان أنماط سلوكهما... وترفض المعلومات التي لا تقبل الملاحظة المباشرة، ومن ثم، لا تسلم بوجود أي شيء لا يمكن ملاحظته أو قياسه[2]". ومعلوم أن السلوكية، وتبعا للمادية العلمية، " تحصر موضوعات علم النفس في السلوك الإنساني، وتفسر كل أنواع السلوك، بما في ذلك اللغة، على أساس العمليات الفسيولوجية والكيميائية"[3]. ويستنتج بلومفيلد أن الكلام أيضا سلوك يجب تفسيره انطلاقا من المحيط الذي ينجز فيه (تصور ميكانيكي) وليس نشاطا ذاتيا يمكن تفسيره بعيدا عن العوامل الخارجية كما يرى العقلانيون.

1- للوقوف على التفاصيل، انظر الفصل الخامس من Lepschy (1966). إن دعوة بلومفيلد المشرع إلى الاهتمام بالمظهر المادي للظاهرة لابناءاتها العقلية هي التي سيترجمها التوزيعيون حرفيا إلى أعمال لا تهتم سوى بالظواهر التي تحددها السياقات المادية، كالسياق الصوتي والسياق التركيبي، ومن هنا يمكن فهم غياب الاهتمام بالمعنى في هذا التصور.المعنى الذي اعتبر فعلا عقليا يفتقر إلى سياق= =مادي يتحدد داخله. إقصاء التوزيعيين للمعني، وبهذه الحدة، أثار كثيرا غضب البنيويين الأوروبيين من ذوي النزعة السيميائية أمثال كريماس. انظر Greimas (1966).ص.87.

2- التوني (1989)، 14.

3- نفس المرجع و الصفحة.



وتجمع البيهافيورية، وعلم النفس الوضعاني بصفة عامة، على نفي أن تكون هناك أية إمكانية للخوض مباشرة في معرفة الأنشطة الذهنية. وهو ما لم تستسغه حتى أكثر المدارس التجريبية تطرفا. نفي إمكانية الخوض هذا ليس مؤسسا على الاعتقاد بالاستحالة المعرفية فقط، ولكنه مؤسس أيضا على الاعتقاد بالاستحالة الوجودية. فلا وجود لبنيات ذهنية تكون مسؤولة عن سلوكات البشر ومنها السلوك اللغوي. إن سلوكات البشر ومعارفهم أساسها التجربة و الاكتساب و التعلم لا الفطرة أو الاستعداد القبلي. هذا الموقف ليس جديدا، طبعا، ومن السهل أن يجد له الباحث أصولا قديمة؛ فجذور النظرية السلوكية في التعلم يمكن أن تمتد إلى أرسطو ولوك وهوبز الذين ربطوا بين المعرفة والخبرة. كما أن لنظرية بافلوف في الاشتراط السلوكي حضورا واضحا في تصورات واطسن.

لقيت البيهافيورية ترحيبا كبيرا داخل الأوساط الوضعانية، وخاصة من لدن جماعة فيينا. يقول كارناب في هذا الخصوص: "إن الموقف الذي ندافع عنه يلتقي عموما مع موقف الحركة المعروفة باسم "البيهافيورية"، ليس على مستوى المنهج وإنما على مستوى التصور الإبستمولوجي العام على الأقل." [1] ويرى" أن كل قضية نفسانية يمكن، منذ الآن، التعبير عنها بلغة تحيل على السلوك الفيزيقي للأحياء"[2]. "وفي نهاية الثلاثينيات، أصبحت الأمور واضحة، فالتوجه البيهافيوري أصبح يجمع بين الوضعانية المنطقية وبين التيار اللساني المهيمن في أمريكا، وهو تيار بلومفيلد[3]. "

وفي النهاية، فإن البلومفيلدية ليست سوى فصل آخر من فصول البيهافيورية ذات الأسس الوضعانية في العلم. الأمر الذي يصعب معه الربط الفعلي بين بلومفيلد وصوسور؛ بلومفيلد الذي لم يتوقف عند حدود التأثر بالبيهافيوريين وإنما انتقل إلى التنسيق معهم. فكثير من أفكاره اللسانية قد تسربت إلى Verbal Behavior[4]، الكتاب الذي اشتهر به سكاينر كسلوكي داخل الوسط اللساني الأمريكي والذي اعتبر حينها تتويجا لأبحاثه في

1- Lecourt (1981)، ص.83.

2- نفس المرجع والصفحة.

3- نفس المرجع و الصفحة

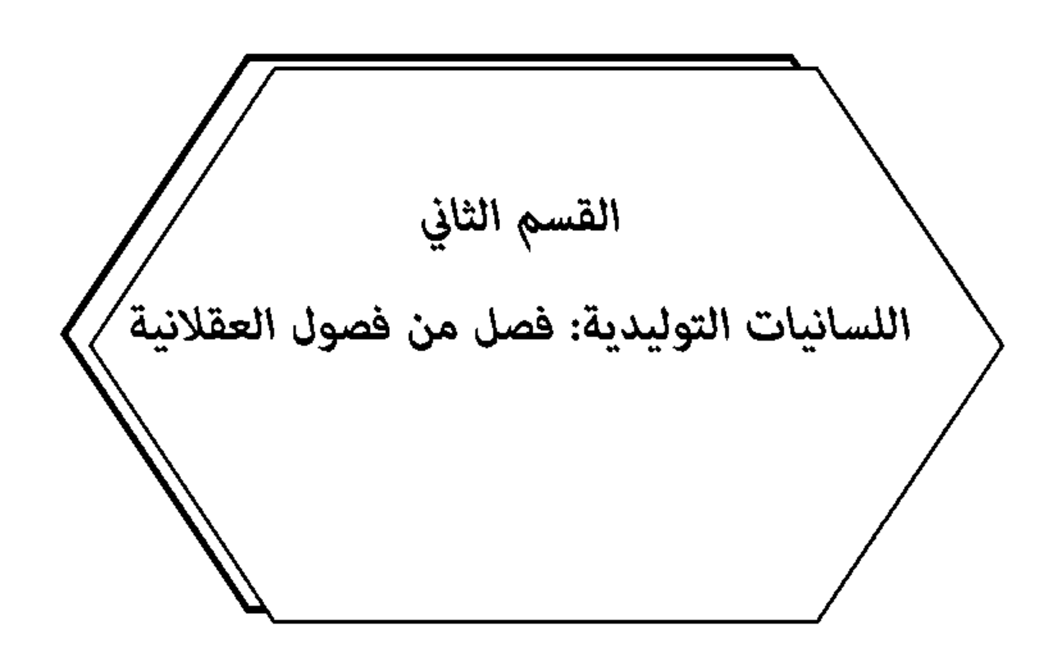
4- أنظر نبذة عنه في التوني (1989)، ص ص.48-60.



علم النفس البيهافيوري. ورغم كل ما بذله المؤرخون من جهد للربط بين البلومفيلدية والصوسورية[1]، فإن المدرستين تظلان بعيدتين عن بعضهما البعض. ويبقى التقاطع الذي يتحدث عنه هؤلاء والذي يمكن أن يلاحظ بين البلومفيلدية والصوسورية مجرد تقاطع سطحي أو شكلي لا إشكالي. ولعل السبب في عدم اهتداء المؤرخين المشار إليهم إلى هذه الحقيقة هو أن الأسئلة التي كانت توجههم لم تكن أسئلة إشكالية أي إبستمولوجية، وتلك طبيعة المؤرخ التي تجبره على البحث عما قيل لا عن خلفياته (لماذا قيل).

و الأسئلة التي نقترح أن نختم بها الكلام عن اللسانيات البيهافيورية بعد الاقتناع، المبدئي على الأقل، بعدم وجود أي تقاطع ذي دلالة معرفية بينها وبين البنيوية كما دشنها صوسور، هي: إلى أي حد يمكن القول: إن اعتماد التوزيعيين وجهة النظر السلوكية، كما اكتملت على يد سكاينر، يمكن أن يجد تفسيره في الإعجاب بمنجزات علماء النفس السوفييت ذوي النزعة المادية المغالية أمثال بافلوف وتلامذته؟ أليست لسانيات بلومفيلد سوى الوجه الغربي لمادية الشرق الشيوعي؟ أم أنها ليست سوى نهاية طبيعية لفكر بنيوي يقتل الإنسان ويقصيه من دائرة المشاركة ليحوله إلى مفعول بعد أن كان فاعلا؟ أليست لسانيات بلومفيلد التي يميل البعض إلى إدراجها ضمن اللسانيات البنيوية سوى إصرار جديد على التصلب والعودة إلى نقطة الصفر بعد كل ما بذل من محاولات التليين التي قام بها الوظيفيون والتواصليون على سبيل المثال؟ ثم ألا يعكس الخط البياني لرحلة البنيوية اللسانية، من سويسرا (صوسور) إلى تشيكوسلوفاكيا(جماعة براغ) إلى الدنمارك (الكلوسيماتية) إلى فرنسا (المدرسة الباريسية) وصولا إلى أمريكا (التوزيعية)، حقيقة ما جرى؛ ثورة في البداية، وهدوء وترقب في المنتصف، واندفاع مدمر في النهاية؟ أليس الأساس الحقيقي للبنية عموما أساسا أخلاقيا التبس بالعلم؟ أساسا يقوم في جوهره على الثورة ضد مركزية الإنسان داخل العلوم الإنسانية وتحويله من صانع إلى مصنوع؟

1- ممن ربطوا بين بلومفيلد والبنيوية الأوربية، عموما، نذكر J.Lyons (1958) و R.H.Robins (1967) و G.C.Lepschy (1966) و Ju. D. Apresjan (1966) و G.Chauveau (1977) و O.Ducrot (1972).



القسم الثاني

اللسانيات التوليدية: فصل من فصول العقلانية





الفصل الثالث

الاستراتيجيات أو البنية الحجاجية

1. الدحض والتفنيد أو استراتيجيا الهدم

1. 0 تمهيد

من بين الأسس التي تقوم عليها استراتجية تشومسكي، في شقها التفنيدي، السعي دوما إلى تأزيم البنيوية ذات النزعة الوضعانية بنعتها بالقصور وضلال الطريق. فبدل الانكباب على تمحيص نظريته بإخضاعها للاختبار الحقيقي، مال إلى سلوك طريق آخر هو التوجه إلى المخالفين الذين لا يتبنون الموقف الفطري بالتخطيء والدحض والتفنيد. هكذا فعل مع البنيويين والبيهافيوريين والتكوينيين وغيرهم ممن كانت لهم مواقف رافضة. رائده في ذلك هو ما شاع عند الإبستمولوجيين من "أن الجزء الأكبر من التقدم العلمي راجع إلى استبعاد النظريات الخاطئة" [1]. قام تشومسكي بعملية التأزيم هذه دون أن يلاحظ عليه أي تسرع في جني النتائج واستثمارها. إذ يدل الإصرار والنفس الطويل اللذان أبدى عنهما في كل كتاباته، بدءا من نموذجه الأول (1957) إلى الآن، للإطاحة بالنظريات اللسانية اللاقدروية، ومنها البنيوية عامة والتوزيعية خاصة، على انه كان واعيا بما عبر عنه من بعده إرنست ماير Ernst Mayer من" أنه من الخطإ أن نتخلى نهائيا عن نظرية من أول محاولة لتفنيدها، بل الواجب أن نتمسك بها إلى أن نستنفد كل الاختبارات ويثبت خطؤها قطعيا "[2].

ربما كانت أكبر عملية قيم بها لتفنيد النظرية البنيوية هي تلك التي قام بها تشومسكي والتي لا يكاد يخلو منها أي عمل من أعماله. وربما كانت رغبة تشومسكي هي إحداث انقلاب داخل البحث اللساني المعاصر، وذلك بهدم أسس النموذج الذي كان مسيطرا إلى حدود الخمسينات من القرن الماضي، وهو النموذج التوزيعي ذو النزعة البيهافيورية، وأسس كل الطروحات التي تتقاطع معه أولا تنفيه على الأقل، كالطرح الفييني والطرح البياجي والطرح الوظيفي التواصلي...

1- ماير (1997)، ص. 99.

2- نفسه، ص.100.

وتأسيس نموذج جديد ومختلف عنه تماما. والذي هيأ له ذلك هو ما حدث من تطور في قطاعات معرفية موازية، كعلم النفس والإبستمولوجيا، أو ما حدث من تغير في المناخ العام أو في النموذج المعرفي المسيطر حسب فلسفة كون[1] T. Kuhn .

صحيح أنه لا يمكن فهم وتفسير صعود نجم التوليدية دون معرفة أسباب انهيار البنيوية في اللسانيات (توزيعية بلومفيلد وهاريس خاصة) والسلوكية في علم النفس (بيهافيورية سكاينز) وكل المعارف التي تتصور العمل العلمي نشاطا يقوم على جمع المعطيات وتصنيفها وربط قوانينها بالتجربة والممارسة. إلا ان طبيعة عملنا لا تسمح بالقيام بهذا النوع من التفسير الذي يتطلب وضع إطار تكون سمته الأولى هي التأريخ للعلم. وللتذكير، فإن عملنا هذا عمل إبستمولوجي محض، عمل يتوخى القراءة النقدية لأسس معرفة خاصة هي التي سميناها بالنظرية اللسانية المعاصرة.

من جملة الأسس التي يعتمدها تشومسكي في سياسة الهدم اللجوء إلى استراتيجيا الإقناع الذي بدا للبعض مجرد براعة في السجال. يقول علي حرب في هذا الخصوص:"إن تشومسكي مساجل بارع يستخدم مقدرته الجدالية وعدته المعرفية وربما سلطته الفكرية، وكل ما أوتي من قوة، لإسقاط حجج خصومه ودحض أطروحاتهم" [2]. إلا أن الذي يبدو هو أنك، حين تقرأ لتشومسكي، تحس أنك أمام رجل متنوع المعرفة، لجوج في النقاش، هادف في الجدال، إبستمولوجي قبل أن يكون لسانيا. وهو ما منحه أساسا متينا وسلاحا قويا يربك به الخصوم الذين لا تستطيع نظرياتهم أن تصمد أمام جهازه النقدي الذي يمتلك من الأدوات والأطر ما يمكنه من الاهتداء إلى الأسس الضعيفة والمتهالكة.

1- T. Kuhn (1962).

2- على حرب (1998). بالمناسبة، يعتبر علي حرب واحدا من المثقفين العرب الذين لا يمر ذكر اسم تشومسكي دون أن يوجهوا عبارات الغمز و اللمز بشتى النعوت المنقصة. ظهر ذلك جليا في هذا المقال، وفي كتاب سابق صدر له بعنوان : **نقد الحقيقة** (1995).

ومن الموجهات التي أثرت سلبا على تشومسكي أعمال البنيويين بمختلف تلويناتهم (وظيفيين وسلوكيين) وأعمال الفلاسفة التجريبيين والمناطقة الوضعانيين (بارهيلل). ويمكن إجمال هذه الموجهات المؤثرة سلبا[1] فيما يأتي :

- التصور التجريبي للعلم، حيث الملاحظة أساس العلم.
- التصور البنيوي للدرس اللساني، حيث ينحصر العمل اللساني في التصنيف.
- التصور الوضعاني للغة، حيث القول بأن لا فرق بين اللغة الطبيعية واللغة الاصطناعية.
- التصور التكويني للاكتساب، حيث الاعتقاد بان المعرفة هي نتيجة للتفاعل بين الذاتي والموضوعي.
- التحليل النفسي البيهافيوري، حيث التسليم بأن المعرفة لا تكتسب إلا بالدربة والممارسة والتعلم.
- التحليل الذي تقترحه الفلسفة الاجتماعية للقيم، حيث يتم إسناد القيم إلى المجتمع دونما اعتبار للطبيعة البشرية للأفراد؛ وحيث المجتمع هو الذي يبلور القيم ويسن السلط، ويتوقف دور الأفراد حينئذ على الخضوع لهذه السلط فلا يبقى أي مجال للإبداع[2].

ولذلك، فإن تشومسكي، وكما يلاحظ G/P، لم يول أهمية للأوروبيين ولم يتخذهم مرجعا له [3].

1- نقصد " بالموجه السلبي" الموجه الذي ينحصر دوره في الإثارة والاستفزاز أو التوجيه توجيها عكسيا، كأعمال نيلسون كودمان Nelson Goodman (1906-1998) وفيلارد فان أورمان كويـن Willard Van Orman Quine (1908-2000) فيما يرتبط بالعلاقة بين التركيب والدلالة وأيهما الأسبق، ويقابله " الموجه الإيجابي" وهو المدعم للاتجاه المتبنى، كالفلسفة العقلانية بالنسبة لتشومسكي.

2- انظر المناظرة التي دارت بين تشومسكي وفوكو عام 1971 حول مسألة **الطبيعة البشرية** والتي نشرت مؤخرا في كتاب بعنوان: Sur la Nature Humaine : Comprendre le Pouvoir Interlude (2006).

3- انظر G/P (1981)، ص. 200.



لقد رفض تشومسكي رفضا باتا العودة إلى اللسانيات الأوربية، فأقام نسقه متخطيا أزمنة اللسانيات الهندأوروبية ولسانيات النحاة الجدد واللسانيات التقليدية وحتى اللسانيات البنيوية. ولم يؤسس لا على أعمال صوسور ولا على أعمال جاكوبسن، رغم الإشارة إليهما، ولا على أعمال بالي C. Bally أو ميي A.Meillet أو بنفنيست E. Benveniste المستلهم من سيكموند فرويد Segmond Freud (1856-1939). ولم ينج من هذا الرفض إلا يسبرسنO. Jesperson. فلم يحظ باهتمام تشومسكي من الأوروبيين إلا ديكارت وهمبولدت[1]. ويرجع G/P سبب ذلك إلى " أن اللسانيين الأوروبيين هم ذوو تكوين أدبي، فلسفي أو سيكولوجي، بينما اللسانيات الأمريكية نشأت بعيدا عن ذلك. فهي قد تأثرت، في جزء كبير منها، بأعمال الأنتروبولوجيين والإثنولوجيين الذين كانوا ينتسبون إلى مدرسة Boas. وكل اللسانيين الأمريكيين، بدءا من سابير ومرورا ببلومفيلد وصولا إلى هاريس، يشتركون في خاصية أنهم اشتغلوا، في لحظة من لحظات تاريخهم على الأقل، على الألسن الأمريكية المتداولة. وكانت الرغبة في التعرف على الآخر (قبائل هنود أمريكا)، من خلال التعرف على لسانه وعاداته وسلوكه، هي ما يطبع اللسانيات الأمريكية. "[2] ما يفهم من هذا الكلام هو أن اللسانيات الأوروبية، في مجملها، لسانيات فقهية، وأن اللسانيات الأمريكية المتحدث عنها هنا والمتأثرة ب Boas لسانيات ميدانية. قد يكون هذا صحيحا إذا أخذ الأمر في مجمله طبعا. لكن ما علاقة ذلك بتشومسكي الذي ظل يدعو إلى لسانيات تقوم على التأمل والنظر، وإلى إحياء فلسفات منها ما عفا عليه الزمن؟ تشومسكي الذي لم يكن سؤاله هو معرفة الآخر وإنما معرفة جانب من جوانب الطبيعة البشرية وهو المتمثل في الخاصية اللغوية. الذي يبدو، في نظرنا، هو أن تشومسكي أدرك أن هناك بونا شاسعا بين أوروبا الفيلسوفة وأوربا اللسانية، وأن الأولى هي التي تشبع نهمه وتفتح أمامه الآفاق وتجيب عن أسئلته، بل وتلتقي معه في

1- أنظر التفاصيل في المرجع السابق. نفس الصفحة.
2- نفسه. ص.201.



الإشكالات، على عكس الثانية التي حكمت على نفسها بضيق الأفق وضلال الطريق. ولذلك حضرت في متونه وهوامشه أسماء أوروبية لفلاسفة (ديكارت وغيره) ولغويين (نحاة بور- رويال وغيرهم من اللغويين الفلاسفة خاصة) وقد ألف بينها بشكل عجيب ودافع عنها دفاعا مستميتا لأنها هي التي ستشكل أساسه التأملي والأحزمة الواقية لنواته الصلبة.

يختم كادي وبيشو، وهما أوربيان، إحدى فقرات كتابهما بعبارات ملؤها الحسرة على إمبراطورية أوربية تتهاوى أمام زحف أمريكي لا يقاوم. يقولان: " كانت الرغبة التي تحرك الأمريكيين هي استبدال الهيمنة الإغريقية اللاتينية بهيمنة أنكلو أمريكية. وكان النحو التوليدي التحويلي تعبيرا عن هذه الرغبة؛ وذلك بإعادة بناء مختلف ألسن العالم وفق نموذج الإنجليزية. تماما كما فعل المرتزقة والمكتشفون الأوروبيون ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، حينما قاموا بإعادة بناء ألسن المناطق التي اكتشفوها على غرار الإغريقية واللاتينية. وهكذا وفرت اللسانيات الديكارتية الضمانة الفلسفية للعولمة الجديدة، كما وفرت النزعة الهمبولدتية فرصة الانفتاح على خاصية الإبداع." [1] ثم ينهي هذان الأوربيان المجروحان في كبريائهما كلامهما بعبارات من استسلم للأمر الواقع: " كان النحو التوليدي نتيجة لمسار أوروبي، رغم ما قلناه عن الثقافة الأمريكية والإيديلوجيا التي تتحكم فيها [يقصدان إيديولوجيا الاستقلال والتميز عن الشيخ الأوروبي]. فرغم ما يبديه تشومسكي أحيانا من تقزز تجاه بعض الفلسفات الأوروبية، فإنه كان يستحضر على الدوام العقلانية الفرنسية الكلاسيكية والعقلانية الألمانية، كما يستحضر لوك وهيوم وبيركلي وميل وبيرس. فهناك، إذا، طريق أوروبي يقود إلى النحو التوليدي." [2] هكذا يكون تشومسكي قد أعاد لأوروبا الفيلسوفة، على الأقل، مجدها الذي داسته أقدام اللغويين الأمريكيين من حفدة Boas .

1 - نفسه.ص.205.

2- نفس المرجع والصفحة.



وفي مقابل رفض العودة إلى اللسانيات الأوروبية المنفرة من كل تعامل مع المواقف التأملية، قام تشومسكي أيضا برفض اللسانيات الأمريكية التي تختصرها التوزيعية ذات النزعة التقنية الميكانيكية، ولم يكن ربطه بين هذه وتلك قائما على ما يجمع بينهما من اعتماد الوصف القائم على التصنيف فقط، وإنما تم الربط على أساس أن الجميع لا يجعل التفسير من أهدافه؛ التفسير الذي يعتمد التنظير أساسا. فبؤس التصور البنيوي للعلم هو الذي شكل أساس الرفض أو الدحض بالأصح. حيث يتصور أن العلم عبارة عن نشاط لا يتجاوز حدود الملاحظة وقابلية التحقق، وحيث الهدف هو الجمع والتصنيف لا الافتراض والتفسير.

1. 1. دحض الأساس البيهافيوري للسانيات الوصفية

ابتدأت التوليدية، ذات الأساس العقلاني، بالدحض العنيف لكل التوجهات اللسانية التي نشأت في أحضان التصور التجريبي للعلم، حيث يسود الاستقراء المعتمد على الملاحظة، والوصف القائم على التصنيف. وقد سبق لـ D. lecourt أن ربط بين هدف تشومسكي اللساني التوليدي وبين هدف بوبر الابستمولوجي العقلاني حينما قال:" لقد قدمت أفكار بوبر إشارات خلفت انطباعا بأن الهدف كان هو إزاحة البنيوية عن عرشها وإضفاء طابع الوحدة على الاتجاهات الإيديولوجية المهيمنة التي استطاعت أن تقتحم مختلف العلوم الإنسانية. فتقاطعها الأخير مع الديكارتية الشومسكاوية ليس إلا واحدا من هذه الإشارات. كما أن موقفها الرافض للسلوكية في علم النفس وتبشيرها بالمذهب الذهني هو أيضا إشارة من تلك الإشارات."[1] تصور بوبر للبنيوية على أنها مجرد دعوى ذات خلفية إيديلوجية لم يكن تصورا سائبا ولكنه تصور يمكن ربطه بتصورات أخرى تحمل نفس الفهم إلا أنها قادمة من عالم لا يمكن أن يقدم إلا مثل تلك التصورات، وهو عالم أوربا الشرقية ذات التوجهات الماركسية. فبهدف الإطاحة بالبنيوية ذات النزعة المعادية للمادية التاريخية، ظهرت في بداية الستينات من القرن الماضي دعوات إلى التخلي عن

1- Lecourt (1981)، ص. 130.



وجهات نظر البنيويين وتبني وجهات نظر أخرى تروم بناء أنساق لسانية تقوم على أسس مختلفة؛ كالدعوة التي أطلقها الماركسيون في هذا الإطار. يدعو مارسيل كوهن Marcel Cohen، و هو أحد طلائع اللغويين الماركسيين في فرنسا، كما يحب أن يقدمه أحد المترجمين العرب، إلى تصور اللغة على أنها " تقدم الدليل السهل على صحة مبادئ المادية الديالكتية، و أنه لا عجب من أن نرى دراستها تدفع نحو تطبيقات جديدة للمنهج المادي الديالكتي"[1].

ومن وجهة نظر معينة، تعتبر التوليدية من أهم الثورات اللسانية في العصر الحديث، لأنها اصطدمت مع أعظم النظريات وأكثرها إثارة وصمودا أمام الاختبار، وهي النظرية البنيوية. وكما يقتضي مفهوم التصادم، بالمعنى الذي يمنحه إياه بوبر، فإن التوليدية تتضمن البنيوية كمقاربة لبعض الظواهر (نسقية اللسان وإمكانية عزله عن أنساق كلامية أخرى، والتمييز بين اللغة واللسان...)، لكنها تتجاوزها حينما تتعارض معها في مقاربة ظواهر أخرى لتفضي إلى نتائج مختلفة بخصوص تصور حقيقة اللغة وعملية الاكتساب والإبداع اللغوي والاهتمام بالكليات وبأولوية اللغة على اللسان... لينتهي الأمر إلى القول بأن اللغة معرفة ذات أساس بيولوجي، وأنها ظاهرة يمكن دراستها بنفس التصورات والمناهج التي تدرس بها الظواهر البيولوجية.

وليست التوليدية ثورة ضد البنيوية، فقط، ولكنها ثورة ضد كل أشكال التفكير التجريباني بصفة عامة، ومن بينها التفسيرات السلوكية للفعل البشري والتصورات الوضعانية في العلوم.

تعامل تشومسكي، في كثير من الأحيان، مع التوزيعية وكأنها لا تنتمي إلى البنيوية الأوربية. وبالفعل، فإن هذا التيار لا يندرج ضمن المشروع الصوسوري كما قدمناه في فصل سابق إلا من حيث الشكل، أما من حيث العمق، فإن جذوره تمتد إلى علم النفس السلوكي. فالمؤهل الأول لمناقشة التوزيعيين هو من تبنى تصورا

1- م. عاصي (1979)، ص. 71.



مخالفا لهذا العلم، كالتصور القائم على أساس علم نفس معرفي ذهني، وهو التصور الذي يتبناه تشومسكي. والأسلحة التي ستستعمل في هذا النقاش ستكون أسلحة مادتها هي علم النفس السلوكي من جهة وعلم النفس الذهني من جهة أخرى، وستكون صورها وأمثلتها لغوية. ومما يعطي لهذا النقاش أهمية أنه نقاش حول الأسس والأصول وليس حول التفريعات، نقاش حول المبادئ وليس حول التفاصيل. مرة أخرى، إن رفض تشومسكي للنحو التقليدي واللسانيات البنيوية، الأمريكية منها خاصة، يقوم على أساس ليس مبعثه في التفاصيل التجريبية ولا حتى في الاستدلال المنطقي وإنما في الخطإ المبدئي[1].

إن الكبرياء المجروح أو المستهدف هنا هو كبرياء علم النفس السلوكي أساسا، من رائده الأول Watson إلى قطبه الشامخ Skinner.

يتقدم أحد أقطاب علم النفس الإدراكي واصفا المشهد كالآتي[2]: "لقد شهد العام 1957 صدور كتابين حول اللغة، يمثل أحدهما نهاية حقبة، والآخر بداية حقبة جديدة. كان عالم النفس ب.ف. سكينر يعد، بشكل غير قابل للمناقشة، أكثر علماء النفس نفوذا في ذلك الوقت. وكان كتابه السلوك اللفظي verbal behavior محاولة بطولية لإخضاع اللغة للمبادئ السلوكية. وكان بمعنى من المعاني أغنية البجع الأخيرة أو أغنية الوداع (على رغم أن معظم عمله انصب على الحمائم)، وذروة مسيرة أنفقها في دراسة سلوك الأحياء. وفي وجهة النظر هذه لم تكن اللغة سوى نوع من السلوك المعقد يمكن شرحه في نهاية الأمر طبقا للمبادئ نفسها التي يمكن استخدامها لشرح سلوك حمامة تنقر مفتاحا بحثا عن طعام، أو طفل يتعلم ركوب الدراجة. أما القادم الجديد إلى الساحة فكان تشومسكي.

1- انظر كلام تشومسكي عن معنى **الخطإ المبدئي** الذي ينسبه إلى التقليديين والبنيويين على السواء في الفصل الخامس من تشومسكي (1965).

2- نعتذر عن إيراد هذا النص لطوله، لكننا فعلنا ذلك تحت ضغط الإحساس بقوته التاريخية ودلالته المعرفية، خاصة وأنه لواحد من علماء النفس الإدراكي المتأخرين الذين جمعوا بين معاصرة المرحلة والكتابة عنها.



وأظهر كتابه البنى النحوية التركيبية Syntactic Structurs، الذي كتبه على أساس رسالته لنيل الدكتوراه، أن اللغة لا يمكن شرحها من زاوية الترابطات أو على أساس أي أسلوب محدود يمكن من خلاله توقع أي كلمة من سابقاتها من الكلمات. كان كلا المؤلفين بلا شك غافلا عن صاحبه في بداية الأمر. ولكن لم يكد يمر عامان حتى نشر تشومسكي في العام 1959 عرضا[1] نقض فيه كتاب سكينر. الأمر الذي غير وجه البحث حول اللغة، ورفع تحديات مازالت مستمرة حتى يومنا هذا[2]."

في معرض رفضه للتفسير الذاتي للسلوك البشري (التفسير الغريزي أو الطبيعي أو الفطري...) يعلن سكينر" أن واجب التحليل العلمي هو أن يشرح كيف أن السلوك لدى الإنسان، بوصفه جهازا ماديا، يرتبط بالظروف والأحوال التي تطور الجنس البشري في ظلها، والظروف التي يعيش الفرد في كنفها[3]." وبخصوص معرفة المتكلم بقواعد النحو، ينفي أن المتكلم يتكلم وفق قواعد يعرفها؛ "فالمتكلم لا يحس بالقواعد النحوية والصرفية التي يقال إنه يطبقها أثناء تأليفه للجمل. وقد ظل الناس يتكلمون حسب أصول القواعد آلاف السنين قبل أن يعرف أحد بوجود قواعد[4]." وفي الواقع فإن كلاما من هذا القبيل يثير شهية التفنيد. ولذلك، فإن مما يتميز به تشومسكي أنه يحسن اختيار ضحاياه.

وبخصوص صمود التفسير العقلاني، يقول سكينر:" أما عن بطئنا الشديد في طرح التفسيرات العقلانية ونبذها، فإن له سببا أكثر أهمية، وهو يتمثل في صعوبة العثور على تفسيرات بديلة. ومن المفروض أن نبحث عن البدائل في البيئة

1- الإشارة هنا إلى مقال تشومسكي "رد على سكينر" الذي ظهر في العدد 35 من المجلة الأمريكية Language ص.ص. 26-58، والذي أعيد نشره في Fodor / Katz (1964). وتمت ترجمته إلى الفرنسية فنشر في مجلة Langages. العدد 16. دجنبر 1969.

2- م. كورباليس (2002). ص.ص. 38-39.

3- Skinner (1957)، ص. 15.

4- نفسه، ص. 16.



الخارجية[1]." ثم يحكم على موقفه هذا بأنه موقف علمي؛ " العلميات العقلية يمكن أن توجد، ولكنها، بطبيعة حقيقتها، تحذف من نطاق الاعتبارات العلمية. السلوكيون في العلوم السياسية، وكثيرون من الفلاسفة الوضعانيين قد اتبعوا خطا مماثلا[2]".

وفي معرض التقليل من شأن التفسير العقلاني، يعلن أن هذا التفسير" قد تلقى ثلاث ضربات ثقيلة من طرف العلم؛ وهي كما يلي: الأولى كانت ضربة كونية، وقد فعلها كوبرنيكوس، وكانت الثانية بيولوجية، وقد كالها دارون، وكانت الثالثة نفسية، وقد وجهها فرود[3]".

ويجب أن لا ننسى أن الأصول الأولى للبيهافيورية تمتد إلى المادي الروسي بافلوف **Pavlov** الذي سبق أن أعلن عن تحديه لكل الفلسفات التي تقدس الإنسان وتجعله مركز الكون؛ ففي الوقت الذي بلغت فيه الفلسفات الإنسانية شأوا بعيدا كما تعكس ذلك ثقافة القرن التاسع عشر التي عبر عنها شكسبير على لسان همليت حينما قال:"ما أشبه الإنسان بالـلـه!" نجد فيه بافلوف السلوكي يؤكد " أن الإنسان كبير الشبه بالكلب[4]". وبعده جاء آخرون ليفندوا الفلسفة الإنسانية التي من أسسها أن الإنسان فاعل ومقرر ومؤثر ومبدع... قائلين:" يقدم الفلاسفة والعلماء، بثقة، صفات يعتقد أن الإنسان ينفرد بها. والقردة العليا تطيح بذلك بشكل عرضي، مسقطة الحجة بأن البشر يشكلون نوعا من الأرستقراطية البيولوجية[5]". وانتهى بعضهم إلى القول: "إما أن نتخلى عن فكرة تفرد الإنسان [عن الحيوان والآلة الذكية] أو نتخلى عن البحث العلمي[6]". وهو قول مؤسس على ما عرف باسم

1- نفس المصدر والصفحة.
2- نفسه، ص. 166.
3- نفسه، ص. 184.
4- نفسه، ص. 175.
5- ج. تريفل (1997)، ص. 15.
6- نفسه، ص. 23.



البافلوفية من جهة وما عرف باسم السيبرنيتيكا من جهة أخرى. والاثنتان معا كانتا هدفا لتفنيدات تشومسكي العقلاني. وهي تفنيدات لم تقم على أسس أخلاقية ولكنها قامت على أسس إبستمولوجية، لأن ما يهم تشومسكي في تلك الأقوال هو محتواها المعرفي لا الأخلاقي. المحتوى المعرفي هذا هو الذي كان موضوع الارتياب؛ فبالإضافة إلى ما قيل عن البيهافيورية ذات الأصول البافلوفية، يقول تشومسكي عن السيبرنيتيكا: "مع نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، ظهرت موجة من الأفكار السيبرنيتيكية التي سحرت بعض اللسانيين أمثال هوكيط Hockett الذي قدم في 1955 نظرية رياضية للبنية اللغوية اعتمد فيها على النموذج الذي سبق أن قدمه ماركوف Markov، وهو نموذج الحالات المنتهية. كل هذه النماذج دفعت بي إلى الارتياب في نجاعتها[1]".

أما بلومفيلد ومن معه من اللسانيين فإنهم كانوا فريسة سهلة ومطية يركبها الشومسكاويون للإطاحة بالبيهافيورية. والذي جر عليهم ذلك هو أنهم حاولوا البرهنة على نجاعة التفسير السلوكي من داخل اللسانيات، أو حاولوا أن يجعلوا للسلوكية إشعاعا خارج أرضها ليضفوا عليها شيئا من الوقار والاحترام، وهو ما رأى فيه تشومسكي أكبر عائق إبستمولوجي وحتى سوسيومعرفي أمام برنامجه القائم على أساس علم النفس الذهني أو الإدراكي، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء كانوا على رأس الرافضين للتفسيرات الشومسكاوية. تقول M. Ronat في المقدمة التي قدمت بها حواراتها مع تشومسكي: " من الذين يقفون موقفا معاديا للتفسير النفسي الذي يقترحه تشومسكي لظاهرة الحدس اللغوي، هناك الحسيون واللانظريون[2]". وتعني بهم خاصة أصحاب اللسانيات السلوكية والبنيويين الوصفيين كما يتبين في بقية صفحات الكتاب.

1- تشومسكي (1977)، ص. 132. وبخصوص اقتراح نظرية للبنية اللغوية كالتي اقترحها هوكيط، تراودنا أسئلة تتعلق بإمكانية تحقيق ذلك، أهمها:

- هل يمكن ترجمة قواعد النحو إلى قضايا رياضية؟
- وهل يمكن أن تشبه قضايا النحو قضايا الرياضيات في الوضوح؟

2- نفسه، ص. 15.



وفي ذات السياق، يتكلم التوليدي A. G. Miller عما أسماه بيان ضد البيهافيورية، ويصوغه كالآتي: " إذا أخذنا بصياغة واقعية للمشكل، فإنني أعتقد أننا سنكون مجبرين على قبول الموقف الذهني. لذا يجب الاهتمام بالفرضيات التي تم اختبارها لا بفرضية الاكتساب التي تم تبنيها دون مبرر، الاهتمام بالقواعد لا بالعادات، بالقدرة على الإنتاج لا بالقياس، بالملكات البشرية الفطرية والكلية لا بالمناهج الخاصة بتعليم الكلام، بالرموز لا بالمثيرات الشرطية، بالجمل لا بالكلمات أو الأصوات، بالبنية اللسانية لا بسلاسل الكلام. وباختصار، باللغة لا بنظرية الاكتساب[1]".

بالنسبة للتوليديين، تكمن أزمة التوزيعيين، إذا، في أنهم لا يعالجون اللسان باعتباره معرفة مستبطنة. وكان أول من استغل ذلك هو تشومسكي، فتسبب في خلق أزمة لهؤلاء الذين ظلوا متمسكين بموقفهم اللاذهني والرافض لأي ربط بين اللسان والذهن، لتتأكد بذلك استراتيجيا تشومسكي التي عرف عنها أنها تقوم، من بين ما تقوم عليه، على إفحام الخصوم. وهي استراتيجيا مدعومة باستيعاب منجزات الإبستمولوجيا المعاصرة وبالقدرة على استثمارها في إثارة الأزمات كما سبق أن قلنا. وهذا أسلوب يمكن التعرف عليه بسهولة عند بوبر الذي يستثمر تشومسكي أفكاره والذي سخر كل طاقاته الإبستمولوجية لإثارة أزمة مدمرة داخل الوضعانية المنطقية ومن ثم الإطاحة بها. والمبدأ المحرك في الحالتين (حالة بوبر وحالة تشومسكي) هو أن مسألة التجاوز أو القطيعة مسألة نصت عليها كل الشرائع الإبستمولوجية وإليها ينسب الدور الكبير في تطوير المعرفة[2].

كما تكمن أزمة التوزيعيين، في نظر التوليديين دائما، فيما عبر عنه تشومسكي بقوله:" تقتسم اللسانيات المعاصرة [يقصد لسانيات التوزيعيين] التهافت الذي بلورته علوم السلوك المعاصرة في كثير من الأوجه الهامة، والمتمثل في الاعتقاد

1- J. Wittwer و M. Moscato (1978)، ص. 62.

2- كان هذا المبدأ، أيضا، إحدى الأكسيومات الكبرى التي قامت عليها إبستمولوجيا كاستون باشلار Gaston Bachelard (1884-1962). انظر G. Bachelard (1967) خاصة.



بحصول نقلة من مرحلة التأمل إلى مرحلة العلم، وبأن أعمال السلف يمكن الاحتفاظ بها في المتحف دون أن يترتب عن ذلك أي خطر[1]".

وعموما، فإنه يمكن حصر مجالات التفنيد الذي مارسه التوليديون ضد البنيويين التوزيعيين في مجالين اثنين هما: التصور الباكوني للعلم، وعدم الكفاية المنهجية.

1. 1. 1.تهافت الأساس الباكوني

يستفاد من الكلام العام الذي قدمنا به هذه الفقرة أن الأساس الذي اعتمد طيلة مراحل تطور الفكر البنيوي التوزيعي ذي التوجه البيهافيوري يقوم على تصور وضعاني للعلم؛ حيث العلم ليس سوى رصد للوقائع وجمعها قصد تصنيفها وإنجاز وصف دقيق لها، وحيث المنهج المعتمد هو المنهج القائم على الملاحظة والقياس والاستقراء، وحيث تتطلب عملية الانتقال من الذات، إذا اعترف بها، إلى الموضوع المرور عبر قناة التجربة. تصور يعادي كل فهم يقوم على التأمل والتأويل والتفسير وما يفرضه ذلك من مناهج تعتمد الافتراض والاستنباط. يجد هذا التصور مصادره فيما سمي، منذ القرن التاسع عشر، بالتصورات الوضعانية للعلم، و فيما سمي، قبل ذلك في أدبيات الفلسفة، بالنزعة التجريبانية في الفكر عموما. وهي نزعة تنسب إلى فرنسيس بيكون الذي نادى بضرورة ربط المعرفة بالمنفعة (نزعة ذرائعية)، وذلك قصد السيطرة على الطبيعة وإخضاعها للأغراض العملية. واعتبر العقل مجرد مرآة صافية تنعكس عليها التجارب الناتجة عن التعامل المباشر مع العالم الواقعي[2]وليس جهازا مفطورا على المعرفة. وأشاد بدور التجربة، مسندا إليها الدور الحاسم في حصول المعرفة، وبدور القياس والاستقراء في الوصول إلى الحقيقة (أرسطية محضة).

1- Chomsky (1968)، ص. 5.

2- عرف مفهوم **العالم الواقعي**، عبر تاريخه الطويل، نوعا من عدم الاستقرار؛ فأفلاطون يرى أن العالم الواقعي هو عالم المثل. ويرى فلاسفة العصور الوسطى الواقعيون أن ما هو واقعي وموجود إنما هو الكليات التي توجد في استقلال عن الأشياء. وفي ذلك تعارض مع الأسمانية nominalisme. أما في عصرنا الحاضر فإن الواقعانية هي التي تعتبر أن الواقع (من خلال موضوعاته) موجود بشكل موضوعي، أي بغض النظر عن تجربتنا الحسية. وفي هذا تعارض مع الفينومينولوجيا التي تنكر وجود الموضوعات المادية وتعتبر أن ما هو موجود إنما هو إحساساتنا بها.

هذا التصور الباكوني للمعرفة العلمية خاصة هو الذي سيعيد إحياءه أوجيست كونت أبو الوضعانية في قالب أضفى عليه من الأناقة ما أوقع الكثيرين تحت سحره ليسود طيلة النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين[1]. ومن هؤلاء، طبعا، البافلوفيون والبيهافيوريون في علم النفس والبنيويون التوزيعيون في اللسانيات[2]. يقوم التصور الوضعاني للعلم، زيادة على ما ذكر، على مسلمات أساسية هي:

أ) العالم، ومن ثم موضوعات المعرفة، معطى مسبق ولا دخل لنا في صنعه أو بنائه. ومن هنا ضرورة إقصاء الذات كعقل مفكر، وذلك من أجل تحقيق مطلب الموضوعية، واعتبرت العقلانية خروجا عن العلم.

ب) ينقسم العالم إلى حقائق وظواهر، و ما يشكل موضوع المعرفة هو الظواهر. وهي مسلمة ستشكل واحدة من أهم المسلمات التي قامت عليها الفينومينولوجيا التي كان لها تأثير كبير على اللسانيين البنيويين والتي تفترض أن العقل البشري لا يدرك سوى الظواهر (حضور العقل العملي الكنطي). والظاهرة، عند الوضعانيين، هي مجموع العلاقات والقوانين التي تتشكل منها.

ج) المثل الأعلى لليقين لا يتحقق إلا في العلم التجريبي. ولذلك تمت مناهضة كل بحث يروم استنباط العلل التي تقف وراء حدوث الظاهرة والغايات التي كانت من أجلها. فالمعرفة الحقة هي معرفة الظاهرة لذاتها، محصورة في

1- " على الرغم من أن الإجرائية [= الوضعانية]، من الناحية المنطقية، مذهب لا سند له... فإنه مارس تأثيرا كبيرا، خصوصا في علم النفس." Popper (1997)، ص. 55.

2- في تشومسكي (1977) نقد تحليلي للتوجهات التجريبانية في الدرس اللساني البنيوي. هذا وقد رافق البنيوية تنامي المد التجريباني على حساب كل ما هو عقلاني، حتى إن العلم لم يبق له، في بداية القرن العشرين، سوى مفهوم واحد، هو أنه ذلك النشاط التجريباني الذي تخلص من حبال العقلانية. نقول هذا الكلام حتى يمكن أن نتصور درجة عنف الهزة التي ستحدثها أفكار ونظريات إنشتاين وهيزنبرغ وغيرهما من فيزيائيي النصف الأول من القرن العشرين ممن انتصروا للعلم الافتراضي الاستنباطي.

المكان والزمان ومفصولة عن سياقها التاريخي. وقد ترجمت اللسانيات البنيوية هذا الأساس إلى لغتها حينما نادت بضرورة قيام لسانيات سانكرونية.

د) على مستوى المنهج، اعتبرت الوضعانية أن فهم الظاهرة مسألة معقدة ويكمن دور العلم في تبسيطها. هذا الأساس هو الذي ستتقيد به كل البنيويات حينما شددت على التحليل والاهتمام بالأصغر والجزئي. ظهر ذلك، في البداية، في تقسيم المكون إلى مكونات صغرى فأصغر، حيث تتجه العملية دائما من الأعلى إلى الأسفل دون أن يحدث العكس. فهناك الجملة فالمركب فالمكون فالمورقيم فالمقطع فالفونيم وصولا إلى السمات المميزة للفونيم[1]. وإذا تم التفكير في القيام بالعملية معكوسة، أي من الأسفل إلى الأعلى، واجهتنا مشكلة التركيب (تركيب سلاسل الفونيمات لتشكل مورفيمات تشكل بدورها كلمات فجملا). وهي مشكلة تفسح المجال لدخول اعتبارات غير لسانية وعلى رأسها قضية المعنى. ولذلك تم التغاضي عن الاهتمام بالعملية أصلا. هذا التغاضي تم التعبير عنه أحيانا بالعزوف عن الاهتمام بالتركيب Syntaxe. ألم يقل تروبسكي: إن التركيب يرعبني؟

لكن، ومهما قيل عن الأسس الوضعانية للتصورات اللسانية التوزيعية، فإن هناك من البنيويين، خاصة في أوربا، ممن كانت لهم تصورات نظرية للممارسة العلمية؛ نذكر منهم جاكوبسن الذي افترض وجود مبادئ كلية هي ما عبر عنه بالسمات المميزة المشتركة بين الألسن، وافترض ان لها واقعا نفسيا هو الذي يتحكم فيها. ومثل جاكوبسن، هناك رفيقه تروبتسكوي الذي افترض أن للفونيم بنية مجردة استطاع أن يعزلها عن الواقع المادي، وهو ما يعترف به تشومسكي نفسه حينما يقول:".. لكن، لابد من الإشارة، مع ذلك، إلى أن جاكوبسن نفسه

1- بخصوص ما تطرحه عملية التقطيع من مشاكل، انظر Saussure (1916)، الفصل السادس mécanisme de la langue، ص. 176 وما بعد. وأيضا O. Ducrot (1968) وخاصة التعليق الذي تضمنته الصفحات 49 وما بعد.



وتروبسكوي قد اتخذا موقفا قريبا من موقف النحو التوليدي. لقد كانا يتكلمان عن الواقع النفسي، على الأقل من وجهة نظر فونولوجية، فلقد افترضا وجود مبادئ بنيوية كلية. بينما نجد هاريس يقصي التأويل النفساني. ونفس الشيء يقال عن بلوخ وآخرين[1]".

ومن البنيويين الأوربيين، أيضا، ممن كانت لهم مواقف مبنية على أساس نظري نذكر، على الخصوص، هيلمسليف الذي يعتبره J. P. Corneille " البنيوي الوحيد الذي دافع، قبل تشومسكي، عن التصور الكبليري للعلم، والذي يذهب إلى حد القول: " إن الوقائع التجريبية لا تستطيع أبدا لا أن تؤكد ولا أن تنفي النظرية [2]". وقد سبق لهيلمسليف أن اعتبر " النحو واللسانيات، بصفة عامة، فرعا خاصا من فروع علم النفس. فوقائع النحو وقائع سيكولوجية[3] ". كما سبق له أن بنى تصورا آخر لمفهوم الاعتباط، يتلخص في أن العلاقة التي تربط بين النظرية والتطبيق هي أيضا علاقة اعتباطية. أي أن النظرية تبنى بعيدا عن الواقع التجريبي الذي لا يمكنه، في نظره، أن يقدم كل ما يمكن التنبؤ به. النظرية، عنده، اعتباطية لكن تطبيقاتها يجب أن تتطابق مع الوقائع. وبالنسبة إليه، " فإن المقياس الوحيد لقياس قيمة النظرية هو مبدأ التجريب الذي يقتضي أن يكون الوصف منسجما [مع المعطيات] وشموليا [يشمل أكبر عدد ممكن من المعطيات] وبسيطا[4]". وينتهي المطاف بهيلمسليف، كبنيوي نظري، إلى اعتبار اللغة مجموع الخصائص المشتركة بين الألسن، وأنها هي التي تمثل الصورة وأن الألسن تمثل المادة، ولذلك فهي عرضية. ومن ثم اهتم باللغة أكثر مما اهتم بالألسن. فسخر كل إمكاناته

1- Chomsky (1977)، ص.ص. 126-127.

2- Corneille (1976)، ص. 237.

3- نفسه، ص. 123. ولتشومسكي كلام شبيه بهذا: " يمكن القول: إن "النحو الفلسفي" و "اللسانيات البنيوية" كانا يتطوران باعتبارهما فرعين نوعيين لسيكولوجيا زمانهما فيفيدانها بمساهمة جديدة بالاعتبار." (Chomsky (1968)، ص. 99)

4- Hjelmsliev (1943)، ص. 20.



للوصول إلى القانون العام الذي لا يمكن من وصف ما هو موجود فقط وإنما من وصف ما هو ممكن أيضا.

إذا عدنا إلى الاختلاف الأساسي بين المواقف الباكونية والمواقف الكبليرية فإنه يمكن أن نختصر الوضعية اللسانية في القول: إن البنيوية، عموما، والوصفية الأمريكية على الخصوص، تنتمي إلى المواقف الأولى، بينما تنتمي توليدية تشومسكي إلى المواقف الثانية. " وما يضفي على هيلمسليف طابع الأصالة هو أنه استطاع أن يتنبأ بالمستقبل حينما وفق بين وجهتي النظر [الباكونية والكبليرية]، وطالب، قبل تشومسكي، بتطوير نظرية استنباطية اعتباطية من النوع الكبليري. لكنه أدرك، في نفس الوقت، أهمية ودور الاستقراء في تطوير المقدمات التي تتكون منها النظرية[1]."

تأرجح هيلمسليف الذي يقدمه Corneille هنا بين الاستنباط والاستقراء، وتأرجح آخر يمكن الوقوف عليه داخل اللسانيات الوصفية الأمريكية بين تصور البنية على أنها كيان موجود بالفعل (الوصفية الواقعية) وتصورها على أنها مجرد بناء نظري (الوصفية النظرية)، سينتبه إليه تشومكسي، وسيدفع به إلى الارتياب في صدقية النوايا النظرية لبعض البنيويين، وسيعتبره من التناقضات التي تعاني منها كل التوجهات التجريبانية سواء أكانت في اللسانيات أم في علم النفس، أم في الفلسفة. يقول عن الفيلسوف التجريباني W.V.O.Quine:" نفس التناقض الذي يقع فيه علم النفس السلوكي تقع فيه، الفلسفة. فـ Quine يؤكد، مرة، أن النظريات تبنى كلها عن طريق القياس...ويذهب، مرة أخرى، إلى أن النظريات لا يتدخل القياس في بنائها وإنما الفرضيات المجردة هي التي تتدخل في ذلك[2]."

ويمكن حصر مظاهر التصور الباكوني الوضعاني للعمل اللساني عند التوزيعيين في أمور يمكن أن نجملها فيما يلي:

1- Corneille (1976)، ص.ص. 47-48.

2- Chomsky (1977)، ص.ص. 100-101.

أ) التعامل مع الواقع التجريبي باعتباره مناط الحقيقة لا مع الواقع المفترض. فمعيار الصدق، حسب هذا المبدإ، هو أن تستجيب النظرية للواقع المعطى لا للواقع المبني. ويعزى إلى التجربة الدور الحاسم في تحديد المعرفة العلمية. يختلف هذا التصور اختلافا جذريا عن تصور منافس هو التصور النظري الذي يرى أنه من المستحيل العثور على تجربة تستطيع أن تدحض دحضا قاطعا نظرية من النظريات أو تؤكدها تأكيدا نهائيا، وأن النظرية بناء يتم بعيدا عن الواقع التجريبي الذي من طبيعته أنه تسوده الفوضى ويفتقر إلى الانسجام. ويعتمد التوزيعيون في تعاملهم مع الواقع التجريبي على الملاحظة. ويتصورون أنها عملية مستقلة عن الملاحظ[1]. فهي عندهم ملاحظة مطلقة وليست نسبية، وهو ما أوقعهم في الميث. كما أن نتائج الملاحظة، بالنسبة إليهم، مضمونة. وهو ما أبعدهم عن التصور الجديد للعلم الذي يتصور " أن العلم ليس فضاء يعم فيه الأمن المطلق، ولا هو مجرد إعادة تعريف لوقائع سبق معرفتها، ولكنه عبارة عن أخطار وعن تقديم تأويلات شخصية وفرضيات قابلة للاختيار. وهو أيضا عبارة عن الخطإ ومحاولة تجاوز الخطإ، وذلك عن طريق القيام بقراءات جديدة ستصبح هي بدورها خاطئة في ضوء قراءات أخرى[2]."ومن نتائج الثقة بالملاحظة والتجربة ربط البحث بالعينة، حتى إن باخ يصم العمل التوزيعي " بأنه مجرد عملية تستهدف تقديم تمثيل مكثف لعناصر العينة فقط قصد الوصول إلى بنيتها[3]." وهو ما دفع بأحد التوليديين، ومن منطلق بوبري دائما، إلى حد تفنيد إمكانية وجود عينة معطاة أو وملاحظة مباشرة أصلا. ويرد على اتهامات الوصفيين للنحو التوليدي ذي الأساس الافتراضي الاستنباطي بأنه نظرية ميتافيزيقية، موضحا أنه "عندما نقول: إن الأفكار لا يمكن ملاحظتها مباشرة،

1- في سياق تفنيده للتصور التجريباني للعلم بصفة عامة، يقول الفيزيائي J. Openheimer :" إن الإلكترون ليس له وجود موضوعي في استقلال عن الوسائل التي اختيرت لمراقبته ودراسته." Corneille (1976)، ص. 123).

2- نفسه، ص. 234.

3- E. Bach (1965)، ص. 125.



فإننا نعني بذلك ما يعنيه الفيزيائيون بقولهم: إن هناك أجساما دقيقة لا يمكن ملاحظتها. ولسنا في هذه الحالة أقل أو أكثر منهم ميتافيزيقية. إن ما يمنح استدلالاتهم محتوى تجريبيا هو أن نظرياتهم تربط الوجود المفترض لهذه الأجسام ببعض الظواهر الملاحظة، وذلك عن طريق سلسلة من العلاقات الاستنباطية. فالمنهج العلمي، إذا، يمنحنا طريقة مباشرة لافتراض وجود كيانات وأحداث غير قابلة للملاحظة، لكن ليس هناك أي سبب مشروع لإقصائها من اللسانيات[1]."

يتضح من هذا أن القطيعة التي بين اللسانيات التوليدية واللسانيات الوصفية المحضة هي من طبيعة نوعية، تنتمي إلى المستوى الإبستمولوجي لا إلى الجزئيات والتفاصيل اللسانية؛ فعدم الكفاية الابسمولوجية التي تعاني منها اللسانيات الوصفية أو التجريبانية هو الذي حكم عليها بأن تظل جاهلة لخاصية الإبداع اللغوي مثلا. ففي الوقت الذي حكم عليها تقيدها بشرط الملاحظة أن تتصور أن المتن عدد محدود من الأقوال، فاتها أن تدرك أن اللسان يسمح، بطبيعته، بما لا حصر له من الأقوال أو الجمل، وأن هذه الخاصية هي، أيضا، مما يتمتع به متكلم اللسان[2]. كما فاتها أن تدرك أن اللسان ليس عبارة عن عدد من الجمل كبر أو صغر، ولكنه معرفة بتلك الجمل.

وباختصار، فإن اللسانيات التجريبانية الاستقرائية تتصور أن إمكانية قيام نظرية لسانية أمر لا يتأتى إلا بعد التجربة، ولذلك سنقترح تسميتها باللسانيات البعدية، وتندرج ضمنها اللسانيات التوزيعية (الوصفية). أما اللسانيات الافتراضية الاستنباطية فإنها تتصور أن إمكانية قيام نظرية لسانية أمر سابق على التجربة،

1- J.J. Katz (1966)، ص. 154.

2- " إن ما أغفلته البنيوية والأنحاء التقليدية هو الخاصية الإبداعية للغة. فلقد كان Jesperson يعتقد أنه يفسر اللسان وهو يعلق على عدد هائل من الجمل. ورغم أنه يتكلم عن ذكاء المتكلم، إلا أنه لا يطرح السؤال عن طبيعة هذا الذكاء أو هذه المعرفة اللاواعية وهذا الحدس الذي يمكن المتكلم من استعمال لسانه. ونفس الشيء يقال عن الأنحاء البنيوية."(Chomsky (1977)، ص. 121).



ونقترح تسميتها باللسانيات القبلية، وتندرج ضمنها اللسانيات التوليدية. للتجربة في اللسانيات الأولى دور الاكتشاف، وفي اللسانيات الثانية دور الاختبار والتقويم.

ب) تصور العمل اللساني على أنه نشاط اكتشافي. يصف تشومسكي الوضعية التي كانت عليها اللسانيات في الخمسينات من القرن الماضي هكذا: هناك لسانيون يتصورون أنفسهم أمام لسان ونظرية. ويطلبون من النظرية أن تقدم لهم طريقة لاكتشاف نحو هذا اللسان. وهناك آخرون يتصورون أنفسهم أمام نظرية ومجموعة من الأنحاء المقترحة لنفس اللسان. ويطلب من النظرية تقديم طريقة لاختيار النحو الملائم لهذا اللسان من بين هذه الأنحاء. في الحالة الأولى، تزودنا النظرية بطريقة لاكتشاف النحو. وفي الحالة الثانية، تزودنا بطريقة لتقويم الأنحاء. الطريقة الأولى هي التي عمل بها الوصفيون، وهي طريقة طموحة جدا لكنها مستحيلة؛ إذ " يبين البحث الدقيق أن النظرية الجيدة لا تقدم سوى طريقة لتقويم الأنحاء[1]." ويقول في موضع آخر:" لقد استطاعت البنيوية أن توسع كثيرا من دائرة المعلومات التي أصبحنا نمتلكها، وأن تؤمن الكثير من المعطيات... كما حققت للخطاب اللساني درجة من الدقة، لكنني أعتقد أن مساهمتها الرئيسية هي التي جرت عليها الكثير من النقد اللاذع. وفي هذا مفارقة. إنني أقصد، هنا، محاولتها الجادة والصارمة لبناء طرق الاكتشاف وتقنيات التقطيع والتصنيف التي كان صوسور يتكلم عنها. فلقد عرفت هذه المحاولة إخفاقا، وهو ما يتفق عليه الناس اليوم. سبب هذا الإخفاق هو أن هذه التقنيات ارتبطت بالظواهر ذات العلاقة بالبنية السطحية. ولم تستطع، نتيجة لذلك، أن تكشف عن الميكانيزمات التي تقف وراء المظهر الإبداعي للاستعمال اللغوي[2]." وبناء عليه، " فإن هدفنا النهائي هو تقديم أداة موضوعية، لا حدسية، تمكن من تقويم النحو المعطى ومقارنته بالأنحاء المقترحة[3]." من هنا جاءت الدعوة إلى الاهتمام بعلم اللغة بدل الاهتمام باللسانيات المحضة، أو

1- Chomsky (1957)، ص. 58. الهامش (3).

2- Chomsky (1968)، ص. 40.

3- Chomsky (1957)، ص. 62.



بعبارة أخرى، الاهتمام بميطالسانيات تمكن من بناء نظريات لتقويم الأنحاء بدل الاكتفاء بالبحث عن طرق لاكتشاف الأنحاء. ويمكن القول، مع كورني: " إن النحو التوليدي ولد في أحضان عجز البنيوية عن صياغة وصورنة طريقة لتقويم الأنحاء صياغة وصورنة واضحتين. وقد بدا، في بعض اللحظات، أن النظريات الشومسكاوية تلتقي، مبدئيا، مع اهتمامات الأوربيين الذين توجهوا نحو بناء نظرية للغة ونحو تحديد موضوع البحث. لكنها تقف في وجه الوصفيين الأمريكان بخصوص الصياغة الواضحة لصورنة تقنيات البحث[1]."

ج) عدم قابلية التفنيد. من بين الوسائل الإبستمولوجية التي استعملها تشومسكي في تقويم النظرية البنيوية بصفة عامة، والتوزيعية بصفة خاصة، مبدأ قابلية التفنيد. وهو مبدأ استقاه من بوبر[2]. ففي بعض الأحيان تم قياس المسافة التي تفصل بين التصور الباكوني الذي تشتغل به التوزيعية وبين التصور الكبليري الذي يؤطر أعمال التوليديين بواسطة درجة قابلية التفنيد. ويمكن تقريب هذا المبدأ بواسطة التعريف التالي:"...نفهم عادة أن عمل العالم ليس سوى بحث عن الحقيقة. إلا أن الحقيقة العلمية هي دائما مؤقتة، لأنه ليس هناك ما يضمن أنها ستظل صحيحة مهما تغير المكان والزمان والمقاييس. ليست الفرضية العلمية، إذا، سوى مجرد اقتراح يحتمل أن لا يتأكد. البرهنة على خطإ النظرية أمر بسيط وواضح جدا... وعلى العكس من هذا، فإنه للبرهنة على صحة النظرية يجب أن نكون قادرين على البرهنة على أن أي خطوة من الخطوات لن تتعارض مع الوقائع. هذه البرهنة تقوم على استقراء غير محدد وغير نهائي. وعليه، فإننا لا نملك أية وسيلة تمكننا من القول إن نظرية ما هي نظرية صحيحة. ما يمكننا القيام به هو البرهنة على أن النظرية خاطئة أو أنها ليست خاطئة مؤقتا. فالعمل العلمي، إذا، هو البرهنة على خطإ النظريات. وإذا استطاعت النظرية أن تجتاز اختبارا ما فإن ذلك لا يعني أنها صحيحة

1- Corneille (1976)، ص. 59.

2- انظر Popper (1959).



على الدوام. والنظريات القابلة للتفنيد هي وحدها النظريات العلمية، أما النظريات غير القابلة لذلك فإنها ميتافيزيقا كما يرى بوبر[1]."

وهكذا، وبفضل مبدإ قابلية التفنيد البوبري، سيتمكن التوليديون من قياس درجة علمية المواقف البنيوية؛ فقد بدا لتشومسكي أن اللسانيات الوصفية لا تنتج نظريات وإنما تعليقات؛ " إن ما يميز النحو التوليدي عن اللسانيات الوصفية أنه في اللسانيات الوصفية تقوم التعليقات بشكل قبلي، بينما في اللسانيات التوليدية يجب أن تكون للفرضية قيمة تفسيرية، وأن تكون دقيقة بما فيه الكفاية، حتى يمكن تفنيدها، وأن لا تتناقض مع فرضيات النموذج[2]." وفي هذا الإطار، وبعد المحاولات العديدة لاختبار ومقارنة أسس نظرية النبر التي تقدم بها كل من تشومسكي وميللر مع طريقة التحليل الفونولوجي عند هاريس، مثلا، استنتج بودون، اعتمادا على مبدإ بوبر أعلاه، أنه مما لاشك فيه أن نظرية النبر في الإنجليزية، كما اقترحها تشومسكي وميللر، هي نظرية قابلة للتفنيد من جهة أنها لو كانت خاطئة لقادت إلى استنباط نبر هذه القطعة أو تلك استنباطا غير صحيح. مقياس مباشر من هذا النوع لا وجود له في نظرية هاريس رغم أنها تمكن من تفسير عدد من الوقائع المرتبطة بجغرافيا اللـهجات وبالتغير الدياكروني[3]."

حينما تشترط الهاريسية وجود المعطيات بشكل قبلي، والعمل على اكتشاف النحو انطلاقا منها، وتتصور أن العمل اللساني تحليلي بالأساس، فإنها تقصي نفسها من مجال التفنيد الذي يعتبر، في نظر البوبرية، شرطا من شروط العلمية، لأنها لا تعي أن المعطيات وتحليلها من أجل اكتشاف النحو هي غايات النظرية اللسانية لا مقدماتها. جعل اللسانيات تمشي على رأسها هو ما فعلته الوصفية الهاريسية. وإذا كان هاريس يتصور أن التوزيع معطى أول، فإن تشومسكي يتصوره واحدا من الموضوعات التي يجب البحث عنها. عند هاريس: النص معطى،

1- Corneille (1976)، ص. 47.
2- Chomsky (1957)، ص. 22.
3- R. Boudon (1968)، ص.ص. 191-192.

وما علينا إلا تحليله. بينما الصحيح هو البحث عن القواعد التي على أساسها اعتبر النص نصا. معنى كل هذا أن الهاريسية تظل، في نظر التوليديين، خارج النظريات اللسانية المشمولة بمبدإ قابلية التفنيد.

1. 1. 2. عدم الكفاية المنهجية

اشتهرت البنيوية التوزيعية بالجري وراء تحقيق الموضوعية في الوصف الذي جعلته مناط البحث اللساني حتى قيل:" إنها منهج يقوم على تقطيع وإعادة كتابة ميكانيكية للنص العينة[1] "، و ذلك في إشارة إلى أن الوصف نفسه لا يتعدى القيام بإجراء عمليات شبيهة بالتمارين المدرسية، حيث لا توجد لدى الواصف أو المحلل أية خلفية نظرية واضحة ومبرهن عليها تؤطر ما يقوم به من عمل. لكن، و بالرغم من ذلك، فإن الموضوعية عند التوزيعيين ليست سوى الوصف المخلص للواقع الملاحظ والرفض المطلق للتأويلات القائمة على التأمل النظري.

صحيح أن اختيار الهاريسيين للوصف التركيبي للعبارات اللغوية دون الوصف الدلالي، مثلا، كان بدافع الرغبة في تحقيق مبدإ البساطة، لأن مجال التركيب هو، بالفعل، أكثر بساطة من مجال الدلالة، لسبب واحد، على الأقل، هو إمكانية الصورنة في الأول وصعوبتها، وربما استحالتها، في الثاني. لكن الطريقة التي مورس بها هذا الوصف، وهي مجرد طريقة ميكانيكية، والأهداف المتوخاة منه، وهي التعرف على اللسان في حقيقته، هي التي جعلت المنهج الهاريسي، بصفة عامة، يعاني من عدم الكفاية. فليس الوصف بقادر على الكشف عن حقيقة اللسان، وإنما الذي يمكنه أن يساعد على ذلك إنما هو التفسير. فبدل الاهتمام بوصف البنيات، كان يجب أن يهتم بمعرفة المتكلم التي تقف وراء إنتاج تلك البنيات. وهو ما يراه التوليديون الذين لم يكن هدفهم هو توجيه النقد إلى الطريقة التي مورس بها الوصف، وإنما هو تفنيد الفرضية الوصفية أصلا باعتبارها فرضية يعول عليها في الكشف عن حقيقة اللغة، خاصة إذا ربط الوصف نفسه بالواقع

1- Corneille (1976)، ص. 48.

الملاحظ. إذا، وحتى لو تجاوزنا عدم كفاية أوصاف الوصفيين على المستوى التقني، فإن عدم الكفاية الوصفية يظل قائما مع ذلك، خاصة حينما ننظر إلى المسألة من جهة ميطالسانية. لأن التوزيعيين لم يستطيعوا في أي وقت من الأوقات أن ينشئوا نظرية لسانية بالمعنى الشومسكاوي البوبري للنظرية، ولأنهم أنفقوا كل جهودهم في بناء طرق للوصف بقناعة لا تختلف عن قناعة القدماء بأن القواعد والقوانين التي يتم بها الوصف الشكلي للعينات الملاحظة هي نفسها النحو. لكن الذي ظل غائبا عن الوصفيين هو ما طرحته التوليدية في أحد نماذجها (النموذج المعيار) من أن للجمل بنيات سطحية واخرى عميقة، وأن الأولى ترتبط بالثانية، وأن الثانية هي التي تحدد الأولى، وأن الوصف الصحيح لا يمكن أن يتحقق خارج هذا الاعتبار. فهل باستطاعة التوزيعي، وهو صاحب الدقة في الوصف كما يدعي، أن يدرك أن الجملتين (1) و (2)، فيما يأتي، ليستا سوى بنيتين سطحيتين لبنية عميقة واحدة هي (3):

(1) جاكوبسن اكتشف السمات المميزة

(2) السمات المميزة اكتشفت من قبل جاكوبسن

(3) اكتشف جاكوبسن السمات المميزة

وأن يدرك أن (4) بنية ملتبسة؛ فهي بنية سطحية للبنية العميقة (5) وللبنية العميقة (6) في نفس الوقت:

(4) نَقْدُ هاريس لاذع

(5) نَقَدَ هاريس غيره نقدا لاذعا

(6) الغيرُ نقد هاريس نقدا لاذعا

إن اهتمام الوصفيين بالسطح هو الذي يقف وراء تحديد هدفهم وهو بناء جهاز لوكاريتمي يمكن من تقديم أوصاف للبنيات السطحية. هذا الجهاز مبني على فرضية واحدة هي أن ما هو موجود بالفعل إنما هو السطح فقط، أما ما يمكن أن يكون عمقا فإنه ليس سوى نتاج من نتاجات العقل الميتافيزيقي أو العقل المحض. أما العقل العملي، الذي يعملون وفقه، فإن دوره لا يتعدى، عندهم، التقصي والتنظيم والتقسيم والتبويب... وهي أقصى ما يتطلبه الوصف. مطلب بناء جهاز لوكاريتمي



بهذا الشكل نجده واضحا عند هاريس وكذا عند هوكيط الذي حدد هدفه منذ البداية في " تطوير عمليات صورية يمكن بواسطتها الوصول، انطلاقا من الصفر، إلى الوصف التام للسان من الألسن. والحقيقة أن الأمر ليس سوى مجرد وصف بعض الخصائص الصورية للتحليل المورفولوجي[1]."

يرفض تشومسكي رفضا مطلقا الموقف الوصفي المرتبط بالعينة. وقد بين، عبر كتاباته، ومن خلال نظريته التي ظل يدافع عن نواتها الصلبة رغم تغير نماذجها أو أحزمتها الواقية، بتعبير لاكاطوس، عدم كفاية المناهج التصنيفية، خاصة فيما يتعلق بقضايا الإبداع والنحوية واكتساب اللسان... كما بين، بشكل لا يقبل الجدل، أن التحليل البنيوي عموما لا يتقصى كل مظاهر السلوك اللغوي، محدثا بذلك تغييرات جذرية في التصور التقليدي للقيود الموضوعة على المعرفة وعلى كفاية الوصف العلمي.

تجد اللسانيات الوصفية، كما الفينومينولوجيا تماما، أصولها في السؤال الديكارتي: ما درجة اليقين التي يمكن أن تتوفر عليها معارفنا؟ وفي السؤال الكنطي: ما شروط إمكان العلم؟ ولم تتردد في الإعلان عن أن اليقين لا يمكن أن يتوفر إلا مع التجربة، وذلك بالارتباط بالمحسوس والملاحظ والسطحي وبالاكتفاء بالوصف القائم على التصنيف بما يفرضه ذلك من تقيد بتقنيات الاستقراء والقياس والمقارنة... أما إمكان المعرفة العلمية فإنه مشروط بالاهتمام بالظواهر وعدم تجاوزها، وذلك بوصفها وصفا لا يقوم على أفكار مسبقة (نظريات) ولا يلجأ فيه إلى قرارات التأويل والتفسير وما إلى ذلك مما يعتبر إجراء تأمليا أو فلسفيا. ولن نحتاج إلى ما يؤكد، مرة أخرى، أن موقفا كهذا تربطه علاقات قوية بالتيار الوضعاني سواء أكان باكونيا أم فينومينولوجيا أم فيينيا أم حتى فلسفة حتمانية، وهو ما يهاجمه تشومسكي بشدة. " فليست المسألة هي أن نسق تشومسكي العقلاني الذهني يتناقض مع النسق الأمبريقي_البيهافيوري للتوزيعيين، وإنما المسألة

1- Chomsky (1957)، ص. 58، الهامش (3).



في الموقف الحتماني (Déterminisme) للميكانيكيين[1]." وهو موقف مطعون في وروده.

ومن مظاهر ارتباط الوصفيين بالظاهرة، باعتبارها كيانا محسوسا أو فيزيقيا، تشكيكهم في واقعية البنيات الذهنية بمختلف مظاهرها، كالمعرفة المضمرة ذات الأصل الفطري أو الطبيعي، وكالقدرة على الإبداع، وكالبنيات العميقة... وما إلى ذلك من الأمور التي لا يمكن أن يشملها الوصف الفيزيقي. وهو تشكيك رد عليه تشومسكي بالقول:" إن السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان هناك أصل فيزيقي للبنيات الذهنية سؤال لا معنى له؛ لأنه، وعلى مدى تطور العلم المعاصر، تم إغناء تصور الفيزيقي شيئا فشيئا إلى أن اصبح يغطي كل ما يرتبط بالعقل بشكل يمكن معه القول: عندما نبدأ بفهم خصائص العقل، فإننا لا نفعل شيئا سوى إغناء مفهوم الفيزيقي بكيفية تجعله يغطي كل هذه الخصائص أيضا[2]."

اكتفاء التوزيعيين، في أوصافهم، بجمع المادة اللغوية وإخضاعها للتحليل يعتبر، في نظرهم، إجراء ذا دلالة أو ذا تمثيلية، وهو ما يفنده تشومسكي الذي يرى أن ما هو دال وتمثيلي إنما هو حدوس المتكلم عن لسانه. وهي حدوس تتمثل في الأحكام التي يطلقها على السلاسل والتراكيب اللغوية التي يقر بأنها تنتمي أو لا تنتمي إلى لسانه، وليس وصف الوحدات اللسانية، ولكنه تخصيص الملكة اللغوية للمتكلم وطرق اكتسابها. فما يجب تخصيصه، مما يرتبط بهذه الملكة، قدرة المتكلم، العربي مثلا، على التمييز بين ما ينتمي إلى اللسان وما لا ينتمي إليه من جمل، مثل:

(1) أ) تم استنباط القاعدة بواسطة النحوي

ب) النحوي استنبط القاعدة

(2) أ) تم استنباط القاعدة عن طريق الصدفة

ب)* الصدفة استنبطت القاعدة

1- Corneille (1976)، ص.247.

2- J. Lyons (1970)، ص. 159.



والسؤال الذي لا يطرحه الهاريسيون، وبالتالي لا يجيبون عنه، هو:"ما السر في أن المتكلم يرفض (2 ب) رغم أن لها نظيرا هو (1 ب) إذا كان يستعمل منطق القياس" ؟ ويمكن طرح السؤال بصيغة توليدية حتى يمكن إفحام الهاريسيين: إذا كنتم تعتمدون القياس طريقة لاكتشاف القواعد (النحو)، أفليس من المفروض أن لا ترفض(2 ب) لأنها مقيسة على(1 ب) الصحيحة ؟ وإذا حصل ذلك فإنه سيكون مجانبا للحقيقة طبعا.

ولذلك، فإن تغييب سؤال المعرفة، وهو سؤال نظري، من جهة، والتمسك بسؤال القياس، وهو سؤال تقني، من جهة أخرى، هما معا موقفان لا يؤديان إلى اكتشاف النحو الذي هو، في نهاية المطاف، ليس سوى ما يعرفه المتكلم عن لسانه. ألا تعتبر المعرفة المستبطنة لدى المتكلم فرضية واردة إذا ؟ وهل يمكن قيام نظرية لسانية خالية من مثل هذه الفرضية؟ هذه هي الأسئلة الاستراتيجية التي عصفت بالهاريسية البلومفليدية ذات الأسس البيهافيورية وأطاحت بعرشها، كما سبق لبوبر، من جهته، أن أطاح بعرش الوضعانية بصفة عامة. لقد اتهم تشومسكي هذا التيار اللساني بأنه يعتمد على تصورات خاطئة وفقيرة عن النشاط اللغوي. ولذلك اعتبره عديم الفائدة، ودعا إلى تأسيس علم نفس لساني جديد يعتمد الفرضية الذهنية بديلا عن علم النفس اللساني البيهافيوري الذي يعتمد على فرضية المحيط.

ويبدو لتشومسكي أن من الأسباب التي دفعت الوصفيين إلى الارتياب في القول بفرضية المعرفة المضمرة هو عجزهم عن الوصول إلى عزل وتجريد هذا النسق المعرفي الذي نسميه اللسان عن أنساق وأصناف أخرى من السلوك تتداخل معه عند إنجاز الكلام. ويرى أنه من الضروري " القيام بعزل القدرة اللسانية، كنسق، عما يتضمنه السلوك من أنساق أخرى، والانتباه إلى أن هذا النسق لا يتحقق في السلوك بكيفية مباشرة أو بسيطة. ويختلف نسق القدرة هذا اختلافا نوعيا عن كل ما يمكن وصفه بمفاهيم المنهج التصنيفي المعتد في اللسانيات البنيوية أو بمفاهيم السيكولوجيا (مثير/ استجابة) [1] أو حتى بمفاهيم أكثر تطورا كالمفاهيم التي

1- "بالرغم من أن استعمالنا للغة يتلاءم مع المواقف المختلفة، فإنه ليس خاضعا لظرفية المثيرات."Chomsky (1980)، ص. 209.



تقدمها النظرية الرياضية المعتمدة في نظرية التواصل أو التي تقدمها نظرية الآلات الذكية[1]."

إن مسألة عزل النسق وتجريده مسألة ترتبط مباشرة بكفاية أخرى هي الكفاية الصورانية. وهي كفاية ذات أصول تصورية قبل أن تكون منهجية. فإذا كانت الوصفية لم تتوصل إلى تجريد وعزل النسق المعرفي اللغوي، فإنها هي التي لم تكن ترغب في ذلك. وذلك حتى لا تتناقض مع نفسها. فالذي اختار أن يتعامل مع الواقع المباشر، كالكلام، لابد وأن يقع ضحية عدم الانسجام، لأن الكلام مجموعة من الأنساق ليس النسق اللساني سوى واحد منها. وكان الأجدر أن يسموا تعليقاتهم تعليقات حول الكلام وليست نظرية للسان.

وأمام عجز الوصفيين عن الصياغة الصورية لأوصافهم، لم يكتف تشومسكي بتفنيد أصولهم المنهجية وإنما تعدى ذلك ليفند أصولهم التصورية أيضا، ليصل، في النهاية، إلى نتيجة لخصها كورني بقوله:" إنه لكي يكون وصف مظاهر الإنجاز صحيحا ومرضيا، فإنه لابد من تجاوز البيهافيورية الصرفة التي طغت على أعمال الوصفيين. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بافتراض_وجود بنيات عميقة مضمرة[2]." ثم يعلق، متضامنا مع تشومسكي:" ما يلفت الانتباه في اللسانيات المعاصرة ليس هو مغالاة الصورانيين الأمريكان، ولكنه، على العكس من ذلك، هو احتشامهم الكبير [تجاه الصورنة]؛ فالواقعية العلمية ليست فقط هي ملاحظة الوقائع ووصفها وصفا دقيقا، وإنما هي عمل يتطلب، أيضا، تأويل تلك الوقائع تأويلا ملائما لنتوصل إلى تعميمات مفيدة. هذه المهمة لا تتحقق إلا بالتجريد والصورنة[3]." ويعلق أحد التوليديين الأوربيين: " إن الدرس الذي يمكن استخلاصه من لسانيات اليوم هو ذلك الذي يقول: إن معرفة الواقع يجب أن تمر عبر الصورنة

1- Chomsky (1968)، ص. 16.

2-Corneille (1976)، ص 236.

3- نفس المرجع والصفحة.



المتقدمة. فالواقعية التي تتعارض مع التوجهات اللسانية الحديثة ترتبط بصياغة توقفت في الطريق[1]."

وفي الختام، لابد من الإشارة إلى أن تشومسكي الذي اتخذناه نموذجا للوجه الرافض للموقف البنيوي، خاصة في صورته البيهافيورية التي تبناها بنيويو أمريكا، أمثال بلومفيلد وهاريس وهوكيط وبلوخ، كان على وعي بتعدد المواقف البنيوية التي اختصرها في موقفين اثنين: " إن عبارة اللسانيات البنيوية تحيل على عدد هائل ومتنوع، بل وربما متناقض، من المواقف؛ فهي تصدق على أعمال أولئك الذين انبهروا بتنوع الألسن واختلاف بعضها عن بعض، كأعمال البلومفليديين. كما تصدق على أعمال ركزت على ما هو مشترك بين هذه الألسن مبرزة الكليات اللغوية العميقة، كأعمال جاكوبسن الفونولوجية[2]." ولم ينس، كلما أتيحت الفرصة، الإشادة بمنجزات البنيويين، خاصة منها تلك التي تخدم إستراتيجيته وتدعم فرضياته، كقوله في واحدة من هذه الفرص:" تكمن أهمية اللسانيات البنيوية في كونها توفقت في إضفاء الوضوح على المقاربة اللاذهنية للغة...، وفي كونها قدمت من الحجج والبراهين ما يمكن أن يساعد على تقديم دليل مقنع نسبيا على عدم كفاية هذا النوع من المقاربة في دراسة الفكر[3]."

1. 2. بار- هيلل أو مأزق التصور الوضعاني للغة:

بخصوص تحديد موضوع الدرس اللساني، خاض تشومسكي، ومنذ البداية، حربا ضارية على عدة جبهات أهمها:

- الجبهة التي فتحها على البنيويين الوضعانيين المجتمعين تحت لواء التوزيعية الأمريكية بزعامة بلومفيلد الذي بنى لسانياته على أسس علم النفس السلوكي الواطسوني كما تطور على يد سكينر. وهي جبهة دار فيها

1- N. Ruwet (1964)، ص. 310.

2- Chomsky (1977)، ص. 93.

3- Chomsky (1968)، ص. 100.



النقاش أساسا حول طبيعة اللسان بين كونه سلوكا ينضبط لتقنية المثير والاستجابة مثله مثل بقية السلوكات البشرية، وبين كونه معرفة ذهنية ذات أساس فطري أو طبيعي في البشر.

- الجبهة التي فتحها على فلاسفة فيينا الذين تصدر الدفاع عنهم العالم الرياضي والمنطقي دي ياهوشوا بار-هيلل de Yehoshua Bar-Hillel (1915-1975) الذي اشتغل على بناء الأنحاء الصورية والذي تردد اسمه كثيرا في أعمال تشومسكي التأسيسية، بدءا من عمله الموسوم The Logical Structure of Linguistic Theory الذي ظهر عام 1955[1]. كان موضوع النقاش في عمقه هو الأطروحات العامة لمناطقة فيينا حول العلاقة البنيوية بين العالم الواقعي والبنيات المنطقية الصورية وطبيعة المعرفة العلمية، أو بين عناصر المثلث الفييني كما نقترح تسميته، وهي العالم والمنطق والمعرفة. وباختصار، فإن الموضوع كانت له علاقة قوية باللغة؛ لغة العلم واللغة الطبيعية كما سيتضح.

لقد تميزت أعمال الفيينيين، أساسا، بالتركيز على مسألة المعنى ثم البحث عن اللغة التي باستطاعتها أن تنقله بأمانة. واستقر الرأي على أن المعنى لا يكون معنى إلا إذا كان له ما يعادله في العالم الواقعي. وقبل ذلك، قسموا المعرفة إلى نوعين:

- معرفة نظرية لغوية؛ وهذه تكون جميع قضاياها من النوع التحليلي أو الطوطولوجي الذي لا يحيل سوى على نفسه ولا تختبر دلالته إلا بمخبر الانسجام وعدم التناقض الداخلي. وينتمي إلى هذا النوع كل من الرياضيات والمنطق.
- معرفة تجريبية، وتكون جميع قضاياها قضايا تركيبية، لأنها تخبر عن ظواهر العالم الواقعي.

1- لم يتم نشر هذا العمل إلا عام 1975 كما أكد على ذلك تشومسكي نفسه. انظر تشومسكي (1977) ص. 123.



النوع الأول من المعرفة هو موضوع العلوم الصورية، بينما النوع الثاني هو موضوع العلوم التجريبية. وما عدا ذلك يعتبر أمرا غير وارد. ومهمة الفلسفة، حينئذ، وكما يحددها فيتجنشتاين، هي تحليل القضايا لمعرفة من أي نوع هي؛ أهي تحليلية أم تركيبية. وليست مهمتها إنتاج القضايا الذي يعتبر من اختصاص العلم. وتم التركيز على القضايا التركيبية التي تخبر عن العالم، وتم تحليلها باعتبارين:

- باعتبار أن لها معنى أو ليس لها معنى،
- باعتبار أن هذا المعنى يحيل على واقع متحقق أو يمكن تحققه، أو أنه لا يحيل.

وبموجب مراعاة هذين الاعتبارين تم إقصاء الأقوال الخالية من المعنى أو تلك التي لا تحيل على واقع موضوعي كالأقوال الميتافيزيقية التي اعتبرت قضاياها زائفة لأنها ليست من باب تحصيل حاصل كما هي القضايا الرياضية والقضايا المنطقية، أو لأنها تحيل على واقع لا وجود له. ولذلك، ومن هذه الجهة، اعتبرت كل المعارف التي تخوض في قضايا لا يمكن التحقق من وجودها الفعلي معارف ميتافيزيقية يجب التخلي عنها.

يدخل بوبر هذا النقاش من باب مبدإ التحقق، وبالضبط من مبدإ قابلية_التحقق. ويرى أن شرط التحقق الذي اشترطه الفيينيون في صحية القضايا لا يمكن أن يتوفر بالنسبة لجميعها ومنها الكثير من القضايا العلمية نفسها. وبما أن الأمر كذلك، فإنه من الأنسب، في نظر بوبر، البحث عن وسيلة أخرى للتثبت من صدق الأقوال ومن علمية النظرية بالأساس. ولن تكون هذه الوسيلة سوى البحث عما يفند أقوالنا ونظرياتنا (مبدأ التفنيد). وهي وسيلة ستسمح بأن نقبل، في ميدان العلم، حتى تلك القضايا التي لا تحيل على واقع متحقق. ومعلوم أن غالبية النظريات العلمية هي من هذا النوع. وعليه، فبدل القول:" إن النظرية العلمية هي تلك التي تكون قابلة للتحقق"، يجب القول:"إن النظرية العلمية هي تلك التي تكون قابلة للدحض والتفنيد"، بحيث نبحث في الواقع (أو في التجربة) عما يدحض النظرية لا عما يعززها. وبدل البحث عن صدق القضية يجب البحث عما يكذبها[1].

1- انظر التفاصيل في K. Popper (1959) خاصة الفصل الخامس. ص.ص. 76-91. وكذا D. Lecourt (1981) خاصة الفصل الثاني. ص.ص. 87-140.



وبخصوص اللغة التي باستطاعتها التعبيرعن القضايا ذات المعنى، يجمع الفيينيون، أو الوضعانيون الجدد، على أن اللغة الوحيدة المرشحة لذلك هي اللغة التي يتكلمها العلماء، وأفضل ما يمثلها هو لغة المنطق، لأنها لغة مؤسسة على المواضعات بخلاف اللغة الطبيعية التي يعتبر غياب المواضعات عنها هو المفسر الأول لعجزها عن إقصاء الأقوال الميتافيزيقية التي تملأها كما يتصور الوضعانيون[1]. ولذلك دعا كارناب إلى بناء تركيب (Syntaxe) منطقي بدل التركيب النحوي للعبارة. الأمر الذي سيترتب عنه في مرحلة لاحقة أن نحو العبارة لا يعني إلا بنيتها المنطقية، وذلك لتحقيق التناظر الذي ظل وسيظل مفتقدا بين الصورة النحوية والصورة المنطقية[2]، " وأن يتعاظم الاهتمام ببناء منطق صوري يصبح بموجبه نحو اللسان الطبيعي نحوا يصور العبارات بشكل يرمز إلى صورها المنطقية[3]". كما طالب كارناب " ببناء علم عام للاستدلال يستخدم قوانين العالم الخارجي كما تقدمها الفيزياء وقوانين اللغة كما يحددها المنطق مادام أن اللغة من طبيعتها أن تتكلم عن نفسها وعن العالم في نفس الآن[4]". إن اهتمام الفيينيين الكبير بمسألة المعنى هو الذي أخفى عنهم إمكانية قيام نحو، بعيدا عن الدلالة، كما أوقعهم في خطإ فادح حينما تصوروا أن اللغة التي تستحق أن تكون موضوعا للدرس اللساني هي اللغة العلمية وتمثلها لغة المنطق التي يصفونها بالكمال لا اللغة الطبيعية، وذلك

1- أن يقال:"إن اللغة المرشحة لنقل القضايا العلمية هي لغة المنطق"، قول لا نقاش فيه ولا اعتراض عليه. لكن أن ينسب إلى هذه اللغة أيضا القدرة على نقل أحاسيس الناس وعواطفهم ورغباتهم، أو لِنَقُل: القدرة على تحقيق التواصل فيما بينهم وأن تجرد اللغة الطبيعية من ذلك، فهذا أمر لم يقتنع به أحد سوى الفيينيين الذين سقطوا، في النهاية، في علموية مبتذلة عاقت أفكارهم عن التطور والانتشار.

2- نجد في النحو أكثر من بنية واحدة للتعبير عن قضية واحدة والعكس، أي ما سيسميه تشومسكي البنية العميقة والبنيات السطحية.

3- R. Blanché (1957) ص.ص. 14-16.

4- G/P (1981) ص. 128. مثل هذه الأفكار هي مجرد إعادة لأفكار ليبنتز وفريجة المبهورين بعظمة المنطق.



قياسا على رفضهم للفلسفات التي تتناول بالدراسة قضايا غير القضايا العلمية. وهو ما ألب عليهم الخصوم وأزم موقفهم فصار هدفا لكثير من الدحض والتفنيد.

صدرت المبادرة الأولى (مبادرة الدحض) من جماعة أكسفورد، ممن يسمون بأصحاب الفلسفة التحليلية، أمثال **Russell** ولودفيج فيتجنشتاين **Ludwig Wittgenstein** (1889-1951) و **Austin** و **Grice** وبروكا بول **Broca Paul** (1846-1921) وجون روجيرز سورل **John Rogers Searle** (1932)، الذين شاطروا، في البداية، الفيينيين قناعتهم بأن الأقوال الميتافيزيقية عارية من المعنى، وبأن الموضوعية تقتضي الربط بين العبارة اللغوية والعالم الواقعي. إلا أنهم عارضوهم في مسألة إقصاء اللغة الطبيعية عن دائرة الاهتمام اللغوي أو اللساني، وتمت ترجمة ذلك فيما أقدموا عليه من إسهام كبير في بناء نظرية للدلالة الطبيعية كما فعل **J.L. Austin** بالخصوص. ولم يستطع التخفيف من حدة هذا التعارض بين التحليليين والمنطقيين ما أقدم عليه **K. Bühler** الفيلسوف اللغوي النمساوي الذي جمع بين الاهتمام بالممارسة اللغوية (الإنجاز) والنوايا التواصلية (القصد) من محاولات التقريب بين إخوة الأمس بعد أن أدخل حلقات وسطى بين ما أسماه الدلالة الطبيعية والدلالة الاعتباطية[1].

إلا أن المبادرة الثانية كانت أعنف وأقوى من الأولى، لأنها صدرت عن المعنيين المباشرين بالأفكار الوضعانية، ونعني بهم العقلانيين الذين ناب عنهم، في هذه المواجهة، كل من بوبر الإبستمولوجي وتشومسكي اللساني الذي سيتوجه بالتفنيد إلى مواقف الفيينيين الذين يمثلهم حينها بار – هيلل يندرج موقف بار- هيلل، وبشكل واضح، ضمن منطق كارناب الذي طوره ألفرد طارسكي Alfred Tarski (1902-1983) والذي يقوم على مبدإ التركيب المنطقي للغة حيث نحو التعبير (التركيب) هو صورة أو إسقاط لنحو التفكير (المنطق). لقد دافع بار- هيلل، وبحماس شديد، عن ضرورة التوجه إلى بناء نظرية صورية للتراكيب اللسانية

1- انظر ع.ع. لحكيم بناني (2003) ص. 113.

بعيدا عن أي اعتبار لمسألة المعنى. وبذلك يكون قد أحيا الارتباط بفيتجنشتاين الأول[1] بشكل اعتبرت فيه اللسانيات جزءا من المنطق. ومن الواضح أن الدراسات التركيبية، بعد هذا، ستجد نموذجها الأكفى في المنطق الرياضي وفي لوكاريتم المحمولات والعلاقات القضوية[2]. وسيلخص بار- هيلل تصوره للنسق اللساني في أنه عبارة عن نسق مزدوج من القواعد، هي:

- قواعد الصياغة التي تتكفل بتوليد القضايا السليمة تركيبيا.
- وقواعد التحويل التي تتكفل بضبط العلاقات الاشتقاقية فيما بين القضايا.

ويرى أن النسق الثاني يمكن أن يكون أساسا لمشروع بناء نظرية في الدلالة. وهو أساس قائم على ما طوره مناطقة المدرسة البولونية، طارسكي خاصة، في مجال التركيب المنطقي. " وحسب بار- هيلل، فإن علم الدلالة لن يعود، منذ الآن، هو تلك الخردة كما كان يسمى طيلة الربع الأول من القرن العشرين، حتى إن بلومفيلد قد نفره. فهو علم أصبح قادرا على الدراسة المنهجية للأنساق الرمزية وللمنطق الرياضي، مثله في ذلك مثل علم التركيب[3]". ويخبرنا بار- هيلل بأن النحو (أو التركيب) والمنطق (أو التحويلات التي تنطبق على التركيب) قد انتهيا معا، عند طارسكي، إلى تركيب منطقي[4].

1- يميز مؤرخو فيتجنشتاين عادة بين مرحلتين في تاريخ فكره؛ المرحلة التي تميزت بدفاعه المستميت عن الدلالة المنطقية، ويسمونها مرحلة Tractatus في إشارة إلى المرحلة التي يؤرخ لها كتابه الأول Tractatus Logico-philosophicus الذي ظهر عام 1921 في طبعته الإنجليزية. والمرحلة التي تميزت بتراجعه عن كثير من الأفكار التي تربطه بالفيينيين وبتبنيه لأفكار الفلاسفة التحليليين. وهي المرحلة التي يسمونها بمرحلة les investigations في إشارة إلى المرحلة التي يؤرخ لها كتابه les Investigations Philosophique الذي ظهر عام 1945. انظر G/P (1981) على سبيل المثال.

2- انظر التفاصيل في المرجع السابق. ص. 134.

3- نفس المرجع والصفحة.

4- نفس المرجع والصفحة.



إن ما استهدفه تشومسكي بالذات من فتح هذه الجبهة هو تفنيد هذه الأنطولوجيا المنطقية التي تم تصور اللسان بناء عليها[1]. فبخصوص الربط بين اللسانيات والمنطق، يتبنى تشومسكي الموقف المنهجي الذي لم يتخل عنه أبدا. وسيرفض، بناء على النقد الذي سبق أن وجهه بوبر إلى الوضعانية الجديدة، أن يربط بين اللغة والمنطق ربطا أنطولوجيا كما فعل أتباع كارناب حتى صار للمناطقة واللسانيين على السواء نفس الموضوع. وينتهي به الأمر إلى التشكيك في إمكانية أن يكون التركيب المنطقي والدلالة الصورية القائمة على أسس رياضية موضوعين للدراسة اللسانية. وسيعود تشومسكي في عمل آخر إلى نفس الموضوع ليقرر أنه:" من الصحيح طبعا اعتبار المنطق أساسيا في صياغة النظريات. سواء أتعلق الأمر باللسانيات أم بغيرها من المعارف. لكنه ليس كذلك فيما يتعلق بموضوع اللسانيات ولا بالطريقة التي يعالج بها. وحتى لو قلنا إن المنطق قد أوصلنا إلى معلومات هامة حول استعمال اللغة [...]، فإن ذلك كله لا يمكنه أن يقنعنا بأن دراسة الخصائص الصورية للألسن الطبيعية يمكن أن تتم بنفس الكيفية التي تتم بها دراسة الخصائص الصورية للمنطق وللغات الاصطناعية[2]." كل ذلك فعله تشومسكي حتى يضمن الوجود المستقل لنحو اللسان الذي لازال إلى ذلك الحين قريبا جدا من تصور هاريس البنيوي[3]. وسوف يوجه كل قواه لإرباك خصمه الرئيسي بار- هيلل

1- انظر على سبيل المثال Chomsky (1954).

2- Chomsky (1955).

3- يشير G/P إلى " أنه، ولعدة اعتبارات، يمكن القول: إن Syntaxe Structures يعتبر صياغة لبعض النتائج اللسانية البنيوية (باستثناء بعض القضايا ومنها قضية اللبس). وهكذا يتغاضى تشومسكي، مؤقتا، عن بعض مظاهر البنيوية اللسانية ". (G/P (1981).ص. 136). وقد علق تشومسكي على هذا التغاضي فيما بعد؛ ففي كتابه Dialogues، يلتمس مبررا لذلك حينما تكلف ليفهمنا بأن طرق= =الاكتشاف التي يسلكها البنيويون الأمريكان يمكن فهمها بأنها نظرية تنتج النحو انطلاقا من المعطيات، حتى وإن كان هذا الفهم بعيدا عما يقوله البنيويون عن عملهم. إذ يقول:" إنني أؤكد أن هذا الفهم ليس فهمهم هم ولكنه فهمي أنا. وإنني لأعتبره مشروعا حتى وإن تناقض مع فهمهم لعملهم". Chomsky (1977). ص. 124



معتمدا استدلالات مناهضة للموقف المنطقي وساعيا إلى تفنيد هذا الموقف انطلاقا من ملاحظات وصفية قريبة من تلك التي تنسب إلى الفلسفة التحليلية.

لقد أعلن تشومسكي، وبطريقته المعهودة، عن الفرق الشاسع الذي يفصل بين الموضوع الفعلي للسانيات وبين الموضوع المعرفي الذي تسعى إلى بنائه. "وفي الرفض المبدئي للنزعة المنطقية الصرفة، وفي هذا الإحساس بالربط الملتبس الذي يقيمه المنطق الرمزي مع النظرية اللسانية، يتجسد الجانب المادي لأطروحة تشومسكي[1]." وحتى لا يخطأ غيرنا في فهم الدلالة الأولى لمرجعيات تشومسكي، نؤكد على أن عودة هذا الأخير، في بعض أدبياته، إلى الانتباه إلى أعمال بعض الفلاسفة التحليليين أمثال راسل لا تعني أبدا الرغبة في بناء نموذج منطقي للسان. وعلى أساس هذا الفهم يجب أن تؤول المفاهيم التوليدية التي قد يعتقد أنها ذات أساس منطقي كمفهوم البنية العميقة على الخصوص. " ومن أساسيات تشومسكي أن اللساني لا يبني أنساقا لسانية اصطناعية إلا بالمعنى الذي يصف به الفيزيائي سلوك الأشياء المؤمثلة في عالم اصطناعي. إنها الأمثلة إذا لا النمذجة[2]." ومن المعلوم أن اللغة الطبيعية، وهي موضوع اللساني، تختلف عن اللغة الصورية التي يرغب فلاسفة فيينا القياس عليها. فإذا كانت الثانية تقوم على أساس قيام علاقة ضرورية وصارمة بين الصياغة اللغوية والعالم، فإن اللغة الطبيعية تعتبر أداة تواصلية رديئة وتسكنها الأقوال الميتافيزيقية وتكون العلاقة بينها وبين العالم الخارجي علاقة غير مضبوطة ولا معنى لها. وهي مواصفات يرفض فلاسفة فيينا قبولها والتعامل معها. وفي إطار تمييزه بين اللغة كموضوع لساني واللغة كموضوع منطقي، ينفي تشومسكي أن تكون اللغة الطبيعية أداة تواصل أو ينظر إليها على أنها كذلك على الأقل[3]. لأن

1- G/P (1981)، ص. 137.

2- نفس المرجع والصفحة.

3- بخصوص التشكيك في القدرة التواصلية للغة، انظر النقاش الذي دار بين تشوتسكي و كل من Searle و Strawson في Chomsky (1975)، الفصل الثاني. ص.ص. 49-96.



من خصائصها الأساسية اللبس، وهو خاصية مرفوضة في لغة العلم التي هي موضوع التحليل المنطقي عند فلاسفة فيينا[1].

ولإثارة مسألة اللبس من طرف تشومسكي فائدتان؛ أولاهما التذكير بسمات التقليد الأوربي من أرسطو إلى بور- وريال وبالروابط الوثيقة التي تربط أفكاره بهذا التقليد، حتى إنه يمكن القول:"إن مفهوم البنية العميقة ذو أصول تعود إلى بور- رويال [2]". وهو ما أكد عليه تشومسكي نفسه في كل كتاباته الفلسفية أو الحجاجية. وثانيهما مناهضة النزعة المنطقية حتى يبين أن اللغة الطبيعية لا يمكن معالجتها بالطريقة المنطقية. و هكذا يبدو أن مسألة اللبس مسألة حاسمة في الاستدلال على التمييز بين اللغة الطبيعية وهي موضوع الدراسة اللسانية[3] واللغة الاصطناعية وهي موضوع الدراسة المنطقية. لقد تمت إثارة مفهوم اللبس، ومن ثم اعتماده كخاصية كبرى من خاصيات اللسان الطبيعي بني عليها اعتماد مفهومي البنية العميقة والبنية السطحية، بعدما تم إقصاء السياق، و نتج عن ذلك الاكتفاء بالجملة كوحدة في التحليل. هذا الأمر لم يثر اهتمام التواصليين الذين ظلوا، على اختلاف مناهجهم، متمسكين بأولوية السياق على الجملة، وفي أحسن الأحوال، بتكامل السياق النسقي مع السياق المقامي.

لقد استفاد تشومسكي في مسألة خصوصية اللغة البشرية من محاولات سابقة قام بها فلاسفة ونحاة قدماء حاولوا عبرها لفت الانتباه إلى بعض الخصوصيات التي لا تسمح بقياس اللغة الطبيعية على اللغات الاصطناعية. من هذه الخصوصيات ما عبر عنه بنفنيست بالحضور الإنساني في اللسان. وهو حضور يتجلى

1- يلاحظ G/P أن تشومسكي لا يثير الحديث عن خاصية اللبس إلا حينما يدخل في نقاش فلسفي للدفاع عن نظريته، كما يفعل وهو يدافع عن فرضية البنية العميقة مثلا. انظر G/P (1981). ص. 152.

2- نفسه. ص. 153.

3- نذكر بأن هدف اللسانيات، من وجهة نظر التصور التوليدي، هو بناء نظرية للخصائص الكلية للألسن الطبيعية. وبعبارة أخرى، إنه تخصيص مفهوم اللسان الطبيعي الممكن، وتسمى هذه النظرية حينئذ النحو الكلي. انظر Chomsky (1982) ص. 9.



في بعض الظواهر التي تعرفها اللغة الطبيعية. ومن ذلك: التقديم والتأخير، والزيادة والحذف، والإظهار والإضمار، والبناء للمعلوم والبناء للمجهول... وهي الأبواب التي خصصت لها النظرية التوليدية بابا هو باب التحويلات.

لقد شكل الحضور الإنساني وغيابه واحدا من الأسس التي يرى البعض أنها اعتمدت في التمييز بين اللسان والكلام عند صوسور، وفي التمييز بين القدرة والإنجاز عند تشومسكي[1]؛ اللسان باعتباره نسقا مجردا من الاعتبارات الإنسانية أو الشخصية بالأصح[2]. والكلام باعتباره الوجه المجسد لما هو شخصي. والقدرة كنسق يتحكم في المتكلم. والإنجاز كإنتاج فردي. ويرى الإيديولوجيون في الغرب أن الفصل بين الإنساني واللاإنساني (البشري وغير البشري بلغتنا نحن) يلعب دور الحسم في التمييز بين ما هو لساني أو ما يجب ان يكون كذلك، وهو الكلام أو الإنجاز، وبين ما ليس لسانيا وهو اللسان أو القدرة. ويلحق به/بها المنطق الصوري المجرد بدوره من أية خصوصية إنسانية حيث السيادة في كل هذه الأمور للقواعد الصورية. وضمن هذا الإطار الذي أشرنا إلى مؤسساته الإيديولوجية، تتم مناقشة مسألة العلاقة بين اللسانيات والعلوم الإنسانية. وهي علاقة أسهم اللسانيون في تحديدها لكن من وجهة نظر مختلفة أقل ما يقال عنها إنها لا تعتمد الأسس الإيديولوجية بقدر ما تعتمد أسسا معرفية متداولة[3].

1- انظر على سبيل المثال G/P (1981). الفصل الثاني، الفقرة 6. ص.ص. 157-161.

2- في هذا السياق، وهو سياق الغرب، يطلق "الإنساني" فيراد به "الفردي" وهو تصور ذو أساس إيديولوجي كما يبدو.

3- نقول هذا الكلام، ونحن نعلم أن هناك من افترض أسسا إيديولوجية للسانيات، ومن هؤلاء Pêcheux و Gadet. (انظر G/P (1981)). لكننا على يقين بأن النعرات الإيديولوجية كانت حرارتها مرتفعة عند من رفضوا دراسة اللسان ومن ثم اللغة، وتمسكوا بدراسة المظاهر الفردية في العملية اللغوية كالكلام والإنجاز وما شابه، أي عند من كانوا محسوبين على اللسانيين وليسوا منهم. ليس معنى هذا، طبعا، أن اللسانيات خلت من كل المسوح الإيديولوجية؛ إذ يكفي أن نعلم أنها لم تتحرر بعد من الانتماء إلى العلوم الإنسانية. انظر المدخل والفصل الأول من عملنا هذا.

1. 3. دحض الأطروحة البياجية:

إن الفهم الصحيح لفرضية تشومسكي البيولوجية هو أنها، وفيما بعد، لا تقوم على تصور يؤمن بتطور بيولوجي للمعرفة اللغوية شبيه بالتصور الداروني القائم على مفهوم الانتخاب الطبيعي[1]؛ حيث تتراجع صفات وتظهر أخرى مكانها استجابة لما يفرضه التكيف مع المحيط. فتتغير، بالتدريج، طبيعة الكائن (أو العضو البيولوجي) وينتقل من حالة إلى أخرى. لأن هذا التصور إن أسقطناه على تصور تشومسكي لبناء الطفل لنحو اللسان الذي سيتكلمه فيما بعد و افتراضه أن هذا النحو يتم بناؤه عن طريق مبدإ درء الخطإ وإعادة المحاولة، فإنه لا يستقيم؛ لأن التطور، كما تصوره دارون، عملية لا تنتهي، بينما عملية بناء النحو عملية لابد أن تنتهي. ولذلك نرى أن الفهم الصحيح هو أن يقال إن تشومسكي ليس تطوريا ولكنه وراثي؛ فهو يفترض أن النحو ينتقل من السلف إلى الخلف، ليس بالتقلب أو بالتعلم والاكتساب وإنما بالوراثة أو قل بالاستنساخ، تماما كما تتوارث الأيدي والأرجل[2]... فما نتوارثه من آبائنا هو هذا الاستعداد الطبيعي الذي يؤهلنا لأن نتوصل إلى المعرفة باللسان والذي يمكن أن يفسر، مؤقتا طبعا، على أنه ذو طبيعة بيولوجية. هو ذو طبيعة بيولوجية أحيانا، وكيان ذهني ذو طبيعة قبلية أو فطرية أحيانا أخرى[3].

1- يقرب جيري فودور Jerry Fodor المحسوب على التوليديين، بين وجهة نظر تشومسكي ووجهة نظر دارون. انظر محاولته في Fodor (2000).

2- في نظر تشومسكي، " ليست هناك أية مبررات جدية لاتخاذ موقف فكري ينسب إنجازا بشريا بالغ التعقيد، كاكتساب اللسان، إلى خبرة محدودة في أشهر أو سنوات بدل رده إلى ملايين السنين أو إلى مبادئ" Chomsky (1965) ص.70.

3- نميز، كما يميز غيرنا، بين مفهومي **البيولوجي والفطري**؛ فالأول مفهوم علمي والثاني مفهوم فلسفي كما هو معروف. واستعمالنا للمفهومين في هذه العبارة وربما في عبارات أخرى راجع إلى رغبتنا في تبيان أن لسانيات تشومسكي تزاوج بين العلم والفلسفة أو تستلهم مفاهيمهما على الأقل. بخصوص التمييز بين المفهوم العلمي والمفهوم الفلسفي، انظر على سبيل المثال: مشهد سعدي العلاف (1991).



القول بوجود بنية ذهنية فطرية هي المسؤولة عن اللغة مسألة حركت شهية الوضعانيين التجريبانيين المتمترسين هذه المرة خلف ما يسمى الإبستمولوجيا التكوينية[1].

أول الملاحظات أن بياجي وفريقه يبنون نظريتهم على أكسيومة مفادها أن للطفل ذهنا يتطور نتيجة التفاعل مع المحيط إلى أن يصل إلى مرحلة المعرفة[2]. وهي ملاحظة ينتج عنها أن بياجي قريب جدا من تطورية دارون. وهي تطورية تندرج ضمن الأعمال التجريبية التي نشطت في القرن التاسع عشر على يد الإنجليز خاصة. وثاني الملاحظات أن بياجي ظهر في سياق ما يمكن أن نسميه بالتجريبانية الجديدة. ونقصد بها التجريبانية التي تسعى إلى تليين المواقف النظرية التي تتصف بها سالفتها. اتخذت عملية التليين صورة التوفيق بين القبلي وبين المبني أو المتطور؛ حيث لا اعتراف بمعرفة فطرية صرفة. وهذا يقتضي عدم الاعتراف بوجود نحو كلي، ولا بوجود معرفة تجريبية محضة، أي لا اعتراف بوجود عقل كله صفحة بيضاء. هذا التوفيق هو الذي ألب تشومسكي على البياجيين فألحقهم بمن سواهم ممن يربطون المعرفة بالتجربة ويجعلون هذه شرطا لتلك. وما بدا لـ Massimo Piattelli-Palmarini أنه تكامل بين بياجي وتشومسكي ليس سوى سراب؛ فالأسس مختلفة بل ومتناقضة إلى حد أن المناظرة[3] التي جمعت بين الرجلين ومن معهما عام 1975 لم تتكرر قط، وكأن كلا منهما أيقن أن لا فائدة من تكرارها. ولم تعد تلك المناظرة تشكل سوى محطة تقابل فيها تشومسكي مع بياجي للحظات ثم استأنف

1- ليس من أهدافنا، هنا، تخصيص مكان للكشف عن الأسس الوضعانية لهذه الإبستمولوجيا. ولمن يهمه هذا الكشف نحيل على أعمال بياجي خاصة وعلى أعمال آخرين مثل J. P. Bronckart. انظر J. P. Bronckart (1977)، الفصل الثاني خاصة.

2- بخصوص نظرية تطور الذهن، انظر Piaget (1967) على سبيل المثال.

3- المقصود المناظرة التي جمعت بين الفريق الذي قاده بياجي والفريق الذي قاده تشومسكي والتي نظمها مركز Rayaument للعلوم الإنسانية في باريس عام 1975 والتي أشرف M. Piattelli-Palmarini على تنسيق أعمالها ليصدرها المركز بعنوان: Théories du Langage, Théories de l'apprentissage. Le débat entre Jean Piaget et Noam Chomsky عام 1978.



كل منهما السير في الاتجاه الذي كان يسير فيه، حيث اتجه الأول غربا واتجه الآخر شرقا. وتحول هذا اللقاء إلى مجرد ذكرى للتاريخ[1].

ما كنا ننتظره من هذه المناظرة التي دارت بين قطبين من أقطاب علم النفس المعرفي أن يخصب كل منهما الآخر في اتجاه قيام معرفة جديدة تسهم في تطوير هذا العلم، وهو نفس ما كان ينتظره المركز الذي نظم هذه المناظرة[2]. لكن التعارض الصارخ بين التصورات أفسد هذا الانتظار. فلا مجال يجمع بين الفطري، وهو تشومسكي، وبين التطوري، وهو بياجي[3]. وتكمن تراجيديا الرجلين في أن كل واحد منهما نصب نفسه مدافعا عن نسق يمتد أفقيا لمئات من السنين وعموديا لأكثر من مجال واحد (التجريبانية والعقلانية في الفلسفة وفي علم النفس وعلم اللغة...) [4].

ما لم يستسغه تشومسكي عند بياجي هو توفيقيته أو تموقعه بين تجريبية لوك التقليدية (العقل في أول مراحله عبارة عن صفحة بيضاء) وقبلية كنط (القول بقبلية أطر الإدراك) التي تتقاطع في بعض الوجوه مع عقلانية تشومسكي. فرغم أن فرضية بياجي المركزية هي الحياة تنظيم ذاتي أساسا[5]، فإنه ظل مخلصا في

1- وفي نظرنا، فإن السؤال الجوهري الذي كان وراء عقد مناظرة بين تشومسكي وبياجي هو: إذا تم الاتفاق على أن العقل ينتقل من مرحلة إلى أخرى، أو " يتطور" بلغة بياجي و " يتخصص" بلغة تشومسكي، حيث العملية عند الأول عبارة عن انتقال من مرحلة الجهل التام إلى مرحلة المعرفة، وهي عند الثاني عبارة عن انتقال من مرحلة معرفية عامة إلى مرحلة معرفية خاصة، فكيف يتم هذا الانتقال؟

2- Piaget و Chomsky (1978) ص.12.

3- يهتم بياجي بدراسة النمو الذهني وهو نمو لا يتوقف، بينما يبحث تشومسكي في نمو ذهني من نوع خاص هو النمو اللغوي (نمو العضو الذهني المسؤول عن اللغة) وهو نمو يكتمل عند حدود السنة الخامسة أو = =السادسة، إذ في هذه السنة تكون المعرفة باللسان قد اكتملت عند الطفل. أما ما يستمر بعد ذلك فهو النمو المرتبط بطرق استعمال هذه المعرفة واستغلالها في التواصل.

4- انظر لائحة الأسماء المشاركة في المناظرة والعلوم التي تشتغل عليها في Piaget و Chomsky (1978) ص. ص. 7-8.

5- للوقوف على هذه الفرضية بتفصيل، انظر Piaget (1967).



ممارسته للمزاوجة بين القبلي والاكتسابي، أو التفاعل بين الذات العارفة والمحيط. " فلا وجود لبنيات فطرية في الذهن البشري تتموضع بشكل مطلق، ولابد لبنياتها الذهنية من أن تشيد."[1] هذا التفاعل هو موضوع ما أسماه بياجي التنظيم الذاتي (autorégulation). يقول مؤكدا:"إن عمليات المعرفة هي نتيجة للتنظيم الذاتي العضوي. فهي عمليات تعكس الآليات الأساسية لهذا التنظيم في تفاعله مع المحيط."[2] يشكل هذا الافتراض النواة الصلبة لبرنامج بياجي يحميها حزام واق يتشكل من فرضيات علم النفس التكويني بصفة خاصة[3]. لكن السؤال الذي يمكن أن يوجهه تشومسكي إلى بياجي، بناء على ما يقود إليه تأويل كل منهما، هو:"هل يمكن أن يحصل انتقال البنية من المحيط إلى الجهاز العضوي العارف؟ "[4] السؤال مفصلي كما يلاحظ. وتكمن مفصليته في أن الجواب عليه هو الذي يحدد ما إذا كان بياجي تجريبانيا أم عقلانيا. وبالعودة إلى المناظرة[5] يتضح أن بياجي يتبنى

1- Piaget (1977). ص. 55.

2- نفسه ص. 49. وبالمناسبة فإن التصور الجوهري في إبستمولوجيا بياجي " هو تصور البناء، أي فكرة أن الأمر يتعلق ببنيات جديدة لم تكن موجودة عند الذات ولا عند الموضوع إلا أنها انبنت." (نفسه.ص.61). فهو تصور يفترض أن "المعرفة ليست شيئا يولد معنا، بل هي شيء ينبغي لنا بناؤه. الأمر الذي نقوم به ببطء وعلى مدى سنين عديدة." (نفسه.ص. 17). وهي إبستمولوجيا لا تلتقي كما يبدو بتلك التي يتبناها تشومسكي.

3- هناك محاور بالمعنى الذي يقترحه ج. هولطن Holton (1973) تشكل حزاما واقيا لنواة بياجي الصلبة بالمعنى الذي يعنيه لاكاطوس (Lakatos (1970)). هذه المحاور هي **البنية**. وترتبط بها محاور فرعية مثل **الكلية** و **التحويلات** و **التكيف** الذي يتفرع بدوره إلى **تمثل و تلاؤم**.

4- سبقنا إلى طرح هذا السؤال Piattelli-Palmarini في المقدمة التي وضعها لـ Piaget وChomsky (1978).ص.24.

5- شكلت المناظرة بين بياجي وتشومسكي مناسبة لهذا الأخير ليسجل بوضوح معارضته لعلم النفس المعرفي كما يقترحه بياجي، وبالضبط لما يسميه هذا الأخير **التنظيم الذاتي**. لقد أخذ البياجيون تشومسكي من تصوره "أن اللسانيات فرع من فروع علم النفس" قادر على الإسهام في " فهم نظام الذكاء البشري". (Chomsky (1975) ص.13) ومن تصورات أخرى مشابهة. وكان لهم أمل في أن يحاوروا تشومسكي وأن يحصلوا منه على ميثاق نظري يجمعهم به أو يجنبهم، على الأقل، انتقاداته. ميثاق يقوم على ما هو مشترك بينهم وبينه وهو عدم المغالاة في المراهنة على التصور التجريباني للمعرفة.

القول بإمكانية انتقال البنية من المحيط إلى العضو العارف. مما يعني أنه محكوم بمبادئ العلم التجريبي رغم إعجابه الكبير بتطورية داروين واستثماره إياها في التوفيق بين المواقف التجريبانية التقليدية والمواقف العقلانية المغالية، ورغم ريادته لإبستموليوجيا هي الابستمولوجيا التكوينية[1].

يقول تشومسكي:"إن بياجي يظل في نظري تجريبانيا رغم أنه يدعي عكس ذلك؛ فهو يسعى إلى تطوير فكرة تسلم بأن عملية المعرفة تتدخل فيها مجموعة من العوامل الذاتية وغير الذاتية. فالمعرفة، بالنسبة إليه، تتكون نتيجة تفاعل الذات مع المحيط. والسؤال الأساسي الذي يظل مغيبا هو: كيف تبنى هذه المعرفة؟ ولماذا هي بالذات وليس غيرها؟ إن بياجي لا يجيب. وبدل أن يهتدي إلى افتراض وجود بنية جينية فطرية هي المسؤولة عن المعرفة، يسقط في التجريبانية فيقترح أشياء غير كافية لتفسير ما يجري[2]."

سلك تشومسكي في تفنيد أطروحة بياجي، والإبستمولوجيا التكوينية عموما، طريقا مختلفا عن ذلك الذي كان قد سلكه مع غيره ممن فندهم. وهو طريق يبدأ بالتساؤل عن مدى إمكانية قيام علم تكويني بالشكل الذي يقترحه بياجي. ويبدو له في النهاية أن شروط إمكان قيام هذا العلم منعدمة. فهو يحكم على نموذجه بأنه نموذج "لا يشكل بديلا حقيقيا لذينك اللذين رسمت خطوطهما العريضة أعلاه[3]."إن الموقف الثالث الذي ظل هاجسا يحرك بياجي وينزله بين لوك وداروين هو موقف مرفوض في نظر تشومسكي لسبب واحد هو أنه موقف مستحيل، لأنه يقف على أسس متناقضة.

يستلزم افتراض المعرفة النامية أن لا تكون لها بداية ولا نهاية، وهو قول مستحيل في حالة اللسان، على الأقل، الذي تكتمل معرفته مع بلوغ الطفل السن

1- من بين ما تتميز به هذه الإبستمولوجيا، وكما يرى بياجي نفسه، أنها عبارة عن تداخل المعارف. وبذلك يعتقد أنها توفر إمكانية هامة لحل مجموعة من المشاكل.

2- Chomsky (1977) ص.100.

3- يقصد النموذجين التجريباني والعقلاني Chomsky (1980) ص. 222.



الخامسة. وفي نظرنا، فإنه لا يمكن الاستفادة من الإبستمولوجيا التكوينية التي تقوم على أساس أن المعرفة ليست معطى قبليا ولكنها عملية تتشكل باستمرار ودون توقف وأنها صيرورة لا تنتهي، إلا إذا كنا بصدد بناء نظرية للإنجاز، على اعتبار أن عملية تكون القدرة اللغوية لها بداية ونهاية، بينما الإنجاز اللغوي يمكن تصوره على أنه عمليات لا تتوقف عن التطور وأنها تجسيد لقدراتنا الطبيعية وللتكيف مع الأوضاع والظروف المقامية في نفس الوقت. أما إذا تم تصور الدراسة اللسانية على أنها نظرية للقدرة اللغوية فإن النقاش مع البنيوية التكوينية يصبح غير مجد. يمكن أن تفيد الإبستمولوجيا التكوينية في بناء نظرية لرصد المنطق الذي يتحكم في تطور المعرفة العلمية أو في البيداغوجيا التي يلجأ إليها قصد صياغة الأفراد صياغة تستجيب للأهداف المرسومة، لكنها لن تفيد في المباحث اللسانية التي ترصد لحظات تكون القدرة اللغوية، بدءا من المرحلة الذهنية الأولى، وهي مرحلة الاستعداد الطبيعي الفطري، وانتهاء بمرحلة إتقان اللسان، وهي مرحلة تنتهي في سن مبكرة.

المعرفة عند بياجي تكيف الذات مع المحيط بينما هي عند تشومسكي تخصيص الذات العارفة لما تمتلكه مسبقا من معرفة عامة وهي اللغة أو النحو الكلي. المعرفة التي يتكلم عنها بياجي، في هذه الحالة، معرفة تتدخل فيها كل عوامل المحيط مما هو اجتماعي وثقافي حيث يلعب الاستيعاب أو التمثل وكذا التلاؤم دورا رئيسيا. بينما المعرفة كما يتصورها اللساني التوليدي خاصة هي اللسان كنسق معزول عن كل هذه العوامل. بعبارة أخرى، تخدم جهود التكويني استراتيجيا بناء نموذج للمتكلم الفعلي، بينما تدخل جهود التوليدي في استراتيجيا بناء نموذج للمتكلم المثالي.

وتقتضي إبستمولوجيا بياجي أن الذات العارفة لا تكتفي بالانفعال والتأثر ولكنها تفعل كذلك[1]. الأمر الذي ينتج عنه تطور شكل ومحتوى المعرفة، مما

1- يقول بياجي:" إن الذات، وهي تلتقط ما يحيط بها، تضيف دائما إلى المعرفة شيئا من عندها". Piaget (1977) ص.63.



يسهم في تطوير المعرفة البشرية بعامة[1]. بينما الأمر يختلف في النظرية التوليدية؛ فالطفل الذي هو بصدد "التعلم" لا يفعل شيئا سوى التخصيص، فهو لا يضيف أي جديد إلى قواعد اللسان الذي تتكلمه جماعته.

بسبب كل تلك الاعتبارات لم يتكرر اللقاء الذي تم بين التوليديين والتكوينيين إلى الآن. لأنه تبين أن كل فريق يتكلم عن أشياء لا علاقة لها بما يتكلم عنه الفريق الآخر[2]، رغم أن بياجي قد صرح في أحد استجواباته بالقول: "إنني أعتقد أن الاتجاهات اللسانية الحالية، منذ تشومسكي، هي أقرب إلى فكري من لسانيات عهد بلومفيلد."[3] كما اعترف بصواب موقف تشومسكي تجاه سكاينر وعلم النفس البيهافيوري[4]، لأن هذا الأخير يركز على المحيط وينسب إليه وحده الدور الحاسم في قيام المعرفة دون أي اعتبار لما يبذله الفرد من أجل تحقيق ذلك.

إن بياجي، هو الآخر، يعيب على النظرية البيهافيورية أنها تقوم على مبادئ مفرطة في الآلية. إلا أن فكره يتوحد بفكر سكاينر السلوكي في أن مقاربة كل منهما تتسم بالتاريخانية؛ فهما معا " يعتقدان بأن السلوك يجري تعديله بالتدريج عن طريق المواجهة مع الوسط. وهما معا متفقان في الاعتقاد بأن تعديل السلوك يميل نحو تحكم أكبر في الوسط. ومع ذلك، فإن بياجي يلح أكثر على التفاعل بين نضج تدريجي باطني وبين التعلم. في حين أن سكاينر يلح على كون برامج التعزيز المناسبة لا تقوم بغير تعديل احتمال ظهور هذا الرد أو ذاك من ردود الأفعال[5]."

1- تؤدي هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى هي أن نظرية بياجي في المعرفة تنظر لتاريخ المعرفة البشرية ولا تصلح نظرية لتفسير معرفة المتكلمين بألسنتهم.

2- حتى حينما يتكلم بياجي عن اللغة، فإنه يستعمل لفظ " لغة " بمعنى " الكلام ". وهو، بذلك، لا يخرج عن القاعدة العامة التي تراعى في علم النفس عموما. وفي هذا الخصوص، إذا تصورنا أن أعمال تشومسكي تندرج ضمن النظريات النفسانية، فإن ما يضفي عليها نوعا من الاستثناء هو الخروج عن هذه القاعدة؛ إذ يهتم تشومسكي باللغة بدل الكلام، بالنوع البشري لا بالفرد.

3- Piaget (1977) ص. 74.

4- نفس المرجع والصفحة.

5- نفسه.ص. 94.



2- السند والاستثمار أو استراتيجيا البناء؛ نحو لسانيات عقلانية

2. 0 تمهيد

إلى جانب استراتيجيا الهدم، يتبنى التوليديون استراتيجيا موازية هي استراتيجيا البناء، بناء لسانيات بديلة تقوم على تصورات جديدة وتطرح إشكالات حقيقية أو ذات دلالة، لسانيات منفتحة على التراث الفلسفي، من جهة، وعلى منجزات العلوم المعاصرة، من جهة أخرى، وعلى ما توفره الإبستمولوجيات المعاصرة من أدوات نظرية وتقنيات منهجية من جهة ثالثة. لسانيات أصبح معها الفضاء الاستدلالي يتسم بالتعدد والتنوع؛ فمن الاستدلال الفلسفي القائم على نظرية المعرفة والمعبر عنه في الأدبيات التوليدية بالسؤال الأفلاطوني (ما السر في أن معارف البشر لا حد لها رغم محدودية تجاربهم؟)، إلى الاستدلال المنطقي (إذا كان كل طفل قادرا على تعلم اللسان المتصف بالتعقيد الشديد في ظرف وجيز نسبيا، وكان مؤهلا، منذ الولادة لتعلم أي لسان، فإن قدرته واستعداده هذين لا يمكن أن يكونا إلا من طبيعة قبلية أو فطرية)، إلى الاستدلال النفساني (كالقول: إن ما يجب أن ترمي إليه النظرية اللسانية هو تفسير الواقع النفسي للمتكلم المتمثل في معرفته المستبطنة لا فيما ينجزه من جمل وأقوال)، إلى الاستدلال البيولوجي القائم على فرضية أن هناك عضوا بيولوجيا هو المسؤول عن عملية اكتساب الألسن مقره في الدماغ البشري، إلى الاستدلال الإبستمولوجي القائم على الإحالة على الإبستمولوجيا المعاصرة التي تؤمن بأن العلم الحق هو ذلك الذي يتوجه نحو المعرفة بالمبادئ عن طريق بناء الفرضيات رافضا الارتباط بالوقائع الجزئية والعينية وبطرق الاستقراء.

انفتاح اللسانيات التوليدية وتعدد أسسها وفضاءاتها الاستدلالية بهذا الشكل هو الذي سيكسبها مهارة حسن الانتقال من الإشكال الفلسفي إلى الطرح العلمي والعكس. الأمر الذي لم ير فيه البعض إلا تلفيقية مكشوفة، تلفيقية نتجت عن الجمع بين الدعوى العلمية والعمق الميتافيزيقي[1].

1- انظر، على سبيل المثال، علي حرب (1998).



من الواضح جدا أن تشومسكي تأثر كثيرا بالفكر العقلاني في مختلف أشكاله واقتفى أثره في كل مساراته؛ فمن الفلسفة العقلانية كما مثلها أفلاطون وديكارت وغيرهما إلى الإبستمولوجيا العقلانية كما مثلها الأسلوب الكاليلي الذي شاع منذ كوبرنيك وكبلر، مرورا بكاليلي، ووصولا إلى بوبر، إلى اللغويات العقلانية كما عرفت عند جماعة بور- رويال وهمبولدت، إلى البيولوجيا العقلانية كما مارسها لينبرج. كل هذه العقلانيات حاضرة، بشكل قوي، في اللسانيات التوليدية. ولذلك، فإن وصفها باللسانيات العقلانية[1] لم يكن من قبيل الترف أو الادعاء الفارغ، وإنما كان نابعا من إخلاص أصحابها وتشبعهم بالفكر العقلاني بل وإصرارهم على مسلمة أن التوجه العقلاني في دراسة اللغة يقدم نتائج لم تستطع اللسانيات البنيوية، الأوربية والأمريكية، الوصول إليها، ويساعد على صياغة إشكالات ذات دلالة في الدرس اللغوي الجاد.

في اللسانيات التوليدية (العقلانية)، تقدم الظاهرة تقديما لغويا صرفا، وتناقش بمفاهيم لسانية محضة؛ كأن يقال، مثلا: إن جميع الألسن تعرف ظاهرة وجود جمل مثل:

(1) عثر على المفقود عن طريق الشرطة.

(2) عثر على المفقود عن طريق الصدفة.

جمل تتماثل بنيويا لكن المتكلم، ورغم ذلك، يعرف أن (1) يمكن أن تتحول إلى (3) بينما (2) لا يمكن أن تتحول إلى (4)، رغم أن القياس يسمح بذلك:

(3) الشرطة عثرت على المفقود

(4)* الصدفة عثرت على المفقود.

1- تشومسكي واحد من الذين يصفون لسانياته **بالعقلانية**؛ فلقد اختار لأحد كتبه الاستراتيجية عنوانا يدل على ذلك، وهو "اللسانيات الديكارتية؛ فصل من فصول تاريخ الفكر العقلاني" (أنظر Chomsky (1966)). من جهة أخرى، يوصف برنامج تشومسكي بالعقلاني "لأنه يقف موقفا مضادا وعدائيا ضد كل المواقف التي ترجع المعرفة إلى المحيط، كيفما كان مظهرها (لسانيات وصفية أم وظيفية أم تكوينية أم بيهافيورية..)". Piaget و Chomsky (1979) ص. 32.



بعد هذا الاستدلال اللغوي يتم الانتقال إلى استدلال آخر هو الاستدلال الفلسفي حيث تتم البرهنة على أن معرفة المتكلم هذه هي معرفة مستمدة من نحو كلي ذي طبيعة فطرية. هنا تعاد على مسامعنا أفكار أفلاطون وروني ديكارت وبقية الفلاسفة العقلانيين. وكلما استشعر تشومسكي ثقل وطأة المفاهيم الفلسفية على المتتبعين، انتقل إلى الاستدلال البيولوجي وليس إلى البيولوجيا طبعا. فيتحول مفهوم المعرفة الفطرية التي تسكن العقل البشري إلى مفهوم العضو الذهني المسؤول عن اللغة. وبذلك يتم الانتقال من الحديث عن العقل وهو مفهوم أنطولوجي (فلسفي) إلى الحديث عن الدماغ وهو عضو بيولوجي (علمي). لكن الذي يجب أن لا يغيب عن الفهم هو أن بيولوجيا تشومسكي هي مجرد بيولوجيا مفاهيمية لا بيولوجيا مختبرية[1].

النظرية اللسانية العقلانية، في نظر التوليديين، هي النظرية الأكثر قدرة على استيعاب أكبر عدد ممكن من الظواهر مقارنة مع النظريات اللسانية اللاعقلانية ومنها البنيوية الوصفية. كما أنها النظرية الأكثر قوة ودلالة؛ لأنها وحدها القادرة على التنبؤ بما يعرفه المتكلم عن (3) و (4) السالفتين.

يشكل التوجه العقلاني أساس النظرية التوليدية أو نواتها الصلبة. وكل قراءة تقلل من شأن هذا البعد سيصعب عليها الإمساك بحقيقة هذه النظرية. إن أسماء أفلاطون وديكارت وكاليلي وبور-رويال وهمبولدت ولنبرج وبوبر وهوارتي ليست تحفا تم استدعاؤها لتأثيث المشهد التوليدي، ولكنها جميعا عناصر تم اختيارها بعناية فائقة وعن سبق إصرار لبناء هذا الصرح الذي شيده أصحابه على أنقاض اللسانيات اللاعقلانية التي تاهت مع المظاهر والتجليات بحثا عن معرفة زائفة، ولن تنتبه إلى الحقيقة الراسبة في الأعماق والتي بدون إدراكها لا يمكن أن تتحقق المعرفة العلمية كما يتصور التوليديون.

1- إذا كان إجراء التجارب المباشرة على البشر لاختبار الفرضية البيولوجية أمرا مستحيلا، " فإن الدراسة التجريدية لأنساق القدرة ولنماذجها الإجرائية تعتبر، على العكس من ذلك، إنجازا يمكن من تجاوز العائق التجريبي". Chomsky (1980) ص.203.

وحتى نقترب أكثر من هذا الصرح فنتعرف على لبناته المؤسسة وأسسه الدالة، نقترح أن يتم ذلك انطلاقا من التعرف على أطره المرجعية وأسانيده المعرفية.

2. 1. عقلانية فلسفية (السؤال الأفلاطوني)

الإشكالية التي يبدو لتشومسكي أنها دالة ويجب معالجتها هي: ما السر في أن الطفل يتعلم اللسان رغم أن ما يقدم إليه من جمل قليل جدا بالقياس إلى ما يصبح قادرا على إنتاجه بعد مرحلة التعلم؟ وهي إشكالية سبق لأفلاطون أن طرحها فيما قبل الميلاد ثم أعاد طرحها برتراند راسل، في القرن العشرين، بالصيغة:" كيف يمكن لأفراد النوع البشري أن يعرفوا ما يعرفونه على الرغم من قصر تجربتهم مع الكون ومحدوديتها؟"[1] وسماها تشومسكي بمشكلة_أفلاطون[2]. وهي مشكلة أفضى إليها واحد من أهم أهداف النظرية اللسانية كما تصورها تشومسكي، وهو المتمثل في ضرورة أن تقدم النظرية جوابا عن السؤال:" كيف ينشأ نظام المعرفة اللغوية في العقل/الدماغ؟ " وفي ارتباط مع مشكلة أفلاطون، هناك ما يسميه تشومسكي بمشكلة ديكارت وهي المتعلقة بالمظهر الإبداعي للمعرفة ومنها المعرفة باللسان. وصورتها الإشكالية هي:" أنه انطلاقا من عناصر (فونيمات ومورفيمات ومركبات..) وقواعد محدودة، يمكن للمتكلم أن ينتج ويفهم ما لا حصر له من الجمل!".

وعلى هذا الأساس يتداخل[3]ما هو لساني مع ما هو فلسفي، أو لنقل: إنه يتأسس عليه. فمشكلات تشومسكي مشكلات فلسفية بالأساس بحث لها عن

1- Chomsky (1987) ص. 15.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- التداخل أقوى من التقاطع الذي فضل بعض الباحثين أن يبنوا عليه أطروحاتهم. فالتقاطع يمكن أن يحصل دون قصد وهو مسألة طبيعية، أما التداخل فهو نتيجة لعملية إرادية، وهو مبني على استراتيجيا قصدية وهذا ما يعنينا هنا.



أجوبة علمية اعتمد فيها على مناهج ذات صلابة إبستمولوجية[1].

تمثل استعادة تشومسكي لآراء ومواقف الفلاسفة العقلانيين الوجه الثاني لمشروعه المزدوج: الانتصار للموقف الفطري من جهة، ودحض المواقف السلوكية والتجريباية المعادية لكل الطروحات العقلانية من جهة أخرى. ولذلك فإن نظريته تعتبر " نظرية يستعيد فيها آراء ومواقف القائلين بالملكات الفطرية والطبائع الثابتة، بقدر ما يعارض أطروحات المدارس السلوكية والتجريبية التي كانت تتصدر الواجهة على الساحة الأمريكية في معالجة الوقائع اللغوية. بذلك سار تشومسكي بعكس الاتجاه الذرائعي المهيمن على الفكر والفلسفة في الولايات لمتحدة، لكي يقترب من التقاليد والنظريات العقلانية، سواء بشكلها الأفلاطوني القديم أو بشكلها الديكارتي الحديث[2]. "

المحور (بالمعنى الهولطوني) الذي يهيمن على البرنامج العلمي لتشومسكي هو بلا شك مفهوم العقلانية كما تبلور عبر أفلاطون وديكارت وليبنتز وغيرهم[3]. ومعلوم

I- من المحاور الرئيسية في التراجيديا الشومسكاوية الولاء الموزع بين الفلسفة والعلم. وفي هذا الإطار، لابد من التمييز بين عقلانية تشومسكي وعقلانية الفلاسفة؛ فموضوع الدراسة في الأولى هو البصيرة أو الإدراك Cognition، بينما موضوع الدراسة في الثانية هو المعرفة Connaissance. وهكذا، فإذا كانت الفلسفة العقلانية نظرية في المعرفة، فإن لسانيات تشومسكي نظرية في الإدراك. ولذلك، ورغم الروابط الكلاسيكية بينها وبين الفلسفة العقلانية، فإن الروابط الأقوى هي التي تجمعها بعلم النفس الإدراكي وبيولوجيا الإدراك وكل علوم الإدراك Sciences Cognitives. من الأعمال المخصصة لرصد علاقة النظرية التوليدية بعلم النفس الإدراكي نكتفي بالإشارة إلى J.Y.Pollock (1997). هذا دون أن ننسى أعمالا أخرى من بينها ما جمع في Chomsky / Piaget (1978).

2- علي حرب (1998).

3- حاول تشومسكي استحضار الفلسفة العقلانية بكل محطاتها؛ فمن العقلانية الكلاسيكية لأفلاطون إلى العقلانية الحديثة لديكارت وليبتز إلى العقلانية النقدية لإمانويل كنط إلى العقلانية الإبستمولوجية لبوبر. وتحيل لسانياته على أعمال كبار العقلانيين التي نذكر منها على سبيل المثال (ما هو منشور بالفرنسية):

- Platon, théétète (?).
- R. Descartes : - Discours de la Méthode (1637)
- Méditation Métaphysique (1641).
- B. de Spinoza : Traité Théologico-politique (1670).
- G. W. leibniz : Nouveau Essais sur l'Entendement Humain (1706).
- E. Kant : Critique de la Raison Pure (1781).
- G.W. Hegel : la Phénoménologie de l'Esprit (1807).
- K. Popper : la Logique de la Découverte Scientifique (1959).



أن الفرضية الأساس للبرنامج العقلاني لا تسند أية بنية جوهرية إلى المحيط، وتفترض أن كل بنية من بنيات المعرفة ترتبط بالإدراك الداخلي سواء أكانت هذه البنية بيولوجية أم ذهنية أم لسانية أم شيئا آخر، وأنها هي التي تفرض على المحيط وليست ناتجة عنه[1]. قانون من هذا النوع يعتبر قانونا خاصا بالطبيعة البشرية ولا يتغير بتغير الأزمنة أو الأفراد أو الثقافات. التسليم بهذا القانون هو الأساس الذي بني عليه اختيار دراسة البنية الداخلة للإنسان الكلي الذي يسميه تشومسكي المتكلم المثالي.

تقوم أنطولوجيا البرنامج اللساني العقلاني على أسس هي:

– الفرضية الفطرية؛ حيث يسود الاعتقاد الذي كرسته الفلسفة العقلانية منذ القدم والذي يقوم على فكرة "أن جميع البنى تتدفق من الداخل، وأن دور المحيط هو العمل على تطوير هذه البنى و ليس تسجيلها[2]."و ترى التوليدية أنه "بالنسبة للمتكلم المثالي، لا وجود لبنيات خارجية تمارس تأثيرها عليه؛ فدور المعطيات الأول هو تحديد اللسان الممكن وذلك بتوفير المجال الذي سيشتغل عليه جهاز الاكتساب دون أن يكون للمعطيات والتجربة أي ضغط على هذا الجهاز[3]."

– اللجوء إلى التجريد؛ التجريد إلى حد اختزال مجالات العالم الذهني بعضها في بعض وإلغائها ومن ثم الاقتصار على دراسة البنيات الأساسية أو الواردة.

1- هذا دون أن ننسى الإشارة إلى مسلمات العقلانيين الكبرى التي يمكن حصرها فيما يأتي:
- لا شيء يحدث دون أن يكون وراءه عقل (ديكارت وليبنتز).
- الحقيقة عقلانية بالضرورة (جورج وليام فريدريك هيجل George Wilhem Friedrich Hegel (1770-1831)).
- ما يقتسمه الناس بشكل عادل في هذا العالم هو العقل (ديكارت).
وإذا تم ربط اللسانيات التوليدية بالعقلانية، باعتبارها إطارا إبستمولوجيا لا باعتبارها إطارا تاريخيا، أمكن إقامة تناظر بين تلك المسلمات وبين فرضيات تشومسكي المركزية التي هي:
– اللسان حدث وراءه نحو كلي.
- النحو الكلي واقع عقلاني.
– النحو الكلي هو ما يقتسمه المتكلمون بكل الألسن.

2- Chomsky (1965)، ص. 33.

3- نفس المصدر والصفحة.



وهو ما فعله تشومسكي وفودور (Fodor) اللذان سيدعوان إلى أن تقتصر استراتيجيا التفسير على اللغة معزولة عن أبعادها الثقافية والاجتماعية والتداولية، ومن ثم التمييز بين:

- ما يعتبر واردا لحل المشكل اللساني، وهو التركيب أساسا.
- وبين الأمور الأخرى، كالدلالة والتداول خاصة.

كل برنامج عقلاني، منذ ليبنتز وإلى تشومسكي، هو بحث عن مجموع القواعد الصورية التي تحكم عالم البنيات الممكنة. والوسيلة الوحيدة لولوج هذا العالم الخفي هي حدس المنظر المسلح بقدرة استدلالية متينة. وكل جرد بسيط لما هو ملاحظ لا يمكنه أن يساعدنا في التعرف على ذلك العالم. والقوائم لا تفيد أي شيء إذا لم توضع بناء على نموذج نظري قابل للدحض. والمعلومات لا قيمة لها إذا لم تكن وراءها نظرية قادرة على أن تمنحها دلالة. و الإشكال هو "معرفة كيفية الحصول على معلومات حول قدرة المتكلم؛ أي حول معرفته اللغوية. فكما في جميع الوقائع المهمة والهامة، المعلومة ليست مطروحة بكيفية مباشرة، ولا يمكن استخلاصها من المعطيات عن طريق القياس[1]."

وما يميز برنامج تشومسكي عن برنامج العقلانية الفلسفية القديمة هو "أنه برنامج علمي، برنامج تطبعه الدقة، انطلاقا من معطيات واردة تسمح باختبار التخمينات التي تصاغ داخل حزامه الواقي، حيث يكون دور المعطيات هو تفنيد النظرية. فلقد رفض تشومسكي رفضا قاطعا أن يتم المرور عبر التجربة والمعطيات التجريبية لأنها مشكوك في صحتها[2]."خطيئة تشومسكي، في نظر العقلانيين، ستكون، حسب قراءتنا، هي أنه عاد ليسجن الروح/العقل في الجسم/ الدماغ بعد أن حرره أفلاطون لقرون عدة. وهي خطيئة كانت نتيجة حتمية لرغبته في الانتقال بالإشكالية العقلانية من مجال الفلسفة إلى مجال العلم[3]. تماما كما وقع

1- Chomsky (1965) ص. 18.

2- Chomsky / Piaget (1978) ص.ص. 38-39.

3- يفسر تشومسكي هذا الانتقال بأنه محاولة في الاتجاه الصحيح؛ " لأن إضفاء معنى جديد على تصور قديم يعتبر تقدما." (Chomsky (1977) ص. 181).



لديكارت الذي وحد بينهما على المستوى الأنطولوجي ولم يميز بينهما إلا على المستوى الإبستمولوجي.

ورغم ذلك، فلقد اتسع صدر تشومسكي إلى درجة الخشوع لنداء السلف العقلاني[1]، واتجه بالنقد إلى اللسانيات المعاصرة التي يرى فيها انحرافا عن البداية الأصلية التي تمتد من بداية النهضة على الأقل، مع بور- رويال[2]، إلى نهاية القرن التاسع عشر مع همبولدت[3]. كما ترسخت عنده أصول مبدإ العودة إلى أقدم الاجتهادات النحوية والفلسفية مادام ذلك يخدم هدفه وهو تأسيس لسانيات عقلانية تربط النشاط اللغوي بالذهن وتنسبه إليه، في مقابل لسانيات لا تعترف بدور الذهن. وما دام ذلك يقوي موقفه القائم على فطرية المعرفة (في مقابل اكتسابها بالتجربة) وعلى عقلانية اليقين (في مقابل اختباريته التي تسند قيمة إلى الحواس).

ليس معنى هذا، طبعا، أن تشومسكي أعاد إنتاج أفكار السلف من فلاسفة ولغويين. فانتقاله من الطرح الفلسفي إلى الحل البيولوجي للإشكالية اللغوية دليل على وعيه بأن المعرفة لا تتقدم بالتكرار ولا حتى بالتراكم الكمي وإنما بالمغامرة وركوب الأخطار. والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا هو ذلك الذي سبق أن طرحه فوكو في السياق التالي:"النحو العام [النحو الفلسفي أو النحو الديكارتي

1- من الملفت للانتباه، حقا، أن تشومسكي الأمريكي قد شذ عن توجهات الأمريكيين المعروفين عادة بميولهم الذرائعية، وأنه تمذهب بالمذاهب الإطلاقية. فهو هيراقليطي ومضاد للفكر الذرائعي ذي الجذور السفسطائية حيث الإنسان هو مقياس كل شيء.

2- يقوم نحو بور- رويال على فكرة أن الألسن تخضع لمبادئ واحدة أو كلية. وهذا هو الجوهري فيها. أما ما يبدو من اختلاف فيما بينها فإنه اختلاف عرضي وسطحي. ورغم أن لكل لسان نحوا خاصا، فمن الضروري بناء نحو عام (=كلي أو فلسفي) يمكن من تفسير القواعد الخاصة وكيفية اشتقاقها من المبادئ= =العامة والكلية. كما يقوم على مسلمة أن للجملة بنيتين؛ عميقة وسطحية، وأن الأولى هي التي تنتج الثانية وأنها الأولى بالاهتمام.

3- يحيل تشومسكي على همبولدت في عدة مسائل، منها القول بوجود القدرة باعتبارها ملكة مضمرة تمكن من إنتاج ما لا حصر له من الجمل. أي القدرة على الإبداع. (انظر Chomsky (1965) ص.ص. 14-18-20). ومنها " دفاعه عن الفرضية العقلانية التي تفترض أن اللسان لا يتعلم ولكنه يتطور انطلاقا من معطى داخلي محدد سلفا ". Chomsky (1968) ص. 113.

أو نحو بور- رويال] لا يدخل في إطار الدرس اللساني، كما أن اللسانيات المعاصرة ليست صورة جديدة وأكثر إيجابية للفكرة القديمة التي يقدمها النحو العام. إن الأمر يتعلق بوجهين إبستمولوجيين مختلفين حيث يتم النظر إلى الأشياء بطريقتين مختلفتين. وحيث المفاهيم لا تحمل نفس المعنى ولا تلعب نفس الدور. إلا أن هناك سؤالا يطرح اليوم بإلحاح، وهو: رغم هذه الاختلافات بين النحو العام واللسانيات، ما تفسير هذا التشابه الذي يبدو لنا اليوم قائما بين هذين الفرعين من فروع المعرفة؟ ما المجال المشترك الذي بدأ يتأسس ليجمع فيما بينهما وليربطهما معا داخل نسق قائم على علاقتهما التماثلية والاختلافية؟"[1] سؤال لا يجد له فوكو جوابا إلا في الأسلوب الذي يسلكه كل من النحو العام واللسانيات المعاصرة، الديكارتية خاصة. وهو أسلوب يهتم بالعمق لا بالسطح، بالعام لا بالخاص، بالبناء العقلاني لا بالواقع المباشر، بالمبادئ لا بالتجليات[2]. وحينما يتساءل عن السر الذي يجعل العقلاني يطمئن إلى أنه وصل فعلا إلى ما هو عام ومشترك، فإنه سرعان ما يجده في الإيمان بصلابة المعرفة العقلانية[3].

احتقار تشومسكي للممارسة التجريبانية الذي ألمحنا إليه في مناسبات سابقة والذي يجعله يرتبط بالممارسة العقلانية له أصول تمتد إلى أفلاطون الذي اقترح مبدأ الكلية ليتجاوز نسبية السفسطائيين القائمة على مبدإ الخصوصية والتفرد، مميزا بين ما يسميه معرفة حقة، وهي المعرفة بالكليات، وبين ما يسميه

1- Foucault (1969).ص.15.

2- تأكيد اللسانيات الديكارتية على أن المعرفة باللسان لا تتم إلا بعد المعرفة بالمبادئ العامة التي تحكم كل الألسن مسألة تستمد أسسها من الفكر اليوناني القديم. " فلقد كان هراقليطس (550-480 ق.م) من أول الذين قالوا بأن معرفة الأشياء في حقيقتها لا تتم إلا بمعرفة المبادئ الكامنة فيها، وأن تعلم أشياء كثيرة لا يؤدي إلى معرفة... وأن الحكمة لا تكون إلا في إدراك الصيغة الكامنة التي هي مشتركة بين الأشياء جميعا." برتراند راسل (1945) ص.ص. 42-43.

3- " في الانتقال من الخاص [لسان من الألسن مثلا] قصد الوصول إلى العام [النحو الكلي مثلا]، ما الذي يجعلنا نطمئن إلى أننا وصلنا فعلا إلى ما هو عام ومشترك؟ إن الذي يجعلنا نطمئن إلى ذلك هو البناء العقلاني والمنطقي لتحليلنا." (نفس المصدر والصفحة).

انطباعا أو رأيا، وهو المعرفة المبنية على ما تقدمه الحواس. المعرفة الأولى لا تحصل إلا بالعقل المسكون بالكلي، وهي ممكنة مادام أن كل واحد منا مزود بقدرة على التعلم، وأن هناك عضوا مخصصا لهذه الغاية هو العقل.

نفس التداخل يحدث مع ديكارت الذي يربط المعرفة بالعقل ويسعى إلى تخليصها من شوائب التجربة الحسية.

ومجمل القول، فإن الأساس الفلسفي الذي أطر لسانيات تشومسكي لا يخرج عن الإطار العقلاني ممثلا في رموزه الكبرى: أفلاطون وديكارت وبور- رويال وليبنتز وهمبولت وغيرهم[1]، الذين ألفنا أن نصادف أسماءهم في كتاباته، إلى درجة أن القارئ لا يتردد في الكثير من الأحيان في أن ينسب أعمال تشومسكي إلى الفلسفة لا إلى اللسانيات. و هو ما حدث لعلي حرب[2] و د. هويسمان[3] D. Huisman على سبيل المثال. وإلا فكيف يمكن التمييز بين النحو الكلي

1- ما لم نختبره بعد هو الربط الجدلي بين صعود العقلانية الجديدة كما مثلها جماعة منهم بوبر وتشومسكي، وبين انتشار الفكر البورجوازي المناهض للفكر الاشتراكي الذي ترعرع في ردهات المصانع وتحت قعقعات المطارق. وللإشارة، فإن تشومسكي سبق أن صرح بأن "الخلاصة التي خرج بها من قراءته للماركسية، بجميع ألوانها، هي أنها لا تحمل أية مساهمة جوهرية فيما يخص القضايا التي اهتم هو بها. " Chomsky (1977). ص. 91.

2- " مع تشومسكي، يتعدى التفكير في اللغة المجال الألسني إلى مجال الفلسفة ونظرية المعرفة وعلم النفس. بحيث يعاد طرح أو إحياء شبكة من الأسئلة والمشكلات المتعلقة بالقدرة المعرفية والكفاءة اللغوية استأثرت باهتمام الفلاسفة من أفلاطون حتى برتراند راسل. وهكذا يتداخل الألسني والفلسفي في مشاغل تشومسكي ونتاجه، وهو تداخل يدافع عنه بالاستناد إلى ديكارت الذي لم يكن، برأيه، يفصل على نحو حاسم بين العلم والفلسفة ". (علي حرب (1998)). هذا، وقد سبق لتشومسكي نفسه أن رفض، غير ما مرة، الفصل بين العلم والفلسفة. يقول في إحدى المناسبات:" في مناقشتي للتقاليد الفكرية التي أحسب أن البحث اللساني المعاصر يجد مكانه الطبيعي فيها، لا أقيم فارقا صارما بين العلم والفلسفة. فالفارق بينهما لم يبتدع إلا في الماضي القريب، وذلك بغض النظر عما إذا كان لذلك ما يسوغه أولا." Chomsky (1987) ص. 14.

3- يعد هويسمان واحدا من الذين غلبوا تشومسكي الفيلسوف على تشومسكي اللساني؛ فلقد أدرجه في موسوعته التي خصصها للفلاسفة، وأفرد له ما يزيد عن ثماني صفحات، وهو ما لم يحظ به عنده كثير ممن اشتهروا بالعمل الفلسفي. انظر Huisman (1984). ص.ص. 526- 533.



لتشومسكي والمنطق الكلي لبور- رويال والعقل الكلي لديكارت. أو بين النحو الفطري و المنطق الفطري و العقل الفطري ؟[1] ألا تقوم كلها على أساس أوكوجيطو واحد هو: حيثما تكن هناك معرفة فهناك عقل؟ أليست كلها صياغات لمسلمة واحدة هي ربط المعرفة بالعقل؟[2] وإذا سبق لديكارت أن وصف ما هو عقلاني بالبسيط وما ليس عقلانيا بالمعقد، فإن تشومسكي، هو الآخر، قد ربط اللغة بالعقل ووصفها بالبساطة على عكس الكلام الذي وصفه بأنه سلوك شديد التعقيد لكونه نشاطا تتدخل فيه مجموعة كبيرة من العوامل، منها ما يمكن ضبطه ومنها ما لا يمكن الإحاطة به. وكلما صعدنا في اتجاه النحو الكلي كلما حققنا درجة أعلى من الاقتراب من البسيط[3].

المفاهيم الكلية عند العقلانيين هي مفاهيم بسيطة بالضرورة، لأنها تدرك بالعقل ولها وجود في ذاتها. فهي مستقلة عن الأشياء المدركة بالحس والتجربة. إنها كيانات عقلية استنباطية تساهم فيها طبيعتنا الفطرية بشكل حاسم. ولذلك اعتبرت مناط الاهتمام عندهم. من هنا جاءت الإشادة الحماسية لتشومسكي العقلاني بإجابة أفلاطون المقترحة لما يسمى بالسؤال أو المشكل الأفلاطوني، ومؤداها: أن المعرفة موجودة بكيفية قبلية في الذهن البشري بالقوة، وأن الذي تفعله

1- " الكليات النحوية هي أشبه ما تكون بنظرية المثل عند أفلاطون، أو الأفكار الفطرية عند ديكارت، أو لوحة المقولات عند كنط. من هنا يعود تشومسكي، ليس فقط إلى ديكارت الذي ألهمه حدوسه التوليدية، بل إلى أفلاطون بالذات... وهكذا، فكما أن المعرفة عند أفلاطون هي **تذكر**، فإن تعلم اللغة هو أيضا نوع من التذكر.= =لأن الطفل، بحسب تشومسكي، لا يتعلم إلا أسماء التصورات والمفاهيم الموجودة لديه بصورة سابقة على اللغة." علي حرب (1998).

2- " كلما واجهتنا حقيقة أن البشر يتوصلون إلى امتلاك أنساق معرفية غنية ومعقدة، انطلاقا من تجارب فقيرة و محدودة جدا، أمكننا استنتاج أن هناك عددا من الشروط القبلية هي التي تحدد النسق المعرفي المتوصل إليه " Chomsky (1977) ص. 82.

3- " يخلط كثير من الفلاسفة بين مفهوم **النحو الكلي** ومفهوم **النحو**. فالمقصود بالأول ليس هو النحو، ولكنه نظرية للأنحاء، إنه **ميطانظرية**... إنهم يستبعدون فكرة وجود أنحاء فطرية. وذلك راجع إلى هذا السبب". نفس المصدر. ص. 189.



التجربة ليس سوى إيقاظ هذه المعرفة من كمونها. وترتفع درجة الإشادة حينما يدعى:" أنه بإمكاننا اليوم تفسير هذه الإجابة تفسيرا عصريا. فمن الصور الحديثة التي يمكن أن يصاغ بها هذا الاقتراح أن يقال إن بعض مظاهر معرفتنا وفهمنا خصائص فطرية، أي أنها جزء من إعدادنا الأحيائي المحدد بالوراثة. إذ تماثل هذه الخصائص عناصر طبيعتنا المشتركة التي تجعل من اللازم أن تنمو لنا أرجل وأذرع بدلا من أجنحة[1]." ورغم ما يبدو من أن محور اهتمام تشومسكي تركز حول تقديم صياغة حديثة تستخدم مفاهيم علم البيولوجيا لإجابة قديمة تستخدم مفاهيم الفلسفة العقلانية، فإن مشروعه يظل، بصفة عامة، إسهاما فيما يسمى بلعبة الكلمات والأشياء التي يحددها الأقوياء على حد تعبير فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900)، وفي السعي الحثيث لنقل أفكار العقلانيين القدماء وتوطينها، بعد استنساخها، داخل الفكر اللساني المعاصر[2]. وتتجلى صفة القوة المبحوث عنها في مجموعة من الأقوال، مثل:" إذا ما استطاع اللساني أن يقدم إجابات عن الأسئلة الثلاثة الأولى [ومنها السؤالان الأفلاطوني والديكارتي المشار إليهما في هذه الفقرة]، فإن العالم المختص في دراسة الدماغ يستطيع حينئذ البدء في دراسة العمليات المادية التي تشي بالخصائص التي أظهرتها نظرية اللساني المجردة. أما في غياب هذه الإجابات عن تلك الأسئلة، فإن المهتمين بدراسة الدماغ لن يعرفوا ما الذي يجب عليهم البحث عنه. فبحثهم في هذا الوجه أعمى[3]."

2. 2. عقلانية نفسانية، (السؤال الديكارتي)

من أسئلة تشومسكي الاستراتيجية أو الموجهة:

أ- ما نظام المعرفة الذي يمكن نسبته إلى عقل/دماغ المتكلم الذي يتقن اللسان؟

1- Chomsky (1987)، ص.16.

2- وهكذا، فبقدر ما كانت اللسانيات البنيوية تطمح إلى الانعتاق من الماضي بكل أشكاله وإلى تحقيق قطيعة معه، بقدر ما ظلت اللسانيات التوليدية تسعى إلى ربط الحاضر بالماضي وجعله امتدادا له.

3- Chomsky (1987) ص. 18.

ب-	كيف ينشأ هذا النظام؟

ج-	كيف يستخدم أثناء الكلام [1]؟

وهي أسئلة يصنفها ضمن مجالي اللسانيات وعلم النفس الإدراكي (Psychologie Cognitive). وهما مجالان لا يميز بينهما إلا كما يميز بين العام و الخاص، لأنه يعد اللسانيات " ذلك الجانب من علم النفس الذي يهتم بالمظاهر الخاصة لهذا الموضوع[2]."ويرى أن إجابات اللساني عن تلك الأسئلة هي التي تشكل المدخل الأول والحقيقي لكل دراسة للدماغ، وأنه بدونها لا يمكن للمهتمين بتلك الدراسة " ان يعرفوا ما الذي يجب عليهم البحث عنه، فبحثهم في هذا الوجه أعمى[3]."

توظيف تشومسكي لعلم النفس الإدراكي كان بدافع تفنيد طروحات علم النفس السلوكي بمختلف صيغه، ومن ضمنها نظرية الأوتومات (Théorie des automates) المؤسسة على تصورات بافلوف، ونظرية الإخبار (Théorie d'information) كما عرفت عند ك. شانون C.Shannon و ف.ويفر W. Weaver وما تسرب من ذلك إلى الحقل اللساني كنموذج الحالات المحدودة (Modèle à états finis) لماركوف، ونموذج المكونات المباشرة (Modèle des Constituants immédiats) الذي اقترحه كل من هاريس و ر.س. ويلز Rulon. S.Wells وغير ذلك من النماذج البلومفيلدية ذات الأساس السلوكي أو الاختباري الذي تتحكم فيه النزعة التحققية كما صاغها مناطقة فيينا في الثلاثينات من القرن الماضي والنزعة الواقعية كما

1- انظر هذه الأسئلة وضروراتها المعرفية في Chomsky (1987) ص.15.

2- نفسه. ص. 18.

3- نفس المصدر والصفحة.



أشاعها واطسون في العشرينات من نفس القرن وكما تصورها تلميذه سكاينر فيما بعد[1].

وفيما عدا محاولات تعميق وتفسير النموذج التحليلي المبشر به، تبقى كتابات تشومسكي مخصصة لتبيان مدى الإسهام الكبير الذي يمكن أن تقدمه النظرية اللسانية لعلم النفس المعرفي اعتقادا منه بأن الحدود الفاصلة بين العلمين حدود وهمية[2].

وإذا تم تخصيص أعمال مثل Current Issues in Linguistic Theory[3] للتحليل المفصل للأسس المنطقية والأصول التاريخية للنظريات اللسانية، وربط التصورات المقترحة بتصورات النحو العام لبور- رويال، وأعمال مثل Cartesian Linguistics[4] للتوسع في التأكيد على العلاقة القائمة بين النحو التوليدي وما أنتجه النحاة الفلاسفة في القرن السابع عشر. إذا تم ذلك، فإنه سيتم تخصيص أعمال أخرى مثل Language and mind[5] لتأكيد الانحياز التام

1- أول عمل ساهم في شهرة تشومسكي كلساني عمله المعنون Three Models for the Description of Language الذي ظهر عام 1956 والذي خصصه لنقد النماذج اللسانية المذكورة أعلاه. وهو نقد سيستمر= =في كتابات أخرى، أهمها كتابه Syntactic Structures الذي ظهر سنة بعد ذلك (فيه تبلور مفهوم النحوية لأول مرة) والذي سيخصصه للتشكيك في الأسس النظرية والمنهجية التي قامت عليها لسانيات بلومفيلد وتلامذته وعلى رأسهم هاريس. والعملان، كما يلاحظ، خاليان من الحجج الفلسفية والإبستمولوجية التي ستشيع في كتاباته اللاحقة. وتم الاكتفاء فيهما بالحجج اللغوية المسلحة بالاستدلال المنطقي الصوري فقط، باستثناء التنبيه إلى أهمية مفهوم التفسير وربطه بأهداف النظرية اللسانية التي لن تبقى مجرد وصف سطحي للبنية التركيبية للسان.

2- " يبدو أن الفصل بين اللسانيات وعلم النفس لا معنى له... فاللساني الذي يهتم بالقدرة التي يستبطنها المتكلم لا يسعه إلا الاستعانة بما تحقق من تقدم في مجال الدراسات التي تبحث في المعرفة اللغوية. ويصدق نفس الشيء على عالم النفس الذي يحتاج هو الآخر إلى الاستعانة بما تحقق في مجال الدراسات اللسانية ". Chomsky (1980) ص. 191.

3- Chomsky (1964).

4- Chomsky (1966).

5- Chomsky (1968).



للموقف العقلاني ضدا على الموقف البيهافيوري[1] الشائع في علم النفس وضد الوضعانية المنطقية التي مارست، حينها، قدرا من الغواية في الفلسفة المعاصرة. وكل ذلك من أجل القيام بالخطوات الأولى نحو بناء نظرية لسانية تسهم في دراسة عمليات التفكير باعتبارها إشكالية نفسانية بالأساس وفي اقتراح حلول لمشاكل علم النفس المعرفي عموما، إذ يرى تشومسكي" أن الأهمية الكبرى لدراسة اللغة تتجلى في أنها تمكن من تقديم صياغة واضحة ودقيقة نسبيا لعدد من المشاكل المركزية في السيكولوجيا[2]."وبعبارة أخرى، فإن تشومسكي ظل يتصور أن اللسانيات ما هي إلا فصل من فصول السيكولوجيا[3]. ذلك أنه " بمجرد ما سنحصل على مقاربة أولى للنحو التوليدي الخاص بلسان ما، فإنه سيمكننا، وللمرة الأولى، صوغ مشكل أصل المعرفة صياغة مفيدة. وبعبارة أخرى، فإن ذلك سيمكن من طرح السؤال: ما هي البنية الأولى التي يجب أن يتوفر عليها الذهن حتى يمكنه بناء نحو من هذا القبيل انطلاقا من معطيات حسية ؟[4]" ومعنى ذلك أن معرفة النحو واللغة تشكل مدخلا رئيسيا لمعرفة أصل المعرفة البشرية أو المبادئ التي تتحكم في عملية التفكير البشري. في هذه الحالة يتم الجمع بين اللسانيات والسيكولوجيا في نظرية واحدة تختص بدراسة الذهن، ويكون الهدف منها هو " العمل على التعريف بالأنساق المعرفية. وذلك بتحديد خصائصها انطلاقا من دراستها دراسة مفصلة[5]."

1- بخصوص نقد البيهافيورية أو علم النفس السلوكي مرة أخرى، يقول تشومسكي:" إن ما ركزنا عليه منذ البداية، أنا وجماعة منهم موريس هالي Morris Halle | وهو أول متعاون مع تشومسكي. وضع مقاربة توليدية لفونولوجيا الروسية والإنجليزية. كما طور الشعرية التوليدية] و إ. لينبرج E. Lennberg = =(متخصص في علم تفس اللغة وفي البحث في أسسها البيولوجية] و ي. بار-هلل Bar-Hillel [سبق ذكره]، هو نقد علوم السلوك. فلقد بذلنا مجهودا كبيرا من أجل تقديم مقاربة بديلة لما كان يقام به في علم النفس المعرفي. " Chomsky (1977) ص. 123.

2- Chomsky (1968) ص. 100.

3- انظر الفصل الثالث من المصدر نفسه.

4- نفسه. ص. 116.

5- Chomsky (1980) ص. 172.



ويصبح من غير العبث القول:" إن التوصل إلى إدراك مختلف الأنساق المعرفية يمكن أن يتم انطلاقا من معرفة حقيقة الملكة اللغوية، حتى وإن لم تكن المعرفة اللغوية هي المعرفة المركزية، أو كانت مبادئها تختلف عن مبادئ الأنساق المعرفية الأخرى[1]."وكذا القول:" إن دراسة اللغة، وكما كان يفترض قديما، يمكن أن تفتح آفاقا ملائمة لدراسة العمليات الذهنية عند الإنسان... ويبدو أن دراسة اللغة يجب أن تكون هي مركز الاهتمام في علم النفس العام[2]."والقول:" إن النظرية اللسانية مبحث من المباحث التي تبحث في الذهن، وذلك بالمعنى العلمي للكلمة. لأنها تسعى إلى كشف الواقع الذهني الذي يقف وراء السلوك الفعلي[3]."بل إن النظرية اللسانية ما هي" إلا فرع من علم النفس المعرفي الذي يهتم بالملكة الذهنية الخاصة؛ بتطورها وبالمبادئ الفطرية التي تشكل أساس هذا التطور[4]." وأنها جزء من علم النفس النظري الذي يهتم بالبرنامج التكويني الذي يحدد طبقة الأنحاء الممكنة بالنسبة للألسن البشرية، كما يهتم بطرق استعمال البرنامج التكويني الأول من طرف المتكلمين[5]."

وجد تشومسكي نفسه مجبرا على أن يجد لنفسه موقعا بين السيكولوجيين الذهنيين، لأن مسلمته المركزية هي أن ما هو وارد أو استراتيجي إنما هو المتكلم لا الكلام، القدرة لا الإنجاز؛ حيث إن موضوع النظرية اللسانية الأول هو المتكلم المستمع باعتباره قدرة على التكلم والفهم. أما الكلام الذي اعتمده السلوكيون فلا يمكنه أن يقدم، في نظره، أية خدمة لمن يدرس معرفة

1- نفس المصدر والصفحة.

2- Chomsky (1968) ص. 140.

3- Chomsky (1965) ص. 13.

4- Chomsky (1977) ص. 11. وانظر أيضا Chomsky (1975) ص. 49.

5- Chomsky (1980) ص. 191. إلى هنا يتجلى البون الشاسع بين معالجة تشومسكي و معالجة صوسور لموضوع العلاقة بين اللسانيات وعلم النفس. عند صوسور، لم تتحدد هذه العلاقة بما فيه الكفاية، بينما هي عند تشومسكي جزء من موضوعه كما تدل عباراته أعلاه بشكل واضح.



المتكلم اللغوية. لهذا السبب ظل يدافع عن مواقفه الذهنية والفطرية وبلغ به تحمسه لعلم النفس الذهني أن يقرر، في بعض الأحيان، الانتقال من موقع المتأثر إلى موقع المؤثر الفاعل، فيتدخل لينبه علماء النفس إلى أن مهمتهم يجب أن تنحصر في القيام بأمور يحددها هو، مثل:

- اكتشاف البرنامج الفطري الذي على ضوئه تتخصص طبقة الألسن الممكنة. أي تحديد جوهر اللغة البشرية، تماما كما يفعل علم النفس البشري المسمى لسانيات، وهو ما سبق أن قام به النحو الكلي التقليدي وما تقوم به اللسانيات التوليدية الآن.
- القيام بدراسة الخصائص الحقيقية للإثارة وللتفاعل بين الجهاز والمحيط دراسة يتم فيها إبراز أن دور المحيط هو تفعيل آليات الجهاز الفطري، تماما كما هو جار الآن عند علماء النفس في جامعة بركلي.
- تحديد المعنى المقصود من الواقعية النفسية للفرضية التوليدية أو ما يقصد بتوافق الفرضية التوليدية مع المعطيات. وهي نفس المهمة التي يقوم بها علم النفس الذي يشتغل التوليديون في إطاره[1].

الارتباط بالمتكلم باعتباره موضوعا أو لغزا أدى إلى الاهتمام به من جهة كونه كائنا عارفا، ومن ثم الارتباط بمبحث المعرفة باعتباره مبحثا فلسفيا في أصله (مشكلة أفلاطون) ومبحثا من مباحث علم النفس الذهني (مشكلة ديكارت) الذي لا يهتم بالسلوك وإنما بما يقف وراءه من طبيعة (دماغ) واستعداد فطري (عقل)، دون أن تثير مسألة دراسة العقل أي حرج لدى تشومسكي. " فمن الجدير بالملاحظة أن دراسة العقل لا تدخل في باب الغيبيات، إن عدت دراسة للخصائص التجريدية للعمليات التي يقوم بها الدماغ[2]." ثم إن الحديث هنا عن العقل ليست له أية علاقة بالوجود المادي وإنما هو حديث عن عالم مجرد، حديث عن بعض العمليات المادية التي لاتعرف حتى الآن. " فمثلنا في ذلك مثل الذين كانوا يتحدثون

1- انظر التفاصيل في Chomsky (1977).
2- Chomsky (1987) ص. 19.



عن التكافؤ الجزيئي للأكسيجين أو حلقة جزئي البنزين حين كانوا يتحدثون في مستوى معين من التجريد عن بعض العمليات المادية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت. وكما مهدت اكتشافات الكيميائيين الطريق للبحث الأعمق في طبيعة العمليات التحتية، فإن الاكتشافات التي يقوم بها دارسو اللسانيات النفسية تمهد السبيل لأبحاث أعمق في العمليات التي يقوم بها الدماغ. وهي أبحاث لابد أن تسير في الظلام ما لم نعرف ما الذي نبحث عنه[1]." تطوير لسانيات نفسانية هو الذي يمنح النظرية اللسانية قدرة على تفسير ما يجري في الذهن البشري أثناء عملية التكلم، وعلى التنبؤ بكل ما يمكن أن يجري فيه أثناء العمليات المشابهة. لهذه الأسباب كلها، يرى تشومسكي أن دراسة العقل لا تدخل في باب الغيبيات، وان العقلانية المعاصرة، إن فهمت بهذه الصورة، ليست سوى " خطوة نحو إلحاق علم النفس واللسانيات بالعلوم الطبيعية[2]."

والذي يلاحظ على تشومسكي دائما هو اعتماده منطق الإحراج؛ كالقول: إن طرق البحث إما أن تعتمد الاستقراء وإما أن تعتمد الاستنباط. وكالقول: إن معرفة المتكلم باللسان إما أن تكون مكتسبة وإما أن تكون فطرية... دون أن يفسح أي مجال للقول الثالث أو للقول التوفيقي. فبعد أن انتهى من تفنيد آراء التجريبانيين القياسيين وآراء الاكتسابيين، وجد نفسه، وبطريقة آلية، يدافع عن الموقف العقلاني الفطري الاستنباطي، وذلك من خلال إثارة قضايا معينة ومنتقاة بعناية تقدم له ما يكفي من الحجج والبراهين التي هو في حاجة إليها، من مثل القدرة المستبطنة والمعرفة الفطرية والنحو الكلي والخاصية الإبداعية للغة والواقعية النفسية للفرضية وغيرها من القضايا الشبيهة[3]، وذلك من أجل تقديم تفسير

1- نفسه. ص.18.

2- نفسه. ص. 19.

3- للاطلاع على نماذج من حجج تشومسكي وبراهينه المدعمة بالأمثلة، راجع Chomsky (1987) ص.20 وما بعد. ومن التوليديين الذين توسعوا في البحث عن الأمثلة والبراهين المدعمة للطروحات التوليدية نذكر على الخصوص ستيفن بنكر Steven Pinker قبل أن يرتد. انظر Pinker (1994).



عقلاني يتداخل فيه النفسي مع الفلسفي، والفطري مع الطبيعي، كما يوضح الاستنتاج الآتي:" إن الذي يبدو واضحا هو أن الطفل يقترب من عملية اكتساب اللغة وهو مزود بإطار تصوري غير مستقر مضافا إليه نظام غني آخر من الفروض عن البنية الصوتية وبنى الجمل الأكثر تعقيدا، ويكون جزءا من معرفتنا التي جاءت من اليد الأصيلة للطبيعة كما تقول عبارة هيوم. وهي كذلك جزء من إعدادنا الأحيائي المسبق الذي توقظه التجربة، ويشحذ ويغنى خلال تفاعل الطفل مع بني البشر والعالم المادي من حوله. ونستطيع، إذا استخدمنا هذه الأطر أن نقترب من اقتراح حل لمشكلة أفلاطون[1]."

ولابد من التأكيد، مرة أخرى، على أن علم النفس الذي تعامل معه النحو التوليدي أو أسهم فيه هو علم النفس المعرفي أو الذهني أو الإدراكي بالأساس، أي ذلك الفرع من علم النفس الذي ينسب كل أنواع النشاط المعرفي إلى العقل ويقصي كل الفرضيات التي تربط بين سلوك الأفراد ومحيطهم، حيث يتم التأكيد على أن الإنسان حر وأنه يبدع دون توجيه أو تدخل. وتبعا لذلك، فإن المعرفة باللسان لا تنشأ عن المحيط أو التعلم إنما تنبع من النحو الكلي، وهو واحد من تجليات العقل[2]. وخلافا لعلم النفس البيهافيوري يتبنى علم النفس الذهني دراسة الذهن لا السلوك باعتبار أن الأول هو الذي يحدد الثاني وأنه الوحيد الذي يستطيع تفسير حقائق الكون التي لا تخضع لاحتمالات التفسير الآلي باعتماده مبادئ غير آلية أهمها مبدأ الإبداع. "ومبدأ الإبداع هذا، كما يقول الديكارتيون، واحد من مبادئ العقل، أي أنه جوهر ثان منفصل كليا عن الجسم الذي هو موضوع التفسير الآلي[3]."

1- Chomsky (1987) ص. 41.

2- إذا كان النحو الكلي مظهرا من مظاهر العقل البشري كما يقول التوليديون، وإذا كان الوصول إليه لا يتم إلا عن طريق العقل كما يلاحظ من كلامهم، فإنه قد يستنتج أن هذا النحو يندرج ضمن الكيانات الميتافيزيقية بناء على القاعدة التجريبانية: إن ما لا يدرك إلا بالعقل لا يكون إلا ميتافيزيقيا.

3- Chomsky (1987) ص. 122.

ومن مسلمات علم النفس الذهني الذي يشتغل تشومسكي في إطاره، أن العقل واحد: " إذ لا احتمال في هذا التصور لوجود عقل إنساني مختلف عن الأنواع الأخرى للعقل، أو لوجود عقول إنسانية مكونة بهيئات مختلفة. فيجب أن يكون الكائن إما إنسانا أو غير إنسان، أي أنه لا توجد درجات للإنسانية، وهو ما يعني عدم وجود اختلافات حاسمة بين الناس إذا تجاوزنا المظاهر العضوية السطحية[1]." وكذلك الملكة اللغوية، فهي واحدة عند جميع بني البشر ما دام أنها مظهر من مظاهر العقل البشري. وفي حال ما إذا استطاعت اللسانيات النفسانية بناء نظرية لهذه الملكة/العقل، تكون عبارة عن تحديد خصائصها، فإننا سنكون " قد وضعنا أنفسنا في الطريق الصحيح نحو اكتشاف عمليات الدماغ التي تشي بهذه الخصائص ومحاولة تفسيرها في إطار العلوم الطبيعية[2]."ومن هنا تمنح النظرية اللسانية لنفسها إمكانية الالتحاق بالعلوم الدقيقة[3].

والذي يضمن لتشومسكي ذلك، وفي نظره دائما، هو الدفع بالفرضية (الفطرية أو الطبيعية) إلى أقصى حدودها ليلتقي التفسير الذهني مع التفسير البيولوجي ويصبح الثاني هو الصياغة العلمية للأول. هنا يشتغل المنطق الذي يعتبر الجسر الوحيد للانتقال من الفلسفي إلى العلمي. ويتقدم هذا المنطق التقريبي في مجموعة من الصيغ، لكنه لا يخرج عن هذه الصيغة العامة:"ليس هناك شيء غيبي في هذا كله. وهذه الأمور واضحة في دراسة النحو العضوي. فبنو الإنسان مهيؤون لكي ينمو لهم أدرع وسيقان لا أجنحة... والمؤكد أنه لن يؤدي أي تغير في البيئة إلى أن ينمو للجنين أجنحة. أما لو كان النمو العضوي صدى لخصائص البيئة وحسب فإن بني الإنسان سيكونون مخلوقات لا شكل لها ولا تركيب محدد... إن الطريقة

1- نفسه. ص. 123.

2- نفسه. ص. 126.

3- " نأمل في نهاية هذه المحاولات أن نجعل من دراستنا جزءا من تيار العلوم الدقيقة، كما دخلت دراسة المورثات أو المكافئ الذري والعناصر الكيميائية في تيار العلوم الأساسية قبلها" (نفس المصدر والصفحة).



التي ننمو بها لا تعكس خصائص البيئة المادية، بل تعكس طبيعتنا الأساسية. فنحن نستطيع المشي لكننا لا نستطيع الطيران مثلا[1]."هكذا يتم الانتقال من الفرضية الذهنية للمعرفة إلى المنطق وصولا إلى دراسة الأعضاء، وكأن ما يحدث في النمو العقلي يشبه ما يحدث في النمو العضوي. وبعبارة أخرى، فإن المعركة التي حول من سيحظى بالشرعية العلمية، والتي احتدمت بين علماء النفس السلوكي (أو البيئي او المحيطي) وبين علماء النفس الذهني (أو الذاتي) أصر التوليديون الذهنيون على أن تكون نتيجتها لصالحهم. ولذلك توجهوا بالنقد والتفنيد إلى خصومهم مع البحث عن كل ما يعزز موقفهم سواء أكان فلسفة (المنطق ونظرية المعرفة) أم علما (بيولوجيا وفيزياء...). فتمر أمامنا أسماء أعلام مثل وليم فون همبولدت وجون ستيوارت ميل وميخائيل باكونين وجان جاك روسو وغيرهم ممن اعتبروا أنهم استنبطوا تصوراتهم التحريرية أو افتراضاتهم عن الطبيعة الإنسانية الأساسية، المتجلية خاصة في القدرة على الإبداع وفي تصور الإنسان إنسانا كاملا وليس آلة، من المبادئ الديكارتية أو من مبادئ تتقاطع معها[2].

إن مسألة الإدراك (مشكلة ديكارت) وما تطرحه من مشاكل تتعلق بالتعلم والاكتساب من جهة وبهشاشة وتهافت المواقف السلوكية التي تقوم على فرضية أولوية البيئة والمحيط من جهة أخرى فرضت على تشومسكي أن يتموقع داخل علم النفس الذهني وأن يتسلح بأدواته وبكل ما يتداخل معه من فلسفات وعلوم، مستثمرا في ذلك قدرته الحجاجية وبراعته في انتقاء الأمثلة الاستدلالية والقياسات

1- نفس المصدر. ص. 130.

2- انظر نفس المصدر. ص. 133. القول بالقدرة على الإبداع وبالطبيعة الحرة للإنسان قاد تشومسكي، في النهاية، إلى حمل لواء المدافع عن الحريات؛ فبالإضافة إلى كونه لسانيا، سينخرط في جميع النقاشات المتاحة التي تنادي بالمساواة والديمقراطية والعدالة، وتعمل على تعرية حقيقة التمذهب والانتماءات الإيديولوجية وما= =تخفيه من حب السيطرة والتسلط ومن جهل فاحش وأنانية حيوانية وكبح قاتل للطبيعة البشرية التواقة إلى الحرية.



البرهانية، ومتحصنا بما تطرحه علوم الإدراك[1]من أدوات أثبتت نجاعتها في دراسة العقل وفهم وظائف الإدراك والتفكير والذاكرة والفهم واللغة والتعلم والذكاء وغيرها من الظواهر العقلية الأخرى.

لقد كان للانقلاب الذي قام به تشومسكي وعلماء النفس ذوو المواقف المعرفية الذهنية ضد السلوكية التي سادت في علم النفس منذ واطسون في العشرينات من القرن الماضي وحتى سكاينر في الخمسينات من نفس القرن أثر على مجريات علم النفس، وخاصة ما يتعلق بالأسس الإبستمولوجية التي يقوم عليها. ويتمثل هذا الأثر في أن هذا الانقلاب لم يتولد عنه ما يسمى بعلم النفس المعرفي فقط، وإنما أيضا ما أصبح يسمى بعلوم الإدراك ككل. " فمع سيطرة السلوكية، اقتصر علم النفس التجريبي على دراسة العمليات المعرفية البسيطة كالتعلم اللفظي والتآزر الحسي- الحركي واكتساب المفاهيم البسيطة. واعتبر الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء، وهي الصياغة الإجرائية للمفاهيم والمشتقة من الوضعية المنطقية. وفي ضوء هذا التعريف الإجرائي كان الفرق بين ذكاء الإنسان والحيوان فرقا في الدرجة وليس في النوع... كانت السلوكية، وخاصة مع سكاينر Skinner، تستبعد عمليات التفكير والإدراك والذاكرة... من دائرة البحث العلمي، باعتبارها عمليات لا تخضع للملاحظة المباشرة، وهي، بالتالي، وفقا لهذا المنظور، أقرب إلى المفاهيم الميتافيزيقية منها إلى المفاهيم العلمية[2]."

ويتلخص الإسهام الرئيسي لعلم النفس الإدراكي، الذي عمل تشومسكي في إطاره، في أنه أعاد هذه المفاهيم إلى دائرة البحث العلمي معيدا الاعتبار إلى دور

1- " لقد كان العقد الممتد من 1955 إلى 1965 حاسما في صياغة وبلورة ما أصبح يعرف الآن بالثورة المعرفية التي تمثل أساس علم المعرفة [علوم الإدراك] الناتج عن تضافر جهود الباحثين في عدد من التخصصات، كعلم النفس المعرفي [الإدراكي] وعلم الكمبيوتر واللغويات وفلسفة العقل وعلم الأعصاب... ويعرف Gardner هذا العلم [علوم الإدراك] بأنه مجموعة الجهود المعاصرة ذات الأساس الأمبريقي المهتمة بالإجابة عن الأسئلة الإبستمولوجية القديمة، وخاصة تلك المتعلقة بطبيعة المعرفة ومكوناتها ومصادرها ونموها واستخدامها..." محمد طه (2006). 168.

2- نفسه. ص.ص. 170-171.



الإنسان كفاعل وخلاق ومبدع، ومؤكدا على حقيقة علمية نالت حظا كبيرا من الإجماع، وهي أن معيار الحقيقة لا ينسب دائما إلى الملاحظة المباشرة ولكنه قد يكون أمورا أخرى يلعب فيها الافتراض والاستنباط دورا أساسيا[1].

مع تشومسكي، أصبحت المعرفة اللغوية مربوطة بالطبيعة البشرية وليست سلوكا مكتسبا عن طريق عمليات التعزيز والعقاب كما يرى السلوكيون. في تصور تشومسكي، كل الأطفال الأسوياء يكتسبون ألسنهم القومية في أعمار متقاربة بغض النظر عن البيئات التي يعيشون فيها. وهو تصور سينتهي به إلى افتراض أن تكون اللغة عبارة عن نسق معرفي ذي أساس فطري، بلغة الفلاسفة، وبيولوجي، بلغة العلماء. وبدون افتراض هذا النسق وبهذا الشكل يصعب، لا محالة، الإخبار عما يجري في ذهن المتكلم أثناء عملية الكلام، وكذا تفسير عملية الاكتساب. هذا التصور هو الذي أتاح لتشومسكي فرصة الإسهام في تأسيس اللسانيات النفسانية بعد أن أسهم في تأسيس علوم الإدراك. مما يعني أن نشاط تشومسكي كان متعدد الوجوه، إلا أنه تعدد ظاهري فقط؛ فرغم أنه لساني ونفساني وعالم إدراك، فإنه غالبا ما تتداخل هذه الوجوه إلى درجة التماهي نظرا لتصور تشومسكي أن هذه المجالات الثلاثة لا يستغني بعضها عن بعض.

ولعل الذي دفع بتشومسكي إلى الاهتمام بالظاهرة اللسانية في بعديها النفساني والمعرفي هو ما يجمع بين اللغة والنفس والمعرفة من كونها جميعا يمكن أن ينظر إليها على أنها تجليات للعقل. وبالتالي فإن لسانيات تشومسكي، ومن هذا المنظور، لسانيات تتأسس على فلسفة العقل، وهي فلسفة تقوم على مناهضة الفلسفات اللاعقلانية كتلك التي دافع عنها كل من لوك وهيوم وميل وغيرهم من الفلاسفة الإنجليز، وتدعو إلى ربط المعرفة بالعقل كما فعل ديكارت وكنط[2]. ولقد استطاعت فلسفة العقل، عبر مختلف تمظهراتها الحديثة من لسانيات توليدية وعلم نفس معرفي وعلوم إدراك، إعادة طرح مسألة المعرفة في ضوء ما وفرته

1- وهو ما يفيد، مرة أخرى، الحضور القوي لبوبر في مجملات وتفاصيل تشومسكي.

2- وهو ما بيناه في الفقرة السابقة. انظر الفقرة (1.2) من هذا الفصل.



الاكتشافات الحديثة سواء في مجال الإبستمولوجيا أو في مجال العلوم. الأمر الذي أتاح إمكانية معالجة قضايا كانت في منتهى الصعوبة؛ كالعلاقة بين العقل والجسم، وكتفسير عملية التفكير ومدى قدرة الآلة على ذلك... وغيرها من القضايا التي أصبحت تحظى بالمعالجة العلمية بعد أن كانت في عداد الميتافيزيقا. فالأساس الموجه لكل هذه الثورة هو الاعتقاد بأن العقل والنفس وتمظهراتهما من تفكير وذكاء وتذكر ومعرفة ولغة... كلها يمكن أن تكون موضوعات للعلم وللدراسة المنهجية، وذلك في ظل مسلمات الإبستمولوجيا الحديثة، خاصة الإبستمولوجيا العقلانية التي رادها كارل بوبر ومن نحا نحوه.

من جهة أخرى، إن علوم الإدراك **Sciences Cognitives** التي تجمع كلا من علم النفس المعرفي واللسانيات المعرفية وعلم الأعصاب المعرفي والذكاء الاصطناعي، والتي تقوم على الاهتمام بالعمليات العقلية الداخلية "لا تمثل مجرد فرع جديد من فروع العلم، بل تمثل بالأحرى نظرية قبلية أو نموذجا إرشاديا جديدا وثورة علمية على التقليد السلوكي، وذلك بالمعنى الذي استخدمه مؤرخ العلم الفيزيائي والفيلسوف الأمريكي توماس كون T. Kuhn "[1]. ومعنى ذلك، أن علوم الإدراك التي ارتبطت بها أبحاث تشومسكي تمثل باراديكما جديدا بالفعل؛ لأنها مكنت من حل مشكلات النماذج السابقة، ومن أهمها مشكلة المعرفة التي لم تستطع تلك النماذج حلها. وعلى رأس هذه النماذج، في حالة تشومسكي مثلا، النموذج السلوكي وكل النماذج التي تفسر المعرفة بالمحيط والبيئة. فقد قامت السلوكية على أساس النموذج الفيزيائي للقرن التاسع عشر الذي سيطرت عليه المنطلقات الوضعانية كما أسسها أوجست كونت، فأقصت كل ما لا يخضع للملاحظة المباشرة كمفاهيم العقل والذكاء والشعور... واقتصرت على ما يرتبط بالمثير والاستجابة في تفسير السلوك البشري الذي لا يختلف في نظرها عن السلوك

1- محمد طه (2006). ص. 176.



الحيواني. وبنت تصورها للإنسان على أساس اختزاله إلى متلق سلبي ليتقلص الفارق بينه وبين الحيوان إلى فارق كمي فقط[1].

إن عجز السلوكية، باعتبارها باراديكما، عن حل المشاكل المنتظر حلها هو الذي عجل بزوالها وفتح المجال أمام ظهور باراديكم آخر هو علوم الإدراك التي أعادت الاعتبار للعمليات العقلية الداخلية. والمنطق التاريخي الذي تحكم في هذه العملية هو نفس المنطق الذي تحكم في عملية انتقال العلم العام من مرحلة القول بالحتمية واليقين إلى مرحلة القول باللاحتمية واللايقين (فيزياء هيزنبرغ مثلا). وقد كان لذلك تأثيره في علم النفس الذي تتداخل معه اللسانيات التوليدية، حيث ساد المنظور الذي يرد الاعتبار إلى الاهتمام بالقدرة الإبداعية للبشر باعتبارها مسألة دالة ومفسرة[2]. ولذلك، فإنه لا غرابة في أن يسود روح التعاون والعمل الجماعي بين علماء النفس المعرفي واللسانيين التوليديين[3]. وهو ما يعكس التفاهم جميعا حول أسس

1- يرى جون لوك John Locke (1632-1704) أن المسلمات التي تقوم عليها التصورات السلوكية يمكن تلخيصها فيما يأتي:

(1) الحتمية Déterminisme، بمعنى أن كل أفعال وأفكار ومعتقدات الإنسان محددة كليا بقوى خارجة عن نطاق سيطرته، وخاصة القوى البيئية؛

(2) المصاحبة الثانوية Epiphénomalisme، أي أن كل الحالات الشعورية، كالأفكار مثلا، إنما توجد كناتج ثانوي للأحداث الفيزيقية في الجسم و/أو في العالم الخارجي؛

(3) رفض الاستبطان Introspection كمنهج علمي للبحث." (نفسه. ص. 177).

2- يرى هـ. كاردنر H. Gardner أن بوادر أزمة السلوكية وبدايات علوم الإدراك ترجع إلى عام 1948 مع انعقاد مؤتمر حول **الميكانيزمات الدماغية للسلوك في معهد** كاليفورنيا للتكنولوجيا الذي= =شارك فيه نخبة من الرياضيين ومن علماء فسيولوجيا الأعصاب ومن المتخصصين في علم النفس العصبي. وهو المؤتمر الذي شهد أول انقلاب علني على السلوكية وذلك من خلال العرض الذي تقدم به كارل لاشلي Karl Lashley، أستاذ علم النفس العصبي بجامعة هارفارد، والذي أعلن فيه صراحة عن إفلاس التصورات السلوكية، مبينا عدم قدرتها على تفسير أنشطة البشر التي تدل كل البراهين على أنها أنشطة لا يمكن أن تكون إلا مخططة بكيفية قبلية، وأنها لا تعتمد على البيئة. انظر محمد طه (2006) ص. 178.

3- يتجلى هذا التعاون، فيما يتجلى، في الإحالات المتبادلة (مؤلفات تشومسكي مليئة بالإحالات على علماء النفس المعرفي والعكس) وفي إصدار الأعمال المشتركة، كالعمل المشترك بين تشومسكي و بين عالم النفس المعرفي ج. ميلر G. Miller والموسوم بـ Models of language Users (1963).



معرفية واحدة، أهمها: أن دراسة اللغة، باعتبارها معرفة، تشكل مدخلا ممتازا لمعرفة العقل البشري الذي صار، منذ الآن، موضوعا معترفا به داخل مدونة العلوم[1].

3.2. عقلانية بيولوجية؛ (سؤال لينبرج)

خلال التسعينات من القرن الماضي، ركز تشومسكي أبحاثه حول ما أسماه البرنامج الأدنوى (Programme minimaliste) الذي يقوم على افتراض أن الملكات اللغوية للدماغ هي أقل ما يمكن توقعه مع وجود قيود خارجية تتمثل في اللسان الموجود في المحيط وتفرض علينا بشكل مستقل، وأن هذه القيود تتدخل عند الانتقال من القدرة اللغوية أو الاستعداد الفطري البيولوجي إلى قدرة لسانية. في هذه المرحلة ركز تشومسكي بشكل أقل على بعض الأشياء التي كانت تحتل مركز الاهتمام في المرحلة الفلسفية للنظرية، كالنحو الكلي المطبوع في أدمغتنا، وبشكل أكبر على البعد البيولوجي للغة، حيث الدماغ هو المسؤول عنها. الدماغ، حسب تشومسكي، هو الذي يمكن الإنسان من بناء ما لا حصر له من التصورات حول لسانه، وبفضله يستطيع أن يربط بين الأصوات وتلك التصورات. وليست قواعد النحو التي نلاحظها سوى نتائج أو استنتاجات أو آثار ثانوية للطريقة التي تشتغل بها اللغة. كما يمكن، مثلا، وصف الطريقة التي تتحرك بها عضلة من العضلات بواسطة قواعد، لكن هذه القواعد ليست سوى مجرد تفسير لما يحدث بالنسبة لتلك

1- هنا لابد من الإشارة إلى أن علم النفس المعرفي يختلف عن كل تيارات علم النفس التي اشتهرت بدراسة الإدراك. ومن أهمها:
- التيار الجشطالتي (دراسة الإدراك كشكل، أي عبر تجلياته الظاهرة).
- والتيار الفينومينولوجي (الدراسة الوصفية للظواهر في تاريخيتها دون اهتمام بتفسيرها في ذاتها).
- والتيار البافلوفي (تفسير سلوك البشر على أنه مجرد ردود أفعال لمثيرات خارجية تماما كما يفسر سلوك الحيوان).
- والتيار البيهافيوري (ربط سلوك البشر بالمحيط الخارجي).
- والتيارات الإكلينيكية (اعتماد التعامل المباشر مع المريض).
- والتيار الفرويدي (اللاشعور يقع فوق العقل وإليه تنسب سلوكاتنا. ورغم ذلك، فإنه يمكن إدراكه بالملاحظة وإخضاع الشخص الهدف لأسئلة المحلل).



العضلة، وليست هي الآليات التي يستعملها الدماغ لتوليد هذه القواعد، وقبل ذلك لتوليد الحركة.

وتشير الإحالة على البيولوجيا إلى الخاصية الكبرى للنواة الصلبة لفرضية النحو الكلي الذي يتصوره تشومسكي عضوا بيولوجيا. هنا يمكن القول: إن الفرضية البيولوجية، وهي عنصر من عناصر أنطولوجيا خطاب تشومسكي، ليست مجرد غطاء استدلالي للنظرية التوليدية ولكنها تشكل أساسا من أسس هذه النظرية. حتى إنه ليمكن القول: إن هناك شبه إجماع بين متتبعي هذه النظرية على أن اللساني الشومسكاوي هو من يتأسس تصوره للغة على اعتبارات بيو- سيكولوجية. ففي ظرف عشرين سنة، بدءا من الخمسينات وانتهاء بالسبعينات من القرن العشرين، تم الانتقال من الأفق الفلسفي إلى التعصب البيو- سيكولوجي؛ من القدرة الفطرية كفرضية فلسفية إلى البنيات الذهنية كفرضية نفسانية بيولوجية [1]. والذي يلاحظ هو أن هذا الانتقال تم بشكل سلس ومنسجم كما عبر G/P :" ينعكس الانسجام الفلسفي لعمل تشومسكي في العلاقة الواضحة التي أقامها بين الديكارتية والبيولوجيا. إن بيولوجيا تشومسكي هي بيولوجيا خاصة جدا؛ بيولوجيا مهندس متحمس للبيوميكانيكا الديكارتية؛ فكما أن الطيور تبني أعشاشا والعناكب تنسج خيوطا، فكذلك الإنسان يصنع جملا[2]."

في هذا التصور، لا مجال للحديث عن التفسير التكويني للبنيات الذهنية وإنما كل شيء يتم بالفطرة والطبيعة. فكما أن لنا أذرعا وأرجلا، فكذلك لنا بنيات ذهنية مسؤولة عن اللغة. ولقد شكلت المواجهة التي تمت بين بياجي وتشومسكي[3]مناسبة تاريخية لهذا الأخير ليعلن بوضوح عن موقفه وليفند بالحجة

1- يمثل تأرجح تشومسكي بين الفطري والبيولوجي الاستجابة المنهجية والتكامل التصوري لما يفرضه كل من قيد التجريد وقيد التجريب؛ حيث يفترض مع الأول أن تكون اللغة مظهرا من مظاهر العقل، بينما يفترض مع الثاني أن تكون عضوا بيولوجيا مكانه في الدماغ.

2- G/P (1981) ص. 188.

3- انظر الفقرة (3.1) من الفصل الثالث من هذا العمل.



النفسانية والبيولوجية موقف علم النفس المعرفي في جنيف[1]. كما لا مجال للحديث عن الانتخاب الطبيعي[2]وعن نظرية التطور بصفة عامة التي سبق لتشومسكي ان أشار في حقها إلى أنها " يمكن أن تمدنا بالكثير عن أشياء كثيرة، لكنها، على صورتها التي تعرف اليوم، لا تسهم إلا بالقليل فيما يخص مسائل [كاللغة]." [3]إن تشومسكي ينفي أن يكون الانتخاب الطبيعي هو السبب الأول في وجود اللغة[4]، ويفترض أن تكون خاصية أوجدتها خصيصة معينة ثم عمل الانتخاب الطبيعي على تطويرها فيما بعد، وأن اللغة ما هي إلا جزء من إرثنا الأحيائي المشترك يمكن أن تدرس كما تدرس الأنظمة الأحيائية الأخرى. ومهمة اللساني، حينئذ، هي التعرف على الطبيعة الحالية للغة، وهي نفس الطبيعة التي يعتقد أن اللغة قد استقرت عليها ولم تتغير منذ أن اقترنت بالبشر، دون أي اهتمام بما كانت عليه في العصر ما قبل البشري وبما عرفته من تطورات حتى صارت إلى ما صارت إليه مع البشر[5].

وربما عادت صلابة النظرية التوليدية وصمودها أمام أعتى الهجمات والاختبارات التفنيدية إلى أن نواتها الصلبة، وهي ربط الظاهرة اللغوية بأنشطة الدماغ البشري، تحيل على مجال لم يحرز فيه العلم المختص، وهو البيولوجيا، أي

1- انظر تعليقا من هذا النوع في G/P (1981) ص. 188 – 194.

2- المقصود من ذلك العملية التطورية التي بموجبها تتراجع صفات وتظهر أخرى مكانها استجابة لما يفرضه المحيط.. وهكذا وبالتدريج تتغير طبيعة الكائن أو العضو وينتقل من حالة إلى أخرى. تم اقتراح هذا المفهوم كتفسير منافس لمجموع الاقتراحات المقدمة لتفسير التطورات البيولوجية.

3- تشومسكي (1987) ص. 143.

4- وهو عكس ما اعتقده بعض مؤولي تشومسكي أمثال جون مايناردسميث John Maynard Smith، وهو واحد من أبرز علماء الأحياء، (انظر المزيني (1996)). وجيري فودور Jerry Fodor الذي حاول أن يقرب بين وجهتي النظر الشومسكاوية والداروينية بخصوص طبيعة وتطور المعرفة اللغوية. انظر Fodor (2000).

5- انظر Chomsky (1987) ص.ص. 143-146. وانظر، أيضا، النقاش الذي فتحه ستيفن بنكر Steven Pinker في نفس الموضوع قصد الطعن في موقف تشومسكي القائم على القول بتوارث الصفات حيث تنتقل صفات السابق إلى اللاحق دون تغيير، وهو قول مناهض للقول بالانتخاب الطبيعي. انظر Pinker (1994).



تقدم نوعي، كما يشهد بذلك أحد علماء البيولوجيا، مستدركا، بعد الإشادة بما حققه العلم المعاصر من تقدم، بالقول:"... على أن هناك حالات قليلة لم يحرز فيها العلم التقدم المنشود، مثل طريقة عمل الدماغ والنمط الجيني. ويتحتم أن نؤكد أن هذه الحالات هي مجرد استثناءات[1]." ويتسبب تشومسكي في إحراج البيولوجيين حينما يفترض أن اللغة عضو بيولوجي مكانه في الدماغ. وهو إحراج يمكن أن يدرك من خلال هذا الاعتراف الذي يصدر عن واحد من كبار إبستمولوجيي البيولوجيا، وهو إرنيست ماير:" من المؤكد أن المهارات البشرية المختلفة تتحكم فيها مناطق مختلفة. ولكن نظرا لشدة جهلنا الحالي بالطريقة التي يعمل بها الدماغ، فسوف نضل لو قطعنا بوجهة نظر محددة عن التراكيب الدماغية المسؤولة عن معرفة العالم والتعرف عليها[2]."ورغم هذا الاعتراف المر، فإن ماير يستأنف بلغة يملؤها شيء من الأمل، فيقول: " [ورغم ذلك]، فإن ما نعلمه حاليا يكفي أساسا لتمييز ثلاثة أنواع من المناطق الدماغية... [ومنها] تلك المهيأة للبرامج المفتوحة، حيث إنها، بعد الولادة، تظل مهيأة لاستقبال المعلومات من الوسط الذي يعيش فيه الطفل وإصدار الإشارات للتصرف إزاءها بالطريقة المناسبة. ودائرة نفوذ هذه المناطق الدماغية تشمل كثيرا من مكونات جهازنا المعرفي، مثل القدرة على تعلم اللغات أو اكتساب العادات الحميدة. وأفضل وقت لاكتساب القدرة على أداء هذه المهارات هو الطفولة المبكرة، حيث إنها بمجرد اكتسابها يصعب نسيانها أو إزاحتها[3]."

يقسم ماير ما يسميه بالمعرفة التطورية إلى:

- معرفة تطورية داروينية.
- ومعرفة تطورية واعية.

1- ماير (1997). ص. 101
2- نفسه. ص. 93.
3- نفس المصدر والصفحة.



وتقوم هذه الأخيرة على افتراض " أن في أدمغة الناس تراكيب معينة هي وحدها التي تمكنهم من التعامل مع العالم الخارجي على حقيقته[1]." أي بدون اللجوء إلى الحواس.

كان تشومسكي يعي جيدا التحديات التي تعترض الفرضية البيولوجية، ومنها استحالة إجراء التجارب؛ " فعديدة هي الحواجز التي تعترض تقدم الدراسات القائمة على افتراض الأصل البيولوجي للغة البشرية، ومن أهمها استحالة إجراء التجارب المباشرة على البشر[2]." إلا أنه يذكر بأن النحو التوليدي ليس نموذجا للبنية العصبية للدماغ؛ " إنني لا أدعي أن لكل منا صندوقا في دماغه... إننا لا نعرف إلا القليل عن الواقع المادي للأنساق المجردة التي نقترحها[3]." وحتى لا يواجه بالاختبارات التجريبية المتطرفة، فإنه يقترح أن نميز في دراستنا للعضو بين مظهره التجريدي ومظهره الفيزيقي؛ " فبخصوص دراسة أي كيان عضوي، يمكن أن نميز ما بين البحث التجريدي عن الأسس المتحكمة فيه وما بين المظهر الفيزيقي لذلك الكيان... فلكي ندرس كيانا عضويا ما، يمكننا العمل على تجريد برنامجه على مستوى مجرد أولا، ثم نبدأ بعد ذلك في البحث عن الكيفيات الفيزيقية التي يتحقق بها ذلك البرنامج. ويمكن الإشارة إلى أن البرنامج الواحد يمكن تمثيله بواسطة أجهزة جد مختلفة إن على مستوى التصور أو على مستوى التكوين[4]."

بعد هذا، يتصور تشومسكي أنه قد وفر لفرضيته البيولوجية من القوة والمناعة ما يحميها من الضربات التفنيدية. فهي، بالنسبة له، تظل قوية بحجة أن فرضية مماثلة، وهي فرضية إيريك لينبرج Eric Lenneberg، ظلت فرضية قوية لأن النقد الذي وجه إليها أغلبه كان موجها من طرف علماء النفس المعرفي. ولم

1- نفسه، ص. 91.

2- Chomsky (1980) ص. 203.

3- Chomsky (1977) ص. 15.

4- Chomsky (1980) ص. 213.



تواجه بأي دحض من طرف علماء الطبيعة[1]." رغم أن لينبرج يتبنى تصورا للسانيات قد يبدو مجازفا إلى أبعد الحدود؛ فهو يرى " أن اللسانيات دراسة تشريحية للجسم البشري، مثلها في ذلك مثل باقي الدراسات التشريحية الأخرى[2]." ولكون هذه المجازفة قد مرت بسلام، فإن تشومسكي يشيد بموقف البيولوجيين من فرضية لينبرج التي نعتبرها أساسا من أسس الفطريين الجدد وتشومسكي واحد منهم، فيقول:" كثير من البيولوجيين الذين تناولوا بالنقاش مسألة اللغة والدماغ البشري لم يجدوا أي نقص في المبادئ التي قامت عليها فرضية لينبرج ولا أي عيب في الطريقة التي صيغت بها أو في النتائج التي طورها الفطريون الجدد[3]."

وبما أن الأمر كذلك، فإن تشومسكي سيعلن بلغة فيها الكثير من الجرأة:" اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة البيولوجية للكائن البشري، ويجب أن تلحق دراستها بعلم التشريح... هذا ما علمنا إياه لينبرج. وهدفنا نحن هو إعادة بناء تصور الأصل البيولوجي للقدرات اللغوية وتوضيح الفرضيات الخاصة بذلك قصد إخضاعها للاختبار التجريبي[4]." فقد بدا لتشومسكي "أن الدراسات التي قام بها لينبرج وتلك التي قام بها آخرون من تخصصات أخرى تعد بالكثير في مجال الأصول البيولوجية للمعرفة اللغوية[5]."التخصصات الأخرى التي يقصدها تشومسكي هنا هي

1- انظر نفس المصدر، ص. 200.

2- Chomsky (1980) ص. 175. كان هدف لينبرج " أن يصبح علم اللغة مماثلا لعلوم الطبيعة. ونحن نعلم أنه قد وجه كل جهوده نحو أن يقنع الناس بالطبيعة البيولوجية للغة؛ فبالنسبة إليه، إذا، كان موضوع دراسة أنساق النحو هو **النظام الداخلي الخاص** و **الخصائص البنيوية الخاصة** للجهاز الذي **نفترض وجوده** والذي يعتبر مكونا من مكونات نسق البنيات المعرفية الذي يتكون خلال نمو الفرد. " نفسه. ص.ص 176- 177 .

3- نفسه. ص. 200. للتوسع في هذه النقطة يحيل تشومسكي على مجموعة من المصادر، منها: Limits to the Scientific Understanding of man. نفسه. ص.ص. 268- 269. الهامش 21.

4- نفسه. ص. 175. يضيف تشومسكي : " أمام النجاح الكبير الذي أحرزته البيولوجيا في العقود الأخيرة، نأمل أن تلحق بعض القضايا الكلاسيكية المتعلقة بطبيعة العقل البشري وما يرتبط به بالعلوم الطبيعية في السنوات القادمة. " نفسه. ص. 238.

5- نفسه. ص.ص. 203-204.



فيزيولوجيا الأعصاب؛ فقد بدا له أنه من الطبيعي أن يفترض علماء فيزيولوجيا الأعصاب فرضيات شبيهة بالفرضية الفطرية التي طورها علماء النفس المعرفي واللسانيون الفطريون الجدد دون أن يثير ذلك أي مشكل[1]. ومهمة البيولوجيا التي يتبناها تشومسكي " هي الكشف عن الكيفيات الفطرية التي تتركب بها مختلف الصيغ اللغوية... إن اكتشاف ووصف المكانيزمات الفطرية يعتبر عملا تجريبيا كاملا، ويشكل جزءا من البحث العلمي المعاصر[2]." ومسوغات هذا التبني، من وجهة نظر تشومسكي، هي ما يراه هو نفسه:" على اللساني أن يفسر كيف أن الفرد يتوصل، انطلاقا من معطيات محدودة للغاية، إلى امتلاك معرفة غنية جدا بلسان ما. فالطفل العادي الذي يعيش وسط جماعة لسانية معينة والذي لا يسمع سوى مجموعة محدودة من الجمل يستطيع، رغم ذلك، وفي زمن قصير نسبيا، إتقان نحو لسان تلك الجماعة، مطورا بذلك معرفة معقدة جدا لا يمكن أن تبنى مما هو محدود وناقص أو مما توفره التجربة وحدها. وهذا لا يمكن أن يفسر إلا باعتباره خاصية بيولوجية. فكلما صادفنا ظاهرة مماثلة تبنى فيها المعرفة انطلاقا من معطيات محدودة، سلمنا بان هناك مجموعة من الضغوط القبلية هي التي حددت تلك المعرفة[3]." مثل هذا المسوغ الذي ينقلنا من فضاء فلسفي، هو فضاء بناء المعارف، إلى فضاء تلتبس فيه الفلسفة بالعلم (البيولوجيا هنا) نجده عند البيولوجي إرنيست ماير الذي يتساءل:" كيف يمكن تكوين فكرة عن الفضاء والزمن وغيرهما من الخصائص الكونية التي ليست في متناول إدراكنا الحسي؟ هنا يأتي

1- انظر التفاصيل في نفس المصدر. ص. 200.

2- نفسه. ص. 176.

3- Chomsky (1977) ص. 95. الهدف البعيد الذي كان وراء تبني الفرضية البيولوجية هو نفس الهدف الذي كان وراء تبني فرضيات أخرى، كالفرضية الفطرية، وهو وضع أسس لنظرية حقيقية للتعلم، فتشومسكي راهن كثيرا على "إمكانية التوصل يوما ما إلى بناء سيكولوجيا للذهن تمكن من تحديد الخصائص البنيوية= =للأنظمة الذهنية الخاصة والكيفيات التي تعمل بها. كما تمكن من اقتراح الأسس البيولوجية الكلية التي تحكم تلك الأنظمة. وبذلك نكون قد وضعنا الأسس لبناء نظرية حقيقية للتعلم يمكن تطبيقها في ميادين مختلفة." Chomsky (1980) ص. 238.



دور فلسفة كنط في التأثير في تفكيرنا المعرفي. فهو يعتقد على حد فهمي أن دماغ الإنسان مصمم بحيث إن المرء -لحظة ولادته- تكون لديه بصيرة بهذه الخصائص الكونية. وعلينا أن نتذكر أن كنط كان أصوليا في معظم أوجه تفكيره، وكان مقتنعا بأن العالم بظواهره المتغيرة يتمثل في تفكيرنا قبل الولادة، أي من دون سابق خبرة شخصية[1]."

ومن مظاهر تشبث تشومسكي بالفرضية البيولوجية قوله:"إنني أفترض أن طبقة الألسن البشرية الممكنة [= النحو الكلي] طبقة محددة جينيا، وهي خاصية يختص بها الجنس البشري. وعلى كل نظرية لسانية أن تجعل من أهدافها دراسة اللغة بهذا الاعتبار. وهكذا يمكن اعتبار النظرية اللسانية نظرية للجهاز البيولوجي المسؤول عن اكتساب واستعمال اللغة، أو نظرية للنحو الكلي تفسر خصائص اللغة البشرية التي تفرضها الضرورة البيولوجية[2]."وقوله أيضا:" يعتبر النحو الكلي، كما يسميه عدد كبير من اللسانيين، نظرية لميكانيزمات فطرية أو عضوا بيولوجيا مضمرا. إنه الإطار الذي تنمو اللغة بداخله. وليس هناك ما يمنع اللساني من أن يدعي وجود هذا العضو الذهني الفطري؛ إذ توضح مبادئ النحو الكلي أنها مبادئ تقوم بتخصيص مجرد وجزئي للبرنامج التكويني الذي يمكن الطفل من فهم بعض الأحداث باعتبارها تجربة لغوية، وبناء نسق من القواعد والمبادئ[3]. "

أصل هذا الافتراض ليس هو التشريح نظرا لاستحالته كما أشرنا، ولكنه الاستنباط فقط؛ الاستنباط الذي يصوغه تشومسكي كالآتي:" كيف أن الفرد يتوصل، انطلاقا من معطيات محدودة جدا، إلى امتلاك معرفة غنية جدا بلسان ما؟" ثم يأتي الجواب هكذا: "هذا لا يمكن أن يفسر إلا باعتباره خاصية

1- ماير (1997) ص. 92.

2- Chomsky (1977). ص. 10. ويؤكد تشومسكي في كل المناسبات أن التفسير البيولوجي للنحو الكلي (= اللغة) تفرضه الضرورة البيولوجية لا المنطقية. انظر على سبيل المثال Chomsky (1975) ص. 40.

3- Chomsky (1980) ص. 177.



بيولوجية." ويعقبه التعميم:" كلما صادفنا ظاهرة مماثلة تبنى فيها المعرفة انطلاقا من معطيات محدودة، سلمنا بأن هناك مجموعة من الضغوط القبلية هي التي حددت تلك المعرفة[1]." والذي تجب الإشارة إليه هنا هو أن الملاحظ لا يمكن أن تغيب عنه الطبيعة الفلسفية، لا البيولوجية، لهذا السؤال. وهو ما يقر به تشومسكي نفسه في الفصل الأول من كتابه اللغة ومشكلات المعرفة حينما يسميه بالسؤال الأفلاطوني. إلا أن الذي يثير الاهتمام هو: كيف يتم الانتقال من سؤال فلسفي إلى جواب بيولوجي؟

عند تشومسكي يتماهى العقل الذي ينتج المفاهيم، وهو من طبيعة فلسفية، بالدماغ الذي يتعرف على الأشياء، وهو من طبيعة بيولوجية، حينما يرى، وهو بصدد الدفاع عن أطروحته البيولوجية، أن الطريقة التي يدرس بها العضو اللغوي يجب أن لا تختلف عن الطريقة التي يدرس بها عضو من الأعضاء البيولوجية[2]. ويبدو أن الوقوع ضحية التماهي في هذا الباب كان سمة من سمات العصر؛ فلقد سبق لكونراد لورنز Konrad Lorenz (1903-1989)، وهو أحد أسلاف تشومسكي ممن جمعوا بين الفلسفة والعلم، أن وضع عام 1941 نظرية في المعرفة التطورية على أساس الفكرة التي كان ينادي بها سلفه كنط، "وشبه تركيبات الدماغ المؤهلة للمعرفة بزعانف الحوت الوليد التي تؤهله للسباحة[3]."وقد بدا لفيلسوف البيولوجيا إرنست ماير " أن كلام لورنس (لورنز) شبيه في أساسه بحقيقة أن العينين توجدان عند الجنين قبل الحاجة إليهما بوقت طويل[4]."

1- انظر هذا الاستدلال كما ورد في صفحات من Chomsky (1966) و Chomsky (1977).

2- يتخذ تشومسكي الطريقة التي يدرس بها عضو بيولوجي ما، كالبصر، ليقيس عليها الطريقة التي يجب أن يدرس بها العضو اللغوي. وهي طريقة تلتزم بالإجابة عن مجموعة من الأسئلة هي: ما وظيفة العضو؟ وما بنيته؟ وما هو أساسه الفيزيائي؟ وكيف يترعرع؟ وأين ينتهي به التطور؟ انظر التفاصيل في Chomsky (1980) ص.ص. 214-215.

3- ماير (1977) ص. 92.

4- نفس المصدر والصفحة.



إن تأكيد تشومسكي على الأساس البيولوجي للمعرفة اللغوية قد شكل نقطة تداخل مع تصورات فلسفية كثيرة تتبنى نفس الموقف، ومن أهمها، في نظره، تصور تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce الذي يعتبره واحدا من الذين تأثر بهم كثيرا. إذ تقوم فرضية بيرس المركزية على القول: " إن تكويننا البيولوجي معد لأن يساعدنا في عملية اختيار الفرضيات العلمية(1)."

وحسب هذا الطرح، " فإن دراسة اللغة ستشكل في نهاية المطاف جزءا من بيولوجيا البشر(2)." وينتج عن ذلك أن اللساني الحق هو الذي ينخرط ضمن مجتمع البيولوجيين قبل أن تكون له عضوية شرفية في علوم أخرى. ولن يكون العضو البيولوجي المسؤول عن اللغة أو عن عملية اكتساب الألسن سوى ما يسميه تشومسكي النحو الكلي الذي يراه عبارة عن برنامج بيولوجي(3).

ورغم أن تشومسكي يجهد نفسه ليبعد عن استدلاله، في هذا الجانب، شبهة أنه ينطلق من أسس منطقية وأن الدعوة إلى البيولوجيا هي مجرد دعوى فقط، كأن يعلن:" إن أكثر الدراسات نجاحا هي التي تبحث في الكليات اللغوية، أي مبادئ اللغة التي تستمد صدقها الشامل من الضرورة البيولوجية [لا المنطقية]،"4 فإن هذه الشبهة، مع ذلك، ظلت تلاحق استدلاله الذي أريد له أن يكون بيولوجيا. فلا نشك أن قارئا يتمتع بحس إبستمولوجي سيفوته إدراك الوجه المنطقي المتخفي وراء قناع البيولوجيا في أغلب النصوص التي تعمدنا إيراد الكثير منها في هذه الفقرة والتي يخصصها تشومسكي للإعلان عن تصوره البيولوجي للغة.

وحتى يكون كلام تشومسكي حول الأساس البيولوجي للمعرفة اللسانية موجها إلى من يعنيه أمرهم، وهم أصحاب القول بنظرية التعلم، فإننا نذكر بالتمييز التصوري الذي نرفض أن يفهم على أنه مجرد تمييز منهجي؛ التمييز بين

1- Chomsky (1977) ص.ص. 87-88.

2- Chomsky (1980) ص. 213.

3- انظر تصور تشومسكي للبرنامج البيولوجي في Chomsky (1980) ص. 220.

4- نفسه.ص. 218.



قولنا الطفل يتعلم وقولنا اللسان ينمو وينضج فكما لا يصح أن يقال: إن الطفل أو الجنين يتعلم كيف يتوفر على سواعد بدل أجنحة، فكذلك لا يصح أن يقال: إن الطفل ينمو عنده اللسان[1]. إن العضو المسؤول عن امتلاك الألسن يتميز بكونه قادرا على النمو والنضج والتبنين، وليس مجرد صفحة بيضاء تسجل عليها الجمل المسموعة ليتم ترديدها فيما بعد. يقال كل هذا ضدا على كل المواقف التجريبانية التي ترى أن الحواس تشكل بوابات الدماغ المنفتحة على العالم الخارجي. ومن هذه المواقف موقف اللسانيين الوصفيين.

2. 4. عقلانية إبستمولوجية؛ (سؤال بوبر)

ليس المهم، بالنسبة للإبستمولوجي، هو رصد الخطوات التي يخطوها العالم وهو يروم الوصول إلى بناء فكرة أو نظرية علمية جديدة. لكن المهم هو استنباط المنطق الذي يتحكم في تصوراته بما تقوم عليه من مقدمات وبديهيات، وفي مناهجه بما يؤطرها من مسلمات وقناعات[2]، ثم البحث عن أسانيد هذا المنطق المتمثلة في التقاطعات التي يرسمها مع حقول معرفية أخرى تتقارب إشكالياتها[3]، وذلك انطلاقا من فرضية مفادها أن المعرفة، كل معرفة، هي عبارة عن شبكة من التقاطعات بل من التداخلات قد توحي، في بعض الأحيان، بأن هناك ما يشبه

1- انظر هذا الكلام في نفس المصدر، ص. 222.

2- إلى هنا نكون منسجمين مع التصور البوبري للعمل الإبستمولوجي. يقول بوبر:"إن موضوعي هو منطق الاكتشاف العلمي أو منطق المعرفة أو التحليل المنطقي لهذه العملية (عملية المعرفة)، أي تحليل مناهج العلوم التجريبية" (Popper (1959) ص.23)، بعد أن ميز بين أمرين:"علم نفس المعرفة، وموضوعه هو الوقائع التجريبية، ومنطق المعرفة، وموضوعه هو العلاقات المنطقية (الداخلية) فقط. " نفسه، ص.26.

3- هنا يتم استدعاء أركيولوجيا فوكو التي تقوم على البحث عن الإبستيمات المؤسسة لخرائط المعرفة التي يرسمها عصر من العصور الفكرية. انظر على سبيل المثال Foucault (1972).



التناقل[1] بين المعارف أو التكرار، خاصة حينما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية التي نشتغل نحن على واحد منها.

بناء على هذه الفرضية التي يزكيها الواقع، ندعي أن لتشومسكي وجوها عدة؛ وجها أفلاطونيا ووجها ديكارتيا ووجها لينبرجيا كما أسلفنا، ثم وجها بوبريا كما أكد غيرنا من بعض متتبعي الشأن الشومسكاوي الذين لم يفتهم الوقوف على الظلال البوبرية التي تشكل الألوان الرئيسية في خريطة فكر تشومسكي خاصة والفكر التوليدي عامة. ونخص بالذكر من هؤلاء كلا من نيكولا روفي Nicolas Ruwet الذي نعتبره أول من تنبه من اللسانيين إلى الخلفية البوبرية لفكر تشومسكي[2]، وهي خلفية لم يكن تشومسكي يكشف عنها فظلت من مسكوتاته ولم يقف عندها أو ينبه إليها كما فعل مع خلفيات أخرى كالأفلاطونية والديكارتية[3]... كما نذكر بالمحاولة القيمة التي قدمها كل من Pêcheux و Gadet في عملهما المشترك والموسوم بـ "اللغة الضائعة" حيث خصصا فصولا للحديث عن مظاهر حضور بوبر في تشومسكي[4]. هذا دون أن ننسى إشارات ميتسو رونا Mitsou Ronat الواردة في حوارها مع تشومسكي[5].

لقد قدمت إبستمولوجيا بوبر دعما حقيقيا لتشومسكي، وفتحت أمامه آفاق القدرة على المناورة وعلى الاستدلال المتنوع؛ فلسفي ونفساني وبيولوجي وإبستمولوجي..، وامتلاك النفس الطويل في محاججة الخصوم. بل إن بوبر لم يكن

1- هنا تتم الإحالة على إبستمولوجيا أحمد العلوي التي نعتبرها أول محاولة حقيقية في اتجاه تأسيس إبستمولوجيا مختلفة عن تلك التي عرفناها عند الغربيين. انظر العلوي (1987) والعلوي (1988) والعلوي (1999). وأيضا، الفصل الخامس من هذا العمل.

2- انظر Ruwet (1968). الفصل الأول، ص.ص. 11-83.

3- الذي يلاحظ هو أن بوبر لا يحضر في تشومسكي كاسم؛ إذ لم نعثر في كتابات تشومسكي، الأول على الأقل، على أية إحالة تحيل عليه، لكنه يحضر كموقف وكتصور.

4- وهذا عنوان واحد منها. انظر G/P (1981) ص.ص. 138-151.

5- Chomsky (1977). هذا دون أن ننسى أيضا ذكر بعض المحاولات العربية، و نخص بالذكر منها محاولة أحمد الطيب بنكيران، (انظر بنكيران (1997))، لكن أغلبها يفتقر إلى الأصالة.

حاضرا في تشومسكي كمعرفة فقط وإنما كسلوك أيضا؛ إذ كثيرة هي اللحظات التي تطابقت فيها شخصيتا الرجلين؛ فمن انتقاد الوضعانية التي كانت تعتبر الصورة الأرقى للنزعة التجريبانية في العلوم إلى الدعوة إلى ضرورة تبني التصور العقلاني (النظري) للعمل العلمي باعتباره التصور الصحيح الذي تعمل وفقه العلوم الدقيقة وعلى رأسها الفيزياء التي اتخذها الإثنان الصورة الأمثل للعلم الحق. ومن الدعوة إلى تبني تصور الصيرورة العلمية على أنها عملية تقوم على البحث عما يعزز النظريات ويعضدها إلى الدعوة إلى تبني تصور آخر يقوم على الهدم، وذلك بالبحث المستمر عما يفند النظريات القائمة ويدحضها ثم إقامة نظريات جديدة مكانها تكون قادرة أكثر من سابقاتها على تفسير ما هو موجود وعلى التنبؤ بما يمكن أن يوجد. ثم، في مرحلة متأخرة، من الاهتمام بقضايا العلم إلى الاهتمام بقضايا السياسة[1]."

1- من أهم أعمال بوبر السياسية نذكر: =

=- بؤس التاريخانية (1944) The Poverty of Historicism

- المجتمع المفتوح وأعداؤه (1945) The Open Society and Its Ennemis

خصص الأول للتشكيك في النظريات التاريخانية، وهي النظريات التي تتخذ من التاريخ مبدأها التفسيري الأساس؛ حيث التاريخ هو الفاعل الرئيسي وحيث لا مفر من قدره (موقف حتماني). ويبني تشكيكه هذا على أساس منطقي صرف، حيث يقود الاستدلال المعتمد إلى استحالة إمكانية التنبؤ بالمستقبل انطلاقا مما وقع في الماضي. وللإشارة، فإن بوبر، وطيلة حياته العلمية، ظل مرتبطا بالدفاع عن الموقف اللاحتماني ضد كل المواقف الحتمانية ومن ضمنها الموقف التاريخاني الذي هاجمه في صورته الماركسية التي تفسر حركة التاريخ (ما وقع وما يقع وما سيقع) كله بصراع الطبقات. انظر Popper (1945).

وخصص الكتاب الثاني لتأكيد أن التاريخانية لم تفعل شيئا سوى أنها قادت إلى قيام أنظمة شمولية (ديكتاتورية). وفيه انبرى بالنقد لثلاثة من كبار الفلاسفة، هم أفلاطون وهيجل وماركس، ليتهمهم جميعا باعتماد أنساق فلسفية (تاريخانية) في استنباط قوانين العالم الطبيعي Popper (1945).

ويجب التذكير بأن الكتابين معا ظهرا مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية التي يربط بوبر قيامها بصعود حكومات وأنظمة استبدادية. ومن بين إسهامات تشومسكي في الفكر السياسي، وهي كثيرة يكاد عددها يفوق ما أنتجه في مجال اللسانيات، نكتفي بذكر:

- قانون الغلبة للأقوى: ظهور دول يحكمها صعاليك (a 2002)

La loi du plus fort : mis au pas des états voyous.

- السلطة العارية.(b 2002)

Le pouvoir mis à nu

- فهم السلطة (في جرأين) : (2005) و (2006)

Comprendre le pouvoir

وللإشارة، فإن العلاقة بين فكر تشومسكي اللغوي وفكره السياسي لا يمكن تفسيرها إلا في مستوى أعلى من التجريد حيث تتم المناداة بقيم الحرية والفردانية المتمثلة، لسانيا، في القول بالفطرية والإبداع الذاتي، وسياسيا، في رفض الأنظمة الاستبدادية والشمولية وفي تسفيه إيديولوجيا الغرب التي كان من ورائها الدفاع عن مصالح الطبقات لا تفسير ما يجري. انظر Chomsky (1977). الفصل الأول. ص ص. 33-61.



لقد انتقد بوبر إلحاح الوضعانيين على الارتباط بالموضوعات القابلة للتحقق في بناء المعارف، وهو نفس ما فعله تشومسكي مع بار- هيلل أولا[1] ثم مع اللسانيين الوصفيين ثانيا[2]. كما سعى بوبر إلى التشكيك في النزعة السيكولوجية للوضعانيين لقيامها على مبدإ القياس[3]، وهو نفس ما فعله تشومسكي مع البلومفيلديين الذين اختزلوا اللسان إلى مجرد أقوال ينجزها المتكلمون بموجب قانون المثير والاستجابة. ومشكلة القياس عند كل من بوبر وتشومسكي يمكن اختصارها في أنه لا ينتج معرفة.

لقد تركزت أعمال تشومسكي اللساني، كما هي أعمال بوبر الإبستمولوجي، حول إشكالية واحدة. إشكالية موضوعها هو التشكيك في النظريات القائمة، وذلك انطلاقا من مسملة أساسية هي أن المعرفة العلمية لا تبدأ أبدا بوجود معطى وإنما بطرح إشكالية يكون موضوعها العمل على تفنيد نظرية قائمة. بدل البحث عما يعضدها في الواقع الذي لن يبخل بذلك كما تقضي طبيعته. ونظرا لكون الواقع يتمتع بقدرة تمثيلية مفرطة تقدم الدعم لكل النظريات حتى تلك التي تكون درجة سلامتها منعدمة، فإنه لابد من التخلي عنه والبحث عن وسائل أخرى لتقويم النظريات، أهمها الانسجام الداخلي وعدم التناقض مع ما هو معمول به في العلوم والقدرة على التنبؤ والتفسير[4].

وهكذا، فإذا كانت فلسفة ديكارت قد قامت على الشك في كل ما قيل والاحتكام إلى ما يمليه العقل، وإذا كانت فلسفة أفلاطون قد شككت، قبلها،

1- انظر الفقرة (2.1) من هذا الفصل.

2- انظر الفقرة (1.1) من هذا الفصل.

3- لقد بين بوبر أنه من المستحيل بناء علم على أساس مبدإ القياس؛ "فمنطقيا، ليس هناك ما يدل على إمكانية استنتاج قضايا كلية من قضايا جزئية حتى لو كانت هذه كبيرة العدد، وكل استنتاج يتوصل إليه بهذه الطريقة سيكون خاطئا دائما." Popper (1959) ص. 23.

4- " للحكم على نظرية ما، ليس المهم هو انسحابها على أكبر عدد ممكن من المعطيات، وإنما هو قيمتها التفسيرية وانسجامها الداخلي وعدم تناقضها مع الفرضيات المعمول بها في العلوم المجاورة ثم بساطتها وأناقتها أخيرا." Ruwet (1968) ص. 13.



في صدقية الحواس وما يبديه الواقع، فإن إبستمولوجيا بوبر ولسانيات تشومسكي تقومان على أكسيومة الدحض والتفنيد لما هو قائم من نظريات[1]، مع ملاحظة أن ما شمله التشكيك الديكارتي والارتياب الأفلاطوني والدحض البوبري والتفنيد الشومسكاوي هو، دائما، المعرفة القائمة على القياس والتجربة[2]سواء أكانت هذه المعرفة معرفة عامة، كما هو الحال عند أفلاطون وديكارت، أم كانت معرفة خاصة (علمية) كما هو الحال عند بوبر وتشومسكي. والذي لعب دور الحسم في الانتقال من الاهتمام بالمعرفة العامة إلى الاهتمام بالمعرفة الخاصة هو ما حصل من تطور في العلوم بفضل الإنجازات غير المسبوقة التي شجعت على الانتقال من الفلسفي إلى الإبستمولوجي.

لقد تساءل G/P عن سبب اختيار تشومسكي لإبستمولوجيا بوبر رغم أنها ليست نظرية في اللسانيات، وعن سبب اعتقاده أنها صالحة للإستثمار في بناء نموذج نحوي، وأجابا بأن سبب ذلك يعود إلى " أن بوبر كان أكثر تجريدا[3]."مقارنة مع كارناب Carnap، مثلا، الذي يعتبر صاحب نظرية في اللغة والذي كان من المفترض أن يستثمره تشومسكي. إن الطابع التجريدي المفرط هو الذي سمح، بالفعل، لإبستمولوجيا بوبر بالانسلال إلى فكر تشومسكي، لأنها تستجيب بذلك لرغبة عامة عنده، هي تأسيس نظرية لسانية لها من التجريد ما يجعلها قادرة على تغطية أكبر عدد ممكن من الظواهر، ومنها الظواهر المرتبطة بقدرة المتكلم اللغوية وبكيفية اكتسابها وطرق استعمالها. نظرية لا تختلف عن النظرية الفيزيائية إلا في الموضوع[4]، وتسهم في تقدم المعرفة بشكل يستجيب للنداء البوبري[5].

1- " إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تأكيد النظرية. وكل ما يمكن فعله هو القيام بتفنيدها " السابق. نفس الصفحة.

2- يصوغ إ. باخ E. Bach هذا الموقف قائلا : " إن فكرة باكون بأن العلم يجب أن يقوم على الملاحظة والتجربة هي فكرة خاطئة. " Bach (1965) ص. 117.

3- G/P (1981) ص.139.

4- من اكثر العلوم التي شكلت مرجعا غنيا، وفضاء استدلاليا رحبا، ونموذجا ذا دلالة تفسيرية لكل من بوبر وتشومسكي على السواء الفيزياء المعاصرة.

5- مضمون هذا النداء هو:" أن كل قضايا الإبستمولوجيا العقلانية تقريبا لها هدف واحد هو تقدم المعرفة" Popper (1959) ص.16.



ومن ملامح استيعاب تشومسكي لإبستمولوجيا بوبر وتمثله إياها إلى أقصى حد ما نسب إليه من إضافات في مسيرتها. يقول G/P : " إضافة إلى التمييز الذي يقيمه بوبر بين علمين [المنطق الوضعاني والفيزياء المعاصرة] والتمييز الذي يقيمه بين تصورين للعلم [التصور الأرسطي القائم على القياس والتصور الكاليلي القائم على الافتراض والاستنباط]، سيضيف تشومسكي تمييزا آخر هو التمييز بين هدفين للعلم [الوصف والتفيسر] وآخر بين نمطين للاستدلال العلمي [اعتماد المحسوس واعتماد المجرد] [1]."هذه الإضافة مكنت تشومسكي من تفنيد[2]النظريات البنيوية القائمة على التصور التصنيفي للعلم[3] ومن اقتراح نظرية لسانية جديدة قائمة على التصور التفسيري يكون باستطاعتها تفسير أكبر عدد ممكن من الظواهر. هذا التنظير القائم على هذا النمط من التصور هو ما يعبر عنه تشومسكي في أدبياته بمفهوم الأمثلة (Idéalisation) قياسا على ما يجري في الفيزياء. ومعنى ذلك " أن كل خطوة علمية تفرض القيام بالتجريد وإقصاء كل العوامل غير الواردة[4]."وقد دافع تشومسكي عن هذا الموقف حينما أكد أنه " في العلوم المحضة لا يناقش هذا المبدأ، فهو من باب تحصيل الحاصل. أما في العلوم الإنسانية، وبسبب ضعف مستواها المعرفي، فإن الناس لا زالوا يناقشونه. وهذا شيء مؤسف. وفي الفيزياء

1- G/P (1981) ص. 140.

2- استراتيجيا التفنيد التي سلكها تشومسكي تعتبر توجها عاما تشترك فيه كل النظريات المقتنعة بوجهة نظر بوبر، حيث يصبح اليقين أكثر عرضة للتهديد.

3- انتهاء البنيوية، خاصة في نسختها التوزيعية، إلى تصور العمل اللساني على أنه عمل يتحدد بوضع لوائح تختزل كل الظاهرة اللغوية أوقعها في الابتذال وتشويه حقيقة العلم. وبناء على ذلك، قام تشومسكي، في محاولة لإعادة بناء تاريخ اللسانيات، بتقسيم هذا التاريخ إلى مرحلتين: مرحلة اقتصر فيها العمل اللساني على جمع المعطيات، وهي مرحلة مضت، ويقصد بها المرحلة التي عمرها البنيويون الوصفيون. ومرحلة تم فيها التوجه نحو تفسير هذه المعطيات، وهي المرحلة الراهنة، ويقصد بها المرحلة التي عرفت ظهور اللسانيات التوليدية خاصة. انظر Chomsky (1968).

ويعلق Ruwet على هذا التقسيم :" إنه للانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية هناك قطيعة وثورة." Ruwet (1968)، ص.12.

4- Chomsky (1977)، ص. 75.



تمارس الأمثلة رغم أننا قد نفعل ذلك مع غض الطرف عن بعض الأشياء التي تكتسي أهمية كبرى، لكن هذا قدر تاريخي وعلينا أن لا نقلق[1]."

ومن نتائج التمييز بين التصور الوصفي والتصور التفسيري للعلم، الوصول إلى فرضية البنيات العميقة للجمل التي تحيلنا على مفهوم بوبري كبير هو مفهوم الصورنة (formalisation) المرتبط بمفهوم التجريد (abstraction). وهي فرضية مكنت، كما نعلم، من تقديم أوصاف ملائمة للبنيات الملتبسة والبنيات المحولة، ومن تفسير القدرة اللغوية للمتكلم وتمييزها عن قدراته الإنجازية. ومبرر قيام هذه الفرضية هو أن السطح غير قابل للصورنة، عكس ما تصوره الوصفيون. ثم إن خصائص اللسان لا يعكسها الإنجاز بالضرورة، تماما كما أن خصائص المربع لا تترجمها بالضرورة المربعات المرسومة أو الملاحظة. فالإشكالية في هذه الحالة هي: ما الخاصية؟ وما الأقدر على تمثيلها: السطح أم العمق؟ وهي الإشكالية التي مثلت التحدي المدمر الذي واجه به التوليديون البنيويين الذين خلطوا بين تصور الخاصية وتصور السمة الملاحظة، وهي سمة غير محددة بطبيعتها، وإن تم الاعتقاد بأن المعطيات المباشرة يمكن تحديدها عن طريق النظر إليها من جهة ما يميز بعضها عن بعض[2]. وحتى حينما يستعمل البنيوي مفهوم الخاصية في استدلاله فإنه يستعمله بمعنى مختلف. والذي يكشف عن ذلك هو الطريقة التي يستعمل بها المثال (l'exemple). فإذا كان المثال في النحو التوليدي تمثيلا لطبقة معينة تجمعها خاصية من الخاصيات، أو لفرضية معينة نكون بصدد عرضها، فإن المثال في الاستدلال الهاريسي لا يعني سوى الورود (Occurrence). ومعنى ذلك، أن المثال في الاستدلال التوليدي ذو دلالة مفهومية (intentionnelle) تلحقه بالتصورات التجريدية[3]. بينما هو في الاستدلال الهاريسي الوصفي ذو دلالة ما صدقية

1- نفس المصدر والصفحة.

2- بخصوص موقف البنيويين من المعطيات المباشرة، انظر J.C. Milner (1973)، ص.23. وما بعد.

3- أمام هذا التسابق نحو التجريد، لم يسع لساني مثل G. Lakoff إلا أن يحكم : " إن هذا التجريد الذي يطمح الناس إلى تحقيقه ليس سوى مظهر من مظاهر السوسيوثقافي." Lakoff (1972).



(extentionnelle) تلحقه بالتصورات التجريبية حيث الاشتغال على اللوائح التي يحتكم إليها في تحديد الورود وعدمه[1].

لم يكن الهاريسيون يدركون أن التنبؤات التي تقدمها النظرية، وهي من طبيعة تجريدية، لا تتحقق بالضرورة في الواقع[2]، وأن ما يعنى بتفسير المعطيات، وهي مهمة اللساني، إذا، هو بناء تمثيل صوري وافتراضي، حيث يصير ما هو ملاحظ مجرد آثار، وأن بناء نحو ليس عملا نهائيا ولا كاملا ولكنه عمل مفتوح مبدئيا على المراجعة المستمرة والتحري الدائم.

ولا ننس أن اللجوء إلى التجريد والصورنة المستقدمين من إبستمولوجيا بوبر يندرج ضمن استراتيجيات تشومسكي العامة التي هي تفنيد المقاربات القائمة على القياس والاستقراء، وإبراز الدلالة المعرفية لطرق الافتراض والاستنباط باعتبارها عصب العمل النظري الذي لا يمكن تصور العمل العلمي بدونه. " فحتى وإن كانت البراهين تجريبية، فإن الجزء الأكبر من النتائج المتوصل إليها تحدده المسلمات التي يقوم عليها الإطار النظري الذي ننطلق منه. فدور التجربة، إذا، يأتي بعد النظرية. ووظيفة التجربة هي تقويم النظرية.. ويعيق الاستنجاد بالاختبار التجريبي للنظرية تفعيل النسق باعتباره بديهية مبنية على مبادئ داخلية فقط[3]."

ومن الفرضيات الكبرى[4] التي استطاع تشومسكي بناءها، زيادة على فرضية البنية العميقة والبنية السطحية، فرضية استقلالية التركيب. وهي فرضية كان من مقدماتها التمييز بين المستوى المادي (الصوتي) للعبارة اللغوية ومستوى المعنى. فكان لابد من افتراض

1- وفي هذا الخصوص، لا قيمة للملاحظة التي أبداها Pierre Kuentz حينما لاحظ أن " ما لا يدركه لا أنصار ولا خصوم النحو التوليدي هو أن المثال الذي يستعمله هذا النحو أقل تجريدا مما يتصورون...فأمثلته مأخوذة من كتب الأدب ومما هو يومي مبتذل ومن معارف إيديولوجية أو سياسية". (Kuentz (1977) ص.115)، لأنه، في نظرنا، لم يستوعب بما فيه الكفاية معنى التجريد.

2- " من معنى **التنبؤ** (prévention) اشتق معنى **الجلي** (projectif) الذي يتمم معنى **البارز** (explicite) الذي يشكل عنصرا في دلالة لفظ **توليدي** (génératif)، حيث يتعلق الأمر بإبراز الخصائص المنظمة بموجب فرضيات مفترضة حول الكم اللانهائي لجمل اللسان." G/P (1981) ص.142.

3- السابق. ص. 143.

4- سبق لـ Christian Nique أن تحدث عن فرضيات تشومسكي الكبرى (Hypothèses majeures) فحصرها في:

- فرضية أن الجملة هي الوحدة الأساسية في التحليل التركيبي،
- وفرضية خاصية التراكب بين مكونات الجملة الواحدة،
- وفرضية البنية المجردة في مقابل البنية المنجزة،
- وفرضية استقلالية التركيب...

انظر Nique (1978).



مستوى ثالث هو المستوى التركيبي الذي ستفسر بموجبه العلاقة بين المستوى الأول والمستوى الثاني. بخلاف ما فعله صوسور الذي ربط بين الصوت والمعنى ربطا مباشرا حينما تصور الدليل اللغوي دالا ومدلولا في نفس الآن، وحيث لا داعي لمستوى وسيط يفسر هذه العلاقة[1].

ومن نتائج استلهام تشومسكي لإبستمولوجيا بوبر، أيضا، اكتشاف القدرة التمثيلية للنماذج العلمية وللنموذج الفيزيائي، خاصة، الذي ساعده على بناء أمثلات يفترض أنها قادرة على تفسير حقيقة اللسان، حيث توجه الاهتمام نحو بناء الواقع وليس نحو طرق اكتشافه. وهو ما شكل قطيعة نهائية مع اللسانيات البنيوية.

وإذا كانت اللسانيات التوليدية قد آلت على نفسها إلا أن تجعل من مهماتها استنباط خصائص الواقع الذي تعتزم دراسته، وذلك عن طريق بناء نماذج للألسن، مما يعني خلق لحظة نظرية تتم فيها مباشرة العمل النظري الصرف، فإن ذلك قد فرض أن تكون هذه اللحظة مستقلة عن الواقع المباشر. يتعلق الأمر، إذا، ببناء أجهزة اصطناعية (نظرية) لا يمكن تقويمها إلا بمردودها المعرفي وليس بمدى تطابقها مع الواقع التجريبي. وعليه، " فإنه لتحقيق الهدف المتوخى من أي نحو توليدي [باعتباره عمليات للتقويم وليس طرقا للاكتشاف] لابد، إذا، من توفره على تقنية تمكنه من بناء الأجهزة النحوية. وهي أجهزة تشبه الآلة الاصطناعية[2]."وفي هذه الحالة، ومادام الأمر يتعلق ببناء النماذج، فإن النحو التوليدي سيستعين بمفهوم النمذجة كما تتصوره الرياضيات[3]، لكونه الصيغة الأكثر تجريدا لما يمكن أن يبنى من أنساق تمثيلية ومنها نسق القواعد (النحو) الذي تعتزم النظرية اللسانية بناءه. "وتكمن العلاقة فيما بين النحو التوليدي التحويلي وبين النماذج المنطقية الرياضية في اعتمادها جميعا على مفهوم التوليد؛ فخاصية التركيب، بالمعنى المنطقي الرياضي، هي التوليد وإعادة التوليد. وقد اتخذت هذه الخاصية صورة أكسيومة[4]."

1- انظر G/P (1981) ص.144.

2- السابق (1981)، ص. 146.

3- فيما يتعلق بالرياضيات، نؤكد ما أشرنا إليه في المدخل المخصص لهذا العمل من أن تشومسكي لم يستثمر من الرياضيات إلا تصورها لمفهوم النمذجة ولطرق بنائها. انظر المدخل.

4- وهكذا، فبالإضافة إلى النموذج الفيزيائي، هناك حضور مكثف للنموذج المنطقي الرياضي، خاصة حينما يتعلق الأمر بصياغة الصورة التي يجب أن تكون عليها قواعد اللسان وبخاصيتها الميكانيزمية. والهدف من وراء هذا الاستثمار هو الوصول إلى تحقيق قدر أعلى من الصورنة التي لن تتحقق النمذجة بدونها، حيث يصير النسق الصوري (وهو النحو) نموذجا لواقع تجريبي (هو قدرة المتكلم اللغوية).



بخصوص مسألة التوليد الذي يفهم منه أنه عملية مقيدة (فالنحو ليس سوى نسق من القيود يحكم بموجبها على الجمل بأنها نحوية أولا)، يتقدم G/P بملاحظة عامة مفادها " أنه بدءا من المظاهر[1]، سيتحول مفهوم القدرة المقيدة المعبر عنه بمفهوم التوليد إلى مفهوم الإبداعية. وهكذا سينتقل جدل المنتهي واللامنتهي من الحقل المنطقي الرياضي إلى الخطاب الإنساني [خطاب العلوم الإنسانية]. وانطلاقا من اعتبار اللسان قدرة، هي عبارة عن نسق محدود، على إنتاج ما ليس محدودا، يكون تشومسكي قد زكى أسمى مبدإ من المبادئ الثيولوجية في الكنيسة الكاثوليكية؛ إنه مبدأ تقديس نظام القيود[2]. " ملاحظة Gadet/Pêcheux هذه ليست سوى قراءة موفقة لما كان تشومسكي قد خصص له كتابه قضايا المعرفة والحرية وهو " أن العقل غير المقيد يمكنه أن يسير بحرية في كل الاتجاهات، مما يعطي تصورا غنيا ومتفائلا بالحرية وبالإبداع الإنسانيين. لكنني أرى أن هذا خطأ. وقد كان Russell على حق حينما سمى عمله المعرفة البشرية: مجالها وحدودها. إن مبادئ العقل كما تنتج مجالا للإبداع البشري تنتج حدودا لذلك المجال. وبدون هذه المبادئ، فإن الفهم العلمي والأفعال الإبداعية ستكون مستحيلة[3]. " يفهم من هذا أن الإبداع اللغوي الذي يبحث تشومسكي في خصائصه إبداع مقيد وليس حرا. لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لما كانت هناك لغة. فالمتكلم محكوم بالنحو الذي هو في أصله جزء من جيناته الموروثة[4]. أما الإبداع الحر الذي يتصوره البنيويون ويتبنونه فلا علاقة له بالموضوع اللساني[5]. والذي يجب أن يفهم، من وجهة نظر التوليديين، هو أن الإنسان في بعده اللغوي مقدور وليس بقادر.

تتداخل عقلانية تشومسكي مع عقلانية بوبر إلى حد التماهي؛ ففي نظر تشومسكي، كما في نظر بوبر المكيف، " ليس هناك، مبدئيا، أي جانب من جوانب النشاط البشري يمكن تفسيره بشيء آخر غير الفرضية الفطرية العامة، لأنها تتضمن مبادئ

1- المقصود كتاب تشومسكي: مظاهر البنية التركيبية (1965).

2- G/P (1981) ص. 148.

3- Chomsky (1971)، ص.48.

4- نحو اللسان الذي يشكل معرفة المتكلم لا يعني سوى إسناد قيم إلى البارامترات التي يحددها النحو الكلي ذو الطبيعة الفطرية أو الأصل البيولوجي. وهو ما يجعل منه خاصية من خاصيات النظام البشري. هنا تفهم بيولوجيا تشومسكي بأنها ليست مجرد مواكبة فلسفية ولكنها مظهر من مظاهر النظرية التوليدية الواردة والدالة.

5- الإبداع الذي يتصوره البنيويون مجاله هو الكلام وليس اللسان.

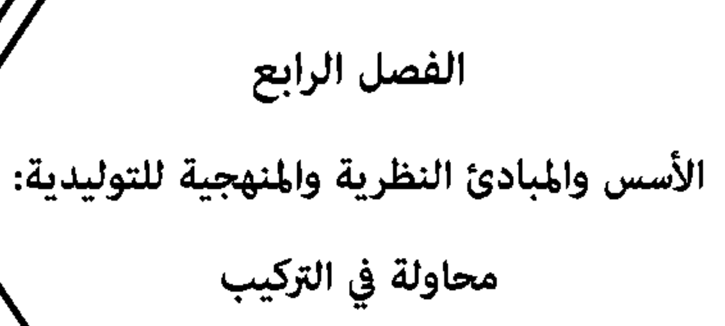


تحدد مكان ودور الأفراد داخل المجتمع، وكذا طبيعة وشروط العمل، وأيضا بنية الفعل البشري والإرادة والاختيار[1]." وهكذا، فالواقع التاريخي كله محكوم بهذه البيولوجيا الغريبة. محكوم بها لأن كل الأنساق التي تستدعيها هي أنساق "غير واعية بل وبعيدة عن أن يدركها الوعي. وهي التي تشكل الخلفية التي تقف وراء كل مواقفنا ومعتقداتنا[2]".ومعنى ذلك، وفي نظر تشومسكي/بوبر، دائما، أن التاريخي يتأبى عن المعرفة؛ لأن الواقع الذي يحكي عنه لا يعرض مباشرة على العقل، تماما كما هو واقع الإنجاز اللغوي، ولا ينتمي، بذلك، إلى العالم العقلاني. ولهذا تم إقصاؤه تحت ذريعة مناهضة النزعة التجريبانية. " ومن وجهة نظر هذه الأنتروبولوجيا العقلانية [...] التي ليست سوى رداء عصري لموقف فلسفي قديم، فإن السؤال الهام هو ذلك المتعلق ببنية وحدود الجوهر البشري، أي تلك النواة العقلانية القائمة على الكلية البيولوجية... ومن حجج التوليديين على وجود هذه النواة [النحو الكلي] تخيلهم وجود عالم من مارس حاول عزل مجموعة من الأطفال عن أي وسط لغوي. وفرض عليهم التكلم بلسان اصطناعي لا يلتزم بمبادئ النحو الكلي. النتيجة التي سيتوصل إليها هذا العالم، بناء على هذه التجربة المحدودة، ستكون شبيهة بتلك التي يحصل عليها الطبيب حينما يتلاعب بالجينات التي تتشكل منها القدرات البشرية[3]."

1- Chomsky (1975)، ص. 46.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- G/P (1981) ص. 220.



الفصل الرابع

الأسس والمبادئ النظرية والمنهجية للتوليدية:

محاولة في التركيب

1. البنية التصويرية

المصادرة الأساس: اللسانيات إسهام في فهم الطبيعة البشرية

1. 1. القضية الأولى: اللغة خاصية بشرية وإبداع

السؤال الاستراتيجي العام الذي يوجه كل أعمال تشومسكي باعتباره الممثل الأبرز للسانيات التوليدية هو، وكما طرحه هو نفسه: " ما الإسهام الذي يمكن أن تسهم به دراسة اللغة في فهمنا للطبيعة البشرية؟"[1] وهو سؤال يطرح عدة إشكالات، منها ما هو فلسفي، كالإشكال المتعلق بحقيقة اللغة وعلاقتها بالطبيعة البشرية. ومنها ما هو إبستمولوجي، كالإشكال المتعلق ببناء نظرية للغة وبالشروط المعرفية الواجب توفرها حتى تكون هذه النظرية نظرية علمية.

ينظر إلى اللغة، في التصور التوليدي، على أنها مظهر من مظاهر القدرة على الإبداع. وهي قدرة يختص بها البشر دون غيرهم. كما أنها الشرط الضروري لوجود الألسن التي ليست سوى تجل من تجلياتها. وإذا أمكن وصف البشر بأنهم كائنات تتميز بالذكاء الحاد، فإن مما يبرهن به على قوة ذكائهم امتلاكهم للغة. وهو أمر لا يتوفر لغيرهم سواء أكان حيوانا، عكس ما تدعيه السلوكية ذات الأصول البافلوفية، أم كان آلة، عكس ما تدعيه السيبرنيتيكا ذات الأصول السكاينرية. ويكتسي موضوع البحث في الخاصيات البشرية أهمية بالغة، ليس عند اللسانيين فقط، وإنما، أيضا، عند الفلاسفة، سواء أتعلق الأمر بالفلاسفة القدماء أم بفلاسفة النهضة وما تلاها أم بالفلاسفة المعاصرين.

ففي معرض البحث عما يميز الإنسان عن الحيوان والآلات الذكية، لم يجد ديكارت، بعد أن أعياه التقصي، سوى خاصيتين اثنتين يتميز بهما الإنسان ولا يمكن أن تتوفرا لغيره. " أولاهما: أن غيره لا يقدر على الكلام ولا على تركيب الرموز كما نفعل نحن حينما نرغب في تبليغ أفكارنا إلى الآخرين. وحتى إن

1- Chomsky (1968) ص. 11.



افترضنا وجود آلات متطورة قادرة على الاستجابة فإنها لن تكون قادرة على تنويع صياغة هذه الرموز بشكل يجعلها قادرة على أن تتجاوب مع كل الاحتمالات والمواقف التي لا حد لها كما يفعل الإنسان. وثانيهما: أن هذه الآلة لا تتصرف، إن تصرفت، بناء على معرفة تمتلكها، وإنما تتصرف بناء على مثيرات محددة ومحدودة[1]." ويعلق فردريك ماكس موللر Fridrich Max Muller (1821-1897)، الفقيه اللغوي الديكارتي من جامعة أكسفورد Oxford : " إن اللغة هي حدود مملكتنا، ولن تجرؤ بهيمة على اجتيازها[2]."

ولذلك، فإن دراسة اللغة، من هذا المنظور، تعتبر مفتاحا لفهم الطبيعة البشرية خاصة من جهة كونها قدرة على الإبداع[3]. ومظهرا من مظاهر الذكاء البشري، حتى إن تشومسكي يصرح في أكثر من مرة بأن دراسة اللغة لا يمكن أن تكون إلا جزءا من علم النفس الإدراكي(Psychologie Cognitive). وهكذا، ففي الوقت الذي كان فيه البلومفيلديون يسألون:" كيف يمكن أن نحلل ما يقوله المتكلم والكاتب من كلام يمكن للملاحظ الخارجي أن يلاحظه عيانا؟" كان الشومسكيون يسألون:"ماذا يدور في عقل المتكلم السليقي أو الفصيح بحيث يمكن أن يدعي متكلما للإنجليزية أو السواحلية أو اليابانية أو اللاتينية الكلاسيكية أو أي لسان آخر؟[4]"

1- Descartes (1637) ص. 90.

2- كورباليس (2002) ص. 37.

3- خاصية الإبداع هذه هي التي أسماها الطبيب الإسباني خوان هوارتي Juan Huarte، في نهاية القرن السادس عشر، **الذكاء العادي**، في مقابل **الذكاء الطيع** الذي يكتفي بتكرار وترديد ما سبق أن تم تعلمه، وهو= =من خاصية الحيوان، **والذكاء ما فوق العادي** الذي يبدع أشياء مبهرة وغير متوقعة، وهو مس وجنون. ويعتبر هوارتي واحدا من الأصول القديمة لتشومسكي التي اعتمدها في مناقشته للنظرية السلوكية، وفي الدفاع عن فرضية القدرة الإبداعية الكامنة في عقول المتكلمين. انظر، على سبيل المثال، Chomsky (1968) ص.ص.22-23.

4- Robbins (1967)، نقلا عن محمد محمد يونس علي. انظر يونس علي (2003).

ويدعو تشومسكي إلى ضرورة أن تأخذ دراسة اللغة في الحسبان اعتبارين اثنين:" أولهما: تقاليد الفلسفة الغربية والدراسة النفسية اللتان تهتمان بفهم طبيعة البشر الأساسية. وثانيهما: المحاولة التي تبذل في إطار العلم المعاصر لتناول المسائل التقليدية في ضوء ما نعرفه اليوم أو ما نأمل أن نعرفه عن الأحياء والدماغ... وهناك أسباب عديدة كانت اللغة من أجلها وستظل ذات أهمية خاصة لدراسة الطبيعة البشرية. ومن تلك الأسباب أنه يبدو أن اللغة، في مكوناتها الأساسية، واحدة من الخصائص الموقوفة على النوع البشري، وهي جزء من إعدادنا الأحيائي المشترك الذي لا يختلف فيه بنو البشر إلا قليلا[1]."

ينطلق تشومسكي، ضمن مشروعه العام الذي هو الإسهام في معرفة الطبيعة البشرية عبر دراسة اللغة، من مسلمة أساسية هي أنه " يترتب عن القول إن أمرأ يتكلم لغة بعينها أنه قد ثقف نظاما من المعرفة ممثلا بكيفية ما في عقله، ومن ثم في دماغه، في صورة تركيب مادي معين[2]."ويرى أن الأخذ بهذه المسلمة يثير مجموعة من الأسئلة، هي :

1) " ما نظام المعرفة هذا؟ أي ما الذي يوجد في عقل/دماغ الذي يتكلم الإنجليزية أو الإسبانية أو اليابانية ؟
2) كيف نشأ نظام المعرفة هذا في العقل/الدماغ ؟
3) كيف تستعمل هذه المعرفة في الكلام (أو في الأنظمة الثانوية مثل الكتابة) ؟
4) ما العمليات العضوية التي تكون الأساس المادي لنظام المعرفة هذا، ولاستعمال هذه المعرفة ؟[3]"

1- تشومسكي (1988) ص.ص. 13-14. و من التوليديين الذين أسهبوا في البرهنة على أن اللغة خاصية بشرية وأن معرفة حقيقتها تساهم حتما في معرفة الطبيعة البشرية، نذكر على سبيل المثال لا الحصر S. Pinker الذي خصص لذلك كتابا ضخما هو The Language Instinct الذي نشر عام 1994 والذي نرى أن الرجوع إليه يعد مغنيا في هذا الباب.

2- نفسه.ص. 15.

3- نفس المصدر والصفحة.



تقتضي الإجابة عن السؤال الأول بناء نموذج للقدرة اللغوية أو لمعرفة المتكلم باللسان الذي يتكلمه. وتقتضي الإجابة عن السؤال الثاني بناء نموذج_للإكتساب. بينما تقتضي الإجابة عن السؤال الثالث بناء نموذج للإنجاز. أما السؤال الرابع " فجديد نوعا ما، بل هو ما يزال يلوح في الأفق[1]."

1. 2. القضية الثانية: اللغة نظام من المعرفة

يركز تشومسكي كثيرا على النموذج الأول الذي يسعى من خلاله إلى التمثيل لفرضية القدرة التي تزعم أن المتكلم يمتلك قدرة لغوية هي معرفته بنحو اللسان الذي يتكلمه. معرفة يجسدها استعداده الدائم لإنتاج وفهم ما لا حصر له من الجمل، كما تجسدها قدرته على التمييز بين ما هو نحوي (أي ما ينتمي حقا إلى لسانه) وبين ما ليس نحويا (أي ما لا ينتمي إلى لسانه)، وقدرته، مبدئيا، على استعمال وفهم جمل مطلقة الطول والتعقيد. وبعبارة أخرى، فإن هدف هذا النموذج هو الترجمة الفعلية للنظرية التوليدية في شقها الهادف إلى تفسير ظاهرة الإبداع اللغوي الذي يتم بكيفية لا واعية. فهو طبيعي لكونه خاصية مشاعة بين جميع المتكلمين، ثم لكونه غير مشروط بشروط غير طبيعية، كالثقافة والانتماء الاجتماعي والسلطة... ولذلك، فإن أهم ما يراهن عليه هذا النموذج هو الإقناع بضرورة التمييز بين ما ينتمي إلى القدرة وما ينتمي إلى الإنجاز. حيث لا يفهم من القدرة إلا ما هو مشترك بين جميع المتكلمين وهو معرفتهم المستبطنة باللسان الذي يتكلمون. هذه المعرفة المشتركة هي ما يسميه تشومسكي المتكلم المثالي، وهو الفرد النمطي لا العيني المفرد. أي ما هو مشترك بين جميع الأفراد العينيين دون أن يجتمع في أي منهم. القدرة معرفة بآليات توليد الجمل باعتبارها بنيات مجردة لا باعتبارها تعابير عن أفكار ومعان محددة. وما هو مشترك بين المتكلمين في هذه

1- نفسه، ص. 17.

الحالة هو جانب القواعد والمبادئ والقيود التي تمكنهم جميعا من إنتاج وفهم الجمل، أي جانب النحو. "فالتصور الأساسي هو النحو ومعرفة النحو. أما اللسان ومعرفة اللسان فإنهما تصوران مشتقان. إنهما بعيدان جدا عن الميكانيزمات النفسية، ويطرحان مشاكل ثانوية[1]."

تتجلى قدرة المتكلم على التمييز بين ما ينتمي إلى اللسان وبين ما لا ينتمي إليه في أمور كثيرة، منها، مثلا، حكمه على (أ) بأنها نحوية، وعلى (ب) بأنها ليست كذلك:

(أ) كل الناس حضروا

(ب) * حضروا كل الناس

ومنها الربط بين الضمير (الهاء) وبين الاسم (زيد) في (ج) وعدم الربط بينهما في (د) و في (ه) :

(ج) زيد كلمه عمرو

(د)* زيد كلمه

(ه) عمرو زيد كلمه

ومن هنا جاء تشديد التوليديين على الاهتمام بالحدس والمعرفة الذهنية المستبطنة باعتبارهما أمرين يرتبطان بالطبيعة الذكائية للإنسان بل ومفسرين لها، بعد أن كان ذلك من الأمور المنفرة بسبب الاعتقاد بأنهما يدخلان في مجال الميتافيزيقا لا في مجال العلم. الأمر الذي جعل التوليدية تنتصب كواحد من أهم المواقف العقلانية[2] في النصف الثاني من القرن العشرين.

1- Chomsky (1984).

2- لابد من التمييز بين العقلانية في الفلسفة والعقلانية في العلم. ويسعى تشومسكي إلى أن تنتمي أعماله إلى هذه الأخيرة وإن اعتمد في صياغة إشكالاته على الأولى.

وحتى تحقق النظرية اللسانية ما تصبو إليه من كفاية تفسيرية، بعد أن حققت مع الوصفيين ما يكفي من الكفايتين الملاحظية والوصفية، كان لابد من الاهتمام باللغة أولا بدل الاهتمام باللسان والكلام، ومن الاهتمام بها ثانيا كقدرة على المعرفة أو كمعرفة يمثل الجانب الحدسي أو الفطري مظهرها الأهم. فمن وجهة نظر التوليديين، لا يمكن فهم ما تتميز به الألسن عامة من خصائص، مثل اللبس وإمكانية تعدد بنى الجملة الواحدة ونحوية أو لا نحوية الجمل وغيرها من الخصائص، دون فهم ما يجري في ذهن المتكلم. حيث تعتبر دراسة اللغة، من هذا المنظور، وسيلة للوصول إلى معرفة البنيات الذهنية للفرد. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا ببناء نظرية مفسرة تتجاوز حدود الملاحظة والوصف، نظرية تقترح تفسيرا للحدس اللغوي للمتكلم.

ولقد كان التوليديون واعين بما ينتظر نتائجهم من تهديد يترتب عن اختيارهم ركوب التجريد ممثلا في اللجوء إلى بناء أنساق افتراضية استنباطية ونماذج صورية. فلقد أثير حول هذه النتائج الكثير من النقد وحامت حولها بعض الشكوك، الأمر الذي سينتهي إلى نعتهم بالميتافيزيقيين أو المثاليين كما سنرى فيما بعد[1]. وهو ما أثنى بعضهم عن متابعة الطريق، كما حدث لـ Steven Pinker الذي ذكرناه آنفا[2]، وكما حدث، من قبله، لجرولد كاتز Jerrold Katz (1932-2002) الذي ارتد عن العقلانية وتبنى الواقعانية كأساس لتصوراته اللاحقة[3].

لم تثن تشومسكي، على الخصوص، تلك الانتقادات وما ترتب عنها من إعلان البعض عن الردة عن مشروعه الذي ظل متمسكا به منذ نموذجه الأول وحتى آخر نموذج؛ فمنذ 1957، وهو تاريخ ظهور كتابه الأول "البنيات التركيبية"

1- انظر الفصل V من هذا العمل.

2- انظر الفصل III من نفس العمل.

3- للوقوف على موقف J. Katz الجديد، انظر Katz (1972).



(Syntactic Structurs)، وإلى حدود نهاية القرن، حيث اكتملت أبحاثه حول ما أسماه البرنامج الأدنوي (Minimalist Program) [1]، ظل تشومسكي يردد أن مشروعه يرتبط بالموقف الذهني وأن الحد الأدنى لبرنامجه يفترض أن الملكات اللغوية للدماغ هي أقل ما يمكن توقعه مع وجود قيود خارجية تفرض علينا بشكل مستقل، وهو ما يعني أن هناك قدرة لغوية معطاة بشكل قبلي وقيودا خارجية تتمثل في اللسان الموجود في المحيط الخارجي، وأن هذه القيود تتدخل عند الانتقال من القدرة اللغوية أو الاستعداد الفطري البيولوجي إلى القدرة اللسانية. تم اقتراح هذا التصور ضدا على تصورات منافسة، أهمها التصور البيئي السلوكي، وذلك انسجاما مع ما ظل يحرك تشومسكي من بحث جنوني للوصول إلى عمق الأشياء؛ عمق اللغة وعمق المعرفة. وهو ما عكر صفو المواقف السلوكية ذات الأساس التجريباني الذي هيمن منذ نهاية عصر الأنوار، والذي يتصور أن المعرفة من إنتاج الواقع التجريبي.

من الأمور التي ساعدت تشومسكي على المضي قدما في تصوره ما كانت تقدمه علوم الإدراك (Sciences Cognitives)، المستعينة بأدوات علم النفس المعرفي والمنطق واللسانيات والإعلاميات والفلسفة، من أبحاث تصب في دعم الفرضية الفطرية؛ حيث تم تكريس ملاحظة أن الأطفال، ومنذ الأسابيع الأولى من

1- إذا ما تم اعتماد مفهوم **التوليد** كحدس مركزي تقوم عليه النظرية التوليدية التي تروم تفسير القدرة اللغوية، فإنه يمكن إدراك المراحل/المقاربات التي عرفتها هذه النظرية والتي يمكن إجمالها فيما يأتي:

1) مرحلة **النسق القاعدي** (Système de Règles)، وهي مرحلة امتدت من 1957، وهو تاريخ ظهور أول نموذج، إلى 1978، تاريخ ظهور نموذج العاملية والربط. وتم التركيز، في هذه المرحلة، على التمييز بين ما ينتمي إلى اللغة وما ينتمي إلى اللسان عن طريق التمييز بين نسق القواعد الكلية وأنساق قواعد الألسن.

2) مرحلة **مبادئ وبارامترات(Principes et Paramètres)**، وفيها تم النظر إلى اللغة على أنها برنامج فطري يتكون من المبادئ الكلية ومن الاختيارات (البارامترات)، واعتبار اللسان تحيينا لذلك البرنامج وتثبيتا لتلك الاختيارات. وقد استمرت هذه المرحلة من 1978 إلى حدود 1993.

3) مرحلة **البرنامج الأدنوي(Programme Minimaliste)**. تميزت بالدفع بمقاربة مبادئ وبارامترات إلى حدها الأقصى، وذلك بالتركيز على مبدإ الاقتصاد و اختزال أو تبسيط الإطار النظري الذي كان يؤطر فرضية المرحلة السابقة. وهوعمل تطلب الإيغال في تجريد الملكة اللغوية ليسمح بتقديم نموذج لهذه الملكة، و كان لصياغته الصورية من البساطة والأناقة ما لم يتحقق لغيره من النماذج السابقة.

ولادتهم، قادرون على تمييز فونيمات اللسان الذي ينتظر أن يتكلموه فيما بعد، واستنتاج أنهم مزودون بجهاز يقف وراء هذه القدرة لا يمكن أن يكون إلا فطريا؛ إذ ليس هناك ما يدل عليه تجريبيا. ومعنى ذلك، أن لهؤلاء الأطفال قدرات لغوية تمكنهم، ليس فقط من اكتساب اللسان المعقد، وإنما أيضا، من إبداع ما لا حصر له من الجمل التي تقتضيها ظروف التخاطب أو المقتضيات التي لا حد لها. كما أن الأبحاث التي اهتمت بموضوع اللسان تجمع كلها على أن الأطفال يصبحون، بعد بلوغهم الخامسة، قادرين، وبدون تعليم موجه، على إنتاج وفهم الجمل بما فيها تلك التي لم يسبق لهم أن سمعوا بمثلها قط، وأنهم يفعلون ذلك بنجاح باهر.

افتراض وجود هذه القدرة الخارقة على امتلاك اللسان المعقد، أي القدرة على إنتاج وفهم ما لا حصر له من الجمل، رغم أن عدد الجمل المعروضة أثناء مرحلة الاكتساب يكون محدودا جدا ولا يتصف بالتمثيلية[1]، هو الذي قاد تشومسكي إلى صياغة حجته المسماة بؤس فرضية التفاعل مع المحيط. والتي أصبحت أساس المقاربة الجديدة التي سيتقدم بها في بداية الستينيات.

بالنسبة لتشومسكي، إذا كان الأطفال قادرين على القيام، بسهولة، بعمليات لسانية معقدة، فإن ذلك يعود إلى أنهم يمتلكون مبادئ فطرية تساعدهم على التعرف على النحو الخاص باللسان الهدف. وبعبارة أخرى، تروم فرضية تشومسكي التأكيد على أن سهولة اكتساب اللسان تعود إلى توفر أدمغتنا، نحن البشر، توفرا قبليا، على بنيات لغوية.

تسمى المبادئ والقواعد التي تتشكل منها معرفة المتكلم اللسانية بالنحو_التوليدي، وهو الذي يشكل الموضوع الأول للتفسير؛ إذ بمجرد ما يقنع تشومسكي مخاطبيه بوجود الظاهرة حتى ينتقل إلى البحث عن المبادئ التي تحكمها. تقول M. Ronat في تقديمها لحواراتها معه :" إن تشومسكي، في كتابه هذا، يعيد إلى الأذهان الفكرة القائلة: ليس المهم هو الظاهرة، وإنما هو القواعد التي

1- عدم اتصاف المعروض من الجمل بالتمثيلية نعني به أن الجمل المعروضة منها ما ينتمي حقا إلى اللسان المستهدف ومنها ما لا ينتمي إليه.



تحكمها[1]."بل إن ما يكشف عن الطبيعة الحقيقية للغة " ليس هو القوانين في حد ذاتها، ولكنه ما يحكم أنساق هذه القوانين من مبادئ عامة[2]."

وكما تسمى معرفة المتكلم باللسان نحوا توليديا، فإن النظرية التي يبنيها اللساني لتلك المعرفة تسمى نحوا توليديا أيضا[3]. ويلح تشومسكي على ضرورة عدم الخلط بين النحوين؛ الخلط بين ما يفترض وجوده أو يفترض أنه ينتمي إلى الواقع اللغوي، وبين الصورة المقترحة له، أي ما ينتمي إلى الميطالغة. يقول: "يجب أن نميز بين النحو باعتباره كيانا مفترضا في الذهن، وبين نحو اللساني الذي هو عبارة عن نظرية تسعى إلى تصوير قواعد النحو كما هي في ذهن المتكلم المستمع المثالي[4]."وبخصوص مشروعية وجود نحو من هذا القبيل، يقول تشومسكي:" مما لا شك فيه، أن نموذجا معقولا للفعل اللغوي يجب أن يكون النحو التوليدي أحد مكوناته الأساسية؛ حيث يمكن أن تصاغ معرفة المتكلم بلسانه. ويجب أن يفهم أن هذا النحو ليس نموذجا للكلام ولكنه نموذج للمعرفة[5]." كما يقول في مكان آخر:" يمكن افتراض أن إمكانية بناء أنحاء توليدية ذات كفاية تجريبية، مع تحديد المبادئ الكلية التي تحكم بنيتها وتنظيمها، مسألة تعتبر إسهاما هاما في سيكولوجيا الإنسان[6]."

يتميز النحو الممثل في الذهن بأنه متناه، وما يمكن توليده من جمل بأنه غير متناه (لعبة المتناهي واللامتناهي) الأمر الذي يستوجب أن تتصف قواعد النحو بخاصية التوليد، كالخاصية التي تتصف بها قاعدة إعادة الكتابة (Réécriture)، و ذلك حتى تستوعب كل الاحتمالات الممكنة، تماما كما

1- Chomsky (1977) ص. 12.

2 - Chomsky (1968) ص. 111.

3- من دلالات الإشراك في التسمية، وكما فهم البعض، أن التطابق أو التقارب، على الأقل، بين المسميين أمر مطلوب من طرف صاحبه. وهو ما سنقف عند اختباره في الفصل V من هذا العمل.

4- Chomsky (1980) ص. 207.

5 - Chomsky (1965) ص. 20.

6 - Chomsky (1968) ص. 106.



يجري في الرياضيات[1]، مع فارق أن القيود الموضوعة على القاعدة النحوية أكثر ضيقا من تلك الموضوعة على القاعدة الرياضية، نظرا لكون الاحتمال الرياضي أوسع من الاحتمال اللغوي. ويشترط في القاعدة النحوية أن لا تكتفي بتوليد الجمل فقط وإنما عليها أن تولد أوصافها أيضا. كما يشترط وضع قيود صارمة عليها حتى لا تولد، إلى جانب ما هو نحوي، ما ليس نحويا كذلك. وهو ما يعنيه التوليديون بخاصية التوليد الضعيف. كما يشترط أن تكون الأوصاف التي تولدها القاعدة أوصافا دقيقة وواضحة. وهو ما يسمونه بالتوليد القوي. فالقاعدة النحوية، إذا، ضعيفة من حيث توليد الجمل، وقوية من حيث توليد الأوصاف.

القدرة على توليد الجمل النحوية دون غيرها، وعلى ربطها بأوصافها، هي مما يشكل المعرفة باللسان، لكنها معرفة غير واعية. أما النحو الذي يبنيه اللساني فإنه ينتمي إلى معرفته الواعية. وحتى يكون هذا الأخير نحوا توليديا حقا لابد من أن ترقى القواعد التي يقترحها إلى مستوى أعلى من الدقة والوضوح. " فحينما نصف نحو اللساني بأنه نحو توليدي، فإننا نعني بذلك أنه قد بلغ من الوضوح ما يجعله قادرا على تحديد الوصف الحقيقي للجمل[2]."

من تجليات معرفة المتكلم بلسانه، أيضا، قدرته على التعبير عن الجملة الواحدة بأكثر من بنية واحدة؛ إذ يفترض التوليديون أن للجملة عمقا وسطحا؛ في

1- بخصوص التأكيد على العلاقة بين اللعبة اللغوية والرياضيات يقول جون، ج. كيمني John G. Kemeny:" ليس صحيحا أن عددا محدودا من الكلمات لا يمكن من التعبير عن مقدار محدود من الأفكار؛ هناك، على سبيل المثال، نظام رياضي يعرف باسم **النظام المزدوج للأرقام** حيث يكتفي بكلمتين: صفر وواحد، للتعبير عن أي رقم إطلاقا، وبالتالي للتعبير عن عدد لا متناه من الأفكار... وفي الترقيم العشري نجد أرقاما عشرة تكفي للتعبير بسهولة عن أي رقم على الإطلاق. وعليه، فإذا نحن اعتمدنا بضعة آلاف كلمة محددة بدقة، فسيكون بمستطاعنا التعبير بوضوح عن أي فكرة تقريبا. وقد يعترض البعض بأن هذا المثل مستمد من الرياضيات وليس من مجال الكلام الشائع. والجواب هو أن الكلام الشائع يشتمل على نفس القدر من الأمثلة. الأمر الذي يشير عرضا إلى أن الحد الفاصل بين الرياضيات والكلام الشائع غير واضح المعالم." كيمني (1959).

2- Chomsky (1980) ص. 208.



العمق يتحدد المعنى إلى جانب البنية التركيبية الأساس. وفي السطح تتحدد الصورة التعبيرية التي قد تتخذ أشكالا متعددة. ويستطيع المستمع أن يربط بين هذه الصور السطحية وبين عمقها؛ " فمن الواضح أن البنية السطحية غالبا ما تكون مضللة ولا تحمل إلا القليل من المعلومات. وتعني معرفة المتكلم بلسانه المعرفة بمجموعة من الخصائص المجردة والتي لا تظهر في السطح[1]."وقد تتم عملية الانتقال من العمق إلى السطح بكيفية مباشرة كما قد تتم بواسطة قواعد التحويل التي يفترض أن تكون جزءا من معرفة المتكلم. ويفترض في النموذج الذي يقترحه اللساني لهذه المعرفة أن يشتمل، حينئذ، على ثلاثة مكونات: مكون يرصد ما يجري في العمق، وآخر يرصد ما هو ممكن في السطح، وثالث يضبط الوسائل التي تمكن المتكلم من الانتقال من العمق إلى السطح. وهذه هي الصورة الأولى أو العامة للنموذج التوليدي. وهي الصورة التي كانت منطلقا لكثير من التعديلات كان من ورائها التطورات التي حصلت في بعض التصورات النظرية (العامة) نتيجة نقاشات مستمرة وعنيفة في بعض الأحيان، كالتصورات المرتبطة بتحديد ما ينتمي إلى العمق وما ينتمي إلى السطح، وما هو قاعدي وما هو تحويلي، وبضرورة أو عدم ضرورة إغناء القاعدة بالوظائف التركيبية والوظائف العلاقية، والتقليص من حجم التحويلات... وما إلى ذلك من القضايا التي لسنا بصدد إثارتها لذاتها في هذا العمل.

ورغم اختلاف النماذج وتعددها، فإن النواة الصلبة للنظرية التوليدية لم تتغير كما أكدنا دائما؛ فالقول بوجود معرفة لغوية عند المتكلم والدعوة إلى تفسيرها ظلتا مسلمتين جوهريتين لم يتم التخلي عنهما في أية لحظة من اللحظات. فقد تطورت النماذج، لكن النظرية ظلت هي هي على العموم. وقد يحصل أن يثير تشومسكي قدرا من الإعجاب لدى البعض، وهو يعلن عن نموذج جديد من نماذجه، كما حصل لألان روفري Alain Rouvret الذي يقول عن أحد نماذج تشومسكي: "إذا كانت نماذج تشومسكي السابقة على نموذجه المسمى العاملية والربط لا تحمل

1- Chomsky (1968) ص. 51.



أي جديد بالنسبة لوجهة النظر التوليدية، فإن النموذج الأخير، وعلى العكس من ذلك، يمثل تحولا عميقا وجذريا في وجهة النظر تلك. ويتمثل ذلك في وضعه موضع الشك بعض الأسس التي تقوم عليها أنحاء تشومسكي السابقة، ومن بينها اللجوء إلى التحويلات ومفهوم الاشتقاق وفرضية استقلالية التركيب... الأمر الذي يفرض التساؤل عما إذا كان هذا النموذج يمثل الاستمرارية أم أنه يجسد قطيعة داخل مسيرة النظرية التوليدية... إن ما فعله تشومسكي في هذا النموذج هو إعادة النظر في عدد من الأصول التي أسس عليها عمله الأول المسمى البنية المنطقية للنظرية اللسانية (1955)، والتي طورها بشكل ممنهج خلال الستينيات والسبعينيات في النماذج التي عرضها في كتابه مظاهر البنية التركيبية (1965)، وفي مقاله قيود على التحويلات (1973). وهو ما يضفي على نموذج العاملية والربط قيمة إضافية[1]." إلا أن ما يثير هذا الإعجاب قد يثير الغضب والاشمئزاز عند آخرين كما سنرى في الفصل الخامس.

لقد ظل التوليديون، وعبر مختلف نماذجهم، يركزون على نفس القضايا، وهي المظهر الإبداعي للمعرفة اللغوية والتمييز بين ما ينتمي إلى القدرة وبين ما ينتمي إلى الإنجاز؛ القدرة كنسق متميز عن كل الأنساق التي تتداخل معه أثناء عملية الإنجاز، واعتبار القدرة المجال الذي يجب أن تراهن النظرية على تفسيره إسهاما منها في فهم الطبيعة البشرية؛ فموضوع النظرية اللسانية الأول هو المتكلم المثالي. أي ذلك الذي ينتمي إلى جماعة لغوية متجانسة، ويعرف لسانه معرفة جيدة، ولا يخضع لأية شروط غير واردة لسانيا، كقصور الذاكرة... والمشكل الأساسي، لا بالنسبة

1- انظر A. Rouvret في المدخل الذي وضعه للترجمة الفرنسية لكتاب تشومسكي La Nouvelle Syntaxe .Chomsky (1982) ص.9.

في الأدبيات التوليدية، يسمى النموذج الذي قدمه تشومسكي في (1955) وفي (1957) **بالنموذج ما قبل-المعيار**. وهو نموذج خال من أي مكون دلالي. ويسمى نموذج (1965) **بالنموذج المعيار**، وهو نموذج مغنى بمكون دلالي. أما نموذج (1973) فسمي **بالنموذج المعيار الموسع**. وهو نموذج تمت فيه إعادة النظر في التحويلات قصد تجاوز الغنى المفرط للنموذج التحويلي واقتراح نسق ذي أناقة عالية حيث القواعد أكثر بساطة وذات عدد أقل وتخضع لقيود كلية كبرى لتفسير التعقيد الذي يطبع الألسن البشرية.



للساني ولا بالنسبة للطفل الذي هو في طور التعلم، هو استنباط نسق القواعد الذي يستبطنه المستعملون للسان[1]. وعلى هذا الأساس، فإن النظرية اللسانية " هي نظرية للذهن بالمعنى العلمي لهذه الكلمة؛ لأنها تهتم باكتشاف الواقع الذهني الكامن وراء السلوك الفعلي[2]."

1. 3. القضية الثالثة: النحو الكلي فرضية لتفسير القدرة

بالعودة إلى الأسئلة الأربعة المطروحة في القضية الأولى أعلاه، وإلى السؤال الثاني، بالضبط "كيف نشأ نظام المعرفة هذا في العقل/الدماغ؟" نكون قد وضعنا الأصبع على الموضع المفصلي للنظرية التوليدية، أو بالأصح، قد أمسكنا بعصبها أو حدسها المركزي ورابطها العضوي، وذلك تجاوبا مع مبدإ منهجي كان قد نبه إليه بول ريكور Paul Ricoeur (1913-2005)، ومؤداه " أن فهم فلسفة ما يعني الإمساك بها من حدسها المركزي، أو من اتجاه تصورها، أو من رابطها العضوي، أو من تنظيمها الداخلي وانبنائها النسقي[3]"."إن الرابط العضوي الذي ظل يوجه تطور النظرية التوليدية هو انخراطها القوي في النقاش الذي دار فيما بين مجموعة من العلوم كعلم النفس الإدراكي وعلم النفس التجريبي خاصة والذي تركز حول السؤال المعرفي المشهور "كيف تكتسب المعارف؟" وإذا كان التجريبانيون، عموما، قد اشتهروا، في هذه المسألة، بإرجاع المعرفة إلى التجربة، فإن تشومسكي يرى أن هذا الرأي لا يعززه لا المنطق ولا الواقع التجريبي نفسه؛ إذ يلاحظ :

- أن الطفل، كل طفل، يتعلم اللسان في ظرف وجيز، نسبيا، رغم أن اللسان يوصف بأنه أكثر الأنساق تعقيدا، ورغم أن ما يعرض عليه من جمل في مرحلة التعلم قليل جدا بالقياس إلى ما سيصبح قادرا على إنتاجه فيما بعد، وأن لديه استعدادا، منذ الولادة، لأن يتعلم أي لسان شريطة أن توفر له ظروف التعلم.

1- موضوع تقويم النظرية، في هذه الحالة، هو اختبار مدى تقارب ما يستنبطه النحوي مع ما يستنبطه الطفل المتعلم.

2- Chomsky (1965) ص. 13.

3- ابن حسن (1992) ص. 5.



ولتفسير هذا الواقع، يقترح تشومسكي نظريته التي تقوم على افتراض أن الطفل يولد وهو مزود بمعرفة لغوية أو نحو كلي هو عبارة عن مبادئ عامة هي التي تتدخل في تحديد الأنحاء الخاصة بالألسن. في لحظة الولادة، يكون ذهن الطفل المزود بالنحو الكلي في مرحلته الأولى (état initial) أو المرحلة المصدر، ويشار إليها عادة في كتابات التوليديين بالرمز So، وهو اختصار للمفهوم المرحلة الصفر (State 0). وقبل الوصول إلى مرحلة المعرفة باللسان، أي امتلاك قدرة لسانية، يكون الطفل قد مر بمرحلة وسط هي مرحلة التجربة أو الاحتكاك ببيئة لسانية معينة، حيث يتحدد دور هذه المرحلة في تخصيص ما كان عاما في المرحلة الأولى بناء على ما توفره التجربة المحدودة جدا. تسمى مرحلة المعرفة باللسان بالمرحلة النهائية أو القارة (état stable) أو المرحلة الهدف. ويشار إليها في تلك الكتابات بالرمز SL وهو اختصار لمفهوم مرحلة_اللسان (Language State).

تبدو هذه النظرية، وكما قدمناها هنا، متماسكة من الناحية المنطقية على الأقل شريطة أن نتجاوز ما تحدثه إشارتها إلى دور التجربة في الوصول إلى المعرفة من تشويش يؤثر على القول بالأصل الفطري لهذه المعرفة. ولعل الذي يخفف من حدة هذا التشويش ويسمح بالتجاوز هو تأكيد تشومسكي، في أكثر من مناسبة، على أن دور التجربة لا يتعدى التخصيص فقط. لكن أليس التخصيص، أيضا، عنصرا من عناصر المعرفة ؟

يتصور تشومسكي أن البشر يقتسمون، بطبيعتهم، بنية معرفية تؤهلهم جميعا لأن يكتسبوا هذا اللسان أو ذاك. هذه البنية المشتركة والفطرية في نفس الوقت هي ما يسميه نحوا كليا. وهو عبارة عن " نسق من المبادئ والقيود والقواعد التي هي عبارة عن عناصر وخصائص تشترك فيها جميع الألسن البشرية، ليس بالصدفة وإنما بالضرورة، الضرورة البيولوجية لا المنطقية طبعا. وهكذا يمكن اعتبار النحو الكلي تفسيرا لأهم ما في هذه الألسن ولا يتغير حسب الأفراد. إنه يخصص المرحلة التي تؤدي إليها عملية اكتساب اللسان حينما تتم هذه العملية بنجاح[1]."

1- Chomsky (1975) ص. 40.



ما يلفت الانتباه في كلام تشومسكي هذا هو افتراض وجود نحو كلي تتم نسبته إلى المتكلمين بناء على ما يوحي به تكوينهم البيولوجي، ثم يطلب من المخاطب، كما بينا في مكان آخر، أن لا يفهم أن هذا النحو له وجود فعلي، وكل ما في الأمر أنه مجرد افتراض يُرْكّب لاقتناص تفسير لما أثير من ملاحظة أن الطفل يتعلم اللسان بسرعة وأنه مستعد منذ ولادته لتعلم أي لسان. يتكرر هذا الأمر كثيرا في استدلالات تشومسكي. ويبدو أن الأساس الذي يقف وراء ذلك هو التمسك الشديد بمبدإ الصورنة؛ حيث يتم الفصل نهائيا بين العلم والواقع، تماما كما حدث في الرياضيات التي دشنها رياضيو القرن الثامن عشر حينما نقلوا الاهتمام من الربط بين ما هو رياضي وما يوجد في العالم الفعلي إلى الاهتمام بما هو رياضي صرف بغض النظر عن أن يكون له مرجع في العالم الفعلي أولا. وبذلك، ومن هذا المنظور، يمكن إلحاق اللسانيات التوليدية بزمرة الهندسات اللاأوقليدية التي لا تحفل سوى بالعوالم الافتراضية. لكن هذه الإمكانية تظل مشروطة بالإجابة عن أسئلة من نوع: ما طبيعة الأحكام اللسانية؟ أهي أحكام تركيبية، تحتمل الصدق وتحتمل الكذب؟ أم أنها أحكام تحليلية لا تحتمل ذلك إلا من داخل أنساقها كالقضايا الرياضية؟ وبعبارة أخرى، هل استطاعت اللسانيات، التوليدية خاصة، بناء أنساق كافية لأن تفرض نفسها كمرجعيات يتحدد فيها صدق أو كذب القضايا كما فعلت الرياضيات والعلوم المحضة على سبيل المثال؟

تعني فرضية النحو الكلي مجموع الفرضيات التي تروم تخصيص الخصائص الكلية للألسن الطبيعية. أو بعبارة أخرى، تخصيص مفهوم اللسان الطبيعي الممكن. ويتم ذلك عن طريق تجريد خصائص الألسن لتصبح خصائص كلية. ويجب أن لا يفهم أن النحو الكلي يمكن اختزاله إلى مجرد قاسم مشترك بين الأنحاء الخاصة.فالمعنى الذي يمنحه تشومسكي لهذا المفهوم، زيادة على ما ذكر، هو أنه نظرية صورية لأنحاء الألسن الممكنة، كما أنه نظرية لاكتساب اللسان. ويلاحظ أ. روفري أنه " في السنوات التي أعقبت ظهور كتاب البنيات التركيبية أخذ تشومسكي، شيئا فشيئا، يضفي على عملية بناء النماذج، انطلاقا



من معطيات اللسان، معنى وواقعية. وأصبح الأمر يتعلق، بالفعل، بتمثيل قدرة المتكلمين، وبالقيام أيضا بانتقاء أفضل نحو عبر مختلف محاولات التفنيد. أي أن الأمر أصبح يتجه أكثر نحو الاهتمام بنظرية الاكتساب. أما في كتاب مظاهر البنية التركيبية، فإن معنى النظرية صار معنى سيكولوجيا، بحيث مالت المسألة نحو ربط النظرية العامة (النحو الكلي) التي تحدد الأنحاء الخاصة بالواقع البيولوجي[1]."

وباختصار، فإن تشومسكي يتصور النحو الكلي نظرية غنية ومنسجمة بما فيه الكفاية، هدفها:

- استنباط فرضيات حول النشاط اللغوي العام.
- بناء أنحاء خاصة بالألسن.

ولم يتردد، وهو يعلن عن نظريته العامة، في أن يقرر أن مقياس الجدية في الطرح اللساني هو اعتماد التصورات التي تخدم فرضية النحو الكلي، حتى إنه فضل الأنحاء التقليدية على اللسانيات البنيوية حينما نعت الأولى بأنها "تقترب من

1- Chomsky (1982)، المدخل (A. Rouvret) ص.ص. 10-11.

في النموذج المعيار الموسع والمراجع الذي اقترحه تشومسكي في السبعينات من القرن الماضي بدا واضحا أنه بدأ يتخلى عما هو محلي أو خاص بلسان معين من قواعد وقيود، ويتجه نحو إغناء جهازه بما هو **كلي** من مبادئ عامة. وفي ذلك تذكير بالأكسيومة المركزية للنظرية التوليدية وهي تفسير معرفة المتكلم بلسانه. فبدءا من هذا النموذج بالذات يقرر تشومسكي العودة إلى بلورة نظرية تفسيرية للمستويات الأكثر عمقا في اللغة، وذلك بفضل استنباط المبادئ العامة المتحكمة في هذا العمق وكذا البارامترات المرتبطة بها والتي يؤدي اختيار بعضها دون البعض إلى **النحو النواة** أو نحو اللسان. ومن تلك المبادئ:

- على مستوى المكون الأساس: المبادئ التي تم اقتراحها في مختلف صياغات **نظرية س خط**
- على مستوى المكون التحويلي: مبادئ هي عبارة عن قيود على التحويلات، مثل قيد A/A، ومبدإ **استعادة العناصر المحذوفة**، وقاعدة **انقل α**، ومبدإ **التحتية**، وقواعد **تحويل البنيات السطحية إلى صور منطقية**.
- على مستوى الصورة المنطقية: مبدأ **المقولات الفارغة** ومبدأ **الربط** و**الإعراب** وما يتصل به **كالمصفاة الإعرابية**... انظر تشومسكي (1979).



النحو التوليدي لكونها تأخذ بفكرة ضرورة ربط البحث اللغوي بالتركيب أولا، وبما هو مشترك بين الألسن ثانيا. أي بفكرة إقامة نحو كلي أو_فلسفي. وهي، بذلك، تتفوق على اللسانيات البنيوية التي ركزت على ما يفرق بين الألسن... ولقد انتبه القدماء إلى فكرة أن ما هو أكثر اشتراكا بين الألسن هو خاصيتها الإبداعية[1]."فالأنحاء الخاصة التي توقف عالبنيويون عندها طويلا لابد من أن ينظر إليها في إطار نحو كلي يفسر المظهر الإبداعي للفعل اللغوي، ويصوغ الاطرادات العميقة التي لا تظهر في النحو الخاص. وبعبارة تشومسكي:" إنه لمن الطبيعي أن لا يعالج النحو الخاص إلا الاستثناءات والشواذ. وحتى يمكنه معالجة القدرة اللغوية للمتكلم بكيفية تامة، لابد من أن يستعين بالنحو الكلي[2]."

إن النحو الكلي، بهذا المعنى، هو المسؤول الأول عما يتوصل إليه المتكلمون من معارف تتعلق بألسنهم. كما أنه الجهاز الأمثل لتمكين اللساني والطفل على السواء من التنبؤ بطبقة الأنحاء الممكنة، حيث إن مبادئه تتميز بالانفتاح على مجموع البارامترات التي تشكل كل الاختيارات الممكنة لتحيين تلك المبادئ[3]. ولذلك، فإن من أهداف تشومسكي من وراء فرضية النحو_الكلي:

- تفنيد الطروحات ذات الأساس البيهافيوري التي تفسر السلوك اللغوي بأنه عملية تحصل نتيجة التعلم والتقليد.
- تبيان أن المعرفة باللسان هي عملية مشتقة من معرفة أعم هي النحو الكلي، وأن هذه المعرفة الأعم تصاحبنا منذ الولادة كما تصاحبنا أعضاؤنا. فكما أن لنا أرجلا وسواعد، لنا، أيضا، لغة أو نحو كلي.

1 - Chomsky (1965) ص. 16.

2- نفسه. ص. 17.

3- ومن هنا جاء تشديد تشومسكي على أن يكون من مهام النظرية اللسانية تمكيننا من القيام بعمليات تقويم الأنحاء التي تبنى انطلاقا من النحو الكلي لا بعمليات اكتشاف الأنحاء التي تفترض النظرية البنيوية أنها عمليات ممكنة انطلاقا مما تقدمه الألسن. فما هو أكثر صلابة، بالنسبة لتشومسكي، هو النحو الكلي لا الألسن.

2. الأسس المنهجية أو البنية الذرائعية

المصادرة الأساس: الأسلوب العلمي أسلوب كاليلي

2. 1. في معنى الأسلوب الكاليلي

يقصد بالأسلوب العلمي، عموما، مجموع القناعات القائمة على تصور العلم على أنه مجموعة من الممارسات الخاصة تحكمها مبادئ عامة تم الاتفاق عليها بشكل ضمني. وبخصوص الأسلوب الكاليلي، باعتباره واحدا من الأساليب التي مورس بها العلم، فإن المقصود ليس هو ما توصل إليه كاليليو بالذات من قناعات ومبادئ. فالذي يعلمه الجميع هو أن هذا الأسلوب تبلور عبر مراحل تاريخية لا يمكن الجزم في أيها كانت البداية؛ فهناك مبادئ من هذا القبيل تمتد جذورها إلى أفلاطون، كالتشكيك في المعرفة القائمة على الحواس، وأخرى لها أصول في منجزات كوبرنيكوس وكبلر وديكارت، كتثمين المعرفة القائمة على التأمل، وثالثة لم تتبلور إلا في العصور اللاحقة لعصر كاليليو، كتلك التي ساهم بها بعض علماء وفلاسفة عصر الأنوار، بل إن منها ما لا يزال قيد التبلور.

ويسعى الخطاب العلمي ذو الأساس الكاليلي إلى تقديم نفسه على أنه بنية تفسيرية هدفها تفسير الظواهر عن طريق بناء أجهزة استنتاجية تقوم على الافتراض والاستنباط، أو على نظام أكسيومي يخضع لمبدإ النسبية والاحتمال. ويتميز الأسلوب الكاليلي، عموما، بمناهضة التصورات الأرسطية التي تقوم على تقديس الخبرة والتجربة وتميل إلى الاحتكام إلى القياس القائم على الاستقراء، وبرفضه المطلق تقديس الأفكار المسبقة التي تقدم على أنها يقين، وبإعلائه من شأن التأمل والخيال والتجريد، وفسح المجال للاستنباط الرياضي والاستدلال العقلي، ورد كل ما عساه أن يرتبط بالخبرة إلى أصوله الصورية. كما يميل هذا الأسلوب إلى تجاوز الوقوف عند حدود المظهر الخارجي للظواهر وذلك بالغوص في أعماقها قصد الوقوف على مبادئها العميقة التي تحدد السطح. في هذا الأسلوب، ليس المهم هو متابعة الظواهر وجمعها وتصنيفها، ولكنه رصد لها في بواطنها قصد تفسير ما



يجري في مظاهرها. في هذا الأسلوب، أيضا، لا وجود لعالم أو لواقع معطى بشكل قبلي، وإنما نحن الذين نبني العالم الذي نخوض فيه. يقول S. Weinberg في هذا الصدد:" نعمل كلنا في إطار ما أسماه Husserl بالأسلوب الكاليلي. أي أننا نبني نماذج رياضية مجردة للكون ينسب إليها الفيزيائيون، على الأقل، مرتبة من الواقعية تفوق تلك التي ينسبونها إلى العالم العادي للإحساس[1]". إن المسألة هي كذلك حتى حينما يتعلق الأمر بالقيام بتجارب؛ فليست التجربة، حسب هذا التصور، سوى خلق ظروف اصطناعية تسهل عملية دراسة ظاهرة من الظواهر. هذه الظروف يتم التسليم بأنها صورة افتراضية للواقع المدروس. ويتم التركيز، خلال ذلك، على إبراز خصائص الظواهر وعلى العلاقات القائمة بين تلك الخصائص. الواقع المبني واقع نظري بالأساس لا ينظر فيه إلى ما هو تجريبي إلا على أساس أنه واقع من الدرجة الثانية، لأن دوره لا يتعدى الإسهام في عملية اختبار النظرية التي تتدخل فيها، إلى جانب التجربة، اعتبارات أخرى، كالانسجام الداخلي والقدرة على التنبؤ والتعميم والصورنة وما إلى ذلك. ويبدو لأصحاب هذا التصور أن "التكنولوجيا والتخطيط التكنولوجي لا يكفيان بحال بدون توافر قاعدة ملائمة من النظريات العلمية لتوجيههما. و الفصل الاصطناعي لأحدهما عن الآخر هو الطريق المؤكد إلى خيبة الأمل[2]."ورغم أن الكاليليين، وتشومسكي واحد منهم، يصرون على الطابع النظري لتصوراتهم، وعلى أن نماذجهم، كما يعرفها ألفرد أير Alfred Ayers (1910-1989) ليست سوى " أنساق من البديهيات والافتراضات والمفاهيم والنظريات[3]"، فإنهم مقتنعون بأن "هذه النماذج إنجازات علمية معترف بها كليا[4]. "

من أساسيات الأسلوب الكاليلي، أيضا، ما ألح عليه فيتجنشتاين من ضرورة بناء نسق من الرموز له من المواصفات ما يجعله مؤهلا لأن يتواصل به كما

1- Weinberg (1976) نقلا عن الفاسي الفهري (1986) ص. 54.

2- ديكنسون (1984) ص. 101.

3- نفسه، ص. 89.

4- نفس المصدر والصفحة.



يتواصل بأنساق أخرى، كاللغة ونظام الإشارات...نسق يمثل، في النهاية، مرجعية العالم والحكم الذي يحتكم إليه عند إجراء كل تقويم. وهو نفس الأساس الذي شكل تعميقه واحدا من أهداف مشروع فلاسفة فيينا، عموما، الذي أحيا مشروعا سابقا هو المنسوب إلى ليبنز[1]الذي عمل على بناء لغة كلية تحت ذريعة الرغبة في عصرنة العلم والكتابة العلمية. وهو ما أصبح يمارس فيما بعد تحت اسم الوضعانية الكارنابية الجديدة[2]. فالحقيقة، حسب هذا الأسلوب، وكما عبر عن ذلك هنــري بوانكـري Henri Poincaré (1854-1912)، شبيهة بالحقيقة الرياضية " التي لا يبحث عنها خارج النسق وإنما في الاستنباط المنطقي الذي ينطلق من مقدمات اصطلاحية تستند إلى بديهيات[3]." أي أن الوجود الحقيقي للأشياء ليس هو ما تقدمه الحواس ولا التجارب ولكنه ما يتوصل إليه عن طريق المنهج الرياضي. ولذلك، فإن عملية النمذجة، حسب هذا التصور، لا يمكن فهمها إلا على أساس أنها عملية تعني بناء عوالم ممكنة. والهدف من هذا البناء هو تحقيق أكبر قدر ممكن من التراكم الاستدلالي يكون بإمكانه احتواء أكبر قدر مما هو ممكن لا مما هو كائن فعلا. إلا أنه يجب فهم أن العملية ليست عملية مطلقة؛ إذ هناك قيود إبستمولوجية تفرض على الفضاء الاستدلالي برمته ومن أهمها قيد الملاءمة الذي يفرض أن يقوم العلم من جهة نجاعته لا من جهة طبيعته الأنطولوجية. معنى ذلك، أيضا، أن النمذجة استنباط لا استقراء.

إن التقليـل مــن شــأن الأسـلوب التجريبـاني، وهــو أحــد الثوابــت أو المحــاور الكــبرى، بتعبــير هولطــون، المميــزة للأســلوب الكــاليلي، ســيدفع بالكــاليليين إلى

1- تتلخص فكرة ليبنز في أن القياس الكلاسيكي (الأرسطي) يشكل ضغطا وقيدا كبيرين على اللغة الطبيعية. ولذا وجب بناء لغة على غرار الجبر الرياضي. لغة مبنية على منطق الحساب، تشاهد ولا تنطق، تدرك ولا تسمع، لغة للعين المفكرة. انظر G/P (1981) ص. 114.

2- G/P (1981) ص. 114. ولقد تميزت حركة الفيينيين بالتطرف في هذه المسألة، حتى إنها انتهت إلى أن تعامل اللغة الطبيعية كما تعامل لغة المناطقة والعلماء، وهو ما يتعارض مع التصور اللساني المتبنى من قبل التوليديين بالخصوص. انظر الفقرة (2.1) في الفصل الثالث من هذا العمل.

3- Bourbaki (1969) ص.ص.28-29.

التشكيك في إمكانية وجود ظواهر محضة لا تحتاج إلى أي تدخل نظري. بدأ هذا التشكيك يتخذ صورته الحادة منذ القرن التاسع عشر، على الأقل، حيث أصبح ينظر إلى الظواهر على أنها انتقاء وبناء وإبداع حر بعيد عن أية تجربة واقعية أو مباشرة. وساد الاعتقاد بأنه ليست هناك لغة بإمكانها أن تحيل على ما يلاحظ ولا مقاييس مطلقة تفصل بين الملاحظة والنظرية. بل إن الكاليليين، وبما اعتمدوه من أسس عقلانية، سينتهي بهم المطاف إلى اتهام العلم التجريباني بالزيف[1].

لقد احتلت الصورنة الرياضية عند الكاليليين مكانة هامة لما توفره من وضوح ومن بديل لليقين التجريبي. ومن أمثلة هذا التقدير ما تم القيام به منذ ديكارت، حيث تم اختزال الهندسة ذات الطبيعة التجريبية إلى جبر أو إلى حساب مجرد. فلقد ترسخ لديهم الاعتقاد أن الرياضيات، بهذا المعنى، هي العلم النموذج الذي يعرف الأشياء دون لبس.

الأخذ بالأكسيومة الرياضية هو الذي سيسمح للكاليليين بالقول إن المعرفة افتراضية استنباطية، فلا يبرهن عليها بواسطة التجربة المحضة، وبتوجيه النقد إلى النزعة السببانية (التاريخانية كما يسميها بوبر)، حتى إن ديكارت، وهو واحد من رواد الأسلوب الكاليلي، قد نسب حدوث الأشياء إلى الله، أي إلى قوى عليا هروبا من تحديد قوى فعلية. الأخذ بهذه الأكسيومة، أيضا، هو الذي سينتهي بالكاليليين إلى نقل الاهتمام من مضمون العلم إلى صيغه واعتبار العلم صيغة وليس محتوى. ونتيجة لذلك، تم تقويم النظرية العلمية باعتبار صورنتها اللزومية لا باعتبار محتواها الدلالي. ولذلك، أيضا، اهتم الإبستمولوجيون الكاليليون بإبراز الصورة المنطقية للعلم دون محتواه. ذلك ما لاحظناه، مثلا، عند راسل وفيتجنشتاين، ومن قبلهما فريجة وبولزانو. وكان السؤال الجوهري في هذه الإبستمولوجيا هو: كيف يتمكن العلم من بناء موضوعاته رغم محدودية المعطيات واعتمادا على لغة بنيتها العميقة ذات

1- العلم الزائف هو العلم الذي يعاني طيلة تاريخه من الغياب الكلي لأي تقدم، ويميل إلى استعمال لغة غامضة (كاللغة المستنبطة من الواقع المباشر) حتى يخفي ضعف تصوراته. انظر M-C. Bartholy/P. Acot (1975) ص. 90.



طبيعة منطقية صرفة؟ لقد انصب الاهتمام ليس على الأفكار وإنما على الطريقة التي تبنى بها هذه الأفكار. وبعبارة أخرى، لقد انتقل الاهتمام من لغة الأشياء إلى لغة التفسير التي تقوم على المفاهيم، ومن الاستدلال الكيفي المعتمد على ذكر الصفات والخصائص إلى الاستدلال الكمي القائم على استنباط القوانين

وصياغتها صياغة رياضية. وهو ما سيثمر فيما بعد إبستمولوجيا المحاور (Epistémologie des Thèmes) المنسوبة إلى ج. هولطون G. Holton[1]. فهل يمكن الحديث عن حقبة كاليلية، حقبة سادت فيها، بالفعل، محاور (Thèmes) معينة أو قناعات وتصورات كالتي ذكرنا في هذه الفقرة، حقبة يشكل كل من كوبرنيكوس وكبلر وكاليليو في الفلك، وديكارت وليبنز... في الفلسفة، وبوبر...في الإبستمولوجيا، وتشومسكي في اللسانيات، أعلامها الحقيقيين؟

باعتماد إبستمولوجيا طوماس كون Thomas Kuhn[2]، يبدو أن الأمر كذلك؛ فجميع هؤلاء يسلمون بعقلانية المعرفة وبضرورة بناء الأنساق الافتراضية الاستنباطية سواء أكان مجال البحث هو الفلك أم الفلسفة أم علم النفس أم الابستمولوجيا أم اللسانيات. أنساق تروم التفسير ولا تقنع بالوصف، عكس ما نادى به أصحاب النزعة الرافضة للدور التفسيري للعلم، من أمثال هيوم وبيركلي وماخ ولوروا...

وفي هذا الخصوص، يبدو أن المقاربة الإبستمولوجية السليمة هي التي تتناول بالتحليل الأساليب العلمية لا لذاتها وإنما بقصد اكتشاف العمليات الفكرية التي أدت إلى ولادتها، وذلك من خلال تحليل طبيعتها المنطقية أولا مع التركيز على ما يشكل نواتها الصلبة وأحزمتها الواقية كما يعبر إمري لاكاطوس Imri Lakatos[3].

1- انظر Holton (1974) ص.ص. 23-24.

2- سبق أن توقفنا، في فصل سابق، عند بعض مظاهر هذه الإبستمولوجيا. وللاطلاع عليها في تفاصيلها، انظر Kuhn (1962).

3- لاحظ لاكاطوس أن الفرضيات أو النظريات التي تؤلف برنامج البحث ليست جميعها متساوية المكانة؛ إذ يعامل بعضها على أنه مقدس إلى أبعد حد. وتقبل أخريات على أساس أنها عرضة للتعديل والتغيير. يطلق على الصنف الأول اسم النواة الصلبة وعلى الصنف الثاني اسم الحزام الواقي. انظر Lakatos (1970)، وأيضا: د. السيد نفادي (2000).



إن النظرية العلمية لا تقوم، حينما تقوم، إلا على أساس أنها نسق صوري، وأنه يجب أن ينظر إليها من جهة طرق الاستدلال التي تستخدمها. فهي نسق يخبر عن عالم صوري وليست أقوالا تخبر عن عالم مادي أو عالم الأشياء. ومن هذه الجهة، تصبح عملية التفنيد التي اشترطها بوبر، مثلا، عملية ممكنة، لأن الإطار المرجعي يكون، حينئذ، محدودا ومتحكما فيه. مرجعية النظرية في نسقيتها (أساس كنطي) وبنيتها الاستدلالية، بينما مرجعية القول غير النظري في العالم. وبما أن الإخبار عن العالم يستوجب المعرفة به وهو أمر مستحيل أو مشكوك فيه على الأقل، فإن القول غير النظري قول مستحيل وغير قابل للتفنيد (أساس بوبري).

2. 2. كاليلية تشومسكي

إن الأسلوب القائم على الانطلاق من الفرضيات قصد الوصول إلى نظريات ذات قدرة تفسيرية تستوعب ما هو قائم وما يمكن أن يقوم هو نفسه الأسلوب الذي تحكم في أعمال التوليديين، وخاصة منهم تشومسكي. فلقد كان تشومسكي اللساني واحدا من الذين ساهموا في المشروع العلمي الغربي الذي اعتمد على تصورات ومناهج كوبرنيكوس وكاليليو وديكارت وكنط وبوبر وغيرهم، محدثا بذلك قطيعة إبستمولوجية مع الوصفيين، ومدشنا لحظة فريدة من لحظات العلم اللساني تميزت، أساسا، بتفنيد تصورات الوصفيين وإبراز تهافت مناهجهم، وموجها، في نفس الوقت، طعنات قاتلة إلى أساليبهم:

- **الطعنة الأولى**، هي أنه لا داعي إلى طرد الفلسفة، كأسلوب في التفكير، من دائرة النقاش اللساني بدعوى أنها تشويش وميتافيزيقا، كما اعتقد الوصفيون المتأثرون بنصائح أساتذتهم الوضعانيين. يقول:" إنني لا أقيم فرقا صارما بين العلم والفلسفة. فالفارق بينهما لم يبتدع إلا في الماضي القريب"[1]."فما تم اعتباره توجها ميتافيزيقيا، من وجهة نظر الوصفيين، أصبح عند التوليديين قوة خارقة تدفع ببرنامج البحث إلى الأمام. وما لم

1- تشومسكي (1988) ص. 14.



يدركه الوصفيون، حقا، هو أن الفرض العلمي يختلف عن القضية الميتافيزيقية في أنه قابل للتفنيد ومصاغ صياغة دقيقة، على عكس القضية الميتافيزيقية التي تبدو صادقة في كل الأحوال.

- **الطعنة الثانية**، هي أن علم النفس السلوكي الذي تسلح به الوصفيون وتمترسوا خلفه علم متهافت، لإقصائه الأساس الطبيعي للسلوك اللغوي.
- الطعنة الثالثة، وتتمثل في التشكيك في قيمة العلم الذي كان الوصفيون يطمحون إلى بنائه والذي يتخذ من الأساليب الباكونية نموذجا، ومن ثم وصفه بالفقر والبؤس.

لقد قرر تشومسكي الخروج عن النموذج الأمريكي المعروف بتوجهاته الذرائعية المبنية على النسبوية وعلى الارتباط بما هو جزئي وخاص. كما قرر، في مقابل ذلك، التعلق بالمذاهب الإطلاقية أو الشمولية أو الكليانية. فهو، بهذا المعنى، هيراقليطي[1] ومناهض للفكر الذرائعي ذي الأسس السفسطائية، حيث الإنسان أو المصلحة هي مقياس كل شيء.

من هذا المنظور يمكن أن يفهم المقصود بكلام من نعتوه بالثوري وهم كثر؛ فلقد استطاعت نظريته الإطاحة بنظريات سابقة، كما أنها لم تكن مجرد نظرية تراكمية؛ لأنها ناقضت سابقاتها وحاولت تجاوزها. وسوف يصبح هذا الفهم أكثر اقترابا من الصواب إذا أدخلنا في الاعتبار مسألة هامة تتعلق بجانب من الجو العام الذي نشأت فيه اللسانيات التوليدية. ذلك أن فلسفة القرن العشرين قد اتجهت، فيما يبدو، اتجاهين ظلا معا يتقاطعان، وهما:

- الاشتغال بالنقد المنهجي للمعرفة العلمية (الإبستمولوجيا).

1- "يعتبر هيراقليطس (القرن V قبل الميلاد) أول الذين قالوا بأن معرفة الأشياء في حقيقتها لا تتم إلا بمعرفة المبادئ الكامنة فيها. وأن تعلم أشياء كثيرة لا يؤدي بالضرورة إلى معرفة. وهي نظرة سنجدها فيما بعد عند هيجل... والحكمة إنما تكون في إدراك الصيغة الكامنة التي هي مشتركة بين الأشياء جميعا." راسل (1945) ص.ص. 42-43.

- الاشتغال باللغة من حيث هي أداة للفكر أحيانا (فلسفة اللغة) وأداة تعبير عن المعرفة العلمية أحيانا أخرى (منطق).

فعلى مستوى النقد المنهجي، لم يتوقف تشومسكي عن توجيه النقد إلى كل المواقف التي تدعي العلمية خارج الإطار الكاليلي. وعلى مستوى اللغة، موضوع الدراسة، كان يميز دائما بين اللغة الطبيعية والميطالغة. أما على مستوى التصورات العامة، فإن تشومسكي قد صرح في أكثر من مناسبة بأن الإطار المنهجي الذي تبلورت فيه تلك التصورات هو الإطار الكاليلي الذي ساهم في رسمه فلاسفة وإبستمولوجيون وعلماء انطلاقا من أكسيومات أو مبادئ عامة على رأسها أن المعرفة ليست معطى ولكنها عملية بنائية مستمرة، وأن الطريق إلى المعرفة هو الاستنباط، وأن مناط المعرفة العلمية هو التفسير.

" ويعتقد تشومسكي أن الوقت قد حان ليبني اللسانيون وعلماء النفس المهتمون باللغة أسلوبا كاليليا في البحث في اللغة، بصفة خاصة، والذهن بصفة أعم. وهذا الأسلوب يمثل تحولا في اهتمام العالم من العناية بتغطية المواد والمعطيات إلى العناية بغور وعمق التفسير، وإفراز مفهوم دال للغة يصبح موضوع بحث عقلاني ينمى على أساس تجريدي[1]." كما يرى " أن معالجة من هذا النوع هي أكثر ملاءمة لدراسة جهاز تدل كل القرائن على أنه محكوم بأنظمة داخلية متعددة تتسم بالاختلاف والتعقيد... جهاز تفرض معالجته الانتقال إلى حيز التجريدات والتصورات المؤمثلة[2]." أساس هذا الاعتقاد اعتقاد آخر مفاده أن " دراسة جهاز اللغة هي جزء من دراسة العالم الطبيعي... وأن علماء الطبيعة قد اعتادوا على تبني ما يعرف بالأسلوب الكاليلي... وهو أسلوب يعترف له بدرجة من الواقعية أعلى من تلك التي يعترف بها لعالم المحسوسات العادي[3]." ولذلك، وفي نظر تشومسكي دائما، " فإنه ليس هناك ما يدعو إلى التخلي عن الأسلوب المتبع في علوم الطبيعة حينما يتعلق الأمر بدراسة

1- الفاسي الفهري (1986). ص. 53.
2- Chomsky (1980) ص. 206.
3 - نفس المصدر والصفحة.



الكائن البشري أو المجتمع. وعلى كل معالجة جدية لمثل هذه الموضوعات أن تتبنى الأسلوب الكاليلي بغض النظر عما لذلك من حظوظ التوفيق والنجاح[1]." والصورة العملية لهذا الأسلوب في دراسة اللغة هي التي يقدمها تشومسكي كالآتي:" في تصوري الشخصي، يمكن أن نتخيل وجود لسان متجانس (مثالي) أي بعيد عن الاختلافات الأسلوبية واللـهجية، وأن نفترض أن المعرفة اللسانية بهذا اللسان ممثلة بنفس الشكل في ذهن كل من يتكلمه باعتبارها عنصرا من العناصر المكونة للبنية الذهنية لهؤلاء. فهذا التمثيل هو الذي نسميه نحو_اللسان[2]."

حينما يراد للنظرية اللسانية أن تقف جنبا إلى جنب مع علـوم الطبيعـة[3]، فـإن الأمـر لا يقتصر على تأكيد التشابه القائم فيما بينهما، وإنما يتعداه ليصـبح نوعـا مـن التماهـي أو التناسـخ، فينمحي التمايز الجوهري بين هذه النظرية وتلك العلوم. وكل مـا يمكـن أن يعتـبر تمـايزا إنمـا هـو مجرد تمايز في الشواهد لـيس إلا. وهكـذا، ومـن وجهـة نظـر تشومسـكي، فـإن النظريـات العلميـة واحدة ولا تختلف من حيث الطبيعة وإنما من حيـث الشـواهد أو المجـال الـذي تشـتغل عليـه، " يمكن أن نتصور أن هناك تمايزا بين نوعين مـن النظريـات [النظريـة اللسـانية والنظريـة الفيزيائيـة هنا]. تمايزا قائمـا عـلى طبيعـة الشـواهد التـي تعتمـدها كـل نظريـة [تعتمـد النظريـة الفيزيائيـة

1- نفسه، ص. 207.

2- نفس المصدر والصفحة.

3- دعوة تشومسكي إلى إلحاق البحث اللساني بعلوم الطبيعة وإلى تبني مناهج هذه العلوم كان قد سبقه إليها أوجست شليشر August Schleicher (1821-1868). حيث دعا هذا الأخير، متأثرا بنظرية دارون، إلى إدراج الدراسة اللغوية ضمن علوم الطبيعة. ولتأليف شليشر كتابين: الأول بعنوان **الخلاصة**، رسم فيه شجرة للفصائل اللغوية، والثاني بعنوان **نظرية دارون واللسانيات**، أكثر من دلالة. إلا أن هناك فرقا كبيرا بين شليشر وتشومسكي؛ فعلى مستوى التصور، يتصور شليشر اللغة كائنا حيا، بينما يتصورها تشومسكي= =معرفة. وعلى مستوى المنهج، يتبنى الأول أسلوب دارون القائم على= = مبدإ التطور، بينما يتبنى الثاني أسلوب بوبر (الكاليلي) الذي يرفض المبدأ التطوري، أو التاريخانية كما يسميها، هو، متبنيا المبدأ الطبيعي أو الفطري. وبناء على هذا الفهم، نستبعد صواب محاولة التقريب التي قام بها ج. فودور J. Fodor بين منهج تشومسكي ومنهج دارون. انظر Fodor (2000).



الشواهد المرتبطة بحركة الأجسام، وتعتمد النظرية اللسانية الشواهد اللغوية] لا على طبيعة النظرية نفسها[1]." " فالفرق بين النظرية اللسانية والنظرية الفيزيائية فرق في التفاصيل لا في المبدإ[2]." وبكيفية عامة، وبالنسبة لكل نظرية علمية، واللسانيات واحدة منها، لابد من التمييز بين أمرين :

- موضوع النظرية الخاص، ونقصد به المجال الذي تشتغل عليه تلك النظرية. وهذا يقتضي منهجا يتوخى دراسة ما هو محلي أو إقليمي، كدراسة اللسان بالنسبة للسانيات ودراسة حركات الأجرام بالنسبة للفيزياء.
- موضوع النظرية العام، ونقصد به ما تهدف كل النظريات إلى تحقيقه، وهو تطوير معارفنا بالعالم الذي يحيط بنا. وهذا يقتضي منهجا يمكن من الوصول إلى ما هو أعم، كالمعرفة بالطبيعة البشرية بالنسبة للسانيات النفسانية، والمعرفة بالمبادئ الكبرى التي تتحكم في العالم المادي بالنسبة للفيزياء.

تشبع تشومسكي كثيرا بمناهج الطبيعيين الكاليليين بسبب ما لاحظه من عدم إيلائهم أية أهمية للمعطيات إلا باعتبارها وقائع تقوم على مبادئ أو على بنيات خفية تكتسي أهمية معرفية ما[3]، ومن عدم احتفائهم بما يلاحظ والحكم بمحدوديته قصد تبرير اللجوء إلى التفسير والتنبؤ عن طريق الافتراض والاستنباط وبناء النماذج الصورية. يقول:" إن نحو لسان ما ليس سوى نظرية لذلك اللسان. وكل

1- Chomsky (1980) ص. 181.

2- نفسه. ص. 187.

3- بخصوص معنى **الأهمية**، يلاحظ تشومسكي " أن هناك خلطا بين معنيين لهذه الكلمة. المعنى الأول كقولنا إن تحليق الطائر مهم، وإن الوردة مهمة...أي أهمية الشيء في ذاته. والمعنى الثاني هو الذي يعمل العلماء في ضوئه. فالمهم، بالنسبة إليهم، ليس هو الأشياء في ذاتها وإنما ما يقف خلف هذه الأشياء من مبادئ مفسرة. ففي اللسانيات، ليس المهم هو معرفة أن المتكلم الإنجليزي لا يقول كذا. فهذا ليس مهما في حد ذاته، ولكن المهم هو معرفة المبادئ العميقة التي تتحكم في أقواله والتي تحددها النظرية اللسانية." Chomsky (1977) ص.ص. 76-77. فالمعنى الأول لا يضيف أي شيء إلى المعرفة، بينما المعنى الثاني يعتبر من صميم المعرفة و هو الأهم.



نظرية علمية تقوم على عدد محدود من الملاحظات وتسعى إلى تفسير الظواهر الملاحظة والتنبؤ بظواهر أخرى غير موجودة لكنها يمكن أن توجد، وذلك عن طريق استنباط قواعد عامة تستخدم فيها مفاهيم افتراضية كمفهوم الكتلة ومفهوم الإلكترون في الفيزياء مثلا. وإذا كانت طبيعة النظرية العلمية كذلك، فإن نحوا للإنجليزية، مثلا، سيقوم على عدد محدود من المعطيات التي تستنبط على ضوئها مجموعة من القواعد المصاغة صياغة مفاهيمية؛ صياغة تستعمل فيها مفاهيم كالفونيم والمركب... والتي يفترض أنها تتحكم في كل جمل الإنجليزية[1]."

من مظاهر تبني مناهج الكاليليين، أيضا، استعمال أسلوب الأمثلات، وهو أسلوب سمح لتشومسكي بتخيل اللسان المنسجم والمجموعة اللغوية المنسجمة والبنية اللسانية الصرف وغيرها. وفي نظره، فإنك " إذا استطعت أن تحصل على نتائج جيدة فأنت لم تبتعد عن الأمثلة. وإذا استطعت أن تحصل على نتائج أجود نتيجة تغيير مواقع نظرك، فإنك تكون قد حسنت من أمثلتك... ولذلك، فإن الدعوة إلى الابتعاد عن الأمثلة دعوة ساذجة[2]."

في نظر تشومسكي الكاليلي، لا يختلف منهج اللساني عن منهج الفيزيائي أو الفلكي. " فدراسة جهاز الملكة اللغوية، بدءا من حالته الأولى وانتهاء بحالته القارة، تتقاطع مع الدراسة الفلكية... فنحن، أيضا، نقوم بملاحظة ما يقوله ويفعله الناس وكيف يتصرفون ويستجيبون، محاولين استخلاص بعض المعطيات التي تدعم فرضية وجود آليات مضمرة تقف خلف الإبداع اللغوي والتي تقودنا إلى بناء نظرية لهذه الآليات تكون أكثر عمقا ودلالة وتتمتع بقدرة كافية على تفسير بعض الظواهر التي نختارها نحن. وحتى إذا ما طلب منا إثبات الواقعية النفسية لنظرياتنا، فإنه لن يسعنا إلا إعادة النظر في المعطيات والتفسيرات التي اقترحناها لها. وهكذا، فكما أن الفلكي لا يرضى في البداية بما يقوم به من دراسة، فإننا، نحن أيضا، لا

1 - Chomsky (1957) ص. 57.

2- Chomsky (1957) ص. 76.



نتوقف عن البحث عن معطيات جديدة تدعم النظرية دون أن ندعي أننا توصلنا إلى الحقيقة[1]."

وبخصوص الواقعية النفسية للنحو الكلي مثلا، يرى تشومسكي أنها طرح مغلوط ولا مبرر له. ويلتمس أساسا لرأيه في أعمال الفلكيين، حيث يدعي أن هؤلاء أنفسهم " لا يستطيعون إثبات الواقعية المادية لنظرياتهم. وكل ما هنالك أنهم ينظرون للامرئي بناء على ما هو مرئي. وكذلك نفعل نحن[2]." كما يدعي أن اللساني يدافع عن نظرياته بطريق غير مباشر، لأن الطريق المباشر مستحيل في كثير من الحالات. ولذلك، فإن كل نقاش حول الواقع الحقيقي يعتبر، في نظر تشومسكي، لاغيا لأنه مبني على تصور خاطئ؛ "فكثيرا ما يتم الكلام، في أدبيات اللسانيات وعلم النفس، عن الواقعية النفسية لما يفعله اللساني، ويثار السؤال حول معرفة ما إذا كان من المشروع إدعاء وجود نحو كلي...إلا أن نقاشا من هذا القبيل يبدو خاطئا في اعتقادي[3]." إن واقعية اللساني، من هذا المنظور، لا تختلف عن واقعية الفيزيائي؛ فكلتاهما لا تطلبان الحقيقة لذاتها. وإنما تكون الحقيقة المنشودة في قوة الشواهد المتوفرة. وحتى إذا ما أثيرت مسألة عدم وجاهة مقارنة شواهد اللساني بشواهد الفيزيائي لاعتبار أن الأولى أقل كفاية من الثانية، أجاب تشومسكي: " إن ما تجب الإشارة إليه هو أن المشاكل ليست هي نفسها في الحقلين معا. لكن مشكل الواقعية النفسية ليس أقل حجية من الواقعية الفيزيائية مبدئيا"[4]. أما رد الفعل الذي يصدر عن الرافضين لمبدإ الأمثلة إطلاقا، فإنه يفسره كالآتي:" إن رد الفعل الذي نصادفه في العلوم الإنسانية ضد الأمثلة يعود، فيما يبدو، إلى كون الناس لا يهتمون بما هو مشترك فيما بينهم بقدر ما يهتمون بما يميزهم عن بعضهم البعض[5]."

1 - Chomsky (1980) ص.ص. 180-181.

2- نفسه. ص. 179.

3- نفسه. ص. 178.

4- نفسه. ص. 180.

5- Chomsky (1977a) ص. 79.

بالنسبة لتشومسكي، لا يقوم العمل بطبيعته، أهو تجارب أم أمثلات، وإنما بنتائجه. فكل بحث جاد " يجب أن يعتمد التجريد والأمثلة. وكل إطار متبنى يجب أن يقوم في ضوء نتائجه؛ هل يستطيع أن يقدم تفسيرا كافيا؟ وهل يقدم معلومات جديدة عن الظواهر الواردة بناء على المبادئ العميقة المسلم بها؟ الأمثلة عنصر ضروري في البحث العقلاني. ومشروعية الأمثلات الخاصة هي، في نهاية المطاف، مسألة اختبارية. أما المشاكل الجدية فإنه لا يمكن معالجتها إلا في مستوى أكثر تجريدا[1]." وبدون الأمثلة والتجريد، لا يمكن تجاوز التصور التصنيفي للممارسة العلمية والعبور نحو التصور التفسيري. " ذلك هو الدرس الذي تعلمناه من العقلانية ومن العلوم التي حققت نتائج هامة جدا والذي لا تتذكره بعض العلوم التي لازالت في البداية[2]." من أجل التفسير، ركب تشومسكي التجريد وأغرق فيه، ولم يطل الوقوف عند ما تقدمه الملاحظة من معلومات قد تتصل بقضاياه، فانتقل بسرعة إلى الحقائق التي يحصل عليها بالحدس، لأن الهدف هو تفسير تلك الموضوعات ذات الطبيعة العميقة وليس المادة التي يمكن أن تدل عليها. " فما هو ملاحظ ليس بالضرورة مناسبا ولا مهما. وما هو مناسب ومهم حقيقة قد يصعب ملاحظته[3]."

عالم الأمثلات عالم منطقي إلى حد؛ لأنه عالم لا يمكن أن يحصل فيه على نتائج إلا إذا قام على أسس منطقية (مقدمات وبراهين) وليس على أسس تجريبية (ملاحظات). لأن ما تقدمه التجربة في هذا المجال فقير جدا ولا يمكن أن يعول عليه[4]. ولهذا السبب أقصيت الدلالة (Sémantique) من الدراسة اللسانية، أو عوملت، على الأقل، بكثير من الحيطة والتردد. فلقد فهم، في مرحلة من مراحل

1 - Chomsky (1977b) ص. 12.

2 - نفسه. ص. 32.

3 - Chomsky (1964) ص. 28.

4 - يعي تشومسكي ذلك جيدا؛ فليس من الصدفة أن يعنون أحد أعماله المبكرة بالعنوان The Logical Basis of Linguistic Theory. (ظهر هذا العمل عام 1955، لكنه لم ينشر إلا في عام 1975 وبعنوان معدل هو: The Logical Structure of Linguistic Theory).



تاريخ اللسانيات الحديثة، أن الدلالة مجال من مجالات التجريب. حيث تتحدد دلالة الجملة من خلال ما تحيل عليه في الواقع التجريبي. تم هذا الإقصاء لحساب التركيب (Syntaxe) الذي اعتبر مجالا صوريا بامتياز؛ فالسلامة التركيبية تتحدد من خلال البنية الداخلية للجملة بعيدا عن أية علاقة بالخارج. لهذا السبب، أيضا، سيرفض تشومسكي التصورات الدلالية لكل من ن. كودمان N. Goodman وف.ف.كوين **W.V.Quine**، وكذا الدلالة التوليدية التي اشتهر بها كل من ج.ج. كاتز **J.J.Katz**، و **J.A.Fodor** و ب.بوسطل **P.Postal**، و ج.د. ماك كاولي **J.D. Mc Cawley**، في مرحلة من المراحل، والتي تقول بأسبقية الدلالة على التركيب. وسيتبنى تصورات فيتجنشتاين وفلاسفة أكسفورد الذين يتقاطع معهم في مسلمة أولوية التركيب على الدلالة. ويرفض الفلسفات التي تقوم على التصور الماصدقي للمعنى، كتلك التي تنسب إلى الجناح الوضعاني المتطرف، ويتبنى، بدلا عنها، الفلسفات ذات التصور المفهومي، كتلك التي بشر بها بعض التوليديين أمثال راي جاكندوف **Ray. Jackendoff**. حتى إنه ليمكن تلخيص تاريخ النحو التوليدي، بهذا الخصوص، في أنه تاريخ معاناة مع المعنى. وهي معاناة ناتجة عن التمسك الشديد بمحورية التركيب نظرا لقدرته التفسيرية، من جهة، ولإمكانية صورنته من جهة أخرى؛ فهو تفسيري لكونه الفرضية الأكفى المقترحة لتفسير العلاقة بين الصوت والمعنى، وقابل للصورنة لأن قضاياه يمكن أن تصاغ بعيدا عن الواقع التجريبي. ثم إن الاهتمام بالتركيب مسألة تستجيب لرغبة عامة عند التوليديين هي تحقيق الكفاية التفسيرية. تم القيام بذلك استجابة لأكسيومات العلم الحديث من جهة، وتفنيدا لمناهج الوصفيين التي حكمت عليهم بأن لا يتعدوا حدود الفونيم والمورفيم من جهة أخرى. فكانت البنيوية عبارة عن لسانيات للفونيم والكلمة، والتوليدية عبارة عن لسانيات للجملة.

مما يلاحظ على الأسلوب الاستدلالي لتشومسكي أنه حينما يتهدد فرض من فروض الأمثلة، كأن يقع التعارض بين الدعوى الافتراضية وبين الواقع الملاحظ، يتم اللجوء إلى واحد من المبادئ الإبستمولوجية ذات الأساس الكاليلي، وهو مبدأ



المرونة الإبستمولوجية[1] وذلك بقصد الاحتفاظ بالدعوى. فمن الدعاوى المهددة في نسق كوبرنيكوس، مثلا، القول إن الأرض تدور حول نفسها. ومن الدعاوى المهددة في نسق تشومسكي القول إن جملا مثل الأفكار_الخضراء التي لا لون لها تنام غضبانة جمل نحوية[2]. وباللجوء إلى مبدإ المرونة الإبستمولوجية أمكن لتشومسكي أن يدافع عن دعواه، وذلك بالقول: إن الجملة أعلاه هي جملة صحيحة من حيث الواقع النحوي لا الواقع الإنجازي.

اشتهر النحو التوليدي أكثر من غيره من الأنحاء ببناء الأمثلات، ومنها أمثلة المتكلم المستمع المثالي وأمثلة النحو الكلي وأمثلة القدرة اللغوية وأمثلة اللسان المتجانس[3]وأمثلة استقلالية التركيب وغيرها من الأمثلات التي أغرم التوليديون ببنائها حتى صار لديهم أن من أسس العمل الجدي "غض الطرف عن أوجه الاختلاف وعن كل ما هو خارجي... لأن الأخذ بذلك لا يشكل مسعى علميا مهما كانت قوة المعطيات[4]". فتقدم العلم، من هذه الوجهة، متوقف على مدى استعدادنا للقيام ببناء تصورات مثالية وأنظمة تجريدية تمكن من الاقتراب

1- انظر بعض الإيضاحات المتعلقة بهذا المبدأ في الفاسي الفهري (1986) ص.ص. 56-61.

2- من الأسس المعرفية التي تقف وراء التسمية اللسانية **نحوي** ولا **نحوي** ما أطلق عليه المناطقة الرياضيون اسم **القول الحق** (Théorème)، وهو القول الذي يستجيب لمبدإ **قابلية التقرير** (Décidabilité)؛ حيث يكتفي القول بذاته ويمتلك كل الوسائل التي تمكن من معرفة ما إذا كان قولا حقا أو لا. و استثمارا لهذه التسمية، تكون الجملة اللسانية نحوية أو لا نحوية بناء على ما نقوم به نحن من إجراءات حسابية لبنيتها دونما حاجة إلى ما هو خارج هذه البنية. انظر الفكرة مفصلة في G/P (1981) ص. 133.

3- يعي تشومسكي جيدا أن تجانس اللسان ليس سوى فرضية منهجية. ولذلك، سيعود إلى المسألة لاحقا، وسيخصص أحد أهم كتبه لعرض تصوره النظري القائم على فكرة أن اللسان ليس نسقا منسجما، ولكنه نتيجة لتداخل مجزوءات (Modules) يستقل بعضها عن بعض. ويسمح هذا التصور أو هذه النظرية بقيام فرضية للنحو الكلي تأخذ بعين الاعتبار المظاهر اللسانية التي توفرها جميع الألسن. انظر النموذج العاملي في Chomsky (1982) وأيضا M. Ronat (1986).

4- Chomsky (1980) ص.ص. 306-307..

من عوالم لا تستطيع الملاحظة أن تفيد في شأنها بأي شيء. فماذا تستطيع الملاحظة أن تقدم عن الجهاز اللغوي أو النحو الكلي أو غير ذلك مما تم التوصل إليه عن طريق الأمثلات؟ ومعرفة هذه العوالم تقتضي تدخل العالم لإعادة بناء العالم، إذ إن مجال العلم، حسب هذا التصور، هو العالم المبني والمؤمثل لا العالم الواقعي المباشر. وبالطبع، فإن العالم لا يبني إلا العالم الذي يرضيه هو[1]". وحينما نعيد بناء العالم، فإننا نتخلى عن كثير من خصائصه التي لا تتناسب مع أهدافنا. فنبني عالما يرضينا. عالما ليس بالضرورة هو الحقيقة. عالما أساسه التجريد والأمثلة[2]". ثم إن عملية البناء هذه لا يفيد فيها الاستقراء وإنما الاعتماد على عالم أكسيومي، عالم من المبادئ والمسلمات. وانخراط تشومسكي في المشروع الكاليلي، ومن داخل اللسانيات، مكنه من الانتقال بالبحث اللساني من إطاره الباكوني الذي سيطر على اللغويات الأمريكية منذ العشرينات من القرن الماضي، والذي تميز بالتركيز على المعطيات ومراكمتها، إلى إطار آخر هو الإطار الكبلري الكاليلي الذي يعتمد الفرضيات، حتى تلك التي قال عنها بوبر: " إن أفضلها هو أقلها احتمالا، أو هو ما سمح بإمكانية تفنيده عن طريق استبعاد أكبر عدد من النتائج التي يتنبأ بها[3]."

ومن الملاحظات التي يمكن الإدلاء بها في هذا الباب، أنه يشتم من نظرية تشومسكي ومن طرقه في الاستدلال والحجاج شيء من روح الفيزياء كما حدده

1- يصف G/P اللسانيات الحالية بأنها عبارة عن " صراع بين نوعين من الفكر:
- فكر مهيمن يدعو إلى التدخل لإعادة صنع العالم حتى يستجيب للأوامر التي تصدر إليه،
- وفكر مناهض للأول ومتهم إياه بعدم الاحتمال". G/P (1981) ص. 224.

2- Chomsky (1980) ص. 207.

3- بخصوص المنهج، بمعناه الضيق، الذي تقيد به تشومسكي في بداياته. انظر E. Bach (1965).



فلاسفة القرن العشرين، أمثال بوبر وهيزنبرغ على الخصوص[1]. وفي ذلك خضوع للقاعدة العامة التي نبه إليها أمستردمسكي والتي مفادها "أنه في كل عصر من عصور تطور العلم يوجد علم أساسي. مثال ذلك: أن علم الميكانيكا كان هو العلم الأساسي في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما أن علم الفيزياء هو العلم الأساسي الآن... فالعالم الذي يبحث في مشكلة ما لا يتقيد في بحثه بالمسلمات المقررة في مجاله الضيق وحسب، بل يتقيد أيضا بالمسلمات التي يأخذ بها أهل العلم، بل جميع العلماء في عصره[2]."ما يأخذ به جميع العلماء في عصر من العصور هو ما يسميه، أيضا، طوماس كون البارادیکم[3]وما يسميه فوكو الإبستيمة[4]. وهي مسألة تحظى بالإجماع[5]، حتى إن بوبر يضيف مقياسا إلى مقاييس تقويم النظريات وهو

1- يعلق G/P على إحالة تشومسكي على الاستدلال الفيزيائي بالقول: " ليس من باب الصدفة أن يحيل تشومسكي على الفيزياء، إنه يقتبس وجهة نظر بوبر ويستثمرها لسانيا؛ فاللسان يتحدد باعتباره واقعا خاصا، تقارن درجة صلابته الإبستمولوجية بدرجة الصلابة الإبستمولوجية التي للفيزياء... فتم العمل في اللسانيات بنفس الكيفية التي تم بها في الفيزياء." G/P (1981) ص. 135). ومعنى ذلك، أن تشومسكي لم يكن له اتصال مباشر بالنموذج الفيزيائي، وإنما تم الاتصال عبر بوبر الذي شكل دعما إبستمولوجيا لأفكاره كما سبق أن بينا في فصل سابق. ولهذا، فإنه لابد من التوقف عند هذا الدعم كلما رمنا الحديث عن الأرضية التي تبلورت ونمت فيها أفكار تشومسكي. لأن إبستمولوجيا بوبر هي التي ستقدم عددا لا يستهان به من التصورات والمبادئ المنهجية التي سيستثمرها تشومسكي أحسن استثمار. ومن ذلك الإحالة على الفيزياء، ومنه أيضا أن= =العمل العلمي هو بناء النظريات لا تدبيج أقوال بروتوكولية. (القول البروتوكولي وصف لغوي لما يلاحظ مباشرة. وهو مفهوم من وضع كارناب).

2- أمستردمسكي (1975) ص. 35.

3- انظر Kuhn (1962).

4- انظر Foucault (1972).

5- لا يشوش على هذا الإجماع إلا مقترح باول فيرابند Paul Feyerabend (1924-1994) بالتخلي عن المنهج الواحد وبإيقاف المساعي الهادفة إلى تكريس وحدة المنهج، معلنا أنه يفضل ما يسميه فوضى منهجية، إشارة إلى أن الأسلوب العلمي الناجع يجب أن لا يرتبط بمنهج معين. انظر على الخصوص Feyerabend (1974).



مقياس التقيد بما هو معمول به في العلوم[1]. ويلتزم تشومسكي أيما التزام بهذا المبدإ سواء أثناء الممارسة اللسانية أو أثناء التأمل الإبستمولوجي. ومن تصريحاته في هذا الخصوص، وفي سياق تصنيفه لأنواع الأسئلة التي يطرحها اللساني، أن هذه الأسئلة نوعان:" أسئلة داخلية، ونعني بها ما يتعلق بالنظرية اللسانية في نسخة من نخسها ومقارنتها مع نسخة أخرى، وأسئلة خارجية، وهي الأسئلة الإبستمولوجية التي تتعلق بالإطار الإبستمولوجي للنظرية، كالحديث عن مشروعية أو عدم مشروعية الأمثلة والتجريد، وعن صلة هذه النظرية بالمجالات المجاورة لها[2]."ولو افترضنا أن إبستيمة العصر هي بناء العلوم الافتراضية لأمكننا القول: إن لسانيات تشومسكي تقوم على الفرضيات لا على البديهيات المطلقة، لأنه كان يعي أن زمن المطلقات قد انتهى مع قيام الهندسات اللاأوقليدية التي شككت في يقينية البديهية الأحادية ونادت بضرورة إعادة النظر في الموقف منها. وإذا كان يشترط في البديهية خلوها من الشك وارتقاؤها إلى درجة الحقيقة التي لا تحتاج إلى برهان، فإن ما يشترط في الفرضية هو أن لا تتناقض مع نفسها أولا ومع الفرضيات المعمول بها في الحقول المعرفية الأخرى ثانيا. وهو الشرط الذي ظل يشكل قيدا صارما على كل أعمال تشومسكي، وحتى يتحقق هذا الشرط لم ينس تشومسكي في أية لحظة من اللحظات أن مهمته الأولى والأخيرة هي بناء النسق، لأن ذلك هو الضامن الوحيد لتحقيق ذلك الشرط، شريطة أن نفهم أن تشومسكي لا يبني نسقا اصطناعيا إلا بالمعنى الذي

1- انظر Popper (1959).

2- Chomsky (1977a) ص. 190.



يصف به الفيزيائي سلوك الأشياء المؤمثلة في عالم اصطناعي. فالأمر، إذا، يتعلق بأمثلة[1] لا بنمذجة.

إلى جانب ما يلاحظ من علاقة بين مشروع تشومسكي وتصورات الفيزيائيين، هناك، أيضا، علاقة بالمشروع المنطقي الرياضي، وهي علاقة "لا تقتصر على الصيغ الكتابية فقط. فلقد سمح التوجه البوبري لتشومسكي بتلطيف ما يحتاجه من الكارنابية حتى تتم الاستفادة منها في بناء مشروع ذي علاقة مزدوجة؛ علاقة بالنموذج الفيزيائي، وأخرى بالنموذج المنطقي الرياضي[2]"."إن رجوع تشومسكي إلى النموذج الفيزيائي قد ساعده في بناء صور مقبولة وأمثلات قادرة على تفسير اللسان. يتعلق الأمر هنا ببناء الواقع لا باستكشافه. ويعني بناء الواقع القيام ببناء سلسلة من الأجهزة الاصطناعية أو من الآلات النظرية تكون مردوديتها الإبستمولوجية قابلة للتقويم. هكذا تفترض المهمة الموكولة إلى النحو التوليدي، باعتباره إجراءات تقويمية لا استكشافية، توفر تكنولوجيا لبناء آلات نحوية كل

1- يفترض تشومسكي أن هناك سؤالا يحركه وهو المتعلق بمدى ورود المقاربة التجريدية. فيذهب بعيدا في جوابه إلى حد أنه يسمح لنفسه بالحديث لا عن المقاربة التجريدية فقط، وإنما عن إمكانية قيام علم للمجردات؛ " نعتقد، مع كنط، أن قيام علم خالص لصور الفكر البشري الفطرية المستقلة عن كل تجربة أمر ممكن. " (Chomsky (1968 ص. 136). ويجب أن لا ينتاب الذهن أن ممارسة التجريد المتجلية في بناء النظريات هي ممارسة مطلقة وغير مقيدة، وهو ما يروم تشومسكي استبعاده بقوله:" لن نستطيع أن نحقق أي تقدم في مجال بناء النظريات إذا لم تكن هناك قيود على هذا البناء. والقول بأننا نملك عددا هائلا من النظريات في مجال من المجالات معناه أنه ليست لنا أية نظرية على الإطلاق. " (Chomsky (1977 ص. 82). إلا أن الذي يلاحظ هو أن القيود التي يتحدث عنها تشومسكي هي أيضا ذات طبيعة نظرية. فالقول بأن النحو الكلي، باعتباره معطى بيولوجيا، يشكل قيدا على عملية بناء الأنحاء، لا ينفي عنه خاصيته النظرية، فنكون حينها مطالبين بالبحث عن قيود أخرى نضعها على هذه النظرية، فنسقط في فخ الدوران. وللرد على هذه الملاحظة، يرى تشومسكي أن النظريات القيود هي تلك التي تتمتع بدرجة أعلى من الإمكان. ويسميها **بالنظريات الممكنة**. وتشكل الخطوات الأولى في درب الاستدلال. انظر هذا الرد في Chomsky (1977b) ص. 83. وانظر أيضا المناقشة التي أجراها تشومسكي في Chomsky (1975) ص. 50.

2- G/P (1981) ص. 144.



منها يكون عبارة عن نموذج أول في سلسلة من النماذج كل منها تحدده، باعتباره آلة صناعية منتجة، درجات الحرية التي يفترضها ميكانيزمه، كما تحدده القيود الموضوعة عليه.

في هذه النقطة بالذات يلتقي النحو التوليدي بالنموذج الرياضي باعتباره الصورة الأكثر تجريدا لنسق ميكانيكي من القيود. وفي هذه النقطة أيضا يكون تشومسكي قد دخل في نقاش مع الإبستمولوجيا من أجل الدفاع عن واحدة من أكسيوماته اللسانية وهي بناء طريقة لكتابة الصيغ التركيبية تسمح بالتمثيل المادي لما هو لساني. ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بالاستعانة بمبدإ استقلالية التركيب[1]. يمر الربط بين النحو التوليدي وبين النماذج المنطقية الرياضية، إذا، عبر مفهوم القدرة التوليدية كما يعكسها التركيب الذي تتسم قواعده بخاصية التوالد، تماما كما هو الشأن عند المناطقة الرياضيين الذين يتسم تركيبهم بخاصية الاشتقاق. حينها يصبح النحو التوليدي عبارة عن نسق صوري يشكل نموذجا مقترحا لواقع تجريبي هو قدرة المتكلم. " وبذلك تكون جدلية النهائي (وهو القواعد) واللانهائي (وهو الإنجاز) قد انتقلت مع تشومسكي من الحقل المنطقي الرياضي إلى حقل العلوم الإنسانية[2]."

جمع تشومسكي بين مناهج العلماء ومناهج الفلاسفة وحتى الموسيقيين لا يفسره إلا أمر واحد هو إيلاؤه الأولوية للاهتمام بالنظرية لا بالمنهج. لكن في تصريحاته شيئا من التضليل أحيانا؛ فمن التضليلات التي يمارسها على قرائه إيهامه إياهم بأن المنهج مسألة ثانوية بالقياس إلى بناء النظريات الذي يعتبره هو مفتاح المعرفة. إنما الذي يعجز عنه، أو يخفيه على الأقل، هو تبيان الحدود الصارمة التي تفصل ما هو منهجي عما هو نظري في أعماله. فعلى سبيل المثال، هل يعتبر التمييز بين البنية العميقة والبنية السطحية تمييزا نظريا أم تمييزا منهجيا؟ ومثله التمييز بين القدرة والإنجاز، والتمييز بين مستويات التحليل، والانطلاق من فرضية النحو

1- انظر تفاصيل الفكرة في G/P (1981) ص.146. وفي الفصل السابق من عملنا هذا.
2- نفسه، ص. 148.



الكلي، وغير ذلك من القضايا التي يتداخل فيها النظري مع المنهجي. ويبقى كلام تشومسكي الذي نسوقه أسفله مجرد كلام لا يعكس الحقيقة بل يخفيها قصد تبرير التنقل بين مناهج علوم مختلفة واستثمارها لبلوغ غايات مرسومة سلفا[1]. "الصواب أن يبدأ العمل من النظرية لا من المنهج فليست هناك مناهج خاصة بحقل أو بواقع ذي محتوى فكري معين. فالهدف هو العثور على الحقيقة. أما كيفية الوصول إليها فلا أحد يعرف ذلك؛ فلا المناهج التجريبية ولا الرياضيات ولا مختلف التقنيات يمكن اعتبارها مناهج عمل من أجل العثور على الحقيقة...وإذا كنتم تنتظرون من العالم اكتشاف مبادئ جديدة ونظريات جديدة وطرق تدقيق جديدة... فإن ذلك لن يتحقق بالمنهج. وفي اللسانيات، أيضا، سيكون من العبث أن نبين لشخص ما المنهج الذي ينبغي استعماله للحصول على نحو توليدي."[2]

إن تصريح تشومسكي بأن مسألة المنهج لا تحظى بالأولوية لا يمكن فهمه إلا على أساس أن المسألة محسومة مسبقا لصالح منهج معين هو الذي أسميناه بالأسلوب الكاليلي الذي تمت صياغته بشكل جيد على يد بوبر الذي لا يخفى على أحد أنه أساس مركزي من أسس تشومسكي والذي انتهى إلى وضع الصورة النهائية التي تنمو بها المعرفة العلمية حسب هذا الأسلوب، والتي تحددها الخطوات الآتية:

- تبنى النماذج عن طريق التخمين والافتراض،
- تختبر هذه النماذج عن طريق البحث عما يمكن أن يفندها،
- يتم التخلي عن هذه النماذج إما كليا أو جزئيا، وذلك بالتعديل والتحوير... لنحصل على نماذج جديدة أو متطورة.

هذا المنهج هو الذي يتحكم في الممارسة اللسانية عند تشومسكي حيث التوجه إلى بناء النماذج الافتراضية كان هو السمة المميزة لهذه الممارسة، حتى إن

1- يذكرنا هذا الموقف، إذا فهم بأنه محاولة لرفض التزمت المنهجي والدعوة إلى تعددية المناهج والانفتاح عليها كلها، بالموقف الذي دعا إليه فايرابند. انظر Feyerabend (1974).

2- Chomsky (1977b) ص. 182.



المؤرخين، وأمام كثرة النماذج التوليدية وتنوعها، مالوا، وبشكل آلي، إلى تحقيبها إلى مراحل، يبتدئ كل منها بظهور نموذج جديد. هكذا تم تقسيم تاريخ النظرية التوليدية إلى مراحل يتطابق عددها مع عدد النماذج التي عرفتها.

وبما أن بوبر قد شيد نسقه الإبستمولوجي على مبدإ قابلية التفنيد[1]الذي يعارض مبدأ قابلية التحقق الذي تقوم عليه الإبستمولوجيا الوضعانية، فإن تشومسكي لن يكون إلا بوبريا بلباس لساني حينما يؤول أعمال الوصفيين على أنها أعمال يوجهها مبدأ قابلية التحقق، ويقتصر في اختبارها على ما يدعمها لا على ما يفندها. هكذا بدا له أن النحو المركبي، مثلا، وهو نحو وصفي، يمكن أن يعتبر نحوا كافيا إذا اعتمدنا في تدعيمه على ما يمكن أن يصفه من جمل، لكنه ليس كذلك إذا اتجهنا إلى تفنيده، كأن نتساءل عن قدرته على وصف الجمل الملتبسة وعلى التنبؤ بجمل أخرى يمكن للمتكلم أن ينتجها رغم أن المدونات لا تتضمنها، كالجمل المعقدة والجمل الطويلة[2]. كان تشومسكي بوبريا أو كاليليا، أيضا، حينما دعا إلى الانتقال بالعمل اللساني من أسلوب الملاحظة والاستقراء والاستكشاف إلى أسلوب التنبؤ والتخمين. من أسلوب الوصف إلى أسلوب التفسير. وبعبارة أخرى، حينما سعى إلى تقويض البنيوية باعتبارها وجها من وجوه الوضعانية التجريبانية. وبذلك يكون تشومسكي قد قدم عمله حجة[3]على صحة قول أستاذه:"

1- بخصوص هذا المبدإ مرة أخرى، يقول بوبر: " يمكن التمييز منطقيا بين منهج نقدي خاطئ ومنهج نقدي صحيح. ينطلق الأول من السؤال: كيف يمكننا تبرير أطروحتنا أو نظريتنا؟ الأمر الذي يقود إما إلى دوغمائية وإما إلى قهقرى لا نهائية أو إلى نسبوية الأطر المرجعية. وعلى العكس من ذلك، ينطلق المنهج الصحيح للنقاش النقدي من السؤال: ما هي نتائج أطروحاتنا أو نظرياتنا؟ أمقبولة كلها لدينا؟ يتوخى هذا المنهج المقارنة بين نتائج مختلف النظريات (أو بالأصح الأطر المرجعية) محاولا اكتشاف أيها يؤدي إلى نتائج أفضل." (1959) (Popper) ص. 40). ويستثمر تشومسكي هذا المبدأ بكيفية جلية في عملية تقويم الأنحاء. وهي العملية التي يعتبرها من صلب مهام النظرية اللسانية العامة.

2- انظر على الخصوص تشومسكي (1957).

3- يمكن اعتبار تشومسكي واحدا من الذين أسهموا بنصيب وافر في الترويج للنموذج البوبري وفي تدقيقه وتمحيصه، رغم أنه لا يشير إليه، لكن دون أن يتقدم بإضافات تمس الجوهر. ولعل انحسار هذا النموذج نتيجة الضربات التي تلقاها من لاكاطوس وفايرابند، على الخصوص، هو الذي سيساعد بعض نقاد "تشومسكي، فيما بعد، على تفنيد تصوراته. انظر الفصل الخامس من عملنا هذا.

لكي تحقق نظرية جديدة كشفا أو خطوة إلى الأمام، ينبغي أن تدخل في صراع مع النظرية التي سبقتها؛ ومعنى هذا أنها يجب، على ابسط الفروض، أن تؤدي إلى بعض النتائج المتعارضة. بيد أن هذا يعني، من المنظور المنطقي، أنها يجب أن تناقض سابقتها، يجب أن تطيح بها. وبهذا المغزى، نجد التقدم في العلم دائما ثوريا[1]."

من مظاهر الحضور الكاليلي في تشومسكي، أيضا، الموقف الذي أعلنه هذا الأخير من التجربة. إن تشومسكي لا يسند أي دور للتجربة في قيام المعرفة اللغوية سوى أنها تخصص ما هو عام ومشترك، كالنحو الكلي، وتساهم في اختبار النظرية والنموذج، وهو دور لا يختلف عن الدور الذي أسنده إليها بوبر من قبله. فالملاحظة والتجربة "تلعبان بالتأكيد دورا مهما في المناقشة النقدية للنظريات العلمية، وأساسيا يساعد في استبعاد النظريات الأضعف[2]."ومعنى ذلك أن الدور الحاسم للملاحظة والتجربة في العلم هو النقد والتقويم فقط. فلا يمكنها أن تؤسس أي مدخل للمعرفة[3]. ورغم ذلك، فإنه لابد من أن تتوفر النظرية على محتوى امبريقي[4]حتى تكون قابلة للاختبار[5] وللدحض والتفنيد، شريطة أن يفهم أن المقصود بالمحتوى الأمبريقي ما يفهم من تعليقنا على عبارتين مثل: هنا قد تمطر

1- بوبر (1997) ص. 45.

2- نفسه. ص. 118.

3- في سياق تعريفه للقضية المنطقية، وبالتالي الفلسفية والعلمية، ينفي Dominique Lecourt أن تكون قضايا مثل:

- هل تتحقق معرفة الأشياء بواسطة الحواس؟

- هل نتوصل إلى بناء المعارف بواسطة الاستقراء؟

قضايا منطقية وبالأحرى فلسفية أو علمية. انظر Lecourt (1981) ص. 16.

4- تعمدنا استعمال لفظ **أمبريقي** بدل لفظ **تجريبي** حتى نميز بين مفهومين مختلفين؛ فالمقصود بالأمبريقي ما تنبأ بقضايا يمكن أن نعثر على نظير لها في الواقع. وبالتجريبي ما توصلنا إلى معرفته عن طريق التجربة. وعلى هذا الأساس يمكن فهم ما يتردد في كلام تشومسكي من مثل: **يتوفر النحو التفسيري على نتائج أمبريقية تتجاوز بكثير حدود التجربة.** Chomsky (1968) ص. 41.

5- يقرر بوبر أن "القابلية للاختبار لها درجات؛ فالنظرية التي تقرر أكثر، وبالتالي تضطلع بمخاطرة أعظم، تكون أفضل في القابلية للاختبار من النظرية التي تقرر النزر اليسير." بوبر (1997) ص. 123.



السماء غدا وقد لا تمطر، و هنا ستمطر السماء_غدا، بأن الأولى ليس لها محتوى أمبريقي لسبب واحد هو أنها لا يمكن تفنيدها، وأن الثانية لها محتوى أمبريقي لأنها قابلة للتفنيد. ويندرج ضمن النظريات غير القابلة للتفنيد، أو تلك التي تخلو من محتوى أمبريقي، النظريات التي يعتبر منطوقها من باب تحصيل الحاصل، وتلك التي تدعي الحقيقة المطلقة. وهو ما سقطت فيه الوضعانية المنطقية، حسب بوبر، وعلم النفس البيهافيوري واللسانيات الوصفية التي تأسست عليه، حسب تشومسكي.

وحتى إذا تم التساؤل: من أين نبدأ؟ أمن الملاحظة والتجربة أم من العقل؟ كان الجواب الكاليلي، وعلى لسان بوبر دائما: " أقر بأننا بهذا المغزى لدينا دائما معرفة فطرية لنبدأ منها، حتى وإن كان لا يمكننا الاعتماد عليها فعليا[1]." هذه المعرفة الفطرية هي التي سيسميها بوبر، مرة، بالمعرفة القبلية، " لقد ولدنا ونحن مزودون بمعرفة يمكن أن ننعتها من الناحية النفسية أو البيولوجية بأنها **قبلية** أي سابقة على كل تجربة أو ملاحظة[2]." ومرة أخرى بالاستعداد_الغريزي:" إن هذا الاستعداد الغريزي المطرد والقبلي سيكولوجيا يتطابق تقريبا مع قانون السببية الذي سبق لكنط أن اعتبره جزءا من طبيعتنا العقلية وخاصية من الخصائص القبلية[3]." ولا داعي للتنبيه إلى أن ألفاظ ومفاهيم بوبر الرائجة هنا هي نفس الألفاظ والمفاهيم التي أقام عليها تشومسكي نسقه. وهي مفاهيم يحضر فيها المنهجي إلى جانب النظري. وتلك تقنية تمارس نوعا من اللبس المقصود. اللبس بين المطلوب وهو الحقيقة وبين طريقة اصطيادها. هناك لحظة واحدة تستوي فيها الحقيقة والمنهج معا. لحظة جدلية بما في الكلمة من معنى؛ إذ ليست هناك حقيقة مطلقة مسلم بها سلفا، وليس هناك منهج واحد يفرض نفسه بشكل سيادي، وإنما كل شيء يسير جنبا إلى جنب منذ البداية وحتى النهاية.

1- بوبر (1997) ص. 125.

2- Popper (1963) نقلا عن lecourt (1981) ص. 127.

3- نفسه، ص. 126.



القول بالأصل الطبيعي للقدرة على المعرفة قول شائع بل وأساسي عند كل الذين اشتغلوا أو كانت لهم قرابة مع ما سمي عموما بعلوم الإدراك، أي العلوم التي تهتم بدراسة قدرات العقل البشري وإمكاناته المعرفية، كالقدرة على اللغة والقدرة على التفكير والقدرة على الإدراك والقدرة على التنسيق والتخطيط...ومن هذه العلوم: اللسانيات التوليدية وعلم النفس المعرفي والمنطق والرياضيات والفيزياء والفلسفة وعلم الأعصاب والذكاء الاصطناعي والإعلاميات... [1] وتشترك كلها في مجموعة من المبادئ المنهجية، يمكن حصرها فيما يأتي:

- **المبدأ الأول:** عند تفسير القدرات العقلية للبشر، يبقى اعتماد المستوى الفيزيقي (البيو-كيميائي فيزيائي)[2] غير كاف. ويجب تغييره بمستوى آخر هو المستوى التمثيلي.
- **المبدأ الثاني:** لا توصف الحالات المعرفية (الأوضاع التي يكون عليها الدماغ) على أنها عمليات فيزيائية فقط، وإنما، أيضا، على أنها عمليات حسابية تتعلق بالتمثلات التي ترتبط بها.
- **المبدأ الثالث:** المعرفة ظاهرة لا يمكن تحديدها عن طريق المثير والاستجابة، وهما ظاهرتان تجريبيتان. فلابد من فسح المجال لتعميمات مستقلة عن التجربة.
- **المبدأ الرابع:** رغم أن الظواهر العقلية كانت موضوعا للفلسفة منذ القديم، فإنها قابلة لأن تدرس علميا، فتوصف وتفسر ككل موضوعات العلم.
- **المبدأ الخامس:** علوم الإدراك علوم متعددة كما بينا لكنها متكاملة، حيث لا يستغني أحدها عن أي علم من زمرته.

1- سبق أن وقفنا في فصل سابق من عملنا هذا عند ما يعنيه المعاصرون بعلوم الإدراك. انظر الفصل الثالث. الفقرات (2).
2- يعرض مصطفى التوني للتصورات البيو-كيميائية فيزيائية في علم النفس مثلا. انظر التوني (1988).



- **المبدأ السادس:** من الضروري، عند التحليل، إقصاء الأبعاد الاجتماعية والتاريخية والثقافية للظاهرة المدروسة.

ومعنى كل ذلك أن هذه العلوم تمارس نشاطها بعيدا عن مناهج الوضعانيين والبيهافيوريين والذاتيانيين والتاريخانيين والتطوريين والسيبرنيتيكيين... وتستقي مبادئها المنهجية من تصورات علوم الذهن التي تؤكد على أهمية العمليات الداخلية المحضة والمستقلة.

فعلى مستوى اللسانيات التوليدية، مثلا، وهي واحدة من علوم الإدراك، نجد أن تشومسكي قد ميز بين المستوى التمثيلي والمستوى الفعلي للغة، كتمييزه بين القدرة والإنجاز، ثم بين البنية العميقة والبنية السطحية، بين النحوية والمقبولية، بين المتكلم المثالي والمتكلم الفعلي... وذلك سعيا منه إلى تقديم البراهين على أن دراسة اللغة، وبالشكل الذي يتصورها به، لا يمكن أن تكون إلا علما من علوم الإدراك. وكيفما كانت الانتقادات التي واجهها موقف تشومسكي، فإنه يظل المفكر الرئيسي في مجال هذا النوع من اللسانيات.

من المبادئ الأساسية في الإبستمولوجيا الكاليلية الاهتمام ليس فقط ببناء النماذج وإنما بتنويعها وتجديدها أيضا دون توقف. فحسب هذه الإبستمولوجيا، ليس هناك ما يفرض الكف عن بناء النماذج الواحد تلو الآخر. وهي عملية يقصد بها تضييق الهوة بين ما هو مفترض وما هو قائم أو يمكن أن يقوم. ولقد كان علم الفلك الكاليلي هو أول من دشن اللجوء إلى هذه التقنية في تفسير الظواهر قصد تدارك التضارب الحاصل بين ما يفترض وبين ما يقدمه المرصد، وذلك ببناء نسق وسط يتم فيه التلطيف من جموح الحدوس من جهة وترويض الواقع المدروس من جهة أخرى، وهو ما سمي عند القدماء بأسلوب_إنقاذ الظواهر الذي تفرضه الأزمة المترتبة عن تضخم الفرضيات وصعوبة التحقق[1].

1- بخصوص النموذج الفلكي، انظر بناصر البعزاتي (1997). ص.ص. 89-120.



وينسب برتراند راسل دورا كبيرا إلى النموذج مقارنة مع النظرية، نظرا لاقترابه من الواقع. ولم يلبث أن عبر عن تخوفه من الجموح في الخيال النظري المبتعد عن الواقع. مما أدى به إلى تقديم هذه النصيحة " النتائج الجزئية التي ترتبط بالواقع أفضل من التعميمات الكبرى التي يتوصل إليها عن طريق الخيال فقط[1]." ولذلك ارتأى البعض أن يتم اختبار النموذج على ضوء ما يمنحه الواقع، فإن هو تطابق معه تم الاحتفاظ به وإلا تمت مراجعته. أما أن يختبر على ضوء بنيته النسقية فقط فإن ذلك قد يؤدي إلى السقوط في الشكلانية المتطرفة التي تؤدي، بدورها، إلى التطور الذاتي للنموذج لا إلى تطور النظرية والانتفاع بها.

وفي الأدبيات الأفلاطونية، ينظر إلى النماذج على أنها مثل يأتي الواقع على منوالها. وبطبيعة الحال، فإن عالم النماذج أو المثل يكون أكمل وأخصب؛ فهو أكمل لأنه بناء عقلي صرف، وهو أخصب، لأنه ينتمي إلى عالم الممكن، وهو عالم في حجم الكون اللامحدود.

وحسب هذه الإبستمولوجيا، فإنه لا يسمح بتكرار النموذج الواحد للنظرية الواحدة. وما قد يبدو من تكرار في هذه الحالة يعزى إلى التشابه الحاصل في البناء الهندسي للنماذج لا إلى القدرات التفسيرية المتوقفة على المضامين الأنطولوجية. مبدأ رفض تكرار النموذج الواحد هذا يعتبر شرطا أساسيا في إحداث الثورات داخل العلوم والرفع من وتيرة تطورها بالقياس إلى الوتيرة التي يحدثها تجدد النظريات. فالعلم الذي يتطور بسرعة أكبر هو الذي يجدد ويراجع نماذجه باستمرار. ومن النظريات ما استطاعت الصمود والاستمرار، نسبيا، بفضل تجديد نماذجها. ويصدق الأمر على النظرية التوليدية التي يمكن أن نقول عنها: إن تاريخها، منذ بدايتها وإلى الآن، هو تاريخ تجديد النماذج. فأفضل النماذج، في هذه الحالة ما لم يعمر طويلا ومهد الطريق لظهور نموذج جديد. وحينما تستنفد كل محاولات تجديد النماذج يعلن مباشرة عن انهيار النظرية أو عن أزمتها[2]. بهذا المعنى يمكن تفسير ثورية التوليدية

1- Universalis مادة Quine.

2- هذا هو السيناريو الذي يقدمه كون للطريقة التي يتقدم بها العلم. انظر Kuhn (1962).

مقارنة مع غريمتها البنيوية. فلقد فشلت هذه الأخيرة في طرح الأسئلة الإستراتيجية والإجابة عنها، رغم أنها قدمت نفسها، في البداية، على أنها نظرية لسانية. فكان ذلك إيذانا بسقوطها، مما فسح المجال لظهور باراديكم جديد في اللسانيات يستجيب لما هو مسطر في الباراديكم العلمي العام كما رسمه بوبر على الخصوص. ومن هنا يمكن أن نفهم سر المجهود الكبير الذي بذله تشومسكي لإبراز مظاهر أزمة البنيوية.

يرى طوماس كون أن سيادة نموذج علمي معين ليست مسألة علمية محضة وإنما هي مسألة اتفاقية أو مواضعاتية تتدخل فيها اعتبارات أخرى اجتماعية ونفسية ذاتية... ولذلك، فهو يرفض تجريد نموذج قديم من العلمية لمجرد أنه قديم فقط. و بناء على هذه الملاحظة، انبرت الإبستمولوجيا المعاصرة إلى بناء مجموعة من المقاييس لتقويم النظرية وتقنين عملية بناء النماذج، كان أهمها ما جمعه بوبر في كتابه منطق الاكتشاف العلمي وما تناوله، من بعده، كل من كون ولاكاطوس وفايرابند وآخرين.

إذا تصورنا أن النموذج جهاز تمثيلي، فإن اختلاف النماذج يمكن أن يفسر:

- بناء على مدى الوفاء بالغرض الذي أنشئ النموذج من أجله.
- بناء على طبيعة الإطار النظري الذي يؤطره؛ أهو استكشافي، كأن يكون المطلوب من اللساني اكتشاف النحو الملائم لمادة لسانية معينة؟ أم هو تقريري، كأن يكون المطلوب هو تقرير ما إذا كان النحو المقترح لمادة لغوية معينة نحوا ملائما أو لا؟ أم هو تقييمي، كأن يكون المطلوب هو تحديد أي من الأنحاء المقترحة لنفس المادة اللغوية هو النحو الأكثر انسجاما مع تلك المادة؟

وبالمناسبة، فإن تشومسكي قد اختار أن يؤطر أعماله، سواء أتعلق الأمر ببناء النظريات أم ببناء النماذج، ضمن الإطار التقييمي. فبعد أن انتهى من عملية الإعلان عن النحو التوليدي التحويلي كنموذج مقترح لحل مشاكل الإنجليزية، انتقل إلى عملية أخرى هي تقييم هذا النحو مقارنا إياه بأنحاء أخرى،



كالنحو المركبي (Grammaire Syntagmatique) ونحو الحالات المحدودة (Grammaire à Etats Finis)، وذلك من منظور أعلى أو من موقع ميطالساني (Métalinguistique) تم فيه تحديد المفاهيم العامة والأكسيومات الكبرى التي لابد لكل تصور لساني من مراعاتها، ليصل، في النهاية، إلى رسم صورة للمنهجية التي يجب الأخذ بها في ممارسة العمل اللساني. ويمكن فهم انتقال تشومسكي من نموذج إلى آخر أو تجديد نماذجه وتعديلها[1]، دون التخلي عن نظريته العامة، بأنه عملية تندرج ضمن المنهجية التي اختارها منذ البداية وهي التقييم بدل الاستكشاف والتقرير اللذين حكما التصورات البنيوية. فرضت استراتيجيا التقييم على تشومسكي أن يظل متمسكا بالنظرية العامة التي هي مجموع المبادئ المندرجة تحت اسم النحو الكلي وما يرتبط به، وأن لا يتوقف عن الذهاب والإياب بينها وبين النماذج التي يبنيها للألسن. فكلما أحس بأن النظرية أصبحت مهددة أعاد النظر في النموذج الذي يقترحه لها، وذلك بإضافة فرض جديد أو بالتخلي عن فرض قديم[2].. كما حدث في النموذج المعيار الذي تم تدعيمه بفرضية البنية العميقة بعد أن واجه النموذج السابق مجموعة من الصعوبات كادت أن تطيح بالنظرية ككل. وعلى رأس هذه الصعوبات مسألة التأويل الدلالي.

ويمكن اعتبار التعديلات التي عرفتها نماذج تشومسكي، بدءا من نموذج (1957)، مرورا بالنموذج المعيار والنموذج المعيار الموسع والنموذج المعيار الموسع والمراجع... وانتهاء بالبرنامج الأدنوي، أنها مجرد تعديلات ذريعية أملتها ضرورة الرغبة في تحقيق درجة أعلى من الكفاية النظرية[3].

1- لهذا الانتقال دلالة إبستمولوجية يعبر عنها تشومسكي نفسه بقوله:"يجب أن لا ننظر إلى هذا الانتقال في حد ذاته. لكن الذي يجب أن نهتم به هو ما إذا كان هذا الانتقال يلعب دورا في تقدم المعرفة. حينئذ نقول: إن لهذا الانتقال دلالة ومعنى، وإلا فإنه لا معنى له." Chomsky (1977)، ص. 180.

2- يطلق لاكاطوس على مجموعة الفروض المدعمة للنظرية اسم **الحزام الواقي**. انظر مناقشة هذا المبدإ في أمستردمسكي (1975).

3- يلاحظ G/P " أن هذا الأسلوب يشبه ذلك المتبع من قبل المشرعين الأمريكان: إنتاج قانون بدافع التشريع، يظل مفتوحا إلى حين ظهور ما يدعو إلى مراجعته تحت الدوافع الذريعية." (G/P (1981). ص. 210. الهامش 91). مما قد يفيد أن الأمر له علاقة، أيضا، بتقليد أمريكي.



ومع ذلك، تبقى مسألة تجديد النماذج مسألة يقف وراءها الإحساس بالخوف من انهيار النظرية والاستفادة من الدرس الذي قدمه بوبر والذي يفيد أن كل المحاولات التي يتم القيام بها لدعم النظرية، باقتراح فرض إضافي، مثلا، هي محاولات تنقذها من التفنيد فقط لكنها لا تنقذها من انخفاض درجتها العلمية. إذ يرى بوبر " أن النظريات العلمية ليست مجرد مجموعة من الملاحظات وإنما هي اختراعات وتخمينات تواجه محك الاختبار بجرأة فيتم استبعادها إذا تعارضت مع الملاحظات[1]." في نظر بوبر، لا يتحقق الانفلات من الوقوع في مأزق التفنيد إلا بتحقق الزيادة في المضمون الأمبريقي للنظرية. وفي نظر تشومسكي، لا يكون النحو كافيا إلا إذا غطى ما هو موجود وتنبأ بما يمكن أن يوجد. كان تشومسكي دؤوبا على مراجعة نماذجه، وذلك عملا بنصيحة بوبر دائما:" إذا كنت منحازا لتحبيذ نظريتك الأثيرة، فسوف يتلهف فريق من أصحابك وزملائك على نقد ما أنجزته... وإذا لم يفعلوها فسيفعلها بعض العاملين من الجيل الثاني. وينبغي أن تشجعك هذه الواقعة على أن تحاول تفنيد نظريتك بنفسك[2]." ورغم أن القاعدة العامة هي أن يتغير النموذج لتستمر **النظرية**، فإنه قد يحصل أن يتسبب ظهور نموذج جديد في تعديل النظرية، كما حدث مع نموذج تشومسكي المعروف باسم العاملية والربط (Government and Binding) الذي حمل تعديلات استراتيجية مست النظرية في بعض أكسيوماتها الفرعية[3]على الأقل، كضرورة اللجوء إلى التحويلات ومفهوم الاشتقاق المرتبط بها، وكفرضية استقلالية التركيب... ورغم كل ذلك، وحسب ما يبدو لنا، فإن جوهر النظرية ظل هو هو إلى آخر نموذج من نماذجها وهو النموذج المسمى بالبرنامج الأدنوي. وهو ما يتبين من العرض السريع لفرضياته الأساس. هذا البرنامج عبارة عن صياغة جديدة لنموذج سابق هو نموذج مبادئ

1- السيد نفادي (2000)، ص.28.

2- بوبر (1997) ص. 122.

3- نقول **الأكسيومات الفرعية** حتى لا يفهم أن التعديل قد مس المبادئ الكبرى للنظرية عكس ما حاول A. Rouvret أن يفهمنا. انظر Rouvret (1987).

وبارامترات. ويسعى تشومسكي، من خلاله، إلى تقليص المسافة بين الكفاية الوصفية والكفاية التفسيرية. بمعنى أن الهدف العام كان هو الرغبة في تحقيق درجة أعلى من التعميم. وربما كان هذا هو جديد هذا البرنامج. وتتلخص الفرضيات الأساس لهذا البرنامج الجديد في أن:

1- اللغة البشرية ظاهرة طبيعية،

2- الملكة اللغوية، في حدها الأدنى، عبارة عن مكونين اثنين:

أ-مكون ذهني عميق،

ب-ومكون إنجازي.

3- يشتمل المكون الذهني العميق على النسق القاعدي والمعجم والمكون الفونولوجي،

4- يدخل في الإنجاز التصورات والمفاهيم. وهي أمور يطبعها عدم الانسجام ولا يحققها الأفراد بنفس الكيفية. فهي أمور فردية،

5- المكون الذهني العميق متضمن في المكون الإنجازي، دون أن يعني ذلك أن عملية التوليد موجهة نحو الاستعمال،

6- يولد النسق القاعدي ما لا حصر له من الأزواج التي تستجيب لقيود الجزيرة،

7- يجب أن يكون الاشتقاق مثاليا، بحيث يستجيب ليس فقط للقيود الجزيرية وإنما لقيود الاقتصاد أيضا،

8- تسمى نظرية المرحلة الذهنية الأولى نحوا كليا، حيث تتحدد طبقة الألسن الممكنة. وتسمى نظرية المرحلة الذهنية النهائية نحو اللسان الخاص. وتحصل عملية الاكتساب بين المرحلتين. وتفسر المرحلة الأولى بأنها معطاة بشكل جيني. وهي عبارة عن مبادئ تمثيلية أو عن قيود يخضع لها كل لسان. كما أنها تشتمل على خيارات مفتوحة (بارامترات) تسمح بالتصرف في ما هو معطى سلفا. واكتساب لسان ما معناه تثبيت ما كان عاما بواسطة هذه البارمترات،

9- البارامتر الذي يعني التنوع اللغوي تقيده خصوصية المعجم.

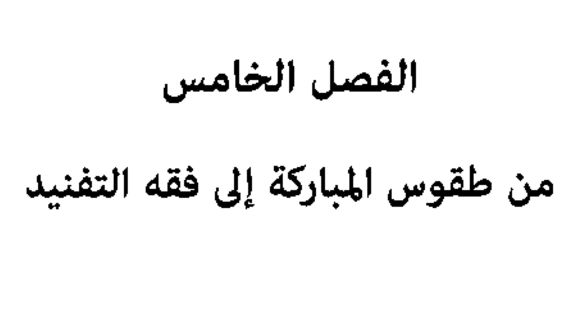
هذا، ولا يخفى أن من بين الخلفيات الإبستمولوجية التي أطرت هذا النموذج المشهود له، من قبل البعض، بالجدة النوعية التوق إلى إضفاء قدر أعلى من الأناقة على النظرية. هذا التوق الذي بدا ملحا منذ ظهور المقاربة القالبية (approche modulaire) التي " فسحت المجال لبعض الأوصاف الأنيقة التي يمكن أن تتم بها مقاربة بعض الظواهر اللسانية. فبالإضافة إلى أن المقاربة القالبية تقدم افتراضا أكثر احتمالا لعملية اكتساب اللغة، فإنها عبارة عن برنامج يأخذ بعين الاعتبار أكبر عدد ممكن من مكونات اللغة أثناء التفسير والوصف[1]."

ومن الملاحظات التي يمكن إبداؤها، في سياق الحديث عن المنهج، أن تشومسكي تعود، في استدلالاته، أن ينتقل، من حين لآخر، من العرض الكيفي لنظريته إلى العرض الكمي، من العرض الفلسفي المعتمد على المفاهيم إلى العرض التقني حيث استنباط القواعد والمبادئ وصياغتها صياغة صورية، من الحديث عن القدرة اللغوية كمعطى افتراضي إلى الحديث عن تجليات هذه القدرة. هذا الانتقال نجد أصوله في التقاليد العلمية المعاصرة لتشومسكي. فحينما يشتد الإحساس بالاستطراد في وصف الأشياء وكيفياتها وصفاتها، يتم الانتقال مباشرة إلى العرض الكمي المتمثل في الصياغة الرياضية للقوانين والقيود والمبادئ. فتتحول الكيفيات إلى كميات والصفات إلى أرقام.

زاوج تشومسكي بين الأخذ بمنطق الرياضيات، في التنظير للتركيب، وبين الأخذ بمنطق علوم الطبيعة، في التنظير للقدرة. وحين ينفي عن اللسانيات التوليدية أن تكون رياضيات، فإنما يقصد بذلك أنها تتحدث بلغة علوم الطبيعة، وهي لغة محيلة على واقع، لا بلغة الرياضيات التي لا تتحدث إلا عن نفسها والتي لا تستثمر إلا حينما يتعلق الأمر بصياغة القواعد. نجد لهذه المزاوجة أصولا عند كارناب الذي ميز بين اللغة الرياضية ذات الطبيعة النسقية وبين لغة علوم الطبيعة ذات الطبيعة الإحالية[2].

1- نفسه، ص. 52.

2- للاطلاع على تمييز كارناب هذا، انظر العلاف (1991).



الفصل الخامس

من طقوس المباركة إلى فقه التفنيد

دحض الأساس النظري لتشومسكي

نماذج تفنيدية

1) رغم الشهرة الواسعة التي حققتها النظرية التوليدية نتيجة جرأتها في فتح نقاش مع جل المعارف الرائدة، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق وعلم النفس، كان محوره " ما الذي يجعل من الإنسان كائنا عارفا؟" و رغم ذلك، فإنها لم تحظ بالإجماع الذي راهن عليه روادها؛ لقد تعرضت لأعنف الضربات النقدية وأخضعت لأشد عمليات الاختبار قسوة. وربما عاد صمودها المؤقت أمام أعتى الهجمات والمحاولات التفنيدية إلى أن أساسها النووي، وهو ربط الظاهرة اللغوية بأنشطة الدماغ، لم يحرز فيه العلم أي تقدم بعد[1]. فظل مصيرها معلقا بحصول هذا التقدم. وربما عاد هذا الصمود إلى مهارة التوليديين فقط في السجال وذلك بتعمدهم إجراء هذا الربط.

ومن أهم الجهات التي بنت برنامجها على نقد تصورات تشومسكي، باعتباره رائدا، هناك علم النفس السلوكي (أو البيهافيورية) وعلم النفس التكويني أو التطوري وعلم الدلالة والتداوليات والسوسيولسانيات والفلسفة التجريبانية والوضعانية المنطقية. وسوف نكتفي في الفقرات اللاحقة من هذا الفصل بالإشارة إلى مجمل ما قيل، محيلين في التفاصيل على المظان، لأن الدخول في التفاصيل يحتاج إلى عمل خاص وهو ما نرجئه إلى فرصة أخرى نتمنى أن تتاح لنا.

2) إن نماذج تشومسكي الأولى الضاربة في الصورنة والداعية إلى الأخذ بمسلمة البنية النسقية للسان قد ألبت عليه أصحاب النظريات السياقية والدلالية والتداولية. وهي نظريات يجمعها كلها اهتمام واحد هو المتعلق بورود المعنى كبعد محدد لطبيعة اللسان. كما أنها نظريات تنطلق من أساس مشترك مفاده أن

1- يقول أحد علماء البيولوجيا مستدركا بعد الإشادة بما حققه هذا العلم:"على أن هناك حالات قليلة لم يحرز العلم فيها التقدم المنشود، مثل طريقة عمل الدماغ والنمط الجيني. ويتحتم أن نؤكد أن هذه الحالات هي مجرد استثناءات". ماير (1997)، ص. 101.



التصورات القائمة على التركيب وحده، كتلك التي تبناها تشومسكي في هذه النماذج، لا يمكنها بأي حال من الأحوال إلا أن تطمس حقيقة اللسان وتبعدنا عن إدراك طبيعته. الأمر الذي دعا إلى تكثيف كل الجهود لتفنيد التصور القائم على فرضية استقلالية التركيب عن الدلالة وعن السياق وعن الذاكرة وعن كل المعارف التي يبدو أنها تسهم في تحديد طبيعة اللسان خاصة إذا ما تمت صورنتها بالشكل الذي يجعلها تتخذ صورة قواعد تماما كما هي قواعد التركيب[1]. ولذا، فإن العجز الذي توصف به المواقف الدلالية، وبالأحرى المواقف التداولية والتواصلية والوظيفية، ليس عجزا أو قصورا في تلك المواقف في ذاتها ولكنه قصور آت من العجز عن صياغة المقترحات صياغة صورية حتى يمكنها أن تحتل موقعا داخل النماذج اللسانية. إلا أن الذي يجب التأكيد عليه، مع ذلك وكما يرى **George lakoff**، وهو واحد من رواد ما سمي في الأدبيات اللسانية المعاصرة " بالدلالة التوليدية "، هو أن الدلالة، باعتبارها علما يهتم بدراسة المعنى، تلتبس بالقواعد التي تحكم التركيب، حتى إن التقسيم (مركب اسمي، مركب فعلي) الذي اقترحه الوصفيون في البداية (هاريس) لوصف بنية الجملة والذي تبناه تشومسكي من بعدهم، لا يمكن فهمه إلا على أساس أنه مستمد من التقسيم المنطقي الأرسطي[2] الذي كان منطقا قائما على المعنى قبل أن يتطور إلى منطق رياضي يقوم على الصياغة الرمزية.

ورغم أن تشومسكي قد تبنى، فيما بعد، مجموعة من الاقتراحات التي تقدم بها بعض أشياعه، أمثال **Jerrold Katz** و **Jerry Fodor** و **Paul Postal**[3] بخصوص إغناء النموذج التوليدي ببعض التعميمات الدلالية، مما سينتج عنه ظهور

1- في البداية، كان جوهر الخلاف بين تشومسكي والدلاليين هو مدى إمكانية **الصياغة الصورية لقضايا المعنى** التي بدت له إمكانية مستحيلة. انظر خاصة Chomsky (1957) ص.ص. 105-119.

2- بنى أرسطو ميتافيزيقاه على التمييز بين الجوهر والعرض. وانطلاقا من ذلك بنى نموذجا منطقيا قائما على دراسة العلاقة بين الموضوع (الجوهر) والمحمول (العرض)، متصورا أن الموضوع تقابله مقولة الاسم، وأن المحمول تقابله مقولة الفعل أو الحدث.

3- انظر على الخصوص Fodor/ Postal/Katz (1963) و Postal/Katz (1964).



النموذج المعيار[1]، إلا أن ذلك لم يقنع أصحـاب الدلالـة التوليدية[2]الملتفين حول لاكوف، لأن تشومسكي ظل متمسكا، مع كل ذلك، بمركزية التركيب في تصوره لنموذج القدرة اللغوية، جاعلا من المكون الدلالي المقترح مجرد مكون تأويلي، أي أنه مكون لا يساهم في عملية توليد بنيات الجمل، وأن كل دوره هو إسناد السمات الدلالية إلى ما يكون التركيب قد انتهى من توليده، مثله في ذلك مثل المكون الفونولوجي. ليس المكون الدلالي، كما اقترحه تشومسكي في النموذج المعيار، سوى عبارة عن قاموس وقواعد إسقاط تشتغل كلها على ما هو مولد من بنيات بواسطة المكون الأساس المتفرع عن المكون التركيبي[3].

إن الصيغة التوفيقية التي تبناها تشومسكي، باقتراح من أصحابه التأويليين للخروج من المأزق الدلالي الذي ألب عليه بعض التوليديين ممن يتبنون فرضية القدرة، لم تحظ بالقبول وإنما كانت هدفا لمجموعة من الدحوض، حيث اتهمت في البداية بانها قاصرة من الناحية الوصفية؛ فكثير من الوقائع الأمبريقية لا يمكن أن تجد لها مكانا في النموذج التأويلي. وحتى يمكن تجاوز هذا القصور يرى الدلاليون التوليديون ضرورة التخلي عن فرضيتي التركيب العميق والدور التأويلي للدلالة وتصبح البنية العميقة بنية دلالية مائة بالمائة ولا يحتفظ سوى بقواعد التحويل. لقد سلك الدلاليون التوليديون أسلوبا متطرفا وعنيدا في التفنيد؛ فمن تفنيد فرضية مركزية التركيب واستقلاليته إلى اقتراح الدلالة كمنافس فإلى الدعوة إلى التخلي عن التمييز بين القواعد المركبية والقواعد التحويلية (المكون التركيبي) وقواعد التأويل (المكون الدلالي). وتمت المناداة بأن يقتصر دور قواعد النحو كلها على

1- Chomsky (1965).

2- تختلف الدلالة التوليدية كما تطورت على يد J. S. Gruber و George lakoff و James Mc Cawley عن الدلالة التأويلية التي قبل بها تشومسكي في أن الأولى تقوم على فرضية أولوية الاعتبارات الدلالية على الاعتبار التركيبي، حيث الدلالة أولى والتركيب مشتق. انظر:Chomsky (1965) و Gruber (1965) و lakoff (1965) و Mc Cawley (1967) وعبد المجيد جحفة (1999).

3- Chomsky (1965).



تقييد عملية اشتقاق المؤشرات المركبية حتى لا يتم توليد إلا البنيات السليمة والمقبولة، وبأن يتم ربط الصور النحوية بالصور المنطقية للجمل. هذا المطلب الأخير ستتم الاستجابة له، وإن بعد حين، من طرف تشومسكي بعد أن ظهر في البداية وكأنه يلحقه بمستوى الإنجاز الذي ليس موضوعا من موضوعات اللساني. فبإلحاح من الدلاليين التوليديين من جهة وبما تقدمه الاختبارات الأمبريقية يوميا من مؤشرات على ضرورة انفتاح النحو على الدلالة من جهة أخرى، تقلب تشومسكي بين مجموعة من المواقف ابتدأت برفض الدلالة كموضوع لساني وانتهت ببناء نظرية تحتل فيها الصورة المنطقية (الدلالة بمعنى من المعاني) موقعا هاما[1] إلى درجة أن الدلالة أصبحت تتداخل مع التركيب عند بعض التوليديين على الأقل[2]. ورغم ذلك، فإن قراءة متأنية لجهود تشومسكي في مجال الدلالة تبين مدى إصراره على التمسك بمركزية التركيب. وهو إصرار تشهد عليه محاولاته المستمرة إغناء نظريته بمجموعة كبيرة من المبادئ والفرضيات التي اتخذت شكل نظريات فرعية مدعمة، نذكر منها على سبيل المثال: نظرية المقولات الفارغة ونظرية الإعراب ونظرية الحواجز ونظرية المراقبة ومبدأ الإسقاط، وغيرها من النظريات والمبادئ التي سيلجأ للدفاع عن تعددها وورودها إلى اقتراح نظرية القوالب أو المجزوءات التي يفترض أنها تعكس قدرة المتكلم باعتبارها شبكة من البنيات الذهنية المتداخلة والتي تم بموجبها تصور نحو اللسان الطبيعي على أنه نسق متعدد المكونات (Grammaire modulaire) وذلك في إحساس، ربما، بأن النظرية الأم أصبحت مهددة بفعل تعدد الفرضيات المدعمة. وهو إحساس يمكن تفسيره بأنه نابع من الفهم العميق للدرس الإبستمولوجي المنسوب إلى كل من كون ولاكاطوس المشار إليهما سابقا. هكذا لم تحظ الدلالة في النسق الشومسكاوي بمكانة تخول لها أن تصبح بنية من البنيات الذهنية المشكلة للقدرة اللغوية، وظلت تعالج بشيء من الحيطة

1- انظر نماذج تشومسكي بدءا من النموذج المعيار (1965) وانتهاء بالبرنامج الأدنوي (1995) مع التركيز على تتبع التاريخ الذي عرفته موضوعة الدلالة.

2- انظر على سبيل المثال Stabler (1995).

والحذر. فهي تارة مكون من مكونات النحوية، وهي موضوع لساني، وهي تارة أخرى مكون من مكونات المقبولية التي ترتبط بالإنجاز لا بالقدرة. لقد بدا لتشومسكي أن الأخذ بالاعتبار الدلالي، كما يقترحه الدلاليون، هو دعوة إلى التخلي عن مبدإ عام هو أن المعنى مسألة نسبية أو خاصة ولا تسمح ببناء نموذج كلي كالذي يسمح به التركيب، وأن اللسان يمكن تحديده بعيدا عن المعنى الذي يرتبط بالسياق الخارجي وظروف القول. إقصاء المعنى عن مجال الاهتمام اللساني جعل البعض يصف النموذج اللغوي لتشومسكي بأنه نموذج بدون لغة، تماما كما وصف، في قضية أخرى، بأنه نموذج بدون متكلم.

3) ما قلناه بخصوص اعتراضات الدلاليين يمكن أن يقال بخصوص اعتراضات السياقيين أو التداوليين بصفة عامة، فإذا ألح تشومسكي على ضرورة بناء نظريات لسانية صورية تعتبر اللغة بموجبها أنساقا مجردة، فإن التداوليين، والتواصليين على العموم، يرون، على العكس من ذلك، ضرورة بناء نظريات تعتمد المبدأ الذي بموجبه " أن اللغات الطبيعية بنيات تحدد خصائصها، جزئيا على الأقل، ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية، وظيفة التواصل[1]". ويعترف التداوليون بأن نظرياتهم تعتمد التمثيل القائم على ما أسموه بالبراجماتتاكس الذي " يمثل أحد التصورات الأخيرة لما كان يدعى الدلالة_التوليدية (Generative semantics) والنظرية الوظيفية (Functionalism) المقترحة في إطار مدرسة هارفارد الأمريكية والنظريات الوظيفية الأوربية التي نذكر منها المدرسة النسقية (Systemics) ومدرسة براغ المعروفة تحت اسم Functional sentence perspective وأخيرا النحو الوظيفي (Functional Grammar) الذي اقترحه في السنوات الأخيرة سيمون ديك (Simon dik)[2] ." كما أنهم يرون في مقاربتهم التداولية "المقاربة الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهة ولمقتضيات النمذجة للظواهر اللغوية من

1- المتوكل (1985) ص.8.

2- نفس المصدر والصفحة.

جهة أخرى[1]."ويعتبرون " أن موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية (Communicative Compétence) للمتكلم-المخاطب[2]."وأن "النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظورا إليهما من وجهة نظر تداولية[3]."وبناء عليه، يجب إعادة تعريف ثنائية تشومسكي قدرة/إنجاز؛ " فقدرة المتكلم، حسب منظور النحو الوظيفي، قدرة_تواصلية بمعنى أنها معرفة القواعد التداولية (بالإضافة إلى القواعد التركيبية والدلالية والصوتية) التي تمكن من الإنجاز في طبقات مقامية معينة، وقصد تحقيق أهداف تواصلية محددة[4]. "

4) من الاعتراضات الموجهة إلى تشومسكي في هذا الباب أيضا، ما تقدم به أصحاب لسانيات القول[5] الذين اتهموا لسانياته بعدم الكفاية الوصفية، لأنها تركز على الجملة ولا تدرس القول الذي تنعكس فيه الحقيقة اللغوية بجلاء في نظرهم، وهو ما أكدته التوليدية الفرنسية ميتسو رونا التي علقت بالقول:"بالفعل، يمكن اعتبار النحو التوليدي نحوا للجملة؛ إذ صب كل اهتمامه على وصف بنيات الجمل الممكنة، وهو ما أثار ضده كثيرا من الانتقادات، فعيب عليه أنه لم يتكلم عن القواعد التي تحكم سلاسل الجمل. وقيل: إن النحو التوليدي لا يفسر التقاطع الموجود بين اللسان والإيديولوجيا مثلا. وانقسم المنتقدون لهذه المسألة بين محافظ ومتطرف، واقترح المحافظون الاحتفاظ بالنحو التوليدي مع إغنائه بقواعد جديدة تهتم بالخطاب، وبدا للمتطرفين أن النحو إما أن يكون نحو خطاب أو لا يكون وأن الجملة ليست سوى تحديد مصطنع[6]. "

1- نفسه. ص.9.
2- نفسه. ص. 10.
3- نفس المصدر والصفحة.
4- نفسه. ص. 11.
5- يختلف هؤلاء عمن سبقهم من الدلاليين التوليديين والتداوليين في أنهم لا يقولون بوجود قدرة.
6- M. Ronat في تقديمها لـ Chomsky (1977) ص. 18.

5) وضمن نفس السياق تندرج اعتراضات السوسيولسانيين الذين يرون أن النتائج التي توصل إليها تشومسكي قائمة على أسس هشة لخصوها في اعتماده تعريف اللغة من الداخل لا من الخارج وفي إهماله البعد الاجتماعي. واستدلوا بلجوء تشومسكي إلى الأمثلة التي يصطنعها اصطناعا حتى تستجيب لنظريته وبعيدا عن المتكلمين الفعليين[1].

ويجب أن لا يفهم من كلام الدلاليين والتداوليين (التواصليين) والسوسيولسانيين أن تشومسكي كان يجهل أن للغة أبعادا كثيرة كالمعنى والمقام والظروف الاجتماعية... فلقد كان يدرك أن اللغة عبارة عن مكونات متعددة_لكنها غير متجانسة. وعدم التجانس هذا هو الذي دفع به، وهو بصدد أنسقة اللغة، إلى إقصاء كل ما لا يخدم هذا الهدف كالدلالة والتداول... إن عملية الإقصاء هذه كانت عملية مقصودة وتنبني على أسس نظرية ومنهجية وعلى اختيارات إبستمولوجية. ولذلك فإنه لم يتوان في الرد على منتقديه في هذه الأمور[2]. والذي يبدو هو أن تشومسكي قد بنى تصوراته على التمييز بين نوعين من النماذج؛ نماذج نسقية تبحث في تفسير البنيات التركيبية وردها إلى اعتبارات نسقية داخلية، ونماذج وظيفية تبحث في الأغراض التي توظف البنيات اللغوية من أجلها. كما أنه يميز بين غايتين؛ غاية تتوخى دراسة اللغة كبنيات لسانية، وأخرى تتغيى دراسة اللغة كنشاط معرفي يختص به البشر حيث يكون الهدف هو بناء نموذج للقدرة اللغوية ونموذج للاكتساب، دونما خلط مع النماذج الخاصة بالاستعمال والتي تهتم بشروط الإنتاج. ومعلوم أن الأسس الإبستمولوجية لهذه الأنواع من النماذج تختلف.

قرر تشومسكي، منذ البداية أن يراهن على بناء النماذج النسقية بالاقتصار على التركيب باعتباره الخاصية المخصصة للظاهرة اللغوية، وعلى الربط بين تلك النماذج والنماذج التي تتوخى تفسير قدرة المتكلم على إنتاج وفهم الجمل للوصول إلى

1- انظر على سبيل المثال في هذا الخصوص L.J Calvet (2004).

2- انظر: Chomsky (1957) و (1965) و (1968) و (1975) و (1977) و (1980)...



بناء نظرية جزئية تكون فرعا من النظرية العامة التي تفسر الذكاء البشري المتجلي في القدرة على امتلاك المعارف. ولذلك، فإنه من الطبيعي أن لا يهتم تشومسكي بالأبعاد المتعددة للغة ومنها البعد التواصلي وما يستدعيه من اهتمام بالمعنى، وأن يجعل على رأس أهداف برنامجه تفسير قدرة المتكلم بما يستدعيه ذلك من اللجوء إلى بناء الفرضيات، ومنها الفرضية الفطرية، وفرضية التمييز بين النسقي والوظيفي، بين البيولوجي والاجتماعي، بين الطبيعي والمكتسب، بين النحو الكلي والأنحاء الخاصة... هذا دون أن يدعي أحد أن الهدف المعلق على برنامج تشومسكي قد تحقق. إذ لا زال الهدف بعيد المنال، ولازال كثير من القضايا، حتى تلك التي ترتبط بمجال التركيب وفي اللغة التي اتخذت نمطا وهي الإنجليزية، لم يتم الحسم فيه، وهو ما يعترف به تشومسكي نفسه[1]، رغم أن البرنامج، منذ بدايته إلى الآن، قد مكن من اكتشاف وإعادة اكتشاف عدد لا يستهان به من القضايا اللسانية الهامة. ثم إن التوليديين لم يثنهم الاضطراب الذي يمكن أن تعاني منه المقاربات الدلالية جراء فقر الافتراض القائم على مسلمة استقلالية المعنى عن الإسهام في توضيح الأمور، بل وعن الإسهام في اقتراح دلالة مفهومية كالتي يشتغل عليها Ray Jackendoff، وهي دلالة تقوم على تصور أن المعنى لا يمكن أن يوجد خارج البنية اللغوية التي يحددها التركيب أساسا باعتباره مظهرا ذهنيا[2]، خلافا لما يتصوره أصحاب المواقف القائمة على التصورات البيئية التي تؤكد على وجود تفاعل بين الذات المتكلمة وبين العالم الخارجي[3]، وخلافا لتصورات أصحاب دلالة العوالم

1- انظر Chomsky (1995).

2- انظر Jackendoff (1990).

3- لمعرفة المزيد حول المقاربة الذهنية أو النفسية والمقاربة البيئية للمعنى، انظر جحفة (1999)، ص.ص. 39-56.



الممكنة[1] التي دافع عنها Richard Montague وعارض بها موقف الشومسكاويين القائم على أولوية التركيب على الدلالة، والمراهن على كفاية النظرية التركيبية وحدها في تفسير حدوس المتكلمين حول ألسنتهم، والمصمم على بناء نموذج لقدرة المتكلم على إنتاج الجمل يكون عبارة عن جهاز من القواعد التركيبية مضمر في ذهن المتكلم. إن مسلمة تشومسكي القائمة على الاعتقاد أن كل تحليل تركيبي يجب أن يبرر باعتبارات تركيبية صرفة لا باعتبارات دلالية هي مسلمة مرفوضة عند مونتكيو؛ لأنها، في نظره، لا تجاري الواقع اللغوي. ولقد صرح في اكثر من مناسبة بأن النظرية التركيبية، كما يقدمها التوليديون، نظرية غير مفيدة بالنسبة للدلاليين مادام أنها لا تقدم نفسها كما يجب أن تقدم النظرية التركيبية الحقة؛ أي تلك التي تقدم نفسها على أنها ترتبط بالدلالة وتشكل مخرجا من مخارجها. إن افتراض وجود بنيات ذهنية (تركيبية أو دلالية) يبدو لمونتكيو أمرا غريبا ولا يقوم عليه دليل. فهو واحد من كبار الدلاليين المعارضين للمواقف الذهنية. ولذلك، فإن اللسانيات، عنده، تعتبر فرعا من الرياضيات لا من علم النفس[2].

1- يقصد **بدلالة العوالم الممكنة** النظرية التي اقترحها في الخمسينات من القرن الماضي جماعة من المناطقة أمثال Saul Kripke و S. Kanger و J. Hintikka والتي قام بتطويرها، فيما بعد، R.Montague أحد تلاميذة R. Carnap و A. Tarski. وهي عبارة عن برنامج طموح توخى منه أصحابه البرهنة على إمكانية تحليل البنيات الدلالية للغات الطبيعية بنفس الدقة والوضوح اللذين تحلل بهما البنيات الدلالية للغات الصورية، حيث التحليل الأول لا يقل عن الثاني صورنة وترييضا إلى درجة أنه يمكن أن يوصف، هو أيضا، بأنه نظرية رياضية. من مبادئ هذه النظرية أن الحكم على عبارة لغوية ما بأنها صحيحة أو غير صحيحة ليس حكما مطلقا كما كان يعتقد سابقا، ولكنه حكم مربوط بإمكانية قيام عالم يمكن أن يشكل فضاء ممكنا لتلك العبارة. الفرق بين تصور أصحاب **دلالة العوالم الممكنة** وتصور بار-هيلل الذي وقفنا عنده في (الفقرة 2.1 من الفصل الثالث) أن الأول يقوم على اقتراح جهاز واصف خاص بعبارات اللغة الطبيعية، بينما يقترح الثاني الاكتفاء بنفس الجهاز الذي اقترح لوصف اللغات الصورية.

2- للاطلاع على مواقف مونتكيو من النظرية التوليدية، انظر Montague (1974).

6) وفي سياق آخر، تقدمت جماعة من اللسانيين الفرنسيين، أمثال M.Gross و B.M. Grunig و A. Berrendonner بمجموعة من الاعتراضات على النحو التوليدي، نلخصها في:

- أن الواقع الذي يشتغل عليه هذا النحو واقع مصطنع؛ لأنه واقع مبني على عدد محدود من الملاحظات الأمبريقية، ولأن أمثلته مفتعلة وقواعده مصطنعة.
- أنه يضفي على النظرية واقعية أكثر من الواقع الملاحظ.
- أنه يقدم النظرية العامة على النظريات الخاصة بالألسن.
- أن نماذجه متناقضة وغير مستقرة.
- أن مفهوم النحوية الذي يقترحه لم يحظ بالشرح الكافي.
- أن الفرضية الفطرية هي مجرد فرضية فلسفية لم تخضع لأي اختبار، وأن النحو التوليدي، بذلك، أقرب إلى البحث الميتافيزيقي منه إلى اللسانيات[1].

وفي نظرنا، فإن من أهم الأسباب التي دفعت بهؤلاء إلى التشكيك في طروحات تشومسكي واتهامه بعدم تحقيق الهدف المنشود بتقديم نماذج موفقة هو ما تصوروه من استحالة إمكانية التوفيق أو الجمع بين أمرين متناقضين هما الجموح نحو تبسيط المبادئ من جهة والتعقيد الذي تتصف به الكفاية التجريبية من جهة أخرى، وهو ما يعني التوفيق بين بساطة النموذج وتعقد الواقع اللغوي. وهذا ما سبق أن أشار إليه J. C. Milner الذي تكلم عن انهيار برنامج تشومسكي في مقارنة بينه وبين آخرصيغة من صيغ نموذج بطليموس الذي بالغ أتباعه في الاستعانة بأكبر عدد ممكن من الفرضيات قصد إنقاذ بساطة مبدإ الحركات المدارية الذي سيفسر حركة الكواكب المعقدة[2].

7) و من الاعتراضات التي رفعت في وجه التوليدية، و ربما من أهمها على الإطلاق، تلك التي تقدم بها علماء النفس على اختلاف توجهاتهم و التي تطعن

1- انظر التفاصيل في الحناش (1986).

2- انظر Milner (1973). تكاد ملاحظات ميلنر تلتقي مع تلك التي أبدى عنها بوطا، في نفس الفترة، وتلك التي سيبدي عنها فيما بعد. انظر: Botha (1973) و Botha (1991).



خاصة في الواقعية النفسية لافتراضات التوليديين، وتتهم نماذجهم بأنها غير كافية لتوضيح الميكانيزمات النفسية التي يستخدمها المتكلم في إنتاج الجمل و التي تؤول إليها عملية الانتقال من النحو الكلي إلى النحو الخاص و من القدرة إلى الإنجاز ومن البنية العميقة إلى البنية السطحية على سبيل المثال[1]. فبخصوص البنية العميقة والبنية السطحية، بين جماعة من علماء النفس التجريبي، أمثال Mc Kean، أن الوقت الممنوح للمتكلم لينتقل من بنية عميقة، كالتي يفترضها تشومسكي، إلى بنية سطحية وقت غير كاف و لا يتطابق مع الواقع[2] الحقيقي للعملية، وأن اللعبة اللغوية[3] التي يقترحها تشومسكي لا تحيل على أي واقع نفسي ويصعب تصديقها.

إن فرضيات تشومسكي، ومن وجهة نظر علماء النفس، تقوم على أساس تجريد المتكلم إلى حد التلاشي، وتعمل على إقامة لسانيات بدون متكلم كفرد متعين بل وبدون لغة. وهو ما قد ينفي إمكانية وجود علم نفس يهتم بسلوكات

1- في تمييزه بين مفهوم القدرة التوليدي ومفهوم الميكانيزم النفساني، يلاحظ M. Moscato/J.Wittwer أنه " بالنسبة لكثير من علماء النفس اللغوي، ليس هناك أي فرق بين القدرة وبين الميكانيزمات التي تقف وراء السلوك اللغوي. إلا أن هذه المقاربة يصعب قبولها خاصة إذا علمنا الفرق بين طبيعة كل مفهوم على حدة. إن القدرة مفهوم تجريدي في تصور تشومسكي. إنها الشيء الذي يطمح المتعلم إلى بلوغه. والطبيعة العميقة للقدرة هي أنها ذلك المرجع القار، في حين تعتبر الميكانيزمات التي يهتم بها عالم النفس نشاطا متحركا. وبذلك، فهي لا تدخل ضمن اهتمامات نموذج القدرة التي تعتبر نسقا من القواعد الصورية، نسقا محددا ومعطى سلفا. الأمر الذي يلغي كل إسهام وكل مشاركة للمتعلم". Wittwer/ Moscato (1978) ص. 48.

2- انظر التفاصيل في السابق. ص.ص. 53-55.

3- المقصود بذلك العملية التي تتم بموجب الفرضية التي تفترض أن تقنية التخاطب المشروطة بوجود متكلم ومستمع تتم بشكل يوحي بأن المسألة تتعلق بلعبة؛ فالمتكلم ينتج في ذهنه جملا ثم يتخلى عنها في صورتها= =النواة ليتلفظ بأخرى بعد أن يكون قد أجرى على الأولى مجموعة من التحويلات نقلتها من صورتها الأولى أو من مستواها العميق إلى المستوى السطحي. وعلى المستمع، بعدئذ، أن يعيد الأمور إلى ما نقطة البداية؛ عليه هو أيضا أن يتوفر على قدرة تمكنه من الربط بين البنيات السطحية وبنياتها العميقة. ووجه اللعب في العملية أن المتكلم ينتج أشياء فيخفيها، وعلى المستمع أن يكتشفها.



الأفراد ومنها السلوك اللغوي[1]. إن علماء النفس قد حذروا من اعتماد نموذج تشومسكي لوحده في دراسة العلاقة بين اللغة والأنشطة الذهنية، " فاعتماد هذا النموذج، منهجا أو تقنية، في دراسة العلاقة بين اللغة والأنشطة الذهنية قد يأتي بمعطيات جديدة فيما يتعلق بعلم النفس اللغوي، لكن اعتماده لوحده يعتبر غير كاف لتفسير الأنشطة المعرفية[2]". ولذلك طالب W.Kintsch باستقلال علم النفس عن اللسانيات[3]. وإذا كان Kintsch وأصحابه قد دعوا إلى الفصل المطلق بين علم النفس واللسانيات على خلفية الدعوة إلى الفصل بين القدرة والإنجاز فإن علماء نفس آخرين قد اعترضوا على هذا الفصل واعتبروا اعتماد نموذج القدرة لوحده غير كاف، كذلك، لتفسير سلوك المتكلمين في مختلف أنشطتهم، كالإدراك والتذكر. واتخذت فرضية التحويلات التوليدية وتغييب دور الإنجاز في الحكم على صحة أو خطإ الجمل ذريعة لتفنيد هذا النموذج[4].

1- يقترح تشومسكي أن تلحق لسانياته بعلم النفس المعرفي لا بعلم النفس العام الذي يقول عنه:"غالبا ما يوضع حد فاصل بين اللسانيات وعلم النفس... تعتبر اللسانيات مجالا تحدد فيه طبيعة الأنحاء والنحو الكلي. موضوعها هو القدرة، أي نسق القواعد والمبادئ الذي يفترض أنه ممثل في ذهن من يعرف لسانا ما، وكذلك النحو الكلي الذي يخصص تنوع الأنحاء البشرية الممكنة. فيما يهتم علم النفس، على العكس من ذلك، بالإنجاز، أي بعمليات الإنتاج والفهم... حيث يستعمل المتكلم معرفته اللسانية". Chomsky (1980) ص. 190.

2- (Wittwer/ Moscato (1978)، ص. 70.

3- في الفصل الأول من الكتاب الذي وضعه W.Kintsch والمشاركون معه (Kintsch وآخرون (1974)) والمخصص لعلم النفس المعرفي، يرى هؤلاء أن الفصل الصارم بين القدرة والإنجاز "سيمكن اللساني من التعامل مع فرضيات مجردة دون أن يشوش عليه الواقع النفسي، كما يمد عالم النفس بحجة طريفة تقوي اعتقاده بأن اللسانيات التي تبحث في القدرة لا تفيد في شيء". (Chomsky (1980)، ص. 192). وقد جاء ذلك في سياق الرد على اقتراح تشومسكي ضرورة الربط بين اللسانيات وعلم النفس المعرفي. وهو رد أتبعه كينتش بالقول: إن دراسة نسق القدرة يمكن أن تتم بشكل مجرد وبعيدا عن قيود الواقعية النفسية التي تظل من نصيب الدراسات المهتمة بالإنجاز. ويرى أن عالم النفس معفى من بناء أية نظرية تفسر المعرفة اللغوية= =وأسس اكتسابها، أو أنه غير معني بكل ماله علاقة بعلم النفس المعرفي أصلا. انظر التفاصيل في Chomsky (1980)، ص.ص. 192-193.

4- انظر في هذا الخصوص: J. Mehler و G. Noiret (1973).

وبخصوص فرضية النحو الكلي التي تفترض أن هناك مبادئ وقواعد عامة تتدخل في أنحاء كل الألسن، يرى هيلاري بوتنام Hilary Putnam (1926-) " أنه حتى لو كان بالإمكان اكتشاف تماثلات دالة بين الألسن، فإن تفسير ذلك سيكون أكثر بساطة من فرضية النحو الكلي، إذا قمنا بإرجاع تلك التماثلات إلى افتراض الأصل المشترك لتلك الألسن لا إلى وجود نحو كلي[1]". من جهة أخرى، ما يفترض أنه كلي وأنه المعرفة الفطرية بالمبادئ العامة للألسن، يرى فيه بياجي نوعا من الجنوح عن التصور العلمي وابتعادا عن الحقيقة التي يزكيها الواقع، فيسميه استعدادا طبيعيا للتكيف وقدرة على التفاعل مع المحيط اللذين تنتج عنهما المعارف ومنها المعرفة باللسان[2].

8) ويعترض البيئيون التطوريون على تجريد تشومسكي للمحيط من أي دور سوى رسم الحدود التي على النسق العارف أن لا يتجاوزها. فحسب التصور البيئي، ليس اللسان سوى حصيلة تطور ذهني ناتج عن التفاعل الحسي الحركي بين المتعلم والعالم، وأن للمحيط دورا أساسيا؛ فهو الفضاء الذي تتم فيه عملية التطور ومعه يتم التفاعل. ولذلك اعتبرت تصورات تشومسكي بعيدة عن الصواب، وقابلة للتفنيد[3]. ذلك أن النسق العارف يظل يعمل ويتطور في اتجاه تحقيق حالات التوازن

1- Chomsky (1968)، ص. 113. يسخر بوتنام من الفطرية فيسميها **المعجزة الفوضوية** ويرد تشومسكي وفودور:"إذا كان العنكبوت مصمما على نسج أعشاش، فلماذا لا يكون للبشر بنيات شبيهة في أدمغتهم؟". Piaget/ Chomsky (1978)، ص. 33.

2- الاعتراض على الفرضية الفطرية بحجة أنها ابتعاد عن الحقيقة، يرى فيه تشومسكي موقفا غير مبرر علميا ودعوة إلى الحد من الخيال العلمي. وفي نظره " ليس هناك ما يمنع اللساني من أن يفترض وجود جهاز ذهني فطري؛ لأن افتراض ذلك يمكن أن يفسر البرنامج التكويني الذي يمكن الطفل في النهاية من فهم ما يقدمه محيطه اللغوي من تجارب تساعده على بناء نسق القواعد والمبادئ اللغوية". Chomsky (1980)، ص. 177.

3- ظل تشومسكي يدافع باستماتة عن فرضيته ضدا على فرضية التفاعل بين الذات والمحيط التي يهاجمها تارة في شخص بياجي، كما فعل في المناظرة التي عقدت بينهما (انظر الفقرة 3.1 من الفصل 3)، وتارة في أشخاص آخرين، كما فعل وهو يرد على دحوض A.R. Luria الذي يفترض أن "المعرفة اللغوية الممثلة في الذهن البشري تنشأ نتيجة التفاعل بين المتكلم وبين المحيط" (Chomsky (1980)، ص. 90). أو على ادعاءات بعض أتباع بياجي، أمثال B. Inhelder و H. Sinclaire و M. Bovet الذين ادعوا "أن موقف التوليديين المتعلق بالمعرفة اللغوية يذكرنا بمواقف الوضعانيين الجدد. فهو ينقل النقاش من علم النفس المعرفي إلى البيولوجيا". (نفسه، ص. 196). في إشارة منهم إلى أن ما يحرك التوليديين هو مجرد نزوع نحو التعالم.



(المعرفة)، وأن الاكتساب هو نتيجة لتفاعل مستمر بين الذات والمحيط[1]، وذلك عبر ميكانيزمين مترابطين هما: التمثل (assimilation) والتلاؤم (accomodation) (تمثل المحيط والتلاؤم مع ما يجري فيه).

يتصور تشومسكي الذات بأنها ذات عارفة، بينما يتصورها بياجي مشروع ذات عارفة ويضفي عليها كل صفات المبادرة. ولذلك، فإن عالم المعرفة، عنده، يظل مغلقا ما لم تقتحمه هذه الذات. وبين الموقفين تقف الجشطالتية التي تناهض البيهافيورية والمذاهب الفطرية على السواء، فتدعي أن العقل البشري هو المسؤول عن بناء وتنظيم العالم، وليس العكس كما اعتقد البيهافيوريون. وأنه آن الأوان للتخلي عن التصورات الفطرية وبناء تصورات جديدة تستفيد من التقدم الذي حققه علم النفس العصبي، أي الانتقال من الاهتمام بالفطري العقلاني (innéisme) إلى الاهتمام بالأنساق العارفة (Cognitivisme) وهو ما لم يتم استيعابه، في نظرها، بشكل جيد من طرف العقلانيين، رغم أن ذلك أصبح يشكل أساس علوم العقل الحالية.

وفي محاولة منه لتفنيد تصور الشومسكاويين لعملية الاكتساب، يتصور بياجي أنه كما يمر التطور المعرفي العام للطفل عبر مراحل متتابعة، فإن اللسان يتطور عبر أنظمة متتابعة لكل منها ما يكفي من الانسجام يجعله يعمل وفق ما تتطلبه المرحلة. أي أن هناك: لسانا 1، لسانا 2، لسانا 3... وكل من هذه الألسن هو نتيجة لمرحلة سابقة ومقدمة لمرحلة لاحقة. كما يرى، وعلى عكس ما يفترضه تشومسكي من وجود نسق متميز وخاص باكتساب الألسن وجودا قبليا، أنه لا

1- من الذين وقعوا تحت سحر هذا التصور Steven Pinker الذي كان واحدا من كبار التوليديين قبل أن يصبح ممن يتبنون التصور التطوري للمعرفة اللغوية وربطها بالتفاعل مع المحيط. انظر Pinker (1994).



وجود لذلك[1]، وأن الخاصية الخاصة بالبشر ليست هي اللغة وإنما هي امتلاك بنيات معرفية هي المسؤولة عن ظهور اللغة، وأن اللغة، في نهاية المطاف، ليست سوى مظهر من مظاهر الوظيفة السيميوتيكية[2]التي تنسب إلى بنياتها المعرفية والتي تتطلب بطبيعتها بناء أدوات تمكن من التمثيل (représentation)، وهو عملية ذهنية تصاحب عملية الفهم والاستيعاب حتى يسمح للعقل بأن يتخذ مسافة من الفعل.

ولعل الذي أضاف زخما إلى حماس البياجيين واستماتتهم في مواجهة موقف تشومسكي هو ما تحقق من انتشار العلوم التطورية ذات المرجعية البيولوجية. فعلى الرغم من انتقال تشومسكي من الفطرية الفلسفية إلى الأنظمة البيولوجية، الذي يبقى، في نظرنا، مجرد انتقال سجالي أو هو، في أحسن الأحوال، انتقال استدلالي ليس إلا؛ إذ لا فرق بين القول بوجود معرفة فطرية[3]وبين القول بوجود عضو ذهني هو المسؤول عن اللغة ما دمنا نفتقد الدليل على وجود الإثنين[4]، فإنه ظل متمسكا

1- يلتقي مع هذا التصور تصور Robert Schwartz الذي يرى أن الطفل مزود بجهاز اكتساب عام يمكنه من اكتساب اللسان وغيره، عكس ما يدافع عنه تشومسكي من أن جهاز اكتساب اللسان جهاز خاص هو الذي يعبر عنه بالنحو الكلي. ويلاحظ شوارتز أن " كوننا قادرين على تخصيص قدرة المتكلم ببناء نسق صوري من القواعد التوليدية لا يستلزم أن يكون هذا النسق ممثلا لما يضمره المتكلم في ذهنه حقيقة". (Chomsky (1975a)، ص. 203). ونفس الملاحظة سبق أن تقدم بها Nelson Goodman (انظر:Chomsky (1968)) وأثارها تشومسكي نفسه في Chomsky (1975a). وكان مجمل الرد الذي يرد به على مثل هذه الانتقادات "أن استنتاجاتنا لا تفرضها علينا المعطيات، وأن النظرية الجيدة لا تكون بالضرورة نتيجة من نتائج الواقع، تماما كما العمليات الرياضية، ومنها المعادلات، لا تعني أبدا أنها تصور الواقع أو تتحدث عنه". (Chomsky (1975b)، ص. 203.

2- ينبني على حاجة بنياتنا المعرفية إلى الترميز افتراض وجود جهاز قادر على ذلك، فكانت اللغة التي حددت وظيفتها في التمثيل والترميز، وهما حجر الأساس في الفعل السيميوتيكي.

3- أو استعداد قبلي أو ذهن منفتح. يقترح تشومسكي مفهوم **الذهن المنفتح** مرادفا لمفهوم **الطبيعانية** (nativisme) الذي توصف به أعمال لينبرج Lennberg. انظر Chomsky (1980)، ص. 200.

4- قد يعد الانتقال من الفرضية الفطرية إلى الفرضية البيولوجية عجزا عن إثبات الواقعية النفسية لفطرية المعرفة اللغوية، خاصة إذا فهم أن هذا الإثبات أسهل من إثبات الواقعية البيولوجية. ولذلك، فإن هذا الانتقال قد يفهم على أنه مجرد هروب إلى الأمام.

بنفس الموقف، وهو أن المعرفة باللسان مسبوقة بمعرفة قبلية يسميها المعرفة اللغوية. فإلى حدود آخر مشروع لغوي له وهو المسمى البرنامج الأدنوي الذي ظهر في وسط التسعينات من القرن الماضي، لازال يفترض أن الملكات اللغوية للدماغ هي أقل ما يمكن توقعه، مع وجود قيود خارجية تفرض علينا بشكل مستقل. رغم أنه تم التركيز، في هذا المشروع، بشكل أقل، على بعض الأشياء التقليدية، كالنحو الكلي ذي الأسس الفلسفية، وبشكل أكبر على البعد البيولوجي للغة، حيث أصبح الدماغ هو المسؤول عن اللغة. لكن ذلك، وفيما يبدو، يظل مجرد إكراه يفرضه اختيار استراتيجيا المساجلة بدل إنتاج المعرفة. الأمر الذي سيعوق، في النهاية، كل عملية تتوخى الإسهام في تطوير المعرفة العلمية ويعيد إنتاج المعرفة الزائفة التي تهدد الصرح الشومسكاوي بأكمله وتجعله متداعيا للسقوط.

9) من بين ما يعترض عليه التطوريون البيولوجيون أن التفسير التركيبي الذي يقترحه تشومسكي ليس هو التفسير الذي يمكن اعتماده في فهم اللغة وإنما هناك التفسير التطوري حيث يتم تصور اللغة على أنها بنيات بيولوجية متطورة. ويرى التطوري البيولوجي فيليب ليبرمان **Philip Liebermann**، مثلا، أن اللغة ليست غريزة أو عضوا نواة ولكنها قدرة مكتسبة ونسق من البنيات المتطورة. وينفي أن تكون اللغة عضوا محددا. إنها نسق عصبي، وإن الشبكات العصبية (وليس أي عضو لغوي) المشكلة لهذا النسق هي التي تشكل كلا محددا جينيا هو الذي يحدد الخصائص الممكنة للغة[1].

والذي يبدو هو أن التطوريين البيولوجيين والنفسانيين التكوينيين قد سقطوا في الخلط بين نوعين من التطور عادة ما يميز بينهما في العلوم البيولوجية :

- تطور يتم على مستوى الفرد (كالمتكلم في حالتنا)، وهو المستوى الأنطوجيني **(Niveau Ontogénique)**، ويرتبط به ما يمكن أن نسميه مع تشومسكي باللسانيات البيولوجية.

1- انظر على سبيل المثال **Liebermann** (1965).



- تطور يتم على مستوى النوع (النوع البشري)، وهو المستوى الفيلوجيني (Niveau Phylogénique). وهذا هو موضوع نظرية التطور العامة التي ترصد التغيرات الكبرى التي تطرأ على النوع وعلى خصائصه البيولوجية (كاللغة في حالتنا).

بالنسبة إلى المستوى الأنطوجيني، يتم تطور العضو اللغوي في السنوات الأولى من حياة الطفل، ثم يتوقف هذا التطور لأن عملية النمو تكون قد اكتملت. وفي هذا الإطار تشتغل لسانيات تشومسكي.

وبالنسبة للمستوى الفيلوجيني، لا يمكن الحديث عن اللغة إلا باعتبارها جهازا عضويا هو نتيجة لتطورات متلاحقة عرفها تاريخ الإنسان البيولوجي عبر ملايين السنين. والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا هو: هل يمكن اعتبار ما يحدث على هذا المستوى من تغيرات بيولوجية، كالتغير الذي نتج عنه الانتقال من مرحلة ما قبل اللغة إلى مرحلة اللغة مثلا، موضوعا للدرس اللساني؟ الجواب يكون بالنفي طبعا. لأن الذي يهم اللساني البيولوجي هو ما يكون المتكلم قد توصل إليه في سنواته الأولى فقط حتى يمكن أن يستفيد منه فيما تبقى من حياته.

كما يبدو أن تشومسكي يأخذ في الحسبان التمييز بين الأنطوجيني والفيلوجيني ولا يمنح أي مكان لما هو وسط، أو بين بين، وهو اللسان الذي يعتبره مشتقا من اللغة أو هو كيان عارض. هذا البيني العارض لا ينتمي مباشرة إلى اللسانيات ولكنه ينتمي إلى مجال أو مستوى آخر يمكن أن نسميه، قياسا على المستويين المتقدمين، بالمستوى الإثنوجيني(Niveau éthnogénique) الذي يتداخل فيه ما هو لغوي مع ما هو إثنولوجي سوسيولوجي ثقافي... ويمكن أن نوضح ما تقدم هكذا:

- في المستوى الأنطوجيني يتم التغير بسرعة (سرعة نسبية). ويتعلق الأمر هنا بعملية اكتساب اللسان، أي ما يسميه تشومسكي بنمو العضو اللغوي.
- وفي المستوى الفيلوجيني، وتيرة التغير هي نفس وتيرة التطور البيولوجي العام، أي أنه تغير بطيء جدا ولا يمكن ملاحظته بكيفية مباشرة، ولا يشكل



موضوعا لسانيا وهو بعيد جدا حتى عن مفهوم الدياكروني. فمن وجهة نظر فيلوجينية: ما نعتقد أنه دياكروني لأنه يختزل مئات أو آلاف السنين ليس سوى ظاهرة سانكرونية. لأن الفيلوجينيا لا تقيس إلا بملايين السنين. وبهذا الاعتبار، فالملكة اللغوية يجب أن ينظر إليها على أنها قديمة جدا، وأنها لم تتغير منذ فجر التاريخ البشري على الأقل.

- وبين الأنطوجيني والفيلوجيني، هناك الإثنوجيني حيث وتيرة التغير هي التاريخ. أي أنه يمكن أن يدرك مباشرة وأن يلاحظ في حياتنا اليومية. وإلى هذا المستوى ينتمي الإنجاز أو الكلام[1].

وعلى هذا الأساس، فاللغة هي نتيجة لتطور بيولوجي حصل على المستوى الفيلوجيني ولا ندري متى حصل، كما لا ندري متى حصل بروز الأذرع، مثلا، عند بني البشر. بينما اللسان هو نتيجة لتطور بيولوجي يحصل على المستوى الأنطوجيني، أي على مستوى الفرد حينما يكون بصدد تعلم اللسان. أما الإنجاز فهو التنويعات التي يضفيها كل متكلم على كلامه حتى يتميز عن غيره. هذه التنويعات، أو ما يمكن أن نسميه بإكراهات القول، تؤطرها التغيرات التي تحصل على المستوى الإثنوجيني. في هذه الحالة يمكن أن نتساءل: ما الذي يحصل من تفاعلات كيميائية وعصبية وفيزيولوجية في دماغ الإفريقي حينما ينتقل من التعبير عن الرضى إلى التعبير عن السخط مثلا؟ وما الذي يحصل في دماغ الأوربي حينما يفعل نفس الشيء؟

يفهم من تكوينية بياجي أن التطور اللغوي قد يستمر إلى ما بعد العشرين، ومن بيولوجيا التطوريين أنه لا يتوقف أبدا مثله مثل كل التطورات التي تعرفها بقية الأعضاء، على عكس ما يتصوره تشومسكي من أن عملية الاكتساب تنتهي في السنوات الأولى من الطفولة. ويبدو أن أساس الخلاف في هذه النقطة هو تصور طبيعة

1- مفاهيم الأنطوجيني والفيلوجيني والإثنوجيني مفاهيم بيولوجية إثنولوجية استثمرتها كأدوات في توضيح ما يقصد بالتطور كما يفهمه تشومسكي والتطور كما يفهمه غيره ممن يناقشونه.



اللسان[1]؛ فالتطوريون يتصورونه بكل مكوناته من تركيب وصوت ومعنى وفكر... بينما يتصوره تشومسكي بنيات تركيبية أساسا.

10) وبخصوص الابستمولوجيا التي أطرت أعمال تشومسكي، وهي الابستمولوجيا العقلانية كما صاغها كارل بوبر، يبدو أنها عانت، ومنذ مدة، من صعوبات كبيرة لم تستطع معها إقناع المنافسين بجدواها. فلقد تعرض مبدأ قابلية التفنيد البوبري لمجموعة من الانتقادات، أهمها تلك التي وجهها إمري لاكاطوس الذي بدا له أن العمل بهذا المبدإ يقصي مجموعة من المعارف كالميتافيزيقا والتحليل النفسي، لا لشيء إلا لأنه ليست هناك تجربة قادرة على دعمها أو تفنيدها، بل يقصي حتى الفيزياء لنفس السبب؛ فالفيزيائيون يبنون فرضيات تحيل على عدد لا نهائي من التجارب في حين أن عددا قليلا منها هو الذي يتحقق فعلا ويبقى قابلا للتفنيد[2]. وترتب عن هذه الانتقادات الاقتناع، أحيانا، بضرورة وتطوير هذا المبدإ تطويرا يأخذ في الحسبان أنه لا يمكن القيام بأي عمل علمي حقيقي، باستثناء الرياضيات، دون العمل بمبدإ القياس كما كان يؤكد برتراند راسل سابقا.

ما تراهن عليه هذه الإبستولوجيا هو العلم الذي يستطيع أن يجمع بين الأساس العقلاني لأقواله وبين ضرورة أن يكون لتلك الأقوال محتوى أمبريقي حتى يمكن تفنيده. فالمعرفة، علمية كانت أم عامة، هي من إنتاج العقل دائما. وكما أن المعرفة العلمية عمل افتراضي استنباطي فكذلك المعرفة العامة هي زاد قبلي. يقول

1- من أسس الخلاف أيضا بين تشومسكي وبين التطوريين أن التطور في تصور تشومسكي يتم من العام (النحو الكلي) إلى الخاص (اللسان)، وأنه في تصور التطوريين يتم من الخاص إلى العام.

2- نفس الشيء يمكن أن يقال عن نحو تشومسكي الذي يدعي له أن قواعده تنتج ما لا حصر له من الجمل، في حين أن ما يمكن إنتاجه فعليا وانطلاقا منها قليل، وأن يقال عن المتكلم المثالي الذي لا وجود له ولا يمكن أن يوجد، وأن يقال عن قدرة هذا المتكلم على الإبداع الذي لا حد له، كإبداع الجمل الطوال والجمل المعقدة والعسيرة الفهم. وهي أمور لا وجود لها في الواقع، فكيف تغافل تشومسكي عن هذه الحقيقة بينما سمح لنفسه بانتقاد المواقف المضادة وافتعال الأزمات حتى صار مرجعا في فقه التأزيم انطلاقا من إبستمولوجيا يبدو أنه سيكون من ضحاياها؟ سؤال نبلوره إسهاما منا في تطوير النقاش ليس إلا.



بوبر:" لقد ولدنا ونحن مزودون بمعرفة يمكن أن ننعتها من الناحية النفسية أو البيولوجية بأنها قبلية، أي سابقة على كل تجربة ملاحظية[1]". ويلتمس لنفسه سندا فلسفيا فيربط بين تصوره هذا وتصور كنط للمعرفة حينما يقول:"إن هذا الاستعداد الغريزي والقبلي سيكولوجيا يتطابق تقريبا مع قانون السببية الذي سبق لكنط أن اعتبره جزءا من طبيعتنا العقلية وخاصية من الخصائص القبلية[2]"، وسندا علميا، حينما ربط بين اكتشافه والاكتشاف الذي حققه لورنز كونراد Lorenz Konrad الذي كشف عن " وجود ميكانيزم فطري لدى الحيوان الصغير هو عبارة عن قدرة فطرية تمكنه من التعلم بواسطة الملاحظة[3]".

هذه هي الإبستمولوجيا التي اختار تشومسكي تأطير أعماله داخلها؛ فهو يتصور العلم نشاطا نظريا بالأساس، ويطعن في كل المقاربات ذات الأسس اللانظرية، كالوصفية التوزيعية في اللسانيات والبيهافيورية في علم النفس. ويتصور المعرفة اللغوية التي يبحث فيها كيانا فطريا سابقا على كل تجربة. ومما اتهم به تشومسكي، وهو يتمسك بهذه الإبستمولوجيا[4]، أنه لم يستطع أن يوفق بين أمرين

1- Popper (1963)، ص. 46.

2- نفسه، ص. 47.

3- Lecourt (1981)، ص. 126. ويعلق Lecourt على هذا قائلا:" تقوم فلسفة بوبر النقدية على الإيمان بالأصل البيولوجي للمعرفة البشرية إيمانا مطلقا. وعلى صخرة هذا المطلق تهشمت هذه الفلسفة وانفضحت محدوديتها". نفسه، ص. 130.

4- مما لوحظ على تشومسكي أنه قلد بوبر في كل شيء؛ فلقد قلده في نظريته المعرفية، فأنتج لسانيات عقلانية على غرار الإبستمولوجيا العقلانية، كما قلده في أنشطة أخرى. فلقد كان بوبر يتحول من باحث إبستمولوجي إلى داعية سياسي ينتقد الأنظمة الشيوعية التاريخانية ويقدم الدعاية للمجتمع اللبرالي كما فعل في La société ouverte et ses ennemis و Misère de L'historisme. كما أن تشومسكي تحول من مفكر لساني إلى محلل سياسي ينتقد السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية كما فعل في La guerre comme politique étrangère des états-unis. انظر: ص 244. الهامش (1) من عملنا هذا.



يصعب التوفيق بينهما، وهما: بساطة المبادئ والكفاية الملاحظية[1]. ومعنى ذلك، فإن أكبر تحد واجهه تشومسكي هو بناء نماذج ذات كفاية تفسيرية مقنعة وقادرة على تحقيق التوفيق المنشود بين مبدإ البساطة ومبدإ الكفاية الملاحظية. الأمر الذي أبقى نظريته حبيسة النوايا، مما أفقدها الكثير من بريقها الذي كان لها في البداية وذلك في نظر منتقديه.

فبناء على إبستمولوجيا بوبر التي شكلت خلفية للسانيات تشومسكي، يبدو أن هذا الأخير قد خرق واحدا من أهم مبادئها هي نفسها، مما أوقعه في التناقض. هذا المبدأ هو الذي بموجبه ترفض كل الفرضيات (وحتى القضايا) غير القابلة للتفنيد، كالقضايا الميتافيزيقية، ووجه التناقض هو أن تشومسكي يؤمن بهذا المبدإ، ولكن لسانياته تمتلئ بالقضايا التي لا يمكن تفنيدها وبالتالي قبولها، من مثل المعرفة الفطرية والنحو الكلي... هذا التناقض هو الذي سيثير شهية البعض لتفنيد نظريته.

11) وبخصوص نقد ميتافيزيقا تشومسكي هذه، نود أن نكتفي، هذه المرة، بالإحالة على فيلسوف عربي هو علي حرب الذي كان له إسهام نقدي متميز بخصوص نظرية تشومسكي[2].

1- رغبة في تجاوز هذه الوضعية، اقترح Jean-Claude Milner تعديل برنامج تشومسكي تماما كما تم بالنسبة لنموذج بطليموس الذي عدل أكثر من مرة حتى يستجيب لشرط البساطة في تفسيره لمبدإ حركة الأفلاك الذي ظل يقاوم على الدوام لما يتصف به من تعقيد.

2- نقوم بهذا أولا لقيمة المساهمة، وثانيا حتى لا يفهم القارئ أن إستراتيجيتنا تقوم على إقصاء المشاركة العربية، أو أن الفكر العربي غائب عن الانخراط في مناقشة قضايا كبيرة من هذا النوع.فسيلاحظ القارئ، بعد أن ينتهي من قراءة إشاراتنا إلى إسهام علي حرب، ومن بعده إسهام أحمد العلوي في الموضوع، أن حضورهما في هذا السياق لم يربك بنية العمل. وهذا دليل على أن هذين الإسهامين لهما من الدلالة ما يكفي لأن يجعلهما يحظيان بالاهتمام، وهو اهتمام مقرون بالاحترام. احترام لايقل درجة عن ذلك الذي نكنه لآخرين لم يذكروا لالشية في إسهاماتهم و إنما لأن تلك الإسهامات بعيدة عن طبيعة عملنا هذا.



ينطلق علي حرب[1] من فكرة " أن كل نظرية جديدة تكتسب مصداقيتها وتثبت سلطتها بمجابهة سواها من النظريات العاملة أو المتداولة في الفرع المعرفي الذي تنتمي إليه، والذي يشكل في النهاية حقلا للصراع بين الاتجاهات المتعارضة والمدارس المختلفة[2]". وهذا، في نظره، هو شأن النظرية التوليدية التي بشر بها تشومسكي في الخمسينات من القرن الماضي واستمر يدافع عنها إلى الآن. " وهي نظرية يستعيد فيها تشومسكي آراء ومواقف القائلين بالملكات الفطرية والطبائع الثابتة[3]".

وبذلك، فإنه "قد سار بعكس الاتجاه الذرائعي المهيمن على الفكر والفلسفة، في الولايات المتحدة، لكي يقترب من التقاليد والنظريات العقلانية، سواء بشكلها الأفلاطوني القديم أو بشكلها الديكارتي الحديث[4]". فالكليات النحوية تقابل نظرية المثل عند أفلاطون أو الأفكار الفطرية عند ديكارت أو لوحة المقولات عند كنط. وكما أن المعرفة عند أفلاطون تذكر فإن تعلم اللغة هو أيضا نوع من التذكر، مع فارق هو أن تشومسكي لا يتصور المعطيات العقلية تصورا مثاليا وإنما يتصورها على أنها معطيات بيولوجية. ولذا، "فإنه يستعمل العقل والدماغ بمعنى واحد. وتلك واحدة من مفارقاته : فهو مادي ولكنه مناهض للتجريبية والذرائعية والسلوكية، ومدافع عن الفرضيات الماورائية للفلاسفة المثاليين[5]". ويصف علي

1- تعمدنا تقديم قراءة علي حرب لتشومسكي من خلال مقاله الموسوم **السؤال اللغوي، تشومسكي ومأزق النحو التوليدي** الذي نعتقد أنه قد ضمنه أهم آرائه في الموضوع، وذلك دون أن نحتاج إلى إجراء أي عملية تركيبية للأفكار الواردة في المقال، ودون أن نسمح لأنفسنا بأي تدخل قد يفهم منه أننا نوجه هذه الأفكار الوجهة التي تخدم هدفنا. وبالمناسبة، فإن لعلي حرب مشروعا متكاملا حول **نقد النظرية** التوليدية، باعتبارها صورة من صور العقلانية المترهلة في نظره، مع طرح تصور بديل كان قد بدأه في كتابه **نقد الحقيقة** الذي ظهر عام 1995، ثم وعد في المقال الذي نقوم بقراءته الآن بأنه بصدد إخراج كتاب آخر سيكون عنوانه **الماهية والعلاقة أو نحو منطق تحويلي**. انظر حرب (1998)، ص. 77.

2- علي حرب (1998)، ص.66.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- نفس المصدر والصفحة.

5- نفسه، ص. 67.



حرب المسار الشومسكاوي بأنه " بدأ ديكارتيا عقلانيا، ولكنه انتهى بالضد من ديكارت، طبيعيا ماديا"[1]. بالإضافة إلى هذه المفارقة، يسجل علي حرب مفارقة أخرى هي التي تنبني على فرضية المتكلم المثالي، وهي فرضية "تستبعد الواقع" هذا في الوقت الذي يقدم فيه صاحبها نفسه دوما " كرجل علم يهتم بالوقائع[2]". ومما يعيبه على تشومسكي أنه ظل " يتمترس وراء أطروحته المركزية لا يتزحزح عنها قيد أنملة. وهكذا، فبعد ثلاثة عقود تفصل بين كتاب البنى التركيبية وكتاب اللغة ومشكلات المعرفة نجد أن نفس الهاجس يستبد به: الدفاع عن النظرية التوليدية من خلال مقولة الكليات النحوية الفطرية. الأمر الذي جعله يشتغل كحارس لنظريته، همه الأساسي صونها من المستجدات والمتغيرات[3]."وهو ما أدى، في نظر حرب، إلى أن المستجدات العلمية لم تغير، على أهميتها، شيئا من مواقف تشومسكي. " ومن هنا لم ينجح تشومسكي في تطوير نظريته التوليدية، سواء بتوسيع مجال البحث أو بإغناء المفاهيم[4]". ويستنتج أن ذلك يعتبر سمة من سمات التفكير عندما يتحول إلى جدل يرمي من خلاله إلى الدفاع عن نفسه، فيغيب الموضوع الذي هو اللغة هنا وينتصب الجدل مكانه.

إن غياب الموضوع أو الحدث اللغوي، في نظرية تشومسكي، يعتبر، من وجهة نظر علي حرب، مكمن الأزمة التي تعاني منها النظرية التوليدية. فبدلا من أن يهتم النحو التوليدي " بفهم مجريات اللغة وتحولاتها، انشغل بالبحث عن طبيعة ثابتة للغة تتجسد في نحو كلي يتعالى على التجارب والدراسات أو يسبق النصوص والكتابات. ما جعله يتناسى وقائعية اللغة بالذات[5]". ما يعاني منه النحو التوليدي،

1- نفس المصدر والصفحة. في رد على سؤال هو **كيف تفسر الانتقال من الفطري إلى البيولوجي؟** يجيب تشومسكي:" منطقيا، لا يعقل أن نسلم بأن الطبيعة البشرية تنتمي إلى العالم البيولوجي ثم نستثني من ذلك العالم الذهني". Chomsky (1977) ص. 107.

2- حرب (1998)، ص. 68.

3- نفسه، ص. 69.

4- نفس المصدر والصفحة.

5- نفس المصدر والصفحة.



في هذه النقطة باختصار، وفي نظر حرب دائما، هو أنه نحو لا يهتم بالخطاب الذي يتفرد بالبقاء والصمود، عكس الملكة الفطرية المتوهمة. وهكذا، " فالمتكلم الذي يتكلم لغة ما لا يطبق قواعد كلية أو ينفذ تعليمات وراثية، بقدر ما يخلق عالما ممكنا. وتلك هي وقائعية اللغة[1]".

والمفارقة الثالثة التي يعاني منها النحو التوليدي، في نظر حرب، هي أنه يبني نفسه على مقولات هي الإبداع والتحويل والإنتاج، في الوقت الذي تتعارض فيه هذه المقولات مع مقولة الطبيعية الثابتة التي يسعى إلى تأكيدها. ذلك أن المظهر الخلاق للغة لا يتجلى، في نظره، إلا عبر الإنجاز[2]، بما يعنيه ذلك من ابتكارات تركيبية ودلالية وأسلوبية. " أما ما يصر عليه تشومسكي من تمسك بالموقف الماورائي فليس سوى اتكاء على مقولة هرمة للطبيعة البشرية "[3] وإذا كان تشومسكي يصف اللغة بأنها ما يحدث لنا فإن علي حرب يصفها بأنها ما يمكن إحداثه، "وإلا انتفى معنى الخلق والإبداع" [4]. وبعبارة مختصرة، فإن المتكلم، في نظر حرب، فاعل وليس مفعولا، قادر وليس مقدورا. ومن هنا، فإن مفاهيم، مثل الطبيعة والوراثة، لم تعد تفسر شيئا. فهي أقرب إلى تحصيل الحاصل. وهذه هي حصيلة الاعتقاد "بوجود معرفة فطرية سابقة على المعرفة: الخواء المعرفي، بل تعذر المعرفة والكلام. لأن

1- نفسه، ص. 70. ننبه القارئ إلى أن علي حرب يستعمل مفهوم **اللغة** بمعنيين مختلفين: فهو يستعمله تارة بمعنى الملكة اللغوية وتارة بمعنى اللسان، و شتان ما بين الاثنين طبعا.

2- من المفارقات، أيضا، التي يقف عندها حرب، و التي يبدو أن تصور تشومسكي يعاني منها في هذا الخصوص، تصوره أن التركيب يشكل مجالا للإبداع. بينما الذي يلاحظ هو أن عدد البنيات التركيبية الممكنة= =محدود، ولا يمكن للمتكلم أن يبدع فيها بالزيادة أو النقصان أو التعديل. فتكون عملية اكتسابها أمرا سهلا ولا يطرح أي مشكل تماما كما تكتسب أصوات اللسان المحدودة. بخلاف المعنى الذي يقصيه تشومسكي عن دائرة اهتمامه والذي يعتبر بحق مجالا للإبداع، لأن عدد المعاني الممكنة لا نهائي، وهو ما يعترف به تشومسكي نفسه، إلا أنه يتخذ ذلك ذريعة لإقصائه إياه.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- نفس المصدر والصفحة.

المعرفة، بما هي فعل منتج، خروج من عماء الفطرة لتحويلها، بقدر ما هي تعرية للمسبقات للتحرر منها... والذي يقول بالمعرفة الفطرية لا يعرف معنى قوله، إذ معرفة المعرفة لا يمكن أن تكون فطرية[1]".

والمفارقة الرابعة التي يعاني منها النحو التوليدي، في نظر علي حرب دائما، هي ولعه الشديد بالصورنة التي تجعل من اللغة نسقا يجردها من نبضها الحي وطاقتها التعبيرية فتتحول إلى مجرد مبادئ عامة يفترض أنها تعكس طبيعة اللغة دونما أي اهتمام باللغات الطبيعية. مضمون هذه المفارقة هو القول بأسبقية ماهية اللغة على وجودها، مما ينبني عليه استبعاد الحدث اللغوي، وكأن الفكر هنا " مشدود إلى الغيب والماوراء، أي إلى المبادئ والقواعد والعلل التي تختزل عالم اللغة أو تقوم مقامه[2]." إنه فكر متعال تؤطره أطر قبلية، ومفارق للحدث. ثم إن التمسك بصورنة اللغة الطبيعية وتحويلها إلى منطق رياضي محض أمر يصيبها في المقتل، لأن الصورنة تفقدها خاصيتها الرمزية وكثافتها المفهومية وحمولتها الدلالية وتراكمها المجازي.

وبخصوص الأسئلة التي تحرك تشومسكي[3]، يرى علي حرب أنها مجرد أسئلة تتوخى البحث عن هوية ضائعة انطلاقا من مشكلات أفلاطون أو ديكارت أو برتراند راسل. " مثل هذه الأسئلة باتت عقيمة وغير منتجة، بقدر ما تصدر عن تهويمات إيديولوجية حول الطبيعة الإنسانية، أو بقدر ما تستعمل بطريقة لاهوتية ماورائية[4]." والأسئلة البديلة التي يقترحها علي حرب، وكان الأولى بتشومسكي وأصحابه أن يطرحوها في نظره، هي:

1- نفس المصدر والصفحة.

2- نفس المصدر، ص. 72.

3- و هي :

- كيف ينشأ النظام المعرفي اللغوي في العقل؟
- كيف يستعمل هذا النظام؟
- كيف يكتسب؟

انظر نفس المصدر، ص. 73. وكذا الفقرات 2 من الفصل 3، من عملنا هذا.

4- علي حرب (1998)، ص. 73.

- " كيف نفسر كون أهل المعرفة لم يتفقوا، منذ انبجاس المعرفة، لا على ماهية المعرفة ولا على ماهية شيء من الأشياء، خصوصا أشياء الفكر، أي الأشياء المتصلة بعالم الإنسان؟" وهو سؤال ينم عن الاعتقاد باستحالة قيام المعرفة البارادايكم في هذا المجال.
- " كيف نفسر كون السجالات الكبرى بين أصحاب النظريات المتعارضة لا تدحض مقولة أو تسقط خصما؟ فلا تشومسكي استطاع إلغاء الذين أتوا قبله، ولا الذين أتوا بعده قادرون على إلغاء ما أنجزه " وهو سؤال يقف وراءه اعتقاد بأن كل النظريات الإنسانية متعادلة من حيث الورود وعدمه، وبأن الورود أوعدمه مسألة قراءاتية.
- " كيف نفسر تردد أصحاب المذاهب وتأرجحهم، بالرغم من حرصهم على التفكير بصورة موضوعية مطابقة أو بشكل استدلالي متماسك؟" وخلف هذا السؤال تقف مسلمة مفادها أن الخطاب الإنساني هو عبارة عن "تركيب مفتوح على الاختلاف، ومساحة مخرومة تتيح دوما تعدد القراءات والتفاسير... هنا ليس من المجدي أن نبحث عن طبيعة اللغة، الأجدى أن نسأل: لماذا لا يتفق أهل المعرفة باللغة حول ماهيتها؟ بل الأحرى أن نسأل: لماذا نبتعد عن حقيقة اللغة بازدياد الأبحاث وتراكم النظريات؟ "[1]
- وبكيفية عامة، فإن السؤال الذي يجب أن يطرح، في نظر حرب، هو سؤال العجز لا سؤال القدرة؛ " كيف نفسر هذا العجز عن تعريف اللغة بصورة حاسمة ؟"[2] وينفي أن يكون السر في ذلك هو أننا بصدد تعريف معجزة لغوية كما يفهم من أسئلة برتراند راسل التي يستعيدها تشومسكي. وينسب حرب ذلك العجز إلى " أن الفكر الألسني يحاول حد ما لا يحد في المتون اللغوية، أو ملء الفجوات التي لا تردم في الخطابات العلمية من أجل القبض على حقيقة اللغة وامتلاك معرفة بها بصورة مؤسسة ومطابقة، وصولا إلى المبدأ

1- نفسه، ص. 74.
2- نفس المصدر والصفحة.



الثابت أو المعنى المفارق أو الشكل النهائي. وذلك وهم جرى وراءه النحاة والمناطقة والفلاسفة. إذ من المستحيل بلوغ الكلام الأول أو البداهة الأولى أو المعرفة الأولى[1]."

ويرجع علي حرب مآزق تشومسكي ومفارقاته[2] برمتها إلى سببين، هما:

- قطع الصلة بما استجد من تحولات في الفكر المعاصر وما طرأ من طفرات معرفية غيرت تصوراتنا للحقيقة والمعرفة والصدق والمعنى واللغة والفكر. يعود الفضل فيها إلى فلاسفة كبار بصموا العصر ببصمات جعلته يتجاوز مرحلة الحداثة إلى ما بعدها. ومن هؤلاء، في نظر حرب، ميشيل فوكو وجاك دريدا اللذان لم ير تشومسكي في إنتاجهما سوى "ثرثرة المثقفين الفرنسيين الذين يجلسون على المقاهي يضيعون الوقت فيما لا يفيد[3]". وبدلا من مجاراة العصر (عصر ما بعد الحداثة)، ظل تشومسكي، في نظر حرب، محكوما بعقدة النحو الكلي وخرافة المعرفة الفطرية. فآلت عنده منجزات الفلسفة المعاصرة، بل وحتى القديمة، إلى سلسلة من المآزق والمفارقات؛ "بداية وصفية ونهاية معيارية، اختزال المفهوم التوليدي إلى مجرد إجراء حسابي، تقويض المظهر الإبداعي من خلال البرنامج الوراثي، التعامل مع المعرفة بوصفها ما نرثه لا ما نحصله أو مع العقلانية بوصفها معطى بيولوجيا آليا[4]".

1- نفس المصدر والصفحة.

2- في نظر علي حرب، تكمن مفارقة تشومسكي الكبرى في أن فرضية النحو الكلي التي يقيم عليها نسقه "لا تستقيم إلا بإسقاط اللغة من الحسبان، تماما كما أن تعريف الماهيات في المنطق الصوري يسقط وجود الأشياء من الحسبان". (نفسه، ص. 75) فهو " يهمل البعد الوجودي للغة فيما يدعي إنتاج معرفة بها". (نفس المصدر والصفحة). يتغافل تشومسكي عن حقيقة يلخصها حرب هكذا:"إن اللغة الطبيعية، بوصفها ممارسة خطابية، تشكل عائقا وجوديا لا يمكن رفعه أو تجاوزه... بل اللغة تحضر وتمارس فاعليتها ومخاتلتها بقدر ما يجري نفيها". نفسه، ص.ص. 75-76.

3- نفسه، ص. 76. العبارة مقتطعة من استجواب جرى مع تشومسكي نشرته مجلة "أخبار الأدب" المصرية. العدد الأول، 25 ماي-1 يونيو 1997.

4- حرب (1998)، ص. 76.

- تعاطي الفلسفة بمنطق العلم[1]. حيث يتغلب منطق الطبيعة وآلياتها على إرادة الخلق والإبداع. ومن هنا يبدو تشومسكي، في نظر حرب، "مفكرا تقليديا قياسا على ديكارت الذي افتتح إمكانيات للتفكير والعمل جديدة وخارقة[2]." إن تشومسكي، بذلك، " يختزل المفاهيم إلى مجرد معلومات أو معارف بقدر ما يتراجع عن إنجازات الفلاسفة[3]."

12) ومن أكثر الإبستمولوجيات طرافة تلك التي اهتدى إليها الباحث اللغوي أحمد العلوي والتي تتناول بالتحليل أسس الخطاب اللساني خاصة والخطاب المنسوب إلى العلوم الإنسانية بصفة عامة.

تقوم هذه الإبستمولوجيا[4]على مجموعة من المسلمات أهمها أن" العلوم_الإنسانية لا تفرق بين الموضوع والنظرية، بل الموضوع عند كهان الإنسان هو النظرية. فلا موضوع في هذه العلووم. كيف؟ الإنسان الذي هو الموضوع المزعوم مجال موضوعي موصد لا تنفع فيه التجربة نفعا يقيم قولا نظريا[5]."

ومنها أيضا أن الباحث اللغوي، وهو باحث إنساني بالضرورة، لا يجوز له ما يجوز للباحث في الأعضاء، كالإبصار واللمس والشم والمشي، لأن الباحث في هذه الأمور يدرس موضوعات خارجية هي أعضاء الإبصار واللمس... فيطلع على العضو لا على عمل العضو. " أما الباحث في المسألة الإنسانية، كالمسألة اللغوية (اللسانية) فإنه لا يدرس العضو، إما لأنه لا يعرف العضو، وإما لأنه لا يريد أن يعين العضو عجزا عن دراسته، وكالمسألة النفسية التي لا يعين الباحث فيها عضوا يضمن انفصال النظرية عن الموضوع... يتصل بهذا المسألة المنطقية والمسألة السيميوتيكية

1- قد يتبادر إلى الذهن، وبالمقاييس التي اعتمدها علي حرب، أن تشومسكي كان تلفيقيا.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- نفس المصدر والصفحة.
4- نستعمل هنا لفظ إبستمولوجيا طمعا في أن نتحقق أكبر درجة من التواصل مع قارئنا. فنحن فعلنا ذلك، إذا، بدافع تخابري أو ذرائعي وليس بدافع إسقاطي.
5- العلوي (1987)، ص.ص. 23-24.



(النقدية) والمسألة التاريخية والمسألة الأنطروبولوجية وكل المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ما يصح أن يدرج تحت اسم العلوم الإنسانية[1]". وباختصار، " فإن الباحث الذي لا يجد عضوا يطلع عليه أو لا يعرف موضع العضو ينتقل إلى عمل العضو[2]."وبما أن الأمر كذلك، فإن " كاهن الإنسانيات يصنع العضو، إذ لا يجد العضو، وذلك صحيح؛ فالنظرية في العلوم الإنسانية عضو يصنعه الكاهن "يفسر" أو "يصف" به سلوك الإنسان[3]."معنى ذلك، أن الباحث في العلوم المادية يطلع على الأعضاء بينما الباحث في العلوم الإنسانية يصنعها. " فشغل العلوم الإنسانية هو صناعة الأعضاء المفهامية التي تنسب إليها الأعمال افتراء[4]." ويشبه العلوي المفتري الذي ينكر العضو أو يتغافل عنه ويسعى إلى صنع عضو ضمني **بالوثني**، لأنه ما أن ينتهى من صنع أصنامه (نظرياته) حتى ينتقل إلى عبادتها. ومعلوم أن النظريات اللسانية المعاصرة، التوليدية منها خاصة، قد اشتغلت على الدماغ فنسبت إليه ما أسمته بالقدرة اللغوية، مكتفية بالحديث عن مظاهر هذه القدرة ودون أن تطلعنا على الطبيعة المادية للعضو اللغوي. هنا، ومن وجهة نظر هذه الإبستمولوجيا، تكمن أزمة النظرية اللسانية المعاصرة؛ فهي نظرية بلا موضوع، أو هي نظرية تقترح نفسها بديلا عن الموضوع الذي يستحق الدراسة وهو العضو طبعا. كما أنه من الصعوبة بمكان الاستيقان من جدة نظرية ما؛ إذ ليس هناك أي موضوع يمكن أن تقاس به. لا فرق، في هذه الحالة، بين نظرية حديثة ونظرية قديمة. " ليس الفرق في مدى اكتشاف هذه أو تلك، لأنه لا موضوع يكتشف ويطلع عليه ويتجسس عليه من غير أبوابه، وإنما الفرق في الموضوع المصنوع نفسه... ومن هذا يتبين أن لا معنى للحديث عن الصبغة العلمية في هذه المسائل. فكما لا يقال: إن الفن اليوناني أضرب في العلم من الفن الإفريقي، لا يقال: إن فن صناعة الأعضاء المفهامية عند التوليديين أضرب

1- نفسه، ص. 24.
2- نفس المصدر والصفحة.
3- نفس المصدر والصفحة.
4- نفس المصدر والصفحة.



في العلم من فن الصناعة المفهامية عند غيرهم. بل إن من المناسب أن نقول: إن العلاقة بين نحاتي النظريات تكاملية في كل الشؤون اللغوية والاجتماعية وغيرها. فالبنيان التوليدي المصنوع عضو أوسع من الأعضاء المتناثرة التي نجدها عند العامليين[1]أو عند البنيويين أو عند غيرهم. فلا يجب لذلك أن نظن أن البنيان التوليدي مرحلة متقدمة بالإضافة إلى البنيان المتناثر... فقد يكون البنيان المفهامي الواقف عند الوضع التناثري أرصى من البنيان الذي يجاوز هذه المرحلة. لأن هذا المجاوز لا يجاوز إلا إذا هم بغير ما يهم به صاحب البنيان المتناثر، فإن هذا قد يقصد التعليم وقد يقصد تبيين بعض أنواع الاتساق في العبارات، ولكن الآخر لا يقصد إلا تصوير ذلك الشيئ الذي ينكره في العبارة ولا يرضاه في أول أمره، وهو العضو العامل، والغرض التصويري... يخلي النية التوليدية من الرصانة العلمية لأنه يصور ما لا يرى[2]."

وينتج عن حقيقة صعوبة الاستيقان من جدة النظرية الإنسانية، ومنها النظرية اللغوية، لغياب الموضوع، القول بأن أصحاب هذه النظريات يكرر بعضهم بعضا أو يتسارقون. " فكثير مما قيل عن اللغة الآن قيل من قبل، وما قيل عن غير اللغة قيل من قبل، ولكل جيل نظرياته يلعن بها الجيل الذي قبله ونظريات ذلك الجيل[3]". يقع ذلك رغم أن الأمر ليس سوى مجرد تجديد في الأسماء، "حتى إن الاسم هو الذي يصنع المسمى في "العلوم الإنسانية"... إذ ما الفرق بين النقد الأدبي والسيميوتيكا؟ الفرق اجتماعي يصنعه جمهور الثقافة الذي يتغذى بالأسماء الساحرة ويشتغل ذهنه بالمقدمات المشهورة لا بالمقدمات المعرفية البرهانية[4]". في هذه الحالة، وحسب هذه الإبستمولوجيا، فإن " كل مجالات البحث المعاصرة هي فروع عن مجال البحث

1- يقصد النحاة العامليين العرب و يمثلهم سيبويه.

2- العلوي (1987). ص. 26. تعمدنا اقتباس هذا النص بكامله رغم طوله نظرا لكثافته وتماميته. إذ يمكن أن يكتفى به لوحده حينما يتعلق الأمر بالحديث عن موقف العلوي من العمل النظري بصفة عامة واللساني بصفة خاصة والتوليدي بصفة أخص.

3- نفسه، ص. 27.

4- نفس المصدر والصفحة.



القديم. ولهذا صح أن يقال إن المفكر القديم (=الكاهن) كان يشتغل بإقامة تمثال واحد "يصلح"، على رأيه، لتنبعث به صور كل الفروع[1]". هذا التمثال الواحد أو الكبير يجب قيامه في تماثيل كل العلوم الإنسانية. فهو بمثابة نموذجها الكلي."ومن الغريب أن كثيرا من الأبحاث المعاصرة، كالأبحاث اللغوية، تقصد الآن أن تصل إلى الكليات اللغوية، وهو بلغتنا تمثال الكليات[2]".

وإذا علمنا أن من أكبر مقدمات النظرية اللسانية المعاصرة تجريد الموضوع المدروس، وهو ما يعني سيادة المفاهيم وأولويتها، أو اعتماد اللغة التمثالية، كما يقترح العلوي[3]، فهمنا لماذا اعتمدت البنيوية مفهوم النسق الذي يقوم على أساس أنه كيان مستقل تحدده علاقاته الداخلية، واعتمدت التوليدية مفهوم البنيات المجردة، وهما مفهومان تصبح اللغة بموجبهما من أكبر الغائبين، وتصبح دراستهما مجرد وهم لا يتحقق. وهي مسألة فيها رد على كلام تشومسكي الذي يجمله في قوله:" إذا كان إجراء التجارب المباشرة على البشر للتأكد من صحة أو خطإ الفرضية البيولوجية أمرا مستحيلا، فإن الدراسة التجريدية لأنساق القدرة ولنماذجها الإجرائية تعتبر، على العكس من ذلك، إنجازا يمكن من تجاوز العائق التجريبي أولا، ومن الوقوف على الشروط الموضوعية التي تتحكم في الميكانيزمات

1- نفسه، ص. 127.

2- نفسه، ص.ص. 127-128. هذا النموذج الكلي هو ما يسميه العلوي **بالتمثال الكلي** الذي تتفرع عنه كل التماثيل التي هي نظريات العلوم الإنسانية، كما يسميه **الصنم الأفلوطيني**. وهو عبارة عن " نظرية مادية توليدية... حتى إنه لو جاز لأفلوطين أن يسأل بعض أهل زمننا عن اسم مناسب لعلمه لسموه **بالمادية التوليدية** أسوة باللغويات التوليدية التي هي إنجاز لفرع من فروع الأفلوطينية". (نفسه، ص. 129). وللإشارة، فإن من معاني أفلوطين (204-270 م) في هذه الإبستمولوجيا أنه ذلك الباحث الذي " يعنى بالعالم العقلي الذي يشبه ما يدعى اليوم بالبنية المجردة للشيء أو الظاهرة أو الواقع. " (نفسه، ص. 125). والأفلوطينية " مذهب قائم على جواز تصوير غيب الأشياء بالمفاهيم العقلية النظرية". (نفسه، ص.157).

3- اللغة التمثالية، عند العلوي، هي " لغة تجرد الموضوع من كل ما لا يناسب المفاهيم. وما لا يناسب المفاهيم هو الفعل والحركة... اللغة التمثالية تجرد الموضوع من الحدوث والسيلان والفعل وتجمده". نفسه. ص. 133.

البيولوجية التي تساهم في القدرات اللغوية[1]". بالنسبة لتشومسكي وغيره من النظريين، ليس المهم أن يكون للقدرة اللغوية وجود واقعي اعتقادا منهم أن البحث في ذلك هو من اختصاص الميتافيزيقا، وإنما المهم هو أن يمر كل شيء كما لو كان للقدرة وجود واقعي، لأن افتراض ذلك ملائم في نظرهم لتفسير ظاهرة السرعة التي يتعلم بها الطفل اللسان، وظاهرة الاستعداد التام الذي يتوفر عليه كل طفل لاكتساب أي لسان. وحينما يسمح التوليدي لنفسه بارتياد عالم لا حد له من التجريد، فإنه لا يجد أي حرج في أن يدعي أنه يساهم في معرفة الطبيعة البشرية من خلال الربط بين البنية اللغوية وتلك الطبيعة، تماما كما كان يفعل همبولدت.

صحيح أن تشومسكي، مثلا، يعي جيدا الفرق بين نحو المتكلم الذي هو موضوع البحث عنده والنحو الذي يصنعه النحوي[2]، لكن ذلك لا يبرئه من الاتهام بالمغالاة في إيلاء الأولوية لما يمليه العقل لا ما يمليه الواقع[3]. وكل ما يستطيعه العقل هو إنتاج المفاهيم. المفاهيم التي ليست من الحق في شيء في نظر العلوي، فالحق أن نقدم الأشكال حتى تكون الأوصاف اللغوية شبيهة بأوصاف الفيزيائيين. لقد فطن تشومسكي إلى ضرورة اعتماد الأشكال حينما حاول أن يصف القدرة اللغوية، وهي

1- Chomsky (1980)، ص. 203.

2- "لابد من حضور اليقظة حتى يمكن التمييز بين النحو المستبطن في ذهن المتكلم وبين النحو الذي يصنعه اللساني... فنحو اللساني نظرية علمية تتوقف صحتها على مدى تطابقها مع هذا النحو المستبطن". نفسه، ص. 60.

3- هذه التهمة لاحقت تشومسكي في كل المحطات التي تنقل عبرها؛ إذ لوحظ أن هناك اهتماما زائدا بالبنية الذهنية لا بالكلام، بالبنية العميقة لا بالبنية السطحية، بالمتكلم المثالي لا بالمتكلم الفعلي، بالفطري لا بالمكتسب، بالقدرة لا بالإنجاز، بالمعرفة المفترضة لا بالممارسة، بالنمطي لا بالعيني... وبالجملة: " لقد أغرق تشومسكي نفسه في فانطازيا الفلسفة بدفاعه عن الشمولية والكلية، وفي نرجسية التوجه النظري بانتقاله من المنتهي إلى اللامنتهي. وإذا كانت خصوصية كتابه **البنيات التركيبية** الساحرة تكمن في كونه نظرية شمولية للسان، تماما كما النحو التقليدي، فإنه لم يلبث أن أبان عن تحمسه لكل ما هو شمولي بدءا من **مظاهر البنية التركيبية** الذي سيقدم فيه الأسس الفلسفية لمبدإ الكلية أو الشمولية". G/P (1981)، ص. 151.

غيب[1]، بواسطة طائفة من الأشكال كان على رأسها الشجرة المركبية. لكن نقطة الاعتراض، عند العلوي، هي أن الفيزياء والكيمياء أعلام لما هو في الخارج، أما اللغويات المعاصرة، ومنها لسانيات تشومسكي، فإنها مجرد أوصاف. ومعيار العلم الحقيقي، في نظره، أن يضع الأعلام لا الأوصاف. فالنحو الحق، من هذه الجهة، يشبه الأيقونة التي تعكس الحقيقة، بينما النحو الزائف يشبه التمثال أو الصنم، لأنه ينشأ عن الوهم. الأيقونة أكثر صدقا من الصنم، بل هي الصدق نفسه، بينما الصنم كاذب وزائف ووهم.

اعتماد المفاهيم بدل الأعلام هو الذي سمح للعلوي بالربط بين العلوم المعاصرة، كما تصورها إبستمولوجيوها، أمثال بوبر وكون ولاكاطوس وباشلار... وبين الأفلوطينية التي تقوم على جواز تصوير غيب الأشياء بالمفاهيم العقلية. ولذلك، فإن تشومسكي، المتحمس لبوبر وللتصورات المعاصرة للعلم، كما سبق أن بينا، ليس، في نظر العلوي، سوى لساني قد وقع في أسر الأفلوطينية التي أوقعته بدورها، في شباك التصورات النظرية المحضة ونفرته من كل التصورات التجريبانية للعلم.

13) وباختصار، فإن خطاب تشومسكي، حسب علي حرب وأحمد العلوي، خطاب لا ينقل الحقيقة ولكنه يصنعها؛ فهو يندرج ضمن الخطابات التي لا تؤمن بوجود حقائق وإنما ببنائها. وهو، بذلك، يبقى خطابا سفسطائيا يراهن في معظمه على البراعة في الإقناع وإفحام الخصوم لا على حقائق موجودة تحتاج إلى من ينقلها، ويتسلح بآليات منها ما ينتمي إلى اجتماعية المعرفة، كالاعتماد على السلطة العلمية التي راكمتها علوم مثل البيولوجيا وعلم النفس المعرفي والإبستمولوجيا،

1- لكي يصدر العلوي الحكم بغيبية تشومسكي، لن ينتظر من هذا الأخير الاعتراف بتوجهه الغيبي الواضح. فلقد سعى تشومسكي، وبكل الوسائل، إلى دفع هذه التهمة وإبعادها عنه. يقول:"من الجدير بالملاحظة أن دراسة العقل لا تدخل في باب الغيبيات إن عدت دراسة للخصائص التجريدية للعمليات التي يقوم بها الدماغ... إنها خطوة نحو إلحاق علم النفس واللسانيات بالعلوم الطبيعية". (Chomsky (1988)، ص. 34). ويربط بين العقل والدماغ حيث تصبح "الملكة اللغوية الفطرية هي إحدى مكونات العقل/الدماغ". نفس المصدر والصفحة.



ومنها ما هو استدلالي، كاللجوء إلى المصادرة على المطلوب، والانطلاق من مقدمات لم يبرهن عليها بما فيه الكفاية تحت ذريعة الانخراط في مشروع بناء لسانيات أكسيومية، ومنها ما ينتمي إلى المؤهلات الشخصية كالبراعة اللغوية والقدرة على استحضار المثال وعقد المقارنات، مما مكن تشومسكي من بناء نسق حجاجي متميز.

إن تشومسكي، في نهاية هذا التحليل، لا يقدم القدرة اللغوية، وهي نواته المركزية، على أنها شيء كمي تقاس أبعاده كما تقاس أبعاد الأشياء، ولكنه يكتفي بالحديث عنها فقط. فالقدرة موجودة في لغته وفي خطابه هو فقط، أما نحن فلا نعلم عنها شيئا، بحيث إننا بمجرد ما نغادر هذا الخطاب الملفوف بهذه اللغة لا نعثر على شيء اسمه القدرة اللغوية[1]. فهو، بحسب التجريبانيين، لا يتكلم الأشياء ولكنه يتكلم اللغة فقط. اللغة التي من خصائصها أنها لا تعكس العالم ولكنها تتكلم عنه أو تنتج حوله خطابا. فهل يحكم على مشكلة تشومسكي بأنها مشكلة زائفة ؟[2]

1- مما يفهم من كلام تشومسكي ويعتبر انخراطا في هذا السجال أن القدرة اللغوية أو النحو الكلي أو العضو الذهني... أمور لا تهمنا في حد ذاتها، فلا نتوقف طويلا عند التساؤل حول طبيعتها، أهي دماغ أم نفس أم شيء آخر. وإنما الذي يهمنا إنما هو خصائص تلك الطبيعة أو ذلك النحو الكلي؛ أي الأحكام التي يمكن أن نصدرها عنه. ولذلك، فإن التوليدية، ومن وجهة نظرنا، يمكن إدراجها، في هذه الحالة، ضمن العلم الذي يهتم بخصائص الأشياء وليس بالأشياء في ذاتها. التعريف بالنحو الكلي، مثلا، لا يبدأ إلا حينما ننتقل إلى الحديث عن خصائصه. هذا التصور بالذات هو الذي قوبل بالرفض من قبل الماديين على الأقل.

2- المشكلات الزائفة، عند كارناب مثلا، هي المشكلات التي تنتجها الفلسفات التأملية. وهي مشكلات لا يمكن التأكد من صدقها أو كذبها، لأنه لا وجود لوقائع في العالم الخارجي تقابل قضاياها (مبدأ التحقق). وتعتمد اللغة الإنشائية، لا التقريرية، التي تعبر عن ذات الفيلسوف لا عما في العالم الخارجي. انظر Carnap (1959) و Carnap (1966). لكن، وحتى ننصف الفلسفة وننصف معها كل من يشتغل بها، ومنهم تشومسكي، لابد من الإشارة إلى أن مفهوم الفلسفة يختلف تصوره من مدرسة إلى أخرى. فإذا كان البعض، من أمثال الوضعانيين التجريبانيين بصفة عامة والذرائعيين، لا يرون فيها إلا ما يراه كارناب أو ما يراه الذرائعي وليم جيمس William James من " أن الفلسفة هي ما تبقى من مشكلات لم يجد لها العلم حلا". (James (د.ت)، ص29)، فإن البعض الآخر لا يتصور إمكانية قيام معرفة بدون الانفتاح على الفلسفة. ومن هؤلاء تشومسكي الذي يبدي عن ارتياح كبير وهو يشهد "أنه بعد أن تم القيام بمحاولات للفصل بين الفلسفة وعلم اللغة، على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عادت مشكلة اللغة والفكر إلى الظهور لتوحد بين تلك العلوم والاختصاصات". (Chomsky (1968)، ص10). هذا الارتياح، الذي لا يعني سوى تمجيد الفعل الفلسفي، هو الذي سترافقه دعوة تشومسكي إلى الجمع بين ما تشتغل به اللسانيات المعاصرة (البنيوية) من اهتمام بالوقائع المفصلة وبين ما يشتغل عليه النحو الفلسفي من تعميم وتجريد. " لقد آن الأوان، في نظري، لكي نوحد هذين التيارين ونبلور تركيبا خالصا يجمع نتائج وخلاصات كل منهما". (نفسه، ص. 35).



ورغم كل ما أبدى عنه تشومسكي من حماس شديد في أن يرقى باللسانيات إلى مستوى أن تتداخل قضاياها مع بعض قضايا البيولوجيا، وعلى رأسها قضية معرفة ما يقوم به الدماغ من أنشطة، فإنه لم يفلح في بلوغ ذلك لحد الآن. وذلك لسبب واحد هو أن مفاهيمه لم ترق إلى مستوى المفاهيم البيولوجية من حيث المحتوى الأمبريقي؛[1] إذ لازال هذا المحتوى ذا طبيعة فلسفية أكثر منها بيولوجية رغم أن التوجه علمي لاشك في ذلك. هذه الوضعية تختلف عن وضعية أخرى تعيشها الأنتروبولوجيا والسوسيولوجيا، وقبلهما عاشها ويعيشها علم النفس؛ إذ لا حاجة اليوم إلى أن نثبت للإنسانيين أن هناك علم نفس بيولوجيا وأنتروبولوجيا بيولوجية... لكن متى ينضاف إلى ذلك لسانيات بيولوجية؛ لسانيات تتوفق في دراسة الأسس البيولوجية للظاهرة اللغوية، أو بعبارة بيولوجية: دراسة تبين مدى إسهام التركيبة الجينية للبشر في امتلاك القدرة اللغوية؟ نقول هذا الكلام ونحن نعلم أن هناك محاولات من هذا القبيل قد تمت على مستوى علم النفس أوالسوسيولوجيا لم تلق استحسانا، بل إنها ووجهت بالدحض والتفنيد[2].

1- يعترف تشومسكي نفسه بأن "هناك حواجز عديدة تعترض سبيل تقدم الدراسات القائمة على افتراض الأصل البيولوجي للغة البشرية، ومن أهمها استحالة إجراء التجارب المباشرة على البشر". (Chomsky (1968)، ص. 203). مما قد أوقع تشومسكي، ومن قبله لينبرج، في مفارقة صارخة، منشأها اعتبار اللغة جهازا بيولوجيا تعتبر دراسته فرعا من البيولوجيا، واليقين، في نفس الوقت، باستحالة القيام بتجارب في الموضوع، مع العلم أن البيولوجيا علم من علوم الطبيعة لا يستغني فيه عن التجربة، حتى حينما يتعلق الأمر بشقه النظري.

2- بخصوص النقد الذي واجهه الطموح إلى إلحاق السوسيولوجيا بالبيولوجيا، انظر على سبيل المثال إرنيست ماير (1997)، ص.ص. 229-230.

خاتمة

انطلق هذا العمل من فرضية أساس هي أن الفهم الصحيح لأي نشاط معرفي، كالنظرية اللسانية، لا يتأتى بعيدا عن معرفة الحدس المركزي الذي يقوم عليه هذا النشاط. أي ما يعرف بالأسس المعرفية التي تمنح ذلك النشاط هويته ومشروعية وجوده. وحتى نختبر هذه الفرضية، آلينا على نفسنا إخضاع النظرية اللسانية المعاصرة لعملية تشريح استعملنا فيها مباضع وأداوت تحليلية تنتمي إلى إطار حاولنا تشكيله انطلاقا من مجموعة من الإبستمولوجيات التي قد تختلف برامجها لكنها، مع ذلك، تسعى، جميعا، إلى مقاربة أسس العلم مقاربة نقدية قصد استنباط مبادئه وفروضه ونتائجه وتحديد أصله المنطقي وقيمته الموضوعية. فكانت البداية بتحديد الأسس المعرفية للخطاب اللساني، اقتناعا منا بأن الخطاب عامة إما أن يكون خطابا علميا أي نسبيا، وإما أنه خطاب يتحرك خارج دائرة العلم، كالذي يسعى إلى المطلق. وخلال ذلك، حاولنا اكتشاف الأسس التي تمنح الخطاب اللساني حقه في الحديث وتوفر له مبررات الوجود. وبحثنا في المجالات التي يمكن أن تنعكس فيها هذه الأسس، كما فعلنا ونحن نرصد أنطولوجيا هذا الخطاب وبلاغته، مستنتجين أن التصور التصنيفي الذي تبنته اللسانيات الوصفية تصور يقوم على سؤال ماهوي (سؤال الماهو)، وأن التصور التفسيري الذي تبنته اللسانيات التوليدية تصور يقوم على سؤال تعليلي (سؤال اللماذا). وربطنا بين التصور الأول والتصورات الباكونية أو التجريبانية، كما ربطنا بين التصور الثاني والتصورات الكبليرية الكاليلية للعلم، مستنبطين، في نفس الوقت، أن الأمر يتعلق بنوعين من اللسانيات: لسانيات تفسيرية ولسانيات لا تفسيرية. وعند تحليل بلاغة الخطاب اللساني، علنا نظفر بما يساعد على الاقتراب من أسسه، وقفنا عند ما يميز هذا الخطاب من الميل الشديد إلى بناء الأنساق المفاهيمية، ذات الطبيعة الصورية، التي مثلنا لها بخاصية اعتماد بناء النماذج التي تميزت بها اللسانيات المعاصرة، بنيوية وتوليدية على السواء. واستخلصنا أن النمذجة، بشروطها، هي الوجه الأبرز للخاصية



التنظيرية لهذه اللسانيات. وهو أسلوب علمي لا جدال في ذلك؛ فقد لاحظنا أن هذه اللسانيات هي، في نهاية التحليل، لسانيات نماذج بامتياز، وذلك في إحساس منها بضرورة مواكبة ما يجري في العلوم المتقدمة. وبينا أن مضمار السباق قد انحصر، تبعا لذلك، في الرهان على مدى استجابة النموذج المقترح لمبادئ النظرية التي ينتمي إليها وملاءمته للواقع الذي يتحدث عنه، واحترامه للمقاييس التي عرفت في العلوم الأخرى، كالانسجام والتعميم والتجريد والصورنة والبساطة والتنبؤ. ومثلنا للنماذج البنيوية بنموذج صوسور وبالنماذج التي اقترحها أتباعه ممن ينتمون إلى مدارس براك وكونبهاكن وباريس، وكذا أولئك الذين نهضوا بالبنيوية خارج أوربا، كالوصفيين (التوزيعيين) الأمريكان. كما مثلنا للتوليدية بنماذج تشومسكي التي تأرجحت بين الأساس التركيبي المحض والأساس التركيبي الدلالي للعبارة، مما سينعكس على التحليل. وبرهنا على أن اللسانيات البنيوية ما هي إلا صورة من صور العلم التجريباني، وأنها قامت على نفس الأسس التي قامت عليها صوره الأخرى، كالوضعانية المنطقية والبيهافيورية والتكوينية. كما برهنا على أن اللسانيات التوليدية ما هي إلا صورة من صور العلم العقلاني؛ ففي تشومسكي، مثلا، يحضر أفلاطون وديكارت وبور- روبال وهمبولدت وبوبر ولينبرج وهوارتي وكل العقلانيين بدون استثناء.

وإذا كان صوسور قد اعتمد تقنية الهدم والبناء؛ هدم ما بناه التاريخانيون والمقارنون، وبناء نسق جديد هو الذي عرف فيما بعد بالبنيوية، فإن تشومسكي قد اعتمد، هو الآخر، نفس التقنية؛ حيث توجه بالدحض والتفنيد إلى اللسانيات الوصفية قبل أن يبشر ببرنامجه الجديد. إلا أن الفارق بين التفنيد الذي قام به صوسور وذلك الذي قام به تشومسكي أن الأول توجه نحو الطعن في النتائج التي توصلت إليها اللسانيات التي سبقته بينما توجه الثاني نحو الطعن في الأسس التي قامت عليها الوصفية، وذلك بإبراز تهافتها. مما يعني أنه، بين صوسور وتشومسكي، قد حصل تطور كبير في الممارسة اللسانية وذلك في مواكبة منها لما يجري في العلوم الأخرى.



ومن الفرضيات التي حاولنا اختبارها الزعم بوحدة الفكر اللساني وبوجود ثوابت وقواسم مشتركة بين صوره المختلفة، ومنها البنيوية والتوليدية. وبينا، في المدخل خاصة، بعض مظاهر هذه الوحدة، إلا أنه، وبمجرد ما تقدمنا في البحث، أخذنا نكتشف أن هذه الوحدة كثيرا ما اتخذت صورة الاختلاف. مما دفعنا إلى تبني زعم آخر، هو أن هذا الاختلاف، الذي وقفنا عند بعض مظاهره، ما هو إلا اختلاف في الجزئيات والتفاصيل أما المواقف الكبرى فتظل متقاربة خاصة حينما يتعلق الأمر بالتوليدية والبنيوية الأوربية أو بعضها على الأقل.

ومن المفارقات التي استنتجناها أن أشد نقد تعرضت له البنيوية، في صورتها الأمريكية على الأقل، هو ذلك الذي وجهه إليها تشومسكي، حتى إنه ليمكن القول إن نهاية البنيوية كانت على يد تشومسكي لا على يد غيره. وقد تطلب منه ذلك الاستعانة بترسانة من الأدوات والمفاهيم التي جمعها من قراءته الواسعة لكبار العقلانيين والتجريبانيين على السواء، مما مكنه من التفطن إلى الفجوات التي لم تستطع البنيوية ملأها. إلا أنه ما أن انتهى من تقويض الصرح البنيوي وبناء نسقه هو حتى دخل في سلسلة من الأزمات، منها ما هو داخلي، كالأزمة التي تسبب فيها علماء الدلالة، ومنها ما هو خارجي، كالأزمة التي خلفها علماء المعرفة التكوينيون والتطوريون، الأمر الذي استنتجنا معه أن تاريخ التوليدية، منذ بدايتها، هو تاريخ أزمات.

وفي علاقة مع الأسس المنهجية التي اعتمدت في تقويم النظرية اللسانية، سواء أكان ذلك بهدف التعزيز أم بهدف التفنيد، ميزنا بين نوعين من المناهج؛ مناهج ادعينا أنها ذات أساس كنطي، لأنها تقترح تقويم المعرفة العلمية من جهة بنيتها الصورية. وفي هذا النوع يندرج القسم الأعظم من أعمال تشومسكي النقدية. ومناهج نسبناها إلى الإبستمولوجيا الاختبارية، حيث يتم تقويم النظرية من جهة محتواها الأمبريقي أو الإحالي. وإلى هذا النوع تنتمي كل المحاولات التي توجهت بالتفنيد إلى أعمال تشومسكي خاصة والنحو التوليدي بصفة عامة. حيث تم تقويم



النظرية التوليدية من جهة الواقع الذي تحيل عليه، أهو واقع موجود أم هو واقع مفترض. أهو واقع ممكن أم هو واقع مفارق ومستحيل.

من جهة أخرى، وخلال مراحل البحث، توصلنا إلى قناعة مفادها أن الأسلوب الذي سيساعدنا على إثارة أكبر عدد من القضايا المرتبطة بموضوعنا ليس هو الاستطراد الذي سيغرقنا في متاهات الإطناب، وإنما هو الأسلوب الذي يتوخى البحث عن الأسئلة الاستراتيجية وطرح الإشكالات الدالة، حتى إننا لم نتكلم في قضية من القضايا إلا لنجعل من ذلك مجرد توطئة أو تحايلا لطرح سؤال إو إثارة إشكال. ولم نهتم كثيرا بالبحث عن الأجوبة التي نعتقد أنها مسألة غير إستراتيجية، خاصة حينما يتعلق الأمر بموضوع كموضوعنا. كما لم يكن يهمنا أن يكون صوسور بنيويا وتشومسكي توليديا، مثلا، لكن الذي كان يهمنا هو أن نسأل: لماذا كانت البنيوية وكانت التوليدية؟ ما السياق المعرفي الذي أنتج كل واحدة منهما؟ وما الأسئلة التي تجيب عليها كل واحدة؟ ولماذا كانت أجوبتهما كالتي عرفنا؟ وهكذا. ولذلك، فإن مما سيلاحظ علينا هو الميل في بعض الأحيان إلى الاقتضاب والاكتفاء بالإشارات دون الاهتمام بالتفاصيل والتوسع في الجزئيات. وهو ما نضيف إليه الاعتراف بأننا لا ندعي أننا قد توفقنا في كل مسعانا، والاقتناع بأن الموضوع سيظل مفتوحا وفي حاجة إلى مزيد من العناية والتدبر. فالبنيوية والتوليدية ستظلان حلقتين من الحلقات المهمة في تاريخ الفكر اللساني لما أسهمتا به من إغناء النقاش حول موضوع اللغة الذي سيبقى موضوعا يلاحقنا ويلاحق من سيأتون بعدنا مادام موضوعا يستحيل أن يتوصل فيه إلى الكلمة الفصل.



مصادر ومراجع

1) بالعربية:	
أخبار الأدب (1997)	" حوار مع تشومسكي". العـدد الأول.25 أيـار/ 1 حزيران. 1997. القاهرة.
البعزاتي، بناصر (1997)	"التفسير والواقعية". ضمن: التفسير والتأويل في العلم. تنسيق سالم يفوت. ص.ص.89-120. منشورات كلية الآداب. الرباط.
بنكر، ستيفن (1994)	الغريزة اللغوية؛ كيف يبدع العقل اللغة. ترجمة حمزة بن قبلان المزيني (2000). دار المريخ. السعودية.
بنكيران، أحمد الطيب (1997)	"الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية". مجلة "عالم الفكر". المجلد 25. العدد 3. يناير/مارس 1997. ص.ص. 45-56. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
بوبر، كارل (1997)	أسطورة الإطار. تحرير M.A. Notturno. ترجمة يمنى طريف الخولي. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 292. أبريل/مايو 2003. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
بياجي، جان (1977)	"بياجي يتكلم". ترجمة محمد بولعيش. مجلة "بيت الحكمة". العدد 2. السنة الأولى. 1986. ص.ص. 39-81. الدار البيضاء.
تريفل، ج. (1997)	هل نحن بلانظير؟ ترجمة ليلى الموسوي. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 323. يناير 2006. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
تشومسكي، نعام (1988)	اللغة ومشكلات المعرفة. ترجمة حمزة بن قبلان المزيني (1990). دار توبقال. الدار البيضاء.
التوني، مصطفى زكي (1988)	المدخل السلوكي لدراسة اللغة في ضوء المدارس والاتجاهات الحديثة في علوم اللغة. حوليات كلية الآداب. الحولية العاشرة. الكويت.
جحفة،عبد المجيد (1999)	مدخل إلى الدلالة الحديثة. دار توبقال. الدار البيضاء.
جيمس، وليم (د.ت)	بعض مشكلات الفلسفة. ترجمة محمد فتحي الشنيطي ومراجعة زكي نجيب محمود (1962). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر.
حرب، علي (1995)	نقد الحقيقة. المركز الثقافي العربي. بيروت.



- (1998)	" السؤال اللغوي؛ تشومسكي ومأزق النحو التوليدي. من النحو الكلي إلى المنطق التحويلي." مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد 36. ص ص. 66-78. مركز الإنماء القومي. بيروت
حسن، حسن بن (1992)	النظرية التأويلية عند ريكور. دار تينمل للطباعة والنشر. مراكش.
الحناش، محمد (1986)	" البحث اللساني بين العمق والعقم؛ سفر التهافت نموذجا ". مجلة دراسات أدبية ولسانية. العدد 4. ص ص. 113-142. المغرب.
ديكنسون، دوجون، ب.(1984)	العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث. ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 112.أبريل 1987. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
راسل، برتراند (1903)	أصول الرياضيات. ترجمة محمد مرسي أحمد وأحمد فؤاد الأهواني 1958. دار المعارف. مصر.
- (1945)	حكمة الغرب. ج.1. ترجمة فؤاد زكريا. سلسلة "عالم المعرفة" العدد 62. فبراير 1983. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
رجب، محمود (1981)	المرآة والفلسفة. حوليات كلية الآداب. الحولية الثانية. الكويت.
روبنز، ر.هـ(1967)	موجز تاريخ اللغة في الغرب. ترجمة أحمد عوض. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 227. نوفمبر 1997. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
زكريا، فؤاد (1980)	الجذور الفلسفية للبنائية. ط.2. 1986. دار قرطبة. الدار البيضاء.
الزواوي، رضا (د.ت)	في الفكر الجدلي؛ دراسة تحليلية نقدية ونصوص. ط.2. منشورات عيون. الدار البيضاء.
ستروك، جون (1979)	البنيوية وما بعدها؛ من ليفي شتراوس إلى دريدا. ترجمة محمد عصفور. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 206. فبراير/شباط. 1996. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
ستراوس، كلود ليفي (1977)	الأسطورة والمعنى. ترجمة صبحي حديدي. 1985. دار قرطبة. الدار البيضاء.
سكاينر، ف. بوروس (1957)	تكنولوجيا السلوك الإنساني. ترجمة عبد القادر يوسف. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 32. غشت 1980. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.



شالمرز، ألان (1976)	نظريات العلم. ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا. 1991. دار توبقال. الدار البيضاء.
طه، محمد (2006)	" علم المعرفة: آفاق جديدة في دراسة العقل". مجلة "عالم الفكر". العدد 1. المجلد 35. صيف 2006. ص ص. 167- 200 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
عاصي، ميشال (1979)	دراسات لغوية في ضوء الماركسية. جمع وترجمة. دار ابن خلدون. بيروت.
العلاف، مشهد سعدي (1991)	مقدمة في فلسفة العلم: بناء المفاهيم بين العلم والمنطق. دار الجيل. بيروت.
العلوي، أحمد (1987)	" الواقع والقول ". مجلة "الموقف". العدد 3. سبتمبر 1987. ص ص. 144-152. الرباط.
- (1988)	الطبيعة والتمثال: مسائل عن الإسلام والمعرفة. الشركة المغربية للناشرين المتحدين. الرباط.
الفاسي الفهري،عبد القادر (1986)	"عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني". ضمن: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية. دار تبقال. الدار البيضاء.
فرحات عمر، محمد (1966)	طبيعة القانون العلمي. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة.
فيتجنشتاين، لدفيج (1921)	رسالة منطقية فلسفية. ترجمة عزمي إسلام. 1968. القاهرة.
قيزة، الطاهر بن (2006)	مقدمة لترجمة كتاب لايبنتز " مقالة في الميتافيزيقا " إلى العربية. المنظمة العربية للترجمة. بيروت.
كورباليس، مايكل (2002)	في نشأة اللغة. ترجمة محمود ماجد عمر. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 325. مارس 2006 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
كوهان، مرسيل (د.ت)	"الألسنية الحديثة والمذهب المثالي". ترجمة ميشال عاصي ضمن: دراسات لغوية في ضوء الماركسية. 1979. دار ابن خلدون. بيروت.
كيمني، جون (1959)	الفيلسوف والعلم. ترجمة أمين الشريف 1965. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت.
لحكيم بناني، عز العرب (2003)	الظاهراتية وفلسفة اللغة: مباحث الدلالة في الفلسفة التمساوية. أفريقيا الشرق. الدار البيضاء.
ماير، إرنست (1997)	هذا هو علم البيولوجيا. ترجمة عفيفي محمود عفيفي. سلسلة "عالم المعرفة". العدد 277. يناير 2002. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.



المتوكل، أحمد (1985)	الوظائف التداولية في اللغة العربية. الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. دار الثقافة. الدار البيضاء.
محجوب، محمد (1996)	هيدغر ومشكل الميتافيزيقا.دار الجنوب. تونس.
محمود، زكي نجيب (1990)	نافذة على فلسفة العصر. سلسلة "كتاب العربي". العدد 27. الكويت.
المزيني، حمزة بن قبلان (1996)	" رأي تشومسكي في نشأة اللغة الإنسانية ". جريدة "الحياة" اللندنية. العدد 12287 بتاريخ 1996/10/16
المسدي، عبد السلام (1986)	اللسانيات وأسسها المعرفية. الدار التونسية للنشر. تونس.
- (1994)	ما وراء اللغة، بحث في الخلفيات المعرفية. مؤسسات عبد الكريم بن عبد اللـه للنشر والتوزيع. تونس.
نفادي، السيد (1996)	" اتجاهات جديدة في فلسفة العلم". مجلة "عالم الفكر". العدد 2. المجلد 25. أكتوبر/ دسمبر 1996. ص ص.89-114. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- (2000)	"التقدم العلمي ومشكلاته". مجلة "عالم الفكر". العدد 2. المجلد 29. أكتوبر/دسمبر 2000. ص ص.13-49. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
ياكبسون، رومان (1984/1973)	قضايا الشعرية. ترجمة محمد الولي ومبارك حنون. 1988. دار تبقال. الدار البيضاء.
يفوت، سالم (1997)	"التفسير والتأويل في العلم"، تقديم وتنسيق. منشورات كلية الآداب. الرباط.
يونس علي، محمد محمد (2003)	"أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة". مجلة "عالم الفكر". العدد 1. المجلد 32. يوليوز/سبتمبر 2003. ص ص. 127-176. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.



2) بالأجنبية:	
Acot,P./Bartholy, M-C.(1975)	Philosophie, Epistémologie. Précis de Vocabulaire. Magnard. Paris.
Alaoui, A. (1999)	Epistémologie de la Linguistique ; Linguistique, Islam et Epistémologie. éds. Okad. Rabat.
Apresjan, Ju. D. (1966)	Eléments sur les Idées et les Méthodes de « la Linguistique Structurale Contemporaine ». tr. Fr. 1973. Col. « Monographie de Linguistique Mathématique. » N°5. éds. Dumod. Paris.
Arnauld.A et Lancelot.C.(1660)	Grammaire Générale et Raisonnée. Présenté par Michèle Foucault. 1969. Paulet. Paris.
Ayer, A.J.A. (1959)	Logical Positivism. New York.
Austin, J.L. (1962)	Quand dire c'est faire. tr. fr. 1970. Seuil. Paris.
Bach, E (1965)	Linguistique Structurale et Philosophie de la Science. Diogène. 51. Paris.
Bachelard, G. (1967)	La Formation de l'Esprit Scientifique. vrin. France.
Bartholy, M-C/ Acot, P(1975)	Philosophie, Epistémologie, Précis de vocabulaire. Magnard. Paris.
Benveniste, E. (1966)	Problèmes de Linguistique Générale. éds. Gallimard. Paris.
Blanché, R. (1957)	Introduction à la Logique Contemporaine. A.Colin. Paris.
Bloomfield, L. (1933)	Le Langage. tr. fr. 1970. Payot. Paris.
Botha, R. (1971)	Le Statut Méthodologique de la Preuve Linguistique Externe en Grammaire Générative. tr. fr. in « Langages » N°24. 1971. pp. 67-92.
(1975)	« Le modèle » in Universalis. CDROM. Version 1998.
Boudon, R. (1968)	A quoi sert la notion de structure ? Essai sur la signification de la notion de structure dans les sciences humaines. Gallimard. Paris.
Bourbaki, N. (1969)	Eléments d'Histoire des Mathématiques. Hermann. Paris.
Bouveresse, J. (1979)	La Linguistique Cartésienne, Grammaire et Décadence d'un Mythe. Critique. N°384. pp. 420-428. France.



Bronckart J. (1977)	Théorie du Langage ; une introduction critique. 3ème éd. 1986. P. MARDAGA. Bruxelle.
Calvet, L.J. (1975)	Pour ou Contre Saussure. Payot. Paris.
(2004)	Essai de Linguistique ; la langue est-elle une invention des linguistes ? Plon. Paris.
Carnap, R. (1959)	The Elimination of Metaphysic Throught Logical Analysis of Language. in Ayer (1959). pp. 60-81. Free Press. New York.
(1966)	Philosophical Fonctions of Physics. New York.
Chauveau, G. (1977)	Leonard Bloomfield. dans "La Linguistique" « Encyclopoche Larousse ». Paris.
Chomsky, N. (1955 a)	The Logical Structure of Linguistique Theory. édité en 1975.
(1955 b)	The Logical Syntax and Semantics; Their Ling. Relevance. tr. fr. 1966. Langages, N°2 pp. 42-57.
(1957)	Structures Syntaxiques. tr.fr. 1969. Seuil. Paris.
(1959)	Compte Rendue du Skinner. tr.fr. 1969. Langages. N°16.
(1964)	Current Issus in Linguistique Theory. la Hay, Mouton.
(1965)	Aspects de la Théorie Syntaxique. tr.fr. 1971. Seuil. Paris.
(1966)	Linguistique Cartésienne. tr.fr. 1969. Seuil. Paris
(1968)	Langage et Pensée. tr.fr. 1970. Payot. Paris.
(1971)	Problems of Knowledge and Freedom. New York, Pantheon.
(1972)	Questions de Sémantique. tr.fr. 1972. Seuil. Paris.
(1975 a)	Réflexion sur le Langage. tr.fr. 1977. Maspero. Paris.
(1977 a)	Essais sur la Forme et le Sens. tr.fr. 1980. Seuil. Paris.
(1977 b)	Dialogues avec Mitsou Ronat. Flammarion. Paris.



(1979)	Principes et Paramètres dans la Théorie Syntaxique. tr.fr. 1982. in « Grammaire Transformationnelle, Théorie et Méthodologie. Eds. Textes de recherche.
(1980)	Règles et Représentations. tr.fr. 1985. Flammarion. Paris.
(1982)	La Nouvelle Syntaxe. tr.fr. 1987. Seuil. Paris.
(1995)	The Minimalist Programm. Cambridge (mass). MIT. Press.
(2002)	Nouveaux Horisons dans l'Etude de Langage et de l'Esprit. tr.fr. 2005. éds. Stock.
Chomsky,N./Foucault,M.(2006)	Sur la Nature Humaine ; Comprendre le Pouvoir Interlude. éds. Aden. Coll. « La petite bibliothèque d'Aden ». Bruxelle.
Chomsky,N./Halle,M.(1968)	Principes de Phonologie Générative. tr.fr. 1973. Seuil. Paris.
Corneille, J.P. (1976)	La Linguistique Structurale ; sa Porté, ses Limites. Larousse. Paris.
Derrida, J. (1967 a)	De La Grammatologie. Minuit, Paris.
(1967 b)	L'Ecriture et la Différence. Minuit, Paris.
Descartes, R. (1637)	Discours de la Méthode. éds. Sociales. Paris. 1974.
(1641)	Méditations Métaphysiques. Vrin. Paris. 1967.
Dubois, J. (1969)	Grammaire Structurale. T.3. Larousse. Paris
Ducrot, O. (1968)	Le Structuralisme en Linguistique. Col. Points. Seuil. Paris.
Ducrot, O/ Todorov, T (1972)	Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage. éds. Seuil. éd. 1995.
Durand, D. (1979)	La Systématique. 5ème éd. 1992. PUF. Paris.
Feyerabend, P.K. (1974)	Contre la Méthode ; Esquisse d'une Théorie Anarchiste de la Connaissance. tr.fr. 1979. Seuil. Paris.
Fodor, J. (2000)	The Mind Doesn't Work that Way; the Scope and Limites of Computationnal Psychology, MIT Press. Bradford Books. USA.
Fodor, J/ Katz, J (1964)	The Structure of Language. New York.
Foucault, M. (1969)	Préface de "Gramamire Générale et Raisonnée" d'Arnauld et Lancelot. éds. Paulet. Paris.
(1972)	L'Archéologie du Savoir. Gallimard. Paris.



Foucault,M/Chomsky,N. (2006)	:Sur la Nature Humaine ; Comprendre le Pouvoir Interlude. éd. Aden. Bruxelle.
Gadet, F. Pêcheux, M. (1981)	La Langue Introuvable. Maspéro. Paris.
Gardin,B./Marcellissi,J.B.(1974)	Introduction à la Sociolinquistique ; Linguistique Sociale. Larousse. Paris.
Godel, R. (1957)	Les Sources Manuscrites du « Cours de Linguistique Générale » de F. de Saussure. Genève-Paris.
Greimas, A.J.(1966)	Sémantique Structurale ; Recherche de Méthode. Larousse. Paris.
Gross, M. (1975)	Méthodes en Syntaxe. éds. Hermann. Paris.
Gruber, J.S.(1965)	Studies in lexical relations. Indiana university linguistics club. USA.
Hagège, G (1976)	La Grammaire Générative; Réflexions Critiques. PUF. Paris.
Halle, M./Chomsky, M. (1968)	Principes de Phonologie Générative. tr.fr. 1973. éds. Seuil. Paris.
Harris, Z. (1951)	Methodes in Structural Linguistique. Chicago.
Heigel, G.W.(1807)	La Phénoménologie de l'Esprit. éds. Philo-Bilingue. 1978. Paris.
Hjelmsliev, L. (1943)	Prolégomène à une Théorie du Langage. tr.fr. 1968. Minuit. Paris.
Holton, G. (1974)	Thematic Origins of Scientific Thought. London. Harvard. Univ. Press.
Huisman, D. (1984)	Dictionnaire des Philosophes. PUF. Paris.
Huck, G/ Goldsmith, J. (1995)	Ideology and Linguistics Theory; Noam Chomsky and Structure Debat. London. Routledge.
Humboldt, W. Von. (1884)	Introduction à l'Oeuvre sur le Kavi et autres Essais. tr.fr. 1974. Seuil. Paris.
Husserl, E. (1900)	Recherches Logiques. tr.fr. 1961. PUF. Paris.
Jackendoff, R. (1990)	Semantic Structures. MIT. Press. USA.
Jakobson, R. (1960)	Linguistique et Poétique. tr.fr. 1973. éds. Seuil. Paris.
Jesperson, O. (1924)	The Philosophy of Grammar. London. George Allen and Unwin.
Kant, E. (1781)	Critique de la Raison Pure. tr.fr. 1963. PUF. Paris.
Katz, J.J. (1966)	La Philosophie du Langage. tr.fr. 1971. Payot. Paris.



(1972)	Linguistic Philosophy; The Understanding Reality of Language and its Philosophical Import. London.
Katz, J.J / Fodor, J. (1964)	The structure of language. New Yurk.
Katz, J.J./Postal (1964)	Théorie Globale des Descriptions Linguistiques. tr.fr. 1973. Mame. France.
Kintsch, W. and Others (1974)	The Representation of Meaning in Memory. New York.
Kritéva, J. (1974)	La Révolution du langage Poétique. Seuil. Paris.
(1981)	Le langage cet Inconnu. Seuil. Paris.
Kuentz, P. (1977)	Le Linguiste et le Discours. Langages. N°45. Mars 1977.
Kuhn, T. (1962)	La Structure des Révolutions Scientifiques. tr. fr. 1983. Flammarion. Paris.
Laffon, R. (1975)	:Révolution en Linguistique. Grammon. Paris.
Lakatos, I. (1970)	Falsification and the Methodology of Scientific Research Programs. in Lakatos and Musgrave (1970). pp. 91-196. London.
Lakoff, G. (1972)	Linguistique et Logique Naturelle. tr.fr. 1976. Klincksieck. Paris.
Lalande, A. (1968)	Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie. éd. PUF. Paris. éd. 1976.
Lancelot, C./Arnauld, A. (1660)	Grammaire Générale et Raisonnée. Présenté par Michèl Foucault. 1969. Paulet. Paris.
Langages (Revue)	Les Numéros : 13 (1969) ; 16 (1969) ; 17 (1970).
Lecourt, D. (1981)	L'Ordre et les Jeux ; le Positivisme Logique en Question. éd. Grasset. Paris.
Leibniz, G.W. (1706)	Nouveaux Essais sur l'Entendement Humain. tr.fr. 1966. Flammarion. Paris.
Lenneberg, E.H. (1967)	Biological Fondations of Language. New York. Wiley.
Lepschy, G.C. (1966)	La linguistique Structurale. tr.fr. 1972. Payot. Paris.
Liebermann, P. (1965)	On the Acoustic Basis of the Perception of Intonation by Linguists. Word. 21. 1. pp. 40-54.
Lyons, J. (1970)	Chomsky. tr.fr. 1982. Seghers. Paris.
Malherbe, J.F.(1979)	La Philosophie de Karl Popper et le Positivisme Logique. PUF. Paris.



Marcellissi,J.B./Gardin,B.(1974)	Introduction à la Sociolinguistique ; la Linguistique Sociale. Larousse. Paris.
Martinet, A. (1962)	Langue et Fonction.tr.fr. 1971. Gouthier. Paris.
Mauro, T. de (?)	Préparation de l'Edition Critique du « Cours de Linguistique Générale » de F. de Saussure. tr.fr. 1967. Payot. Paris.
Mehler, J. / Noiret, G. (1974)	Textes pour une Psycholinguistique. Mouton. Paris.
Milner, J.C. (1973)	Arguments Linguistiques. Mame. Paris
Moscato, M./Wittwer, J. (1978)	La Psychologie du Langage. col. Que sais-je ? N°1736. PUF. Paris.
Montague, R. (1974)	Formal Philosophy ; selected papers of Richard Montague. Yale Univ. Press. New York.
Nique, ch. (1978)	Grammaire Générative; Hypothèses et Argumentations. A. Colin. Paris.
Noiret, G. / Mehler, J. (1974)	:Textes pour une Psycholinguistique Mouton. Paris.
Pêcheux, M. / Gadet, F. (1981)	La langue Introuvable. Maspéro. Paris.
Piaget, J. (1967)	Biologie et Connaissance. Gallimard. Paris.
(1970 a)	Epistémologie des Sciences Humaines. Gallimard. Paris.
(1970b)	Le Structuramlisme. PUF. Paris.
Piaget, J. / Chomsky, N. (1978)	Théorie du Langage, Théorie de l'Apprentissage ; le Débat entre Jean Piaget et Noam Chomsky. Seuil. Paris.
Piatelli-Palmarini, M. (1978)	Présentation du « Théorie du Langage, Théorie de l'Apprentissage ; le Débat entre Jean Piaget et Noam Chomsky ». Seuil. Paris.
Platon (?)	Théétète. tr.fr. 1964. Garnier. Paris.
Pollock, J.Y. (1997)	Langage et Cognition ; Introduction au Programme Minimaliste de la Grammaire Générative. PUF.Paris.
Popper, K. (1944)	Misère de l'Historisme. tr.fr. 1955. Plon.Paris.
(1945)	La Société Ouverte et ses Ennemis. tr.fr. 1979. Plon. Paris.
(1959)	La Logique de la Découverte Scientifique. tr.fr. 1973. Payot. Paris.
Postal, M. /Katz, J. (1964)	Théorie Globale des Descriptions Linguistiques. tr.fr. 1973. Mame. Paris.



Quine, W.V.O. (1964)	Logique Elémentaire. tr.fr. 1972. A. Colin. Paris.
Robins, R.H. (1967)	Brève Histoire de la Linguistique. tr.fr. 1976. A. Colin. Paris.
Ronat, M. (1977)	Présentation de « Dialogue avec Mitsou Ronat » de Chomsky. Flammarion. Paris.
Ronat, M. et Autres (1986)	Grammaire Modulaire. Minuit. Paris.
Rouvret, A. (1987)	Présentation de la Traduction Française de « la Nouvelle Syntaxe » de Chomsky. Seuil. Paris.
Russell, B. (1948)	Human Knowledge: its Scope and Limits. New York.
Ruwet, N. (1968)	Introduction à la Grammaire Générative. Payot. Paris.
Sanders, C. (1979)	« Cours de Linguistique Générale » de Saussure. col. lire aujourd'hui. Hachette. Paris.
Saussure, F. de (1916)	Cours de Linguistique Générale. La nouvelle édition. 1972. Payot. Paris.
Schaff, A. (1964)	Langage et Connaissance. col. Point. Seuil. Paris.
Seuren, P.A.M. (2004)	Chomsky's Minimalism. Oxford Univ. Press. New York.
Skinner, B.F. (1957)	Verbal Behavior. Appleton-Century-Crofts. New York.
Spinoza, B.de (1670)	Traité Théologico-Politique. Flammarion. 1984. Paris.
Stabler, E. (1995)	Abstract Syntaxe. in Di Sciullo. éd. « Configurations : Essays on Structure and Interpretation ». Cascadilta. Press.
Straus, C.L. (1949)	Structures Elémentaires de la Parenté. Plon. Paris.
(1958) / (1973)	Antropologie Structurale. un et deux. Plon. Paris.
Tarski, A. (1923)	Le Concept de Vérité dans les Langues Formalisées. in Logique, Sémantique, Mathématiques. tr. fr. 1972. A. Colin. Paris.
Todorov, T/Ducrot, O. (1972)	Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage. éds. Seuil. éd. de 1995.
Toulmine, S. (1964)	L'Explication Scientifique. tr. fr. 1973. A. Colin. Paris.



Troubetzkoi, N. (1939)	Principes de Phonologie. tr. fr.1949. Klinchsieck. Paris. éd. de 1976.
Ullmo, J. (1958)	La Pensée Scientifique Moderne. Flammarion. Paris.
Universalis (?)	Encyclopidia Universalis. CDROM. Version 1998.
Wittgenstien, L. (1921)	Tractatus Logico-Philosophicus. tr.fr. 1961. Gallimard. Paris.
(1953)	Philosophical Investigation. Oxford.
Wittwer, J/ Moscato, M. (1978)	La Psychologie du Langage. col. Que sais-je ? N° 1736. PUF. Paris.